الويتشر
سيف المصير



THE WITCHER
SWORD OF DESTINY



أندجي سابكوفسكي

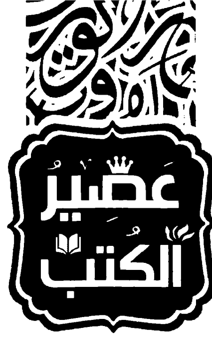
ترجمة: د. يوسف شحادة

الويتشر
سيف المصير





تُرجِمَت بدعم من برنامج الترجمة البولندي



إدارة التوزيع

 00201150636428

لمراسلة الدار:

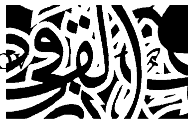
 email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان الأصلي:
Miecz przeznaczenia
- العنوان العربي: الويتشر، سيف المصير
- حُقوق النشر:
Copyright © by Andrzej Sapkowski,
Warszawa 1992
- الطبعة الأولى: يناير/ 2024م
- حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب

- ترجمة: د. يوسف شحادة
- تحرير: مصطفى رزق
- تدقيق لغوي: كارم أحمد
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- رقم الإيداع: 2023/26676م
- الترقيم الدولي: 978-977-992-347-5

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار



سيف المصير[1]

(1) بناء على رغبة دار النشر وضعنا هذا العنوان على هذا النحو، مع أن العنوان الأصلي هو «سيف القدر»، ونشير إلى أن كلمة «قدر» قد تعني بالبولندية أيضًا «مصير».

حدود الممكن

1

قال ذو البثور، مُومِئًا برأسه بقناعة: «قلت لكم لن يخرج. لقد مرَّت ساعة وربع الساعة منذ أن اندسَّ هناك. لقد انتهى أمره».

صمت أهل المدينة الذين تزاحموا بين الأطلال محدِّقين إلى الثقب الأسود المتعمِّق في الأنقاض، في المدخل المؤدي إلى القبو، والمطمور بالركام.

نقل الرجل البدين، المرتدي معطفًا أصفر، خطواته من قدمٍ إلى أخرى، وتنحنح، وخلع عن رأسه الطاقية المجعَّدة، ثم قال وهو يمسح العرق عن حاجبيه، المتناثرةِ شعيراتُهما: «فلننتظر هنيهة أطول».

شخر ذو البثور: «ننتظر ماذا؟ هناك، تحت الأرض، يجلس الباسيليق، هل نسيت يا عمدة؟ كل مَن دخل إلى هناك، فُقِدَ أثرُه. أقليلٌ عدد الناس الذين قضوا هناك؟ فماذا ننتظر إذن؟».

تمتم البدين: «لقد عقدنا اتفاقًا. فكيف ذلك؟».

قال رفيقُ ذي البثور، وهو رجل ضخم، يرتدي مئزرًا جلديًّا خاصًّا بالجزارين: «اتفقتم مع شخص حي يا عمدة، وهو الآن ميت، وهذا أكيدٌ وواضحٌ وضوح الشمس في السماء. كان معروفًا سلفًا، أنه ذاهب إلى حتفه، مثل غيره

ممن مضوا قبله. لقد ذهب حتى من غير مرآة، وليس معه غير سيفه. ولا يمكن قتل الباسيليق من دون مرآة، الجميع يعلم ذلك».

أضاف ذو البثور: «لقد وفَّرتم قروشكم يا عمدة. فما من أحد يمكن أن تدفعوا له المال مقابل الباسيليق. فاذهبوا إذن إلى منزلكم بسلام. ونحن سنأخذ الفرسَ ومتعلقاتِ الساحر، فمن الخسارة أن نترك الأملاكَ تضيع».

قال الجزار: «أجل. هي فرس متينة، وخُرْجُ السرج محشو حتى آخره. فلننظر ما في داخله».

- كيف ذلك؟ ما دهاكم؟

قال ذو البثور محذِّرًا: «اصمتوا، أيها العمدة، ولا تتدخلوا، وإلا سيُفَجُّ رأسكم».

كرَّر الجزار: «فرس متينة».

- اترك هذه الفرس لحالها، أيها الحبيب.

استدار الجزار ببطء تجاه الوافد الغريب الذي خرج من وراء انعطافة السور، من خلف ظهور الناس المتجمعين حول مدخل القبو.

كان شعر الغريب كستنائيًّا ملتفًّا كثيفًا، وقد ارتدى غلالةً بُنيَّة فوق قفطان مبطَّن، وانتعل حذاءً طويلًا لركوب الخيل، وكان دون أي سلاح.

كرَّر مبتسمًا بخبث: «ابتعد عن الفرس. كيف هذا؟ فرس ليست لك، وخُرْجٌ ليس لك، وممتلكات ليست لك، وأنت ترفع عينيك المحمرتين تجاهها، وتمد كفك القذرة نحوها؟ هل يصلح هذا؟».

نظر ذو البثور إلى الجزار، وهو يزيح يده ببطء إلى ما خلف بطانة سترته. أومأ الجزار برأسه وأشار إلى مجموعة خَرَجَ منها اثنان ممتلئا الجسم، حليقا الرأس. كلاهما يحمل هراوة، كتلك التي تُكتَم بها الحيوانات في المجزرة.

سأل ذو البثور دون أن يُخْرِجَ يده من وراء بطانة سترته: «من أنت أساسًا، لتُتحِفَنا بما يصلح، وبما لا يصلح؟».

- هذا ليس من شأنك يا حبيب.

- أنتم لا تحملون سلاحًا.

ابتسم الغريب ابتسامة أخبث مما كانت من قبل: «صحيح. لا أحمل سلاحًا».

أخرج ذو البثور يده، ومعها سكين طويلة، من خلف بطانة سترته: «هذا أمر سيئ. إنه أمر شديد السوء أنكم لا تحملون سلاحًا».

وأخرج الجزار أيضًا سكينًا، طويلة كمُدية الصيادين.

تقدم الاثنان الآخران إلى الأمام، رافعين الهراوتين.

قال الغريب، دون أن يتحرك من مكانه: «لست مضطرًّا إلى حمله. سلاحي هاتان اللتان تسيران خلفي».

خرجت من وراء الخرائب بنتان شابتان تخطوان خطى ناعمة وواثقة. تفرَّق الحشد على الفور، وتراجع، وانكمش.

كانت الفتاتان تبتسمان، وأسنانهما تلمع، وهما تضيِّقان أعينهما، ومن زوايا عينيهما تمتد خطوط وشم مزرقَّة عريضة إلى آذانهما. كانت عضلاتهما تناسب الأفخاذ القوية التي ظهرت من تحت قطع جلد الوشق المحيطة بالأوراك، وعلى الأذرع العارية المبرومة، فوق قفازات مصنوعة من زَرَد الدرع. وبرز مقبضا مُنصُليْن من أعلى الأكتاف التي يسترها الزَّرَد أيضًا.

ثنى ذو البثور ركبتيه ببطء وتباطؤ، وترك السكين تسقط على الأرض.

انبعثت قعقعة حجارة من حفرة بين الأنقاض، وقرقعة، ثم بزغت كفَّان من وسط الظلام، متشبثتين بحافة الجدار المتشقق. ظهر خلف اليدين، تباعًا: رأس بشعر أبيض ملوَّث بنثار الطوب، ثم وجه شاحب، ومقبض سيف بارز فوق الكتف، وراح الحشد يهمهم.

أخرج ذو الشعر الأبيض، وقد انحنى، شكلًا غريبًا من الحفرة، جسمًا عجيبًا متسخًا بالغبار الملطخ بالدماء. كان ممسكًا بمخلوق من ذيله الطويل كذيل سحلية، فألقى به تحت قدمي العمدة السمين، دون أن يتكلم. ارتدَّ العمدة قافزًا، وتعثر بجزء ساقط من السور، وهو ينظر إلى منقار الطائر المعوَجِّ وأجنحته الغشائية ومخالبه المنجلية البارزة من يديه اللتين تغطيهما قشور، وإلى حلقه المنتفخ الذي كان قرمزيًّا من قبل وصار أحمر متسخًا الآن، وإلى عينيه اللامعتين الغائصتين.

قال ذو الشعر الأبيض، نافضًا الغبار عن سرواله: «ها هو الباسيليق. وفقًا للاتفاق. مائتي لينتار لي، لو تكرمتم. لينتارات غير مغشوشة، لم تفقد من وزنها كثيرًا. سوف أعدُّها، أنبهك مقدمًا».

أخرج العمدة الصرة بيديه المرتجفتين. تلفَّت ذو الشعر الأبيض حوله، وثبَّت نظره لحظة على ذي البثور، وعلى السكين الملقاة قرب قدميه. نظر إلى الرجل المرتدي سترة بنية، وإلى الفتاتين المرتديتين ألبسة من جلد الوشق، وقال وهو يتناول كيس المال من يدي العمدة المرتعشتين: «كالعادة. أنا أخاطر من أجلكم برقبتي مقابل أجر زهيد، وأنتم في الوقت ذاته تَهُمُّون بنبش أشيائي. لن تتغيروا أبدًا، فليأخذكم الوباء».

في تلك اللحظة، كان ذلكما اللذان معهما الهراوتان، قد انغمسا في الحشد منذ وقت طويل، وتمتم الجزار وهو يتراجع: «لم تُمسَّ، أشياؤكم لم تُمسَّ يا سيد».

ابتسم ذو الشعر الأبيض.

وإذ رأى الجمع هذه الابتسامة المزهِرة على وجهه الشاحب كجرح قد نُكِئَ، بدأوا يتفرقون بسرعة، فقال: «أشعر بفرح عظيم. ولذلك، يا أخي، لن تُمسَّ أنتَ أيضًا. اذهب بسلام. لكنِ اذهب سريعًا».

أراد ذو البثور أيضًا التراجع إلى الوراء، وظهرتِ البثور على وجهه الشاحب فجأةً على نحو قبيح.

قال له الرجل ذو السترة البنية: «مهلًا، انتظر. لقد نسيتَ شيئًا ما».

- ما هو... يا سيد؟

- لقد شهرتَ السكين في وجهي.

تمايلتْ أطول الفتاتين قامةً، وفجأةً استدارت بوركيها على ساقيها المتباعدتين إحداهما عن الأخرى. صفَّرَ السيف المُستلُّ، في لحظة لم يعلم أحد متى بدأت، صفيرًا حادًّا في الهواء. طار رأس ذي البثور إلى الأعلى، منعطفًا، وسقط في القبو العميق. تهاوى الجسد صلبًا وثقيلًا بين الطوب المحطم، كجذع شجرة قد قُطِعَ. صرخ الحشد بصوت واحد.

استدارت الفتاة الأخرى برشاقة، ويدها على المقبض، لحماية ظهرها. لم يكن هناك داعٍ إلى ذلك. فقد اندفع الحشد متعثرًا، ومتساقطًا على الأنقاض، نحو المدينة بكل ما أوتيت السيقان من قوة. وفي مقدمته، كان العمدة يحثُّ

الخطى في قفزات تثير الانبهار، سابقًا الجزار الضخم ببضع قامات[1]، لا أكثر.

علَّق ذو الشعر الأبيض ببرود، حاجبًا عينيه عن الشمس بيده المستورة بقفاز أسود: «ضربة رائعة. ضربة رائعة من السيف الزِّرِّكاني[2]. إنني أحني جبيني أمام مهارة المحاربات الحرائر وجمالهنَّ. أنا جيرالت من ريفيا».

أشار الغريب المرتدي سترة بنية إلى الشعار الباهت على صدر لباسه، المرسوم عليه ثلاثة طيور سود جاثمة في صف متساوٍ في وسط حقل بلون ذهبي موحد: «وأنا، أنا بورش، الملقَّب بأبو الزيغان الثلاثة، وهاتان هما فتاتاي، تيًّا وفيًّا. هكذا أُسمِيهما، لأن النطق باسميهما الحقيقيين يمكن أن يؤدي إلى أن يعض المرء لسانه. كلتاهما، كما أصبتَ مخمنًا، زِرِّكانيتان».

- بفضلهما، كما يبدو لي، لا يزال لديَّ فرس وممتلكات. والشكر لكم أيضًا سيد بورش. شكرًا لكما، أيتها المحاربتان.

- أنا أبو الزيغان الثلاثة. ودعك من مخاطبتي بكلمة سيد. هل في هذه البلدة شيء يحتم عليك البقاء، يا جيرالت من ريفيا؟

- لا، على العكس تمامًا.

- ممتاز. لديَّ اقتراح: ليس بعيدًا عن هنا، على مفترق الطرق، عند الطريق المؤدية إلى الميناء النهري، ثمة نُزُل. يُطلَق عليه «تحت التنين المتأمل». مطبخه لا يُعْلَى عليه في المنطقة بأكملها. إنني ذاهب إلى هناك من أجل وجبة طعام وللمبيت. سأكون مسرورًا إن رغبتَ في مرافقتي.

أدار ذو الشعر الأبيض وجهه عن الحصان، ونظر إلى عينيِ الغريب: «بورش، لا أريد أن يتسلل بيننا شيء يشوبه الغموض. أنا ويتشر».

- لقد خمنتُ ذلك. وأنت تكلمتَ بنبرتك هذه، كما لو أنكَ قلتَ: «أنا مصاب بالجذام».

قال جيرالت ببطء: «ثمة من يفضِّل صحبة المصابين بالجذام على رفقة الويتشر».

---

(1) القامة: وحدة طول لقياس أعماق المياه أو غيرها، وتعادل ستة أقدام.

(2) زِرِّكاني: نسبة إلى زِرِّكانيا، وهي بلاد من عالم الويتشر.

ضحك أبو الزيغان الثلاثة: «وثمة من يفضل النعاج على البنات. حسنًا، لا يسعنا إلا التأسف على الطرفين كليهما. أكرِّر اقتراحي».

نزع جيرالت قفازه، وصافح اليد الممدودة نحوه.

- أقبله، وقد سررتُ بتمام تعارفنا.

- سِرْ بنا إذن، فأنا قد جُعْتُ.

2

كان صاحب النُّزُل يمسح ألواح المائدة الخشنة بقطعة قماش، انحنى وابتسم. لم تكن لديه سنَّان أماميتان.

نظر أبو الزيغان الثلاثة لحظة إلى السقف الملطَّخ بالسخام، وإلى العناكب التي كانت تسرح وتمرح تحته: «نعععم... أولًا... أولًا الجعة. كي لا تأتي وتذهب مرتين، هاتِ الدَّن كله. مع الجعة... ماذا يمكنك أن تقترح أن نأخذ إلى جانب الجعة، أيها الحبيب؟».

غامر صاحب النُّزُل بالقول: «الجبن؟».

تجهَّم بورش: «الجبن سيكون للتحلية. نريد مع الجعة شيئًا حامضًا وحارًّا».

ابتسم صاحب النزل ابتسامة أوسع مما كانت عليه. لم تكن السنَّان الأماميتان هما الوحيدتان المفقودتان: «نحن في خدمتكم. تريدون أنقليسًا مع الثوم بزيت الزيتون والخل، أو قرونًا مخللة من الفلفل الأخضر...».

- لا بأس. هذا وذاك. وبعده الحساء، مثل ذلك الذي كنت أحتسيه هنا من قبل، كانت محارات مختلفة وسُميْكات تسبح فيه، وغيرها مما يُلقى فيه من لذائذ.

- حساء السمك؟

- بالضبط. وبعده لحم الضأن المشوي مع البصل. ثم حفنة من جراد البحر. وضَعوا الشبتَ في القِدْرِ، قَدْرَ ما يتسع له. ثم جبن النعاج والخس. ومن ثَمَّ سنرى.

- نحن في خدمتكم. هل الطعام لكل واحد، أي أربعة طلبات؟

هزت الزِّرِّكانية الأطول رأسها نافية، خبطت نفسها بقوة في ناحية الخصر المحشور بقميص كتاني ضيق.

غمز أبو الزيغان الثلاثة جيرالت: «لقد نسيتُ».

- الفتاتان تعتنيان برشاقتهما. أيها السيد المضيف، لحم الخروف فقط لنا نحن الاثنين. هات الجعة حالًا، مع سمكات الأنقليس. أما الباقي، فانتظر قليلًا كي لا يبرد. لم نأتِ إلى هنا لالتهام الأكل، لكنْ لنقضي الوقت في التحدث، كما هو مألوف.

انحنى صاحب النُّزُل مرة أخرى: «مفهوم».

- إن الحصافة شيء مهم في مهنتك. فهاتِ يدك، أيها الحبيب.

رنَّت النقود الذهبية، وفَغَر صاحب النزل فاهُ إلى أقصى حد ممكن.

أعلن أبو الزيغان الثلاثة: «هذه ليست دفعة تحت الحساب. هذه خارج الحساب. الآن انطلق إلى المطبخ، أيها الإنسان الطيب».

كان الجو دافئًا في الغرفة الملحقة. فكَّ جيرالت حزامه، وخلع قفطانه وطوى كُمَّي قميصه، وقال: «أرى أن العوَزَ لا يلاحقك. هل تعيش من امتيازات منزلة الفرسان؟».

ابتسم أبو الزيغان الثلاثة، دون أن يخوض في التفاصيل: «جزئيًّا».

أجهزا بسرعة على سُميْكات الأنقليس، وعلى ربع دنٍّ من الجعة. وكذلك لم تحرم الزِّرِّكانيتان أنفسهما من الجعة، وسرعان ما أشرقت أساريرهما بوضوح. كانتا تتهامسان بشيء ما. فيًّا، وهي الأطول، انفجرتْ فجأةً ضاحكة من كل حُنجرتها.

سأل جيرالت بصوت خافت، محوِّلًا نظره إليهما بطرف عينه: «هل البنتان تتكلمان باللغة المشتركة؟».

- قليلًا. وهما قليلتا الكلام. وهذا مدعاة إلى الفخر. كيف رأيت هذا الحساء، يا جيرالت؟

- هممم.
- لنشرب.
- هممم.

وضع أبو الزيغان الثلاثة ملعقته، وفأق بلباقة: «جيرالت، لنعُدْ لحظةً إلى حديثنا حين كنا في الطريق. لقد فهمتُ أنك، أنت الويتشر، ترتحل من نهاية العالم إلى نهايته الأخرى، وعندما تجد في طريقك وحشًا، تقتله. وتحصل على بعض القروش من ذلك. أعلى هذا تقوم مهنة الويتشر؟».

- إلى حد ما.
- وهل يحدث أن تُستدعَى خصوصًا إلى مكان ما؟ فلنقل، لتنفيذ طلب خاص. وماذا عندئذٍ، تذهب وتنفذ؟
- هذا يعتمد على من يكون المستدعي، وما غرضه.
- وما المقابل؟

هزَّ الويتشر كتفيه: «أيضًا يعتمد على ذلك. الأشياء كلها ترتفع أسعارها، ويجب أن نعيش، كما كانت تقول إحدى الساحرات من معارفي».

- يمكنني القول، إنها مقاربة انتقائية بما يكفي، وعملية جدًّا. وإن في المبادئ فكرة ما تكمن، يا جيرالت. نزاع قوى **النظام**[1] مع قوى **الفوضى**، كما كان يقول أحد السحرة من معارفي. كنت أتصوَّر أنك تؤدي مهمة جليلة، تدافع عن الناس أمام **الشر**، في كل زمان ومكان، دون تمييز، وتقف في جانب محدد بوضوح من جانبي المتراس.
- قوى **النظام**، قوى **الفوضى**. كلمات طنانة بطريقة مخيفة، يا بورش. أنت تريد بالضرورة وضعي في أحد جانبي المتراس، في النزاع الذي كما يُنظَر إليه على نحو شائع أنه أبدي، وقد بدأ قبلنا بكثير، وسيستمر بعد فنائنا مدة طويلة. في أي جانب يقف البيطار الذي ينعل الخيل؟ وصاحب حانتنا هذه الذي يندفع الآن هنا ومعه قِدر فيها لحم خروف؟ ما الذي يحدد، حسب رأيك، الحد الفاصل بين **الفوضى والنظام**؟

---

(1) يميز المؤلف هذه الكلمة بكتابة أول حرف فيها كبيرًا، ولعدم وجود حروف كبيرة وأخرى صغيرة في العربية اعتمدنا كتابة الكلمات، التي ميَّزها الكاتب بحرف كبير، بخط غليظ.

نظر أبو الزيغان الثلاثة إليه، مباشرةً إلى عينيه: «شيء بسيط جدًّا. ما تمثله **الفوضى** هو التهديد، إنها الطرف العدواني. أما **النظام**، فهو الطرف المهدَّد المحتاج إلى الحماية. المحتاج إلى حامٍ. إذن، فلنشربْ. ولنهمَّ بلحم الحَمَل».

- حقًّا.

أمسكت الزِّرِّكانيتان عن الطعام في استراحة للحفاظ على رشاقتهما، وراحتا في أثنائها تشربان بوتيرة متسارعة.

كانت فيًّا منحنية على كتف رفيقتها، حين همست مجددًا بشيء ما، لامسة بضفيرتها سطح المنضدة بخفة. ضحكت تيًّا، تلك الأقصر قامة، بصوت عالٍ، مُسبِلة بمرحٍ جفنيها الموشومين.

قال بورش وهو يقضم عظمة: «أجل. فلنواصلِ الحديث، لو سمحتَ. فهمتُ أنك لا تحبِّذ أن توضع إلى جانب أيٍّ من القوى. أنت تنفذ عملك».

- أنفِّذه.

- لكنْ لا يمكنك أن تهرب من نزاع الفوضى والنظام. مع أنك استعملت تلك المقارنة، فأنت لست بيطارًا. لقد رأيتُ كيف تعمل. تدخل إلى القبو بين الأنقاض وتُخرِج منه الباسيليق المقطَّع. بين تنعيل الخيل وقتل الباسيليق فرق، أيها الحبيب. قلتَ إنه إذا كان الأجر مُجزيًا، فستندفع إلى نهاية العالم وتقتل أي مخلوق يوجِّهونك إليه. لنقُلْ إن تنينًا شرسًا يدمر...

قاطعه جيرالت: «هذا مثال سيئ. أرأيتَ، بدأ على الفور كل شيء يختلط عليك. فأنا لا أقتل التنانين، التي دون شك، تمثل **الفوضى**».

لعق أبو الزيغان الثلاثة أصابعه: «كيف هذا؟ واعجباه! إن التنين أصلًا، ربما يكون أنذل الوحوش، وأقساها، وأعندها جميعًا. وهو أكثر الزواحف إثارة للاشمئزاز. يهاجم الناس وينفث النار، ويخطف هؤلاء، أيْ هؤلاء العذارى. أقليلة الحكايات التي سُمِعَتْ عن ذلك؟ لا يمكن أن يخلو جدولك، أنت الويتشر، من بضعة تنانين».

قال جيرالت بجفاف: «لا أصطاد التنانين. ربما وحوش ذيل الشوكة، نعم أصطادها. وكذلك السحالي الوحشية. والعلاجيم الطائرة. لكنْ ليس التنانين الحقة، والخُضر، والسُّود، والحُمر. فاعلم هذا، ببساطة».

تكلم أبو الزيغان الثلاثة: «لقد فاجأتني. حسنًا، صرتُ أعلم ذلك. وبعد، يكفي الحديث عن التنانين في الوقت الحالي، أرى شيئًا أحمر في الأفق، حتمًا هذا وجبة جراد البحر خاصتنا. فلنشرب!».

كسرَا القشور الحُمر بأسنانهما، وامتصَّا اللحم الأبيض. سال الماء المالح، اللاذع بشدة، حتى معصمي يديهما. صبَّ بورش الجعة، كاشطًا قاع الدنِّ الصغير بالمغرفة. ازداد ابتهاج الزِّرِّكانيتين أكثر، أجالت كلتاهما النظر في أنحاء النُّزُل، مبتسمتيْن ابتسامات تنذر بالشر، وكان الويتشر واثقًا من أنهما تبحثان عن فرصة لخوض مشاجرة. ولا بدَّ أن أبو الزيغان الثلاثة لاحظ ذلك أيضًا، فقد هددهما فجأةً بجراد البحر الذي كان يمسكه من ذيله. ضحكتِ الفتاتان بخفوت، وغمزت تيا بعينها، زامَّة شفتيها على هيئة قُبلة – وقد ترك هذا الفعل في حضرة وجهها الموشوم انطباعًا مروعًا.

همس أبو الزيغان الثلاثة إلى جيرالت: «إنهما متوحشتان كالقطط البرية. يجب الحذر منهما. فلا يمكنك أيها الحبيب أن تعلم كيف قد تمتلئ الأرضية من كل جوانبها، بلمح البصر، بالأحشاء المبقورة. لكنهما تستحقان كل ما يُنفَق عليهما من مال. ليتكَ تعلم ما تستطيعان فعله...».

أومأ جيرالت برأسه: «أعلم. من الصعب العثور على مُرافق أفضل منهما. الزِّرِّكانيات محاربات بالولادة، يُدرَّبن على القتال منذ الصغر».

لفظ بورش من فمه مخلبًا من جراد البحر على المائدة: «ليس هذا ما أقصد. قصدتُ كيف هما في الفراش».

ألقى جيرالت نظرة إلى الفتاتين بقلق. كانتا تبتسمان. بحركة تكاد لا تُلاحظ وبسرعة البرق، وصلت إلى الطبق. نهشت القشرة مقرقعةً، وهي تنظر إلى الويتشر بجفنين مُسدلين. لمعتْ شفتاها بالماء المالح. تجشَّأ أبو الزيغان الثلاثة بصوت عالٍ.

قال: «وبعد، يا جيرالت، أنت لا تصطاد التنانين الخُضر وغيرها من التنانين الملوَّنة. صرت أعلم ذلك. فلماذا، إن جاز لي السؤال، هذه الألوان الثلاثة فقط؟».

- الأربعة، على وجه الدقة.

- لقد تحدثتَ عن ثلاثة.

- تثير التنانين اهتمامك، يا بورش. هل من سبب خاص لذلك؟

- لا. مجرد فضول فحسب.

- آها. وفي ما يخص هذه الألوان، فهذه هي الطريقة المألوفة لتعريف التنانين الحقَّة. مع أن هذا التعريف ليس دقيقًا. التنانين الخُضر، تلك الأكثر شيوعًا، هي بالأحرى رمادية نوعًا ما، مثل السحالي العادية. أما الحُمر فلونها في الواقع ضارب إلى الحمرة، أو قرميدي محمر. وصارت التنانين العظيمة، ذات اللون البني الداكن تسمى سُودًا. أما البيض فهي أندر التنانين، لم أرها قطُّ. لا تبرح مكانها في الشمال القصيِّ. على ما يُظَن.

- مثير. وهل تعلم شيئًا عن أي تنانين أخرى لم أسمع بها بعد؟

ارتشف جيرالت الجعة: «أعلم. تلك نفسها التي سمعتُ بها أنا أيضًا. عن التنانين الذهبية. وهي لا وجود لها».

- على أي أساس تزعم ذلك؟ ألأنك لم ترَها قطُّ؟ ومما يبدو أنك أيضًا لم ترَ الأبيض منها.

- ليست هذه هي المسألة. ما وراء البحار، في أوفير وزانجفيبار، ثمة خيول بيض ذات خطوط سُود. أيضًا لم أرها قطُّ، لكنني أعلم أنها موجودة. أما التنين الذهبي فهو مخلوق خرافي. أسطوري. فلنقل، إنه كالفينيق. الفينيق والتنانين الذهبية لا وجود لها.

نظرت فيًّا إليه بفضول، مستندة إلى مرفقيها.

استخرج بورش الجعةَ من الدن الصغير: «من المؤكد أنك تعرف ما تقول، فأنت ويتشر. ومع ذلك، أظن أن كل حكاية خرافية، وكل أسطورة، لا بدَّ من أن يكون لها بعض الجذور. وفي هذه الجذور يكمن شيء ما».

أكد جيرالت: «يكمن. وفي الغالب الحلم، أو الرغبة، أو الشوق، والإيمان بأنه لا حدود للممكن. وأحيانًا تكمن فيها المصادفة».

- بالضبط، المصادفة. ربما كان التنين الذهبي في وقت ما موجودًا، طفرة واحدة لم تتكرر؟

أدار الويتشر رأسه: «إذا كانت الحال هكذا، فقد لقي مصير الوحوش الطافرة جميعها. كان مختلفًا عنها جدًّا، فلم يمكنه البقاء».

قال أبو الزيغان الثلاثة: «ها. أنت الآن تنكر قوانين الطبيعة، يا جيرالت. لقد اعتاد أحد معارفي من السحرة أن يقول إن في الطبيعة لكل كائن استمرارًا يخص نوعه، وسيتمكن من البقاء بطريقة أو بأخرى. نهاية إحداهما هي بداية للأخرى، لا حدود للممكن، وعلى الأقل، فالطبيعة لا تعرف مثل هذه الحدود».

- لقد كان ذاك الساحر، من معارفك، متفائلًا عظيمًا. لكنه لم يأخذ في الحسبان شيئًا واحدًا: الخطأ الذي ارتكبتْه الطبيعة. أو خطأ الذين عبثوا بها. ما كان للتنين الذهبي، وما شابهه من المخلوقات الطافرة الأخرى، إن وُجِدَتْ، أن تبقى حية. فقد وقف في طريقها حدٌّ طبيعي جدًّا من حدود الممكن.

- أي حد ذاك؟

ارتعشتْ عضلات فكَّي جيرالت بشدة: «الطوافر... الطوافر عواقر، يا بورش. فقط في الأساطير يمكن أن يبقى حيًّا، ذلك الشيء الذي لا يمكنه أن يبقى حيًّا في الطبيعة. وحدهما الأسطورة والخرافة، هما الشيئان الوحيدان اللذان لا يعرفان حدودَ الممكن».

التزم أبو الزيغان الثلاثة الصمت. ونظر جيرالت نحو الفتاتين، إلى وجهيهما اللذين صارا جاديْن فجأة. مالت فيًّا تجاهه على نحو غير متوقع، وطوَّقت عنقه بذراعها الصلبة كبيرة العضلات. أحس بشفتيها المبللتين بالجعة على خده.

قال أبو الزيغان الثلاثة ببطء: «إنهما تحبانك. سُحقًا لي إن كذبتُ، إنهما تحبانكَ».

ابتسم الويتشر بحزن: «وما الغريب في ذلك؟».

- لا شيء. لكنْ يجب أن ندقَّ الكؤوس لذلك. أيها المضيف! دنًّا آخر!

- لا تفقد عقلك. إبريقًا واحدًا على الأكثر.

زأر أبو الزيغان الثلاثة: «إبريقين! تيًّا، لا بدَّ أن أخرج لهنيهة قصيرة».

نهضتِ الزِّرِّكانية والتقطتِ السيف من على الأريكة، وأجالت البصر في القاعة بنظرة مشتاقة. ومع أن عدة أزواج من العيون في المرة السابقة، كما لاحظ الويتشر، التمعتِ التماعًا غير لطيف، عند رؤية الصرَّة المنتفخة، فلم يُهرَع أحد بطريقة أو بأخرى ليخرج خلف بورش، الذي كان يترنَّح قليلًا

وهو متجه نحو المخرج المفضي إلى الفناء. هزَّت تيًّا كتفيْها، سائرة وراء رب عملها.

سأل جيرالت تلك التي بقيت جالسة إلى المنضدة: «ما اسمك الحقيقي؟».

لمعت فيًّا بأسنانها البيض. كان قميصها محلولَ الرباط، بما يقارب حدود الممكن. لم يكن لدى الويتشر شك في أن هذا ما هو إلا تحرش آخر أمام النظَّارة.

- ألفيانيرل.

- جميل.

كان الويتشر على يقين من أن الزِّرِّكانية ستزم شفتيها وتغمزه بعينها. لم يكن مخطئًا.

- فيًّا؟

- اهمم؟

- لماذا أنتما ترافقان بورش في السفر؟ أنتما المحاربتان الحرَّتان؟ هل يمكنك أن تجيبي؟

- اهمم.

- اهمم، ماذا؟

بحثت الزِّرِّكانية عن الكلمات، وقد تقطَّب جبينها: «إنه... إنه.. الـ... أجمل».

هزَّ الويتشر رأسه. هذه ليست أول مرة كانت فيها المعايير التي على أساسها تقيِّم النساءُ جاذبية الرجال، لغزًا بالنسبة إليه.

اقتحم أبو الزيغان الثلاثة الغرفة الملحقة، وزرَّر سرواله، وأصدر التوصيات لصاحب النُّزُل بصوت عالٍ. أجالت تيًّا نظرها في الحانة، وهي تحافظ على بُعد خطوتين خلفه، متظاهرةً بالملل، في حين تحاشى التجار وعمال النقل النهري نظراتها بحرص. امتصَّت فيًّا جرادَ بحرٍ آخر، وهي تلقي على الويتشر، بين لحظة وأخرى، نظرات ذات مغزى.

جلس أبو الزيغان الثلاثة بمشقَّة، مقرقعًا بحزامه غير المشدود: «طلبتُ لكل واحد منَّا أنقليسًا آخر، مشويًّا هذه المرة. عذَّبتني جرادات البحر هذه،

كأنني جعتُ. لقد دبرتُ لك منامة هنا، يا جيرالت. ليس ثمة معنى أن تتسكع في الليل. سنستمر في المرح. صحتكما أيتها الفتاتان!».

قالت فيًّا محيية إياه بكوبها:

- Vessekheal.

غمزت تيًّا بعينها وشدَّت جسدها، في حين أن نهدها الجذاب، خلافًا لتوقعات جيرالت، لم يمزِّق مقدمة قميصها.

انحنى أبو الزيغان الثلاثة فوق المنضدة، وربَّت مؤخرة تيًّا: «فلنمرح. فلنمرح، أيها الويتشر. يا مضيف! تعالَ وحدكَ هنا!».

هُرِعَ صاحب النُّزُل بهمة، وهو يمسح يديه بمئزره.

- هل لديك طَسْت؟ طَسْت للغسيل، متين وكبير؟

- كبير جدًّا يا سيدي؟

- لأربعة أشخاص.

فتح صاحب الحانة فمه: «لـ... أربعة...».

أكد أبو الزيغان الثلاثة، مُخرجًا من جيبه صرة نقود محشوة حتى آخرها: «لأربعة».

لحس صاحب النُّزُل شفتيه: «سنجده».

ضحك بورش: «ممتاز. دعها تحمله إلى غرفتي، ولتملأه ماءً ساخنًا. بسرعة أيها الحبيب. وأوصِها أن تحمل الجعة إلى هناك أيضًا.. ثلاثة أباريق».

ضحكت الزِّرِّكانيتان بخفوت وغمزتا بعينيهما في وقت واحد.

سأل أبو الزيغان الثلاثة: «أي واحدة تفضل؟ هاه؟ جيرالت؟».

حكَّ الويتشر قذاله.

قال أبو الزيغان الثلاثة متفهمًا: «أعلم أن الاختيار صعب. أنا نفسي أقع في مثل هذه المشكلة. حسنًا، سنفكر في الأمر ونحن في الطَّسْت. هيا يا بنات! ساعدْنني على صعود الدرج!».

3

حاجزٌ ما كان على الجسر. سَدَّتِ الطريق عارضةٌ طويلةٌ متينةٌ، مثبَّتةٌ على حوامل خشبية. وقف أمامها وخلفها حاملو المطارِد مرتدين سترات جلدية مزرَّرة وقلنسوات مشبوكة. فوق العائق، رفرفت ببطء راية نبلاء أرجوانية تحمل علامة غريفين فضي. استغرب أبو الزيغان الثلاثة، وهو يقترب بحصانه الماشي: «أي شيطان هذا؟ لا ممرَّ هنا؟».

سأله أقرب حارس من حاملي المطارد، دون أن يخرج من فمه العود الذي كان يلوكه دون سبب معلوم، أهو بدافع الجوع أم لتمضية الوقت: «معكم إذن؟».

- أي إذن؟ ما هذا، أهو وباء؟ أم ربما حرب؟ بأمر من تُغلقون أنتم الطريق؟

نقل الحارس العود إلى زاوية فمه المقابلة، وأشار إلى الراية: «بأمر الملك نيدامير، سيِّدِ كاينجورن. الذهاب إلى الجبال ممنوع من دون إذن».

قال جيرالت بصوت متعب: «بلاهة».

- هذه أصلًا ليست كاينجورن، بل منطقة هولوبولي. هذه هولوبولي، وليست كاينجورن التي تجبي رسوم الجسور في ابرا. ما علاقة نيدامير بهذا؟

لفظ الحارس العود من فمه: «لا تسألوني أنا. هذا ليس من شأني. مهمتي التحقق من الأذون. إن شئتم، فتحدثوا إلى قائد العشرة».

- وأين هو؟

قال حامل المطرد، ناظرًا ليس إلى جيرالت، بل إلى أفخاذ الزِّرِّكانيتين العارية، اللتين كانتا تتمددان على السرجين بتكاسل: «هناك، خلف مقر جابي الرسوم، يتدفأ في الشمس».

خلف منزل جابي الرسوم، على كومة من جذوع الأشجار الجافة، جلس حارس يرسم بعقب المطرد امرأة على الرمال، أو بالأحرى جزءًا منها، معروضًا من منظور غير مألوف. بجانبه، استلقى رجل نحيف استلقاءً نصفيًّا، وهو

يدق على أوتار العود بنعومة، مرتديًا قبعة مزركشة بغرابة بلون البرقوق، مائلة نحو عينيه، مزيَّنة بربطة فضية، وبريشة بلشون متوترة طويلة.

كان جيرالت يعرف هذه القبعة وتلك الريشة اللتين امتدت شهرتهما من بوينا إلى ياروجا، وعُرفتا في القصور، والقلاع، والنُّزُل، والحانات، والمواخير. خاصة في المواخير.

- ياسكير!

من تحت القبعة التي انحسرت جانبًا، شخصتْ عينان مرحتان شديدتا الزُّرقة: «الويتشر جيرالت! يا للمفاجأة! وأنت هنا؟ على ما يبدو، ليس لديك إذن؟».

قفز الويتشر من على السرج: «ما لكم جميعًا ولهذا الإذن؟ ياسكير، ما الذي يحدث هنا؟ أردنا العبور إلى ضفة ابرا الأخرى، أنا وهذا الفارس، بورش أبو الزيغان الثلاثة، ومن يرافقنا. وكما يبدو، لا يمكننا ذلك».

نهض ياسكير، وخلع قبعته، وانحنى للزِّرِّكانيتين بكياسة مبالغ فيها: «أنا لا يمكنني ذلك أيضًا. لا يريدون السماح لي بالعبور إلى الضفة الأخرى أيضًا. أنا، ياسكير، أشهر منشدٍ شادٍ وشاعر في محيط ألف ميل، يمنعني هذا الذي هنا، قائد العشرة، مع أنه فنان أيضًا، كما ترون».

قال قائد العشرة بكآبة: «لن أسمح لأي شخص بالمرور من دون إذن».

ثم أكمل رسمته بتفصيل نهائي، ودسَّ طرف القضيب في الرمل.

قال الويتشر: «حسنًا، سننجح. سنذهب من خلال طريق الضفة اليسرى. من هناك الدرب أطول إلى هِنجفورس، لكنْ إن كان لا بدَّ، فيجب فعل ذلك».

استغرب الشاعر المغني: «إلى هنجفورس؟ جيرالت، ألستَ تمضي خلف نيدامير؟ ألستَ تتعقب التنين؟».

أظهر أبو الزيغان الثلاثة اهتمامه: «أي تنين؟».

- ألا تعلمون؟ أحقًا لا تعلمون؟ حسنًا، يجب أن أحدثكم بكل شيء، أيها السادة. أنا في كل الأحوال أنتظر هنا، فقد يمر شخص يعرفني، لديه إذن ويسمح لي بالانضمام إليه. اجلسوا.

قال أبو الزيغان الثلاثة: «لحظة، الشمس على وشك أن تبلغ سمتَ الذروة، وأنا ظمآن كالجحيم. لن نتحدث عن الحلْق الجاف. يا تيًّا، يا فيًّا، هيًّا ارجعا خبًّا إلى البلدة واشتريا دنًّا صغيرًا».

- تعجبونني، يا سيد...
- بورش، المكنَّى بأبو الزيغان الثلاثة.
- ياسكير، المُكنَّى «ذاك الذي لا يُجارى». هكذا تسمينني بعض العذارى.

فقد الويتشر صبره: «تحدث، يا ياسكير».

- لن نبقى هنا حتى المساء هامدين.

طوَّق الشاعر زند العود بأصابعه، وضرب على الأوتار بحدة.

- ماذا تفضلون، كلامًا شعريًّا أم طبيعيًّا؟
- طبيعيًّا.

لم يضع ياسكير عوده جانبًا، وبدأ: «تفضلوا. اسمعوا إذن، أيها السادة النبلاء، ما حدث قبل أسبوع، بالقرب من مدينة حرة، تُسمَّى هولوبولي. وهذا ما كان، في الفجر الشاحب، ما إن صبغت الشُّميسة المشرقة بلونها الوردي أكفان الضباب المعلَّقة فوق المروج...».

ذكَّره جيرالت: «كان من المزمع أن يكون الكلام طبيعيًّا».

- أليس هو كذلك؟ طيب، لا بأس، لا بأس. فهمتُ. باختصار، من دون استعارات. نزل في المراعي، على مقربة من هولوبولي، تنين.

قال الويتشر: «إيييه. لا يبدو ذلك لي أمرًا محتملًا هنا. لم يرَ أحد تنينًا في هذه المنطقة منذ سنين. ألم يكن ذلك مجرد سحلية طائرة عادية؟ يمكن مصادفة سحالٍ بما يقارب هذا الحجم الكبير....».

- لا تُحزنني يا ويتشر. أعرف ما أقول. لقد رأيتُه. اتفقَ أن كنت تحديدًا في هولوبولي، في السوق الموسمية، مصادفةً، ورأيتُ كل شيء بأم عيني. أغنية البالادا الآن جاهزة، لكنكم لم ترغبوا في...
- تكلم. أكان كبيرًا؟
- ما يقارب طول الحصان ثلاث مرات. عند حاركه ليس أطول من الحصان، لكنه أثخن بكثير. رمادي كالرمل.

- أي أخضر.

- نعم. أتى طائرًا بغتة، وحطَّ مباشرة بين قطيع شياه، فطرد الرعاة، وذبح عشرات من الحيوانات، والتهم منها أربعة، ثم مضى محلقًا.

هز جيرالت رأسه: «مضى محلِّقًا... وانتهى الأمر؟».

- كلا. لأنه في صباح اليوم التالي أتى مرة أخرى محلِّقًا، وكان في هذه المرة أقرب إلى البلدة. انقضَّ من الأعلى على تجمع من النساء يغسلن ملابسهنَّ الداخلية على ضفة ابرا. وفررن، يا رجل، أيَّ فرار! لم أضحك في حياتي مثلما ضحكتُ آنذاك. أما التنين فدار ما يقارب دورتين فوق هولوبولي، ومضى محلِّقًا نحو المراعي، وهناك راح مجددًا يعتني بالشياه. عندئذٍ فقط بدأت البلبلة والاضطراب، فقبل ذلك، لم يكن أحد يصدق الرعاة. أعلن رئيس البلدية النفير العام لشرطة البلدة والنقابات، ولكنها قبل أن تتشكل، أخذ عامة الناس الأمر على عاتقهم، وسوُّوه.

- كيف؟

- بطريقة شعبية مثيرة للاهتمام. ابتكر إسكاف محلي، يُدعى آكل الماعز، طريقةً للتعامل مع ذلك الزاحف. قتلوا شاة، وحشوها حشوًا كثيفًا بالخَربَق، وثمار البيلادونا، وبقدونس الكلاب، والكبريت، وقطران الإسكاف. وللتأكد، سكب الصيدلي المحلي كوارتيْن[1] شيئًا من مزيجه المخصَّص للدمامل، وأدى كاهن من معبد كريف الصلوات فوق الجيفة. ثم وضعوا الشاة المجهَّزة في وسط القطيع مسنودةً بوتد. لم يصدق أحد حقًّا أن هذا البراز، الذي يزكم الأنوف على بعد ميل منه، سيتمكن من إغراء التنين الضخم، لكنَّ الواقع تجاوز توقعاتنا. ابتلع الحيوان الزاحف الطُّعم ومعه الوتد، غير مهتم بالشياه الحية والثاغية.

- وماذا بعد؟ هيا تحدث، يا ياسكير.

- وماذا أفعل غير ذلك؟ إنني أتحدث. اسمعوا ما كان بعد ذلك. لم يمر وقت قصير، يعادل ما يتطلبه رجل مجرِّب لفَكِّ مشدٍّ نسائيٍّ، حتى بدأ التنين فجأة يزمجر وينفث الدخان، من الأمام والخلف. انقلب، وحاول الطيران، ثم تهاوى وهمد. انطلق متطوعان للتحقق أكان الزاحف السام

(1) الكوارت: وحدة لقياس الحجم تعادل ربع جالون.

لا يزال يتنفس. أحدهما كان حفَّار قبور محليًّا، والآخر نصف عاقل محلي، أنجبته ابنة حطَّاب معاقة ذهنيًّا، وجماعة من وحدة حاملي الرماح المرتزقة التي توغلت خلال هولوبولي من قبل في زمن التمرُّد المسلح لمحافظ المقاطعة نورزيبوب.

- يا لكذبكَ، تكذب يا ياسكير.
- أنا لا أكذب، أنا فقط أبهِّر الكلام، وهذا هو الفرق.
- فرق طفيف. تحدث، وإلا خسرنا الوقت.
- وبعد، وكما قلتُ، انطلق حفَّار القبور، والأبله قويُّ البنية بغرض الاستطلاع. وكان أن شيدنا لهما بعد ذلك جثوة صغيرة، لكنها تسرُّ النظر.

قال بورش: «آها. يعني أن التنين كان لا يزال حيًّا».

قال ياسكير بمرح: «وكيف لا؟ كان حيًّا. لكنه كان ضعيفًا إلى حد أنه لم يلتهم حفَّار القبور ولا المعتوه، غير أنه لعق دماءها فحسب. بعد ذلك، طار إثر إقلاع شاق، باعثًا القلق في أنفس الجميع. كان يسقط كل مئة وخمسين ذراعًا محدثًا ضجيجًا، بعد ذلك نهض من جديد. في بعض الأحيان كان يمشي مجرجرًا رجليه الخلفيتين. تبِعَهُ أولئك الذين كانوا أجرأ من غيرهم، وظلَّت أعينهم مسلَّطة عليه. أتدرون ماذا حدث؟».

- قل، يا ياسكير.
- توارى التنين في خوانق وسط الجبال البوستولية على مقربة من منابع ابرا، واختبأ هناك في الكهوف.

قال جيرالت: «كل شيء واضح الآن».

- من المرجح أن التنين كان في هذه الكهوف منذ قرن من الزمن، يغطُّ في سبات عميق. قد سمعتُ بمثل هذه الحالات. وهناك لا بدَّ أن تكون خزانته أيضًا. صرتُ الآن أعرف لماذا يسدُّون الجسر. شخص ما يريد أن يضع يده على هذه الخزانة. وهذا الشخص هو نيدامير من كاينجورن.

أكد التروبادور: «بالضبط. حتى إن هولوبولي أكملها، أصبحت أخيرًا تغلي بسبب ذلك، فالناس يرون أن التنين والخزانة ملك لهم. لكنهم يترددون في منازعة نيدامير. نيدامير جرو لم يعتدْ حلاقة ذقنه بعد، لكنه قد تمكن

من إثبات أن منازعته مخاطرة خاسرة. وهو حريص على هذا التنين حرصًا فظيعًا، لذلك كان رد فعله بمثل هذه السرعة».

- إنه حريص على الخزانة، أردتَ أن تقول.

- في الواقع، حرصه على التنين أكبر من حرصه على الخزانة. لأن نيدامير، كما ترون، يتلمَّظ على إمارة مالِّيور المجاورة. بعد وفاة الأمير المفاجئة والغريبة هناك، كانت الأميرة لا تزال في سن الخصوبة، إذا جاز التعبير. ينظر عِليَة القوم من ماليور بعدم الرضا إلى نيدامير وغيره من المتنافسين، لأنهم يعلمون أن الحاكم الجديد سيشد عليهم اللجام بحدة، وليس مثل الأميرة الصغيرة التي لا تزال غضَّةً. لذا عثروا على نبوءة قديمة ومهملة، تقول إن من يهزم التنين سينال بُرطُلَ[1] الفتاة ويدها. ولأن أحدًا لم يرَ تنينًا هنا منذ دهور، فقد اعتقدوا أنهم ينعمون بالهدوء. نيدامير، طبعًا، سخر من الأسطورة، وكان سيأخذ ماليور بقوة السلاح، فحسب، لكنْ عندما ضجَّ الخبر عن تنين هولوبولي، أدرك أن بإمكانه هزيمة نبلاء ماليو بسلاحهم هم. إذا ظهر هناك حاملًا رأس تنين، فسيحيِّيه الشعب كملك مرسَل من الآلهة، ولن يجرؤ عِليَة القوم حتى على أن ينبسوا بحرف واحد. أتستغربون إذن لماذا كان يطارد التنين كقط يقفز هنا وهناك؟ خاصة أنه يطارد ذاك الذي يجرجر قدميه بشق الأنفس؟ إن ذلك بالنسبة إليه بمنزلة فرصة سانحة غير متوقعة، وابتسامة قدر، فسُحقًا.

- وقد سد الطرق أمام المنافسين.

- نعم، ربما، وأمام الهولوبوليين. إلا أنه أرسل فرسانًا إلى كل أنحاء المنطقة والأذون معهم. لمن كان عليهم قتل ذلك التنين، لأن نيدامير لا يشتهي دخول الكهف بالسيف شخصيًّا. واستجلب في لمح البصر أشهر قتلة التنين. ولعلك تعرف معظمهم، يا جيرالت.

- ربما. من الذي وصل؟

- إيك دِنيسل، هذا أولًا.

---

(1) البرطل: قلنسوة مثل التاج، تُلبس على الرأس.

صفَّر الويتشر صفيرًا خفيضًا: «تبًّا... التقيُّ الفاضل إيك، الفارس الذي لا تشوبه شائبة، هو بلحمه ودمه».

سأل بورش: «هل تعرفه يا جيرالت؟ أحقًّا هو كلب يلاحق التنانين؟».

- ليس فقط التنانين. إيك يمكنه التغلب على أي وحش. حتى إنه قتل وحوش المانتيكور والفتخاء. وقد قضى أيضًا على بعض التنانين، سمعتُ بذلك. لا بأس به. لكنه يفسد عليَّ شغلي، ذلك الوغد، فهو لا يأخذ المال. مَن بقي أيضًا، يا ياسكير؟

- السيَّافة من كرينفريد.

- إذن، فالتنين صار في خبر كان. حتى لو كان قد تعافى. هؤلاء الثلاثة عصابة متوافِقة، يقاتلون بطريقة ليست نظيفة تمامًا، لكنْ بفعَّالية. لقد قتلوا كل السحالي الوحشية وشوكيات الذيل في ريدانيا، وبمعية ذلك، سقط ثلاثة تنانين حُمر، وتنين أسود واحد، وهذا شيء معتبر. أهذا جميعهم؟

- لا. لقد انضم إليهم أيضًا ستة أقزام. خمسة منهم ملتحون، يقودهم ياربِن زيجرين.

- لا أعرفه.

- لكنكَ سمعتَ بالتنين أوكفيست من جبل الكوارتز؟

- سمعتُ. ورأيتُ الأحجار الآتية من خزانته. كان هناك ياقوت ذو لون لا نظير له، وقطع ألماس كبيرة كثمار الكرز.

- فاعلم إذن، أن ياربن زيجرين وأقزامه قضوا على أوكفيست. وقد نظمتُ أغنية بالادا عن هذا الأمر، لكنها كانت بائسة، فهي ليست لي. إنْ لم تسمعها، فما خسرتَ شيئًا.

- وهذا كلهم؟

- نعم. ما عداكَ طبعًا. زعمتَ أنك لا تعرف شيئًا عن التنين، من يدري! ربما هذا صحيح. لكنكَ أصبحتَ الآن تعلم. وماذا بعد؟

- لا شيء. أنا لستُ مهتمًّا بهذا التنين.

- ها! يا للمكر، يا جيرالت. فعلى أي حال، ليس لديك إذْن.

- أكرر، أنا لست مهتمًّا بهذا التنين. وماذا عنكَ يا ياسكير؟ ما الذي يشدُّكَ هكذا إلى تلك الجهة؟

هزَّ التروبادور كتفيه: «الأمر طبيعي. يجب أن يكون المرء قريبًا من الأحداث والمغريات. ستدور أحاديث صاخبة عن مقاتلة هذا التنين. يمكنني، بالتأكيد، أن أنظم أغنية بالادا على أساس الحكايات، لكنْ سيكون وقعها مختلفًا إن غناها من شاهد الموقعة بأم عينه».

ضحك أبو الزيغان الثلاثة: «موقعة؟ بل لعلها شيء أقرب إلى ذبح خنازير أو تقطيع جيفة. إنني أستمع، ولا يمكنني التوقف عن الانبهار. محاربون أماجد يندفعون إلى هنا، مسرعين للإجهاز على تنين نصف نافق، سمَّمَه أحد الأجلاف. أريد أن أضحك وأتقيأ».

قال جيرالت: «أنت مخطئ. إذا لم يسقط التنين ميتًا على الفور من السم، فمن المحتمل أن يكون جسمه قد قاومه، وسيكون الوحش بكامل قوته. وهذا، في المحصلة، ليست له أهمية كبيرة. سيقتله سيَّافة كرينفريد على أي حال، لكنْ لن يكون ذلك، إن أردت أن تعرف، دون معركة».

- إذن أنت تراهن على السيَّافة، يا جيرالت؟

- طبعًا.

قال الحارس الفنان الذي ظل صامتًا حتى هذه اللحظة: «بالضبط. إن التنين الكبير مخلوق سحري، ما من وسيلة لقتله إلا بالتعاويذ السحرية. إذا كان ثمة شخص يستطيع دحره، فما هو إلا تلك الساحرة التي مرَّت من هنا يوم أمس».

أمال جيرالت رأسه: «من تكون؟».

كرر الحارس: «ساحرة. لقد قلتُ ذلك توًّا».

- هل قالت ما اسمها؟

- قالت، لكنني نسيت. كان لديها إذن مرور. كانت شابة، ذات جمال، بطريقتها الخاصة، لكنَّ تينك العينين... أنتم أنفسكم تعلمون يا سيدي. يصير المرء باردًا عندما تنظر إليه امرأة كتلك.

- أتعرف شيئًا عن ذلك، يا ياسكير؟ من يمكنها أن تكون؟

تجهَّم الشاعر المغني: «لا. شابة، وذات جمال، ولها هاتان العينان. وهذه أيضًا علامة لي. كلهنَّ هكذا. ولا واحدة ممن أعرف، وأنا أعرف الكثيرات، يبدو عمرها أكثر من خمسة وعشرين، ربما ثلاثين عامًا، وبعضهنَّ، كما سمعت، يتذكرن الزمان الذي كانت فيه غابة الصنوبر متربِّعة وسط عويل الرياح، هناك حيث تقوم نوفيجراد اليوم. وأخيرًا، لأي شيء إكسير اليبروج[1] يكون؟ فهنَّ يقطرن أعينهن باليبروج أيضًا، لجعلها تلمع. هذا دأب النسوان».

سأل الويتشر: «أكانت حمراء الشعر؟».

قال قائد العشرة: «لا، يا سيد. هي سوداء الشعر».

- وشعر الحصان، ما كان لونه؟ كستنائي مع نجمة بيضاء؟

- لا. الحصان أدهم مثل لونها. أجل، أيها السادة، أقول لكم، إنها ستُهلِك التنين. التنين شغل للساحر. فقوة البشر تقف عاجزة أمامه.

أخذ ياسكير يضحك: «تُرى، ما الذي سيقوله الإسكاف آكل الماعز في ذلك. لو كان في متناول يديه شيء أقوى من الخربق، وثمار البيلادونا، لكان جلد التنين قد جَفَّ اليوم على أوتاد حادة في هولوبولي، ولكانت أغنية البالادا جاهزة الآن، وما كنتُ فقدت نصاعة بشرتي هنا في الشمس...».

سأل جيرالت، وهو يشزر الشاعر: «كيف حدث أن نيدامير لم يأخذك معه؟ إنك كنت في هولوبولي عندما انطلق. ألم يكن الملك يحب الفنانين، يا ترى؟ ما الذي جعلك تفقد نصاعتك هنا، بدلًا من أن تعزف عند رِكاب جواد الملك؟».

قال ياسكير بكآبة: «السبب في ذلك أرملة شابة. فليأخذها الوباء. تلبثتُ هنا، وفي اليوم التالي صار نيدامير والبقية وراء النهر. أخذوا معهم حتى آكل الماعز هذا، ورجال الاستطلاع من شرطة هولوبولي، بيد أنهم نسوني. كنت أشرح هذا لقائد العشرة، لكنه ظل يعيد كلامه...».

قال حامل المطرد ببرود، وهو يتبول على جدار منزل جابي الرسوم: «لديكم إذْنٌ، أدعكم تمرون. ليس لديكم إذْنٌ، لن أدعكم تمرون. هذا أمر...».

قاطعه أبو الزيغان الثلاثة: «أوه. ها هما الفتاتان تعودان، حاملتين الجعة».

---

(1) اليَبْروح: أو اللفاح، أو بيض الجن، أو تفاح المجانين أو ماندراكورا، وهو جنس من النباتات ينتمي إلى الفصيلة الباذنجانية.

أضاف ياسكير، وهو ينهض: «ليستا وحيدتين. انظروا، يا له من حصان. يبدو كالتنين».

قَدِمَتِ الزِّرِّكانيتان على حصانيهما تعدوان من جهة غابة البتولا[1]، وتحيطان بخيَّال يمتطي جوادًا فحلًا عظيمًا، شرسًا، جامحًا.

نهض الويتشر أيضًا.

كان الخيال مرتديًا قفطانًا مخمليًّا بنفسجيًّا، موشًّى بثنيات فضية، ومعطفًا قصيرًا محبوكًا بفرو السمور. راح ينظر إليهم، مستويًا على سرج جواده باعتزاز. عَرَفَ جيرالت مثل هذه النظرات. ولم تستهوِه.

قدَّم الخيال نفسه، مترجِّلًا بتؤدة ورزانة: «أحييكم أيها السادة. أنا دُرِّجَراي. المعلم دُرِّجَراي. ساحر».

- المعلم جيرالت. ويتشر.

- المعلم ياسكير. شاعر.

- بورش، ويدعونني بأبو الزيغان الثلاثة. وفتاتايَ هاتان اللتان الآن يسحبْنَ السَّدادة عن الدنِّ هناك، قد تعرَّفتَهما قبل قليل، يا سيد دُرِّجَراي.

قال الساحر دون أن يبتسم: «أي نعم، حقًّا. لقد تبادلنا التحيات، أنا وهاتان المحاربتان الحسناوان من زِرِّكانيا».

وزَّع ياسكير الأكواب الجلدية التي أحضرتها فيًّا: «إذن، بصحتكم. اشربوا معنا، يا سيد ساحر. يا سيد بورش، هل أعطي قائد العشرة أيضًا؟».

- طبعًا. تعالَ إلينا أيها الجندي.

قال الساحر، بعد أن ارتشف رشفة صغيرة لبقة: «أظن أن ما يحمل السادة على القدوم إلى هذا الحاجز على الجسر، هو الهدف نفسه الذي أسعى إليه أنا أيضًا؟».

قال ياسكير: «إن كنتم تقصدون بقولكم التنين، يا سيد دُرِّجَراي، فنعم، إنه حقًّا كذلك. أريد أن أكون هناك، وأؤلف أغنية بالادا. من سوء الحظ، قائد العشرة، هذا الذي هنا، رجل فظٌّ، كما يبدو، ولا يريد السماح لي بالمرور. يطلب أن نريه الإذن».

---

(1) البتولا: شجرة القَضْبَان أو التَّامُول.

شرب حامل المطرد جعته، ثم تمطَّقَ: «أستميحك عذرًا. لديَّ أوامر صارمة بعدم السماح لأي شخص بالمرور دون إذن. وعلى ما يبدو، فإن هولوبولي كلها قد تجمَّعت بالعربات، وتبتغي الانطلاق إلى الجبال في إثر التنين. لديَّ توجيهات...».

- الأمر الذي لديك، أيها الجندي -قطَّبَ دُرِّجَراي حاجبيه- يخص إذَنِ الدهماء الذين يمكنهم عرقلة الحركة، والعاهرات اللواتي يمكنهنَّ أنَ ينشرن الفجور والانحلال الكريه، واللصوص، والحثالة، والسفلة. لكنْ لا ينطبق عليَّ أنا.

اكفهرَّ وجه قائد العشرة بتعابير صارمة: «لن أدعَ أحدًا يمر دون إذن. أقسم...».

قاطعه أبو الزيغان الثلاثة: «لا تقسِمْ. الأفضل أن تشرب المزيد. صبِّي لهذا الجندي المقدام، يا تيًّا. ولنجلس، أيها السادة. إن الشرب وقوفًا وبسرعة، ودون مزاج مناسب لا يليق بالنبلاء».

جلسوا على الجذوع المقطعة حول الدن. ومن شدة الرضا، احمرَّ وجه حامل المطرد الذي مُنِحَ قبل قليل لقب نبيل.

حثَّه أبو الزيغان الثلاثة: «اشرب، يا قائد المئة الشجاع».

أصبح حامل المطرد أكثر احمرارًا: «أنا قائد العشرة، ولست قائد المئة».

كشف بورش عن ضواحكه: «لكنكَ ستكون قائد المئة بحكم الضرورة. أنت رجل ذو عقل، وستترقَّى في غمضة عين».

التفت دُرِّجَراي نحو جيرالت، رافضًا أن يُملأ كوبه من جديد.

قال بخفوت: «لا يزال الحديث عن الباسيليق صاخبًا في البلدة، يا حضرة الويتشر، وأنت كما أرى، صرتَ تتلفت باحثًا عن التنين. فهل يا ترى أنت في حاجة ماسة إلى المال، أم إنك تقتل المخلوقات المهددة بالانقراض، من أجل المتعة فحسب؟».

رد جيرالت: «فضول غريب، من طرف شخص يطارد الوقت بسرعة الريح، لكيلا يفوته ذبح التنين، ليستأصل أسنانه بالغة القيمة في صنع العقاقير وجرعات الإكسير السحرية. أليس صحيحًا، يا حضرة الساحر، أن تلك التي تُستأصَل من تنين حي، هي الأفضل؟».

- أنت على يقين من أنني ذاهب إلى هناك لهذا الغرض؟

- أنا على يقين. لكنْ ثمة من قد سبقك فعلًا، يا دُرِّجَراي. لقد تمكنتْ مقرَّبتك الموثوقة من الوصول قبلك، ومعها إذن المرور، الذي ليس لديكَ مثله. إنها ذات الشعر الأسود، إن كان هذا الأمر يهمك.

- جاءت على حصان أدهم؟

- على ما يبدو.

قال دُرِّجَراي قلقًا: «ينيفر».

ارتجف الويتشر دون أن يلاحظه أحد.

ساد صمت قطعه تجشؤ ذلك الذي أصبح قائد مئة مستقبليًّا.

- لا أحد... دون إذن مرور...

بهدوء أخرج جيرالت من جيبه صرَّة النقود التي تلقاها من العمدة السمين: «مئتا لينتار تكفي؟».

ابتسم أبو الزيغان الثلاثة ابتسامة ملغزة: «إذن، هكذا...».

- أعتذر منكَ، يا بورش. لن أذهب معكم إلى هِنجفورس. ربما في مرة أخرى. ربما سيجمعنا لقاء آخر.

قال أبو الزيغان الثلاثة ببطء: «لا شيء يجذبني إلى هنجفورس. لا شيء، لا شيء، يا جيرالت».

قال قائد المئة المستقبلي بغضب: «اخفوا هذه الصرة، يا سيد. ما هذه إلا رشوة. لن أدعكم تمرون حتى مقابل ثلاثمئة».

أخرج بورش صرته: «ومقابل خمسمئة؟».

- اخفِ الكيس، يا جيرالت. أنا سأدفع الرسوم. بدأ الأمر يسليني. خمسمئة، حضرة الجندي. من أجل كل رأس مئة، مع حساب فتاتايَ كقطعة واحدة جميلة. ماذا تقول؟

- أوه، أوه، أوه (شعر قائد المئة المستقبلي بالقلق، وهو يخبئ صرة بورش تحت سترته) وماذا سأقول للملك؟

قال دُرِّجَراي، وهو يعتدل ويُخرِج عصا زينة عاجية من خلف حزامه: «ستقول له إن الخوف اعتراك عندما رأيتَ».

- رأيتُ ماذا، يا سيد؟

لوح الساحر بعصاه وألقى تعويذة. انفجرت شجرة الصنوبر، التي كانت تنمو على المنحدر النهري، بالنيران، وغطتها بأكملها ألسنة اللهب المستعرة، في لحظة واحدة، من أساسها إلى رأسها.

هبَّ ياسكير وألقى العود على ظهره: «إلى الخيل! إلى الخيل، أيها السادة! وأيتها السيدات!».

صاح على حاملي المطارد قائدُ العشرة الغني، الذي كانت لديه فرص عظيمة ليصبح قائد المئة: «أبعدوا الحاجز!».

على الجسر، خلف الحاجز، شدَّت فيًّا الزمام، تراقص الحصان، فقرقع حافراه على الجذوع المقطعة. صرخت الفتاة صرخة خارقة وهي تميِّل ضفائرها.

ردَّ أبو الزيغان الثلاثة على صرختها: «هذا هو عين الصواب، يا فيًّا! استمروا، أيها الأفاضل، اهمزوا الخيول! سنمضي بالطريقة الزِّرِّكانية بجلجلة وصفير».

4

قال أكبر السيَّافة سنًّا، بوهولت، وهو ضخم جسيم كجذع بلوط عتيق: «تفضَّلوا انظروا. لم يشتتكم نيدامير في مهب الريح، أيها الأفاضل، مع أنني كنت واثقًا من أنه سيفعل ذلك. ومع ذلك، ليس لنا، نحن المساكين المُعوَزين، أن نُشكِّك في صحة القرارات الملكية. تفضلوا إلى موقد النار. رتِّبوا مضاجعكم، يا شباب. أيها الويتشر، وليكنِ الكلام بيننا، عَمَّ تحدثتَ مع الملك؟».

قال جيرالت، وهو يسند ظهره على نحو مريح، إلى السرج المشدود إلى الأعلى تجاه النار: «لم أحدِّثْهُ بشيء. حتى إنه لم يخرج إلينا من الخيمة. لقد أرسل فقط عامله المطيع، هذا الذي اسمه، ماذا...!».

ذَكَّره بالاسم ياربن زيجرين، وهو قزم ملتح، قصير مملوء الجسم، وكان يُلقِم النارَ جذعًا صمغيًّا ضخمًا، جُلِبَ مُجرجَرًا من الدغل: «جيلِّنستيرن. مغرور تافه منتفخ. خنزير سمين. حين انضممنا، جاءنا رافعًا أنفه حتى كاد ينطح السحاب، وقال، احم-احم، تذكَّروا أيها الأقزام مَن هنا لديه القيادة والأمر، له هنا السمع والطاعة هنا، ومن يأمر هنا هو الملك نيدامير، وكلمته هي القانون، وهكذا دواليك. وقفتُ واستمعتُ، وفكرت في أنني سآمر رجالي أن يطرحوه أرضًا، فأبول على معطفه. لكنني توقفتُ عن التفكير في ذلك، فكما تعلمون، ستنتشر التقوُّلات بأن الأقزام شريرون، عدوانيون، أبناء عواهر، وأن من المستحيل أن يكون ممكنًا معهم الـ... اللعنة، ماذا يُسمَّى هذا... الطعايش[1]، أو شيء من هذا القبيل. وسرعان ما ستحدث مذبحة في مكان ما، في بلدة ما، من جديد. لذا استمعتُ بأدب، وهززتُ رأسي».

قال جيرالت: «يظهر أن السيد جيلِنستيرن لا يعرف شيئًا غير ذلك. فقد قال لنا الشيء نفسه، ولم يكن أمامنا أيضًا إلا أن نهزَّ رؤوسنا».

قال ثاني السيَّافة، وهو يضع بطانية على كومة الحطب: «وفي رأيي، أن ما حدث كان أمرًا سيئًا لأن نيدامير لم يشتتكم. ينجذب الناس إلى هذا التنين انجذابًا يثير الخوف. أرتال كاملة تتوافد. لم يعدِ الأمر يمثل حملة، بل جنازة إلى مقبرة. أنا لا أحب القتال في الزحام، هكذا».

قال بوهولت: «دعكَ من هذا، أيها **التمساح غار**. السفر جماعةً أيسرُ. ألم تجربِ الذهاب لصيد التنانين قطُّ؟ دائمًا ما تسعى في إثر التنين جموعٌ من الناس، سوق موسمية غاصَّة، ماخور حقيقي متنقِّل على عجلات. لكنْ عندما يظهر ذلك الزاحف، تعرف من يبقى في الساحة. نحن، لا أحد غيرنا».

صمت بوهولت لحظةً، وجَرَعَ جَرْعة عظيمة من قارورة مفلطَحة كبيرة، مضفَّرة بالخوص، وبصوت صاخب تمخَّط وتنخَّم.

وتابع: «شيء آخر، هو أن الممارسة تُظهِر أنه في بعض الأحيان، وبعد قتل التنين فقط، يبدأ السرور والمذبحة، وتتطاير الرؤوس كأنها حبات كمثرى. وفقط عندما تُقسَّم الخزانة، ينشب بين الصيادين شجارٌ واقتتال. ماذا يا جيرالت؟ ها؟ ألستُ محقًّا؟ أتحدث إليك، أيها الويتشر».

أكد جيرالت بجفاف: «أنا على علم بمثل هذه الحوادث المعروفة».

---

(1) يقصد التعايش.

- معروفة، تقول. على الأرجح من الإشاعات، فلم يتناهَ إلى سمعي من قبل أنك كنت تصطاد التنانين. لم أسمعْ طوال حياتي أن الويتشر كان يمضي لصيد التنانين. والأغرب من ذلك أنك قد ظهرت هنا.

قال كينيت متلكئًا، وهو أصغر السيَّافة، ويطلق عليه **دبور القمح**: «صحيح، هذا أمر غريب. ونحن...».

قاطعه بوهولت: «انتظر، يا دبور القمح. أنا أتحدث الآن، وفي النهاية لن أتحدث طويلًا. إن الويتشر، على أي حال، يعرف ماذا أقصد. أنا أعرفه وهو يعرفني، ولم يعترضْ أحدنا طريق الآخر حتى الآن، وأظن أننا لن نفعل ذلك فيما بعد. إذن، لاحظوا، يا شباب، أنني إذا أردتُ، على سبيل المثال، إعاقة الويتشر في عمله، أو سرقة غنيمة من تحت أنفه، فإن الويتشر من فوره كان سيشقني بشفرته الويتشرية، وسيكون عندئذٍ على حق. ألستُ محقًّا؟».

لم يؤكد أحد ولم ينفِ أحد. لم يبدُ أن بوهولت يهمه كثيرًا هذا أو ذاك.

تابع: «أجل، السفر جماعةً أيسر، كما قلتَ. وقد يكون الويتشر نافعًا في حملتنا. المنطقة مُوحِشة ومُقفِرة، وإذا اتفق أن وحش الخيمر، أو بقَّ الماء، أو استريجا، انقضَّت علينا فجأةً، فقد تُسبِّب لنا المتاعب. وإن كان جيرالت في الجوار، لذهبتِ المتاعب، فهذا هو تخصصه. لكنَّ التنين ليس من اختصاصه. أليس كذلك؟».

مرةً أخرى، لم يؤكدْ أحد ولم ينفِ أحد.

تابع بوهولت، وهو يناول القزمَ القارورةَ المُفلطَحة: «السيد أبو الزيغان الثلاثة موجود مع جيرالت، وهذا يكفيني كضمان. فمن يزعجكما يا دبور القمح، وأيها التمساح غار؟ لعله ليس ياسكير؟».

قال ياربن زيجرين، وهو يناول الشاعر القارورةَ المُفلطَحةَ: «ياسكير دائمًا يخرج لنا، كلما يحدث شيء مثير، والجميع يعلم أنه لن يُعيق، ولن يُعِين، ولن يُؤخِّر المسير. شيء يشبه لاصقَ الفيلكرو على ذيل الكلب. أليس كذلك يا شباب؟».

قهقه «الشباب»، الأقزام الملتحون ومربَّعو الشكل، هازِّين لِحاهم. أزاح ياسكير قبعتَه إلى مؤخرة رأسه، واجترع جَرعة من القارورة المفلطحة.

تأوَّه، ملتقطًا الهواء: «أوووه، أيها الوباء. حتى إنه يُذهِبُ الصوت. ممَّ صُنِعَ هذا، من العقارب؟».

قال دبور القمح، وهو يأخذ الإناء من المنشد: «لا أحب شيئًا واحدًا، يا جيرالت. هو أنك أتيتَ بهذا الساحر إلى هنا. لقد صار المكان هنا غاصًّا بالسَّحَرة».

قاطعه القزم متدخِّلًا: «صحيح، دبور القمح على حق. نحن هنا في حاجة إلى درجراي هذا، كحاجة الخنزير إلى السرج. لقد صارت لدينا منذ زمن غير بعيد ساحرة خاصة بنا، المُكَرَّمة ينيفر، تفًّا، تفًّا».

قال بوهولت، وهو يحُكُّ عنقَه الثخين الذي كان قد فَكَّ عنه، منذ لحظة، طوقًا جلديًّا مُغطًّى بدبابيس فولاذية: «نععمم. السحرة كثر جدًّا هنا، سادتي الأفاضل. وبالضبط، اثنان منهم زائدان عن اللازم. وقد التصقوا بملكنا نيدامير كثيرًا. فقط انظروا، نحن هنا تحت الأنجم الصغيرة، حول النار، وهم الآن يا سادتي الأفاضل، في الدفء، في الخيمة الملكية، يُضمِرون الشر، هؤلاء الثعالب الماكرة، نيدامير، والساحرة، والساحر، وجيلنستيرن. أما ينيفر، فهي الأسوأ. أأخبركم ماذا يضمرون؟ كيف سيسلخون جلودنا، وهذا هو الأمر».

تدخَّل دبور القمح بكآبة: «ويأكلون لحم اليحمور. ونحن، ماذا أكلنا؟ مرموطًا! وأنا أسألُ، ما المرموط؟ جرذ، لا شيء آخر. فماذا أكلنا؟ جرذًا!».

قال التمساح غار: «لا شيء. قريبًا، سنجرب ذيل التنين. ليس كمثل ذيل التنين، مشويًّا على الفحم، شيء».

تابع بوهولت: «ينيفر امرأة بغيضة، وشريرة، وسليطة. ليستْ كمثل فتاتيْك، يا سيد بورش. هاتان هادئتان ولطيفتان، أوه، انظروا، لقد جلستا قرب الخيول، تشحذان السيوف، وقد مررتُ من جانبهما، وكلمتهما مازحًا، فابتسمتا، كاشفتين عن ضواحكهما. نعم، أنا مسرور بهما، ليستا كما ينيفر، تلك التي تُضمِر الشر وتخطط. أقول لكم، لا بدَّ من الحذر، فلن يتمخض عن اتفاقنا إلا الروث».

- أي اتفاق، يا بوهولت؟

- ماذا يا ياربن، أنخبر الويتشر؟

قال القزم: «لا أرى ما يمنع».

تدخَّل دبور القمح، وهو يقلِب القارورة المُفلطَحة رأسًا على عقب: «لقد نفدت الحُميَّا».

- فلتجلب غيرها. أنت الأصغر سنًّا، سيدي الفاضل. أما الاتفاق يا جيرالت، فنحن من أعددناه، لأننا لسنا مرتزقة، أو أيَّ أتباع مأجورين وما شابه، ولن يعهد نيدامير بأمر التنين إلينا، ملقيًا بضع قطع من الذهب تحت أقدامنا. الحقيقة هي أننا سنتمكن من التنين دون نيدامير، لكنَّ نيدامير لن يقدر على ذلك من دوننا. ويتضح من هذا، مَن الذي يستحق أكثر، ومن الذي ينبغي أن تكون له الحصة الكبرى. وقد حدَّدنا الأمر بطريقة نزيهة: أولئك الذين يذهبون ليقاتلوا بأيديهم، ويُوقِعون التنين، يأخذون نصف الخزانة. نيدامير، بأحقية المولد واللقب الرفيع، يأخذ الربع على أي حال. والبقية، على قدْر المساعدة التي يقدمونها، سيتقاسمون الرُّبع المتبقي في ما بينهم بالتساوي. ما رأيك في ذلك؟

- وما رأي نيدامير في ذلك؟

- لم يقلْ نعم، ولم يقلْ لا. لكنْ من الأفضل ألا يمانع، هذا المراهق. لقد قلتُ، إنه لن يمضي ليواجه التنين وحده، لا بدَّ من أن يعتمد على المحترفين، أي علينا نحن، السيَّافة، وعلى ياربن وشبَّانه. نحن، لا أحد غيرنا، سنلقى التنين دون أن يفصلنا عنه إلا السيف. البقية، من بين ذلك السحرة، سيتقاسمون ربعَ الخزانة في ما بينهم، إن قدَّموا المساعدة بصدق.

ثار فضول ياسكير: «مَن ستدرجون، ما عدا السحرة، إلى هذه البقية؟».

قهقه ياربن زيجرين: «على اليقين، ليس عازفي الموسيقى الهواة والشعارير. بل أولئك الذين يعملون بالفأس، لا بالعود».

قال أبو الزيغان الثلاثة، وهو ينظر إلى السماء المرصَّعة بالنجوم: «أها. وماذا سيعمل الإسكاف آكل الماعز وقطيعه من الرعاع؟».

بصق ياربن زيجرين في النار، متمتمًا بشيء من لغة الأقزام.

قال بوهولت بصوت خفيض: «إن شرطيِّي هولوبولي يعرفون جبال البراز هذه، ويعملون مرشدين، فسيكون من العدل، إذن، أن يشملهم التقاسم. ولكنَّ أمر الإسكاف مختلف قليلًا. أترون، سيكون من السيئ أن تتحول الوقاحة إلى قناعة، بأن التنين إذا ظهر في المنطقة، فمن الممكن إعطاؤه السم تلقائيًّا والاستمرار في مطارحة العاهرات في حقول القمح، بدلًا من استدعاء

https://t.me/fantazynov

المحترفين. وإذا شاع هذا الإجراء، فربما سيتعيَّن علينا أن نمضي لنتسول. أليس كذلك؟».

أضاف ياربن: «صحيح. لذلك، أقول لكم، ينبغي لهذا الإسكاف أن يصيبه مكروه بطريق المصادفة، قبل أن يدخل العاهر عالم الأسطورة».

قال التمساح غار بقناعة: «ينبغي أن يصيبه، وسيصيبه. دعوا الأمر لي».

التقط القزم الكلام: «وياسكير، سيلمِّع ردفيْه في مقطوعته الشعرية، ويجعل منه أضحوكة. فيلحق به الخِزي والعار إلى أبد الآبدين».

قال جيرالت: «لقد نسيتم شيئًا واحدًا. يوجد شخص ما هنا، يمكنه أن يعرقل ترتيباتكم. ولن يمضي معكم إلى أي اقتسام أو اتفاقات. عن إيك من دِنيسل، أتكلمُ. هل تحدثتم معه؟».

قال بوهولت مُطبِقًا أسنانه، وهو يرتِّب قطعَ الحطب في النار بقضيب طويل: «عمَّ؟ لا حديث مع إيك، يا جيرالت. فليست لديه معرفة بالمصالح».

- قال أبو الزيغان الثلاثة: «حين اقتربنا من معسكرِكَ راكبين، لقيناه. كان جاثيًا على الحجارة، مرتديًا درعه كاملة، ومحدقًا إلى السماء».

قال دبور القمح: «إنه يفعل ذلك طوال الوقت. يتأمل أو يؤدي الصلوات. يقول إن هذا ضروري، لأنه أمر له من الآلهة ليحمي الناس من الشر».

تمتم بوهولت: «عندنا، في كرينفريد، يُربَط أمثال هؤلاء بجنزير في حظيرة بقر، ويُعطَوْن قطعة فحم، عندئذٍ يشرعون برسم الأعاجيب على الجدران. لكنْ كفانا هنا ثرثرة عن الناس، ولنتحدَّث عن المصالح».

دخلتِ امرأة شابة دائرة الضوء، دون ضجيج، ليست طويلة القامة، ذات شعر أسود مُطوَّقًا بشبيكة من الذهب، مُتلفِّعة بمعطف من الصوف.

سأل ياربن زيجرين، متظاهرًا أنه لا يراها: «ما هذه الرائحة الكريهة هنا؟ لعلها ليست رائحة الكبريت؟».

تشمَّم بوهولت بحركة استعراضية، ناظرًا جانبًا: «لا. إنه مسك، أو عطر آخر».

تجهَّم القزم: «لا، ربما هو... آه!».

- إنها السيدة المكرمة ينيفر! أهلًا، أهلًا وسهلًا.

وجَّهت الساحرة نظرها ببطء إلى كل المجتمِعين، وأوقفتْ عينيها اللامعتيْن على الويتشر لحظةً. ابتسم جيرالت ابتسامة خفيفة.

- هل تسمحون لي بالجلوس؟

فَأَقَ بوهولت وقال: «نعم، طبعًا، يا سيدتنا المُحسِنة. أرجو الجلوس ههنا، على السرج العسكري. حرِّكْ رِدفيك، يا كينيت، وأعطِ الساحرة الزاهرة السَّرْج».

جلست ينيفر، مادَّةً أمامها ساقيْها الرشيقتين، المغطاتين بجوربين أسودين: «أيها السادة، تتحدثون هنا عن المصالح، كما أسمع. من دوني!».

قال ياربن زيجرين: «لم نجرؤْ على إقلاق شخصية مهمة مثلكم».

ضيَّقت ينيفر عينيْها، وأدارت رأسها باتجاه القزم: «أنت، يا ياربن، من الأفضل أن تصمت. منذ اليوم الأول، وأنت تعاملني كأنني هواء، تتجاهلني بطريقة استعراضية، فاستمرَّ في فعل ذلك، إذنْ، لا تزعج نفسك. فذلك لا يزعجني أيضًا».

- ماذا تقولون، يا سيدة! (أظهر ياربن أسنانه غير المستوية بابتسامة) فليتجمَّع عليَّ القُراد إن لم أعاملكم أفضل من معاملة الهواء. يحدث، على سبيل المثال، أن يفسد هوائي، وهو ما لا يمكن أن أجرؤ على أن أسمح به في حضرتكم بأي مقدار كان.

زأر «الشبان» الملتحون ضاحكين ضحكًا صاخبًا، لكنهم صمتوا على الفور، عند رؤية الضوء الخافت الأزرق، الذي أحاط بالساحرة فجأة.

تكلمتْ ينيفر بصوت فيه رنين معدن: «كلمة أخرى، ولن يبقى منك إلا الهواء الفاسد، يا ياربن. وبقعة سوداء على العشب».

تنحنح بوهولت، مبددًا الهدوء الذي كان مخيِّما: «الحقيقة عينها. اصمت، يا زيجرين. سنستمع إلى ما عند السيدة ينيفر لتقوله لنا. لقد عاتبتنا قبل قليل، على أننا نتحدث عن المصالح من دونها. أستنتج من هذا أن لديها اقتراحًا لنا. فلنستمع، أيها الأفاضل، ما هو هذا الاقتراح. ليتها فقط لا تقترح علينا أن تصرع وحدها التنين بالسحر».

رفعت ينيفر رأسها: «وماذا؟ أترى ذلك مستحيلًا، يا بوهولت؟».

- وربما يكون ممكنًا أيضًا. لكنه ليس مربحًا لنا، فعلى الأرجح ستطلبون حينئذٍ نصف خزانة التنين.

قالت الساحرة ببرود: «على الأقل».

- إذن، هأنتم، أنفسكم، ترون أن ذلك لا يلبي أي مصلحة لنا.

- نحن، أيتها السيدة، محاربون فقراء، إذا مرَّت الغنائم قرب أنوفنا، فإن الجوع سينظر إلى داخل أعيننا. نتغذى بالحُمَّاض وأعشاب السرمق...

تدخل ياربن زيجرين بصوت حزين: «منذ أيام العيد، فإن المرموط، لا غيره، يصدف وجوده أحيانا».

اجترع بوهولت جَرعة من القارورة المُفلطَحة، وانتفض قليلًا: «...ومعه نشرب ماء الينابيع. ونحن، يا سيدة ينيفر، لا مخرج لنا. إما الغنائم، وإما التجمد في الشتاء تحت السياج. والنُّزُل مكلِّف».

أضاف التمساح غار: «والجعة».

قال دبور القمح حالمًا: «والخدامات الماجنات».

نظر بوهولت إلى السماء: «لذلك، سنقتل التنين وحدنا، دون سحر، ودون مساعدتكم».

- واثق أنت؟ تذكَّرْ أن للممكن حدودًا، يا بوهولت.

- ربما هي موجودة، لكني لم ألْقَها قطُّ. لا، يا سيدتي. أكرر، سنقتل التنين وحدنا، دون أي نوع من السحر.

أضاف ياربن زيجرين: «ولا سيَّما أن الأسحار، على اليقين، لها أيضًا حدودها للممكن، وهي عكس تلك التي لدينا، فنحن لا نعرفها».

سألتْه ينيفر ببطء: «هل توصلتَ إلى ذلك وحدك، أم إنَّ أحدًا لقَّنَك إيَّاه؟ أليس وجود الويتشر في هذا المحفل الكريم، هو الذي يسمح لكم أن تكونوا واثقين بأنفسكم؟».

قال بوهولت، وهو ينظر إلى جيرالت الذي بدا كأنه في غفوة، ممدَّدًا على البطانية بكسل، وتحت رأسه السَّرْج: «لا. لا علاقة للويتشر بهذا الأمر. اسمعوا، يا ينيفر المُكَرَّمة. لقد قدَّمنا عرضًا للملك، ولم يكرمنا بجواب. نحن صبورون، وسننتظر حتى الصباح. إن أقرَّ الملك التفاهم، واصلنا المسير معًا. وإن لم يفعل، عدنا إلى منازلنا».

هدر القزم: «ونحن كذلك».

تابع بوهولت: «ولن تكون هناك أيٌّ مساومات. إما قمحة وإما شعيرة. كرروا كلماتنا هذه على نيدامير، يا سيدة ينيفر. وسأقول لكم هذا: التفاهم جيد أيضًا لكم ولدرجراي، فيما إذا توصلتم إلى اتفاق معه. خذوا بعين الحسبان، لسنا في حاجة إلى جثة التنين، وسنأخذ الذيل فقط. والبقية ستكون لكم. اختاروا ما يحلو لكم. لن نبخل عليكم لا بالأسنان، ولا بالمخ، ولا بأي شيء تحتاجون إليه للسحر».

أضاف ياربن زيجرين ضاحكًا: «طبعًا. ستكون الجيفة لكم، أنتم السحرة، ولن يأخذها أحد منكم. إلا إذا فعلتْ ذلك نسور أخرى».

نهضتْ ينيفر مُلقِية معطفها على كتفها.

قالت بحدة: «نيدامير لن ينتظر حتى الصباح. سيوافق على شروطكم الآن حالًا. واعلموا أن هذا مخالف لنصيحتي ونصيحة درجراي».

قال بوهولت ببطء، ممتعضًا: «إن نيدامير يُظهِر حكمة تُدهِش بوجودها عند مثل هذا الملك الشاب. فالحكمة عندي، يا سيدة ينيفر، هي من أمور أخرى منها القدرة على عدم الإصغاء إلى النصائح الغبية وغير الصادقة».

نفخ ياربن زيجرين على لحيته.

وضعتِ الساحرة كفيْها تحت ردفيْها: «ستغنون بطريقة مختلفة، حينما ينقضُّ التنين عليكم غدًا، ويثقب قصبات سيقانكم ويهشمها. سوف تلعقون حذائي، وتتوسلون مساعدتي. كالعادة. ما أكبر معرفتي بكم، ما أكبر معرفتي بأمثالكم. أعرفكم إلى حد الغثيان».

استدارت، وغادرت في لُجَّة الظلام، دون كلمة وداع.

قال ياربن زيجرين: «في الزمان الماضي، كان السحرة يجلسون في القلاع، يقرؤون كتبًا معرفية ويحركون ما في الدوارق بملاعق خشبية. لم يزاحموا المحاربين في مسيرهم، ولم يتدخلوا في شؤوننا. ولم يهزُّوا مؤخراتهم أمام أعين الفلاحين».

قال ياسكير، وهو يضبط أوتار العود: «المؤخرات، أقول بصدق، لا بأس بها. أليس كذلك، يا جيرالت؟ جيرالت! أنتم، أين اختفى الويتشر؟».

تمتم بوهولت، وهو يُلقِي الخشب في النار: «وما يهمُّنا في ذلك؟ لقد ذهب. ربما ليقضي حاجته أيها الفاضل. هذا شأنه».

وافق الشاعر المغني، ودقَّ الأوتار براحته: «بالتأكيد. هل أغني لكم شيئًا؟».

قال ياربن زيجرين، وبصق: «فلتغنِّ، اللعنة. لكنْ لا تفكِّر، يا ياسكير، أنني سأعطيك شلنًا واحدًا مقابل ثغائك. هنا، يا فتى، ليس البلاط الملكي».

هزَّ التروبادور رأسه: «هذا واضح».

5

- ينيفر.

استدارت كما لو أنها قد بُوغِتَتْ، مع أن الويتشر لم يكن لديه شك في أنها كانت قد سمعتْ خطواته من بعيد. وضعتِ الدَّلو الخشبي على الأرض، واعتدلتْ ثم أزاحتْ عن جبينها شعراتها الطليقة من تحت الشبكة الذهبية، ضفائرَ متساقطة على كتفيها.

- جيرالت.

كالعادة، كانت ترتدي لونين فقط. اللونين المعتادين – الأسود والأبيض. الشعر أسود، والرموش سود طويلة، تجعل المرء يُخمِّن لون العينين المخفي تحتهما. التنورة سوداء، والقفطان أسود قصير، له ياقة بيضاء من الفرو. القميص أبيض من أرق أنواع الكتان. حول العنق شريط مخملي أسود، مُزيَّن بنجمة من حجر السبج، مرصَّعة بقطع من الألماس.

- أنتِ لم تتغيري البتَّة.

زمَّت شفتيْها: «وكذلك أنت. وفي كلتا الحالين، هذا طبيعي على حد سواء. أو، إن شئت، غير طبيعي على حد سواء. على أي حال، فإن التلميح إلى ذلك، مع أنه قد يكون طريقة لا بأس بها لبدء المحادثة، لا معنى له. أليس كذلك؟».

أومأ برأسه، وهو ينظر جانبًا، نحو خيمة نيدامير، ونيران رماة السهام الملكيين، الذين حجبتهم الأطياف الداكنة لعربات الخيل. من جهة النار الأبعد،

انبعث صوت ياسكير الرنان، وهو يغني بالادا «النجوم فوق الطريق»، وهي واحدة من أنجح مقطوعاته الشعرية في الحب.

قالت الساحرة: «حسنًا، لقد انتهيْنا من المقدمة إذن. أستمع لك، ماذا بعد؟».

- أترين يا ينيفر...

قاطعتْه بحدَّة: «أرى. لكنني لا أفهم. لماذا أتيتَ إلى هنا، يا جيرالت؟ طبعًا ليس بسبب التنين؟ أظن أنه لم يتغير شيء في هذا الصدد؟».

- لا. لم يتغير شيء.

- إني أسألكَ، لماذا انضممتَ إلينا، إذنْ؟

- إن قلتُ لكِ إن ذلك بسببكِ، فهل تصدقين؟

نظرتْ إليه بصمت، وكان في عينيها اللامعتيْن شيء لا يمكن أن يكون مستحبًّا.

وقالت أخيرًا: «سأصدق، ولِمَ لا. الرجال يحبون لقاء عشيقاتهم القديمات، ويحبون إحياء الذكريات. يحبون أن يتصوروا أن إثاراتهم العاطفية الأقدم تمنحهم نوعًا من حق التملك لشريكتهم مدى الحياة. هذا يولِّد تأثيرًا طيبًا في حالتهم النفسية. وأنتَ لست استثناءً. على الرغم من كل شيء».

ابتسم: «على الرغم من كل شيء، أنتِ محقَّة يا ينيفر. إن رؤيتكِ تؤثر في حالتي النفسية تأثيرًا رائعًا. وبكلمات أخرى، لقد سررتُ برؤيتكِ».

- وهذا كل شيء؟ حسنًا، لنقل إنني سُرِرْتُ أنا أيضًا. وبعد أن أُشبِعتُ بالسرور، أتمنى لك ليلة سعيدة. ذاهبة لأستريح كما ترى. وأعتزم، قبل ذلك، أن أغتسل، وعادة ما أخلع ملابسي تمهيدًا لهذا الفعل. لذلك ابتعدْ لكي تتيح لي بتأدبك الحد الأدنى من الخصوصية.

مَدَّ يديْه نحوها: «ينِ!».

صاحت هائجة، وقفزت مرتدَّةً، وتطاير شرر أزرق وأحمر من أصابعها التي مدتها تجاهه: «لا تخاطبني هكذا! وإذا لمستَني، حرقتُ عينيكَ، أيها الوغد».

تراجع الويتشر. هدأتِ الساحرة بعضَ الشيء، وأزاحت شعرها عن جبينها مجددًا، ووقفتْ أمامه وقبضتا يديها تتكئان على وركيْها.

- أنت ماذا كنت تفكر، يا جيرالت؟ أننا سنثرثر بانشراح، وأننا سنتذكر الأيام الخوالي؟ وأننا في نهاية الدردشة، سنذهب إلى العربة معًا ونمارس الحب على معاطف جلد الغنم، هكذا ببساطة لإنعاش الذكريات؟ أليس هكذا؟

ولمَّا لم يكن جيرالت مُوقِنًا أكانت الساحرة تقرأ ما في أفكاره بطريقة سحرية، أم إنها حصرًا تُخمِّن تخمينًا صائبًا، فقد ظل صامتًا مبتسمًا ابتسامة معوجَّة.

- لقد فعَلَتْ هذه السنوات الأربع فعلَها يا جيرالت. وقد خرجتُ من ذلك، ولهذا السبب فقط، لا غيره، لم أبصق في عينيك عندما التقينا اليوم. لكنْ لا تدعْ لطفي يخدعك.

- ينيفر...

- اصمتْ! أعطيتُكَ أكثر مما أعطيتُ أيَّ رجل أيها النذل. أنا نفسي لا أعرف لماذا أنت بالتحديد. وأنت... أوه لا، يا عزيزي. أنا لستُ عاهرة، أو إلفية عُثِرَ عليها مصادفةً في الغابة، ثم يمكن رميها ذات صباح، والرحيل دون إيقاظها، وترك طاقة بنفسج صغيرة على المنضدة. ومن ثَمَّ تعريضها للسخرية. احذرْ! إن تفوَّهتَ الآن، ولو بكلمة واحدة، فستندم!

لم ينبسْ جيرالت حتى ولو ببنت شفة، مستشعرًا بطريقة لا تخطئ الغضبَ الذي كان يغلي في داخل ينيفر. من جديد، أزاحتِ الساحرة عن جبينها خصلات الشعر غير المطيعة، ونظرت إلى عينيه من كثب.

قالت بصوت خفيض: «لقد التقينا، لا مشكلة. لن نجعل من أنفسنا معرِضًا يتفرج عليه الجميع. فلنحفظ ماء الوجه. ولنتظاهرْ بأن بيننا معرفة طيبة. لكن لا تخطئ، يا جيرالت. لم يعُدْ بيني وبينك شيء. لا شيء، هل تفهم؟ وابتهجْ، فهذا يعني أنني تخليت منذ وقت غير بعيد عن مشاريع محددة، كانت لديَّ من أجلك. لكنَّ هذا لا يعني مطلقًا أنني سامحتُك. لن أسامحك أبدًا أيها الويتشر. أبدًا».

استدارتْ فجأة، وأمسكتْ بالدلو، ورشَّت الماء، ومضت خلف العربة.

أبعد جيرالت عنه البعوضة التي كانت تطن فوق أذنه، وغادر سائرًا ببطء تجاه النار، حيث كان ياسكير يُكافأ على أدائه الغنائي بتصفيق قليل.

رنا إلى السماء الكُحلية فوق منشار القمم الأسود المسنَّن. أراد أن يضحك، ولم يعرف لماذا.

6

صاح بوهولت، وقد استدار إلى الخلف تجاه الموكب، وهو على مقعد العربة: «الحذر، هناك! انتبهوا! أقرب إلى الصخرة! انتبهوا!».

سارت عربات الخيل ببطء، مهتزةً على الحجارة. كان سائقوها يشتمون، ضاربين الخيول بالأعِنَّة، وقد أمالوا أجسادهم، ناظرين بقلق، أكانت العجلات بعيدة بما يكفي عن حافة الخانق الذي امتدَّت بمحاذاته طريق ضيقة وغير مستوية. في الأسفل، في قاع الهاوية، كان نهر ابرا يفور برغوة بيضاء وسط الصخور.

أوقف جيرالت فرسه، ضاغطًا نفسه على الجدار الصخري المغطَّى بالطُّحلب البني النادر، والفقاعات البِّيض الملحية، التي بدت كحزاز جلدي. أتاح لعربة السيَّافة أن تسبقه. أسرع دبور القمح يعدو بحصانه من مقدمة الموكب، وقد كان يقود الرَّكب مع جند الاستطلاع من هولوبولي.

صاح: «حسنًا! تحركوا بسرعة أكبر! الطريق أمامنا أكثر اتساعًا!».

الملك نيدامير وجيلنستيرن، وكلاهما يمتطي جوادًا رفقةَ عدة رماة سهام من الخيالة، صاروا وجيرالت في صف واحد. كانت قافلة العربات الملكية تطقطق خلفهم. وأبعد منها كانت عربة الأقزام تجري ويقودها ياربن زيجرين الذي كان يصرخ دون انقطاع.

نيدامير المراهق النحيف والمنمش، الذي يرتدي رداء أبيض من جلد الغنم - تجاوز الويتشر، وألقى عليه نظرة متعالية، مع أنها ناضحة بالملل. اعتدل جيلنستيرن، ثم أوقف حصانه.

قال بتجبُّر: «فلتسمحوا، يا سيد ويتشر».

- نعم، سمعت.

دفع جيرالت الفرس بعقبيه، وسار ببطء محاذاةَ المستشار، خلف القافلة. استغرب من أن جيلنستيرن الذي له مثل هذا الكرش العظيم الباهر، قد فضَّل سرجَ الحصان على الركوب المريح في العربة.

شدَّ جيلنستيرن برفق الرسن المغروز بأزرار ذهبية، وألقى معطفه الفيروزي عن كتفه: «أمس، يوم أمس، قلتم إن التنين لا يهمكم. إذن، ما الذي يهمكم، يا سيد ويتشر؟ لماذا تسيرون معنا؟».

- هذا بلد حر، أيها المستشار.

- حاليًّا. لكنْ في هذا الموكب يا سيد جيرالت ينبغي لكل شخص أن يعرف مكانه. والدور الذي يجب أن يفعله، وفقًا لمشيئة الملك نيدامير. هل تستوعبون ذلك؟

- ماذا تقصدون يا سيد جيلنستيرن؟

- سأقول لكم. لقد سمعتُ أن التفاهم في الآونة الأخيرة صار صعبًا معكم، أنتم معشر الويتشر. المسألة هي أن الويتشر، كلما أشير إليه ليقتل وحشًا، راح بدلًا من أن يأخذ سيفه ويضرب به، يتأمل أكان ذلك مقبولًا، أم كان لا يتجاوز حدود الممكن، أكان مخالفًا للقانون، أم إذا ما كان الوحش وحشًا حقًّا، وكأن ذلك لم يكن بيِّنًا من النظرة الأولى. يُخَيَّل إليَّ أن النجاح، ببساطة، بدأ يحالفكم كثيرًا. في سالف أيامي، لم يكن الويتشريون يملكون شروى نقير، ولا تفوح منهم إلا رائحة لفافات الأقدام الكريهة. لم يكونوا يجادلون، وكانوا يضربون كلَّ ما يُشار إليهم به، كان الأمر سيَّين لهم، فلا يهمهم أكان ذلك ذئبًا أم تنينًا أم جابيَ ضرائب. بل أكان ممزقًا جيدًا أم لا. أليس كذلك يا جيرالت؟

سأل الويتشر وقد بدا جافًّا: «هل لديكم مهمة لي يا جيلنستيرن؟ إذن، تكلم ما الأمر. وسنفكر. وإذا لم يكن لديكم شيء، فخسارة أن ننهِكَ حَنَكَيْنا بالكلام، أليس كذلك؟».

تنهد المستشار: «مهمة؟ لا، ليس لدي. الأمر هنا يتعلق بالتنين، وهذا يتجاوز بوضوح حدودَ الممكن لديك أيها الويتشر. أنا صرتُ أفضل السيَّافة. أردتُ فقط أن أنذرك. أنبهك. الأهواء الويتشرية المتمثِّلة في تقسيم الوحوش إلى خيِّرة وشريرة، يمكننا أنا والملك نيدامير أن نتسامح معها، لكننا لا نرغب

في أن نسمع بها، فما بالك أن نشاهدها تُدرَج في وقائع الحياة. لا تتدخلوا في الشؤون الملكية أيها الويتشر. ولا تُوطِّدوا علاقتكم مع درجراي».

- لم أعتدْ توطيد علاقاتي مع السحرة. من أين جاء مثل هذا الافتراض؟

قال جيلنستيرن: «درجراي يفوق حتى الويتشريين في نزواتهم. ولا يتوقف عند حد تقسيم الوحوش إلى خيِّرة وشريرة. يعتقد أنها جميعًا خيِّرة».

- يبالغ نوعًا ما.

- دون شك. لكنه يدافع عن آرائه بإصرار عجيب. إنني، في الحقيقة، لن أتفاجأ إذا أصابه شيء. أما إنه قد انضمَّ إلينا من ضمن جماعة رفاق غريبة...

- لستُ رفيقًا لدرجراي. ولا هو رفيق لي.

- لا تقاطعْ. الجماعة غريبة. الويتشر الطافحة نفسُه بالندم، كفروة ثعلب غاصَّة بالبراغيث. والساحر الذي يُكرِّر ترَّهات الكهنة عن توازن الطبيعة. والفارس الصامت بورش أبو الزيغان الثلاثة ومن يرافقه من زِرِّكانيا، حيث تُقدَّم القرابين، كما هو معروف على نحو واسع، قبالة تمثال التنين. فجأة جميعهم ينضمون إلى حملة الصيد. غريب، أليس كذلك؟

- ليكن كذلك.

قال المستشار: «اعلمْ إذن أن المشكلات الأكثر إلغازًا كما تثبت الممارسة، تجد في ذاتها أبسط الحلول. فلا تجبرني أيها الويتشر أن ألجأ إليها».

- لا أفهم.

- أنت تفهم، تفهم. شكرًا على المحادثة يا جيرالت.

توقف جيرالت، وحثَّ جيلنستيرن حصانَه على الإسراع، وانضم إلى الملك، لاحقًا بالقافلة. وصل إيك من دِنيسل مرتديًا قفطانًا مبطَّنًا من الجلد الزاهي المعلَّم بدمغات من صفيحة درع، وهو يجر برذونًا محمَّلًا بدرع، وعلى نسق واحد بترس فضي، ورمح عظيم. حيَّاه جيرالت رافعًا يده، لكنَّ الفارس الضال أدار رأسه جانبًا، ضاغطًا شفتيه الضيقتين، وضرب الحصان بمهمازيه.

قال درجراي وهو يقترب راكبًا: «إنه لا يستسيغك. أليس كذلك، يا جيرالت؟».

https://t.me/fantazynov

- هذا واضح أشد الوضوح.
- المنافسة، أليس كذلك؟ كلاكما تزاولان أعمالًا مماثلة. لكنَّ إيك مثالي، وأنت محترف. إنه فرق صغير خاصةً بالنسبة إلى من تقتلونهم.
- لا تقارنِّي بإيك يا درجراي. وحدها الشياطين تعلم من تؤذي بهذه المقارنة، هل تؤذيه أم تؤذيني، فلا تقارنْ.
- كما تشاء. بالنسبة إليَّ، أقول بصراحة، كلاكما مقزز بالقدر نفسه.
- شكرًا لك.

ربَّت الساحر عنق الحصان الفَزِع من زعيق ياربن وأقزامه: «لا شكر على واجب. بالنسبة إليَّ، أيها الويتشر، فإن وصف القتل بأنه مهمة، أمر بغيض ودنيء وغبي. عالمنا في حالة توازن. إن إبادة أي مخلوق يعيش في هذا العالم وقتله، ستخل بهذا التوازن. وإن انعدم التوازن سيقترب الفناء ونهاية العالم، ذلك العالم الذي نعرفه».

صرَّح جيرالت: «نظرية كهنة الدرويد. أعرفها. طرحها عليَّ ذات مرة كاهن مفَسِّر شيخ، في حين كنتُ لا أزال في ريفيا. بعد يومين من حديثنا، مزَّقته الجُرْذُوانات[1]. ولم يكن ممكنًا إقرار مقولة الإخلال بالتوازن».

نظر إليه درجراي بحيادية: «أكرِّرُ القول، العالم في حالة توازن. توازن طبيعي. لكل نوع أعداؤه الطبيعيون، كل نوع هو عدو طبيعي للأنواع الأخرى. هذا ينسحب أيضًا على الناس. إن تدمير الأعداء الطبيعيين للإنسان الذي ضحَّيتَ من أجله، والذي قد بدأ يُلاحَظ الآن، يهدِّد بانقراض العِرق البشري».

توتَّر جيرالت: «أتعرف، أيها الساحر، فلتذهب ذات مرة إلى أمٍّ أكل الباسيليق طفلها، ولتقل لها إن عليها أن تفرح، لأن الجنس البشري، بفضل ذلك، أُنقِذَ من الانحطاط. وسترى ما ستجيبك به».

قالت ينيفر وهي تقترب منهما من الخلف، على صهوة جوادها الأدهم الكبير: «حُجَّة جيدة، أيها الويتشر. وأنت، يا درجراي، فانتبه إلى ما تثرثر به».
- ما اعتدتُ أن أخفي آرائي.

دخلتْ ينيفر بينهما. لاحظ الويتشر أنها وضعت على شعرها، بدل الشبيكة الذهبية، طوقًا مشغولًا من منديل أبيض ملفوف.

---

(1) جرذوان: اسم مبتكر لوحش أعضاؤه خليط من أعضاء الجرذ والإنسان.

قالت: «فلتبدأ بإخفائها في أسرع وقت ممكن، يا درجراي. خاصة أمام نيدامير والسيَّافة الذين صاروا يشكون في أنك تنوي عرقلة قتل التنين. ما دمتَ تتحدث فحسب، فإنهم يعاملونك كمهووس لا يشكل تهديدًا. لكنكَ إذا حاولتَ فعل شيء ما، فسيكسرون عنقك قبل أن تتمكن من التنهُّد».

ابتسم الساحر بازدراء واستهانة.

تابعتْ ينيفر: «إلى جانب ذلك، فإنكِ بإشهارك هذه الآراء تفسد جدية مهنتنا ومهمتنا».

- وبأي شيء أُفسدها؟

- يمكنكَ رد نظرياتكَ على جميع المخلوقات والديدان، لكنْ ليس على التنانين. فالتنانين أعداء طبيعيون للإنسان، بل أسوأ أعدائه. وليس المقصود هنا انتكاس الجنس البشري، بل بقاؤه. فمن أجل البقاء، لا بدَّ من التصدي للأعداء، الأعداء الذين يمكنهم الوقوف عقبة أمام هذا البقاء.

اعترض جيرالت: «التنانين ليست أعداءً للإنسان».

نظرتْ إليه الساحرة وابتسمتْ. بشفتيها فقط.

قالت: «في هذه المسألة، دعِ التقييم لنا نحن البشر. أنتَ، أيها الويتشر، ليس لكَ أن تقيِّم. لكَ أن تعمل».

- مثل جولمٍ مبرمَجٍ فاقدِ الإرادة؟

ردَّت ينيفر ببرود: «هذه مقارنتك، وليست مقارنتي. لكنْ لا بأس، إنها صائبة».

قال درجراي: «ينيفر. كامرأة لكِ مثل هذا المستوى من التعليم وهذا العمر، فإنك تثرثرين بترهات تثير الاستغراب. فلماذا رُقِّيَتْ عندكِ التنانين تحديدًا إلى مقدمة أعداء البشر؟ لماذا هي، لا المخلوقات الأخرى الأخطر منها بمئة مرة التي في ذمتها ضحايا أكثر عددًا بمئة مرة من ضحايا التنانين؟ لماذا هي، لا الهيريكات، أو ذوات الذيول، أو المانتيكورات، أو السحالي الدودية، أو الجريفينات؟ لماذا هي، لا الذئاب؟».

- سأقول لكَ، لماذا. إنَّ تفوُّق الإنسان على الأجناس والأنواع الأخرى، وكفاحه من أجل مكانه المستحق في الطبيعة، ومن أجل مساحة

المعيشة، لا يمكن كسبهما إلا حين يُقضَى على البداوة قضاءً مُبرَمًا، وينتهي الرحيل من مكان إلى آخر بحثًا عن القوت، وفقًا لتقويم الطبيعة. وبغير ذلك لا يمكن بلوغ سرعة التكاثر المناسبة، ولن يكون الطفل البشري مستقلًّا مدةً طويلة جدًّا. لا يمكن إلا للمرأة الآمنة خلف أسوار مدينة أو حصن أن تلد حسب المعدل السليم، أي كل عام. الخصوبة، يا درجراي، هي نماء، إنها شرط البقاء والهيمنة. وهنا نأتي إلى التنانين. التنين فقط، ولا وحشَ غيره، يمكنه تهديد المدينة أو الحصن. لو لم تُبَدِ التنانين، لتفرَّق الناس بحثًا عن الأمان، بدلًا من أن يجتمع شملهم، لأن نار التنين في حيٍّ كثيف البناء بمنزلة كابوس حيث مئات الضحايا والدمار المرعب. لذا يجب ذبح التنانين حتى آخرها، يا درجراي.

نظر درجراي إليها، وعلى شفتيه ابتسامة غريبة.

- تعلمين، يا ينيفر، لا أودُّ أن أعيش لأرى اللحظة التي تتحقق فيها فكرتك عن هيمنة الإنسان، عندما يأخذ الذين من أمثالك مكانهم المستحق في الطبيعة. من حسن الحظ لن يحدث ذلك أبدًا. والأمر الأقرب للحدوث أنكم ستذبحون بعضكم بعضًا، وتسممون أنفسكم، وتُنفَقون بالتيفوس والحُمَّى التيفية، لأن القاذورات والقمل، لا التنانين، هي التي تهدد مدنكم الرائعة، حيث تلد النساء كل عام، لكنَّ مولودًا واحدًا فقط من كل عشرة يعيش أكثر من عشرة أيام. نعم، يا ينيفر، الخصوبة، ثم الخصوبة، ومرة أخرى الخصوبة. فلتمارسي، يا عزيزتي، ولادة الأطفال، إنها مهنة أكثر طبيعية بالنسبة إليك. وسيشغل هذا الأمر وقتك الذي تخسرينه الآن في اختلاق الهراء دون فائدة. الوداع.

بعد أن حثَّ الساحر حصانه، عدا نحو مقدمة القافلة. بدأ جيرالت، وهو يلقي نظرة نحو وجه ينيفر الشاحب والمتجهِّم غضبًا، في التعاطف معه مقدمًا. كان يعلم ما الأمر. كانت ينيفر عاقرًا، مثل معظم الساحرات. لكنها مثل قليل من الساحرات، كانت تؤلمها هذه الحقيقة، وكانت ردة فعلها على ذكرها تتسم بجنون حقيقي. لعل درجراي كان يعلم ذلك. وعلى الأرجح، لم يكن يعرف مدى قدرتها على الانتقام.

صاحتْ: «سيجلب لنفسه المتاعب. أجل سيجلبها. احذر يا جيرالت. لا تظنَّنَّ أنني إن حدث شيء ما، ولم تُبدِ تعقُّلًا، سأدافع عنكَ».

ابتسم: «لا تخشِي. نحن، معشرَ الويتشر، والجولميين فاقدي الإرادة، نتصرف دائمًا بتعقل. فحدود الممكن التي يمكننا التحرك بينها محددة بوضوح ودون لبس.

نظرتْ إليه ينيفر، ولم تزلْ شاحبة: «ها، ها، انظروا. لقد انزعجتَ مثل بِكر اتُّهِمَتْ بذهاب عذريتها. أنت ويتشر، لن تُغيِّر ذلك. مهمتك...».

- دعكِ من الكلام عن هذه المهمة يا ين، لأنني بدأت أشعر بالغثيان.

- قلتُ لكَ، لا تخاطبني هكذا. أما غثيانك فلا يهمني كثيرًا. وكذلك جميع ردود الفعل المتبقية من مجال رد الفعل الويتشري المحدود.

- ولكنكِ سترين بعضَها، إنْ لم تكفِّي عن إتحافي بقصص عن الأفكار السامية والقتال من أجل خير الناس. أما التنانين، الأعداء المخيفين لمعشر الإنس، فإني أعلم عنها أفضل مما تعلمين.

ضيَّقت الساحرة عينيها: «نعم؟ وما ذاك الذي تعلمه، أيها الويتشر؟».

لم يُعرْ جيرالت انتباهًا لارتجاف القلادة، حول عنقه، ارتجافًا مفاجئًا يُنذِر بشيء ما: «على الأقل أعلم أنه لو لم يكن للتنانين خزائن، لما اهتمَّ بها حتى كلب أعرج، فما بالكِ بالسحرة. المثير للاهتمام أن واحدًا من السحرة يحوم دائمًا في كل حملة لاصطياد تنين، وله ارتباطات متينة مع نقابة الجواهريين. مثلكِ تمامًا. بعدئذٍ، ومع أن فيض الأحجار الكريمة ينبغي أن يبلغ السوق، لا يحدث ذلك، وسعرها لا ينخفض. لذا لا تحدثيني عن المهمة والكفاح من أجل بقاء العِرْقِ. أعرفكِ جيدًا جدًّا، وطويلًا جدًّا».

كررتْ، وهي تعوِّج شفتيها على نحو يُنذِر بالسوء: «طويلًا جدًّا. يا للأسف. لكنْ لا ليس جيدًا كما تظنُّ يا ابن الكلبة. يا لعنة الكلاب، كم كنتُ غبية... آخ، فلتذهبْ إلى الشيطان! لا أحتمل النظر إليك!».

صرختْ، ثم نترتْ حصانها الأدهم، وعَدَتْ بحِدَّةٍ إلى الأمام. أوقف الويتشر فرسه، وأتاح المرور لعربة الأقزام الذين كانوا يزمجرون ويشتمون ويُصفِّرون على مزامير من عظم، وقد كان ياسكير بينهم مرتميًا على أكياس الشوفان، يطنطن على العود.

صاح ياربن زيجرين، وكان جالسًا على مقعد العربة، مشيرًا إلى ينيفر: «هيه! على الدرب شيء مسود! فما هو يا تُرى؟ يبدو كأنه فرس!».

ردَّ ياسكير صارخًا، دافعًا قبعته البرقوقية إلى مؤخرة رأسه: «دون شك! إنها فرس! على صهوة حصان خصيٍّ! شيء لا يصدق!».

قهقه شبَّان ياربين هازِّين لِجاهم، في ضحك كصوت جوقة غنائية. تظاهرت ينيفر أنها لا تسمعه.

أوقف جيرالت فرسه، وفَسَحَ الطريق لرماة السهام من خيالة نيدامير. وسار بورش راكبًا، ببطء وراءهم على بعد مسافة قصيرة، وخلفه مباشرة الزِّرِّكانيتان اللتان مثَّلتا مؤخرة الموكب. انتظر جيرالت حتى ينطلقوا، وقاد فرسه جنبًا إلى جنب مع حصان بورش، وساروا راكبين صامتين.

نطق أبو الزيغان الثلاثة فجأة: «ويتشر. أريد أن أسالك سؤالًا واحدًا».

- اسأل.

- لماذا لا تعود؟

تفحَّصه الويتشر ناظرًا خلال لحظة بصمت.

- حقًّا، أتريد أن تعرف ذلك؟

قال أبو الزيغان الثلاثة، وهو يدير وجهه نحوه: «أريد».

- أنا ذاهب معهم لأنني جولم فاقد الإرادة. لأنني حزمة ألياف كتان، تدفعها الريح على طول الطريق. قلْ لي، إلى أين عليَّ الذهاب؟ ولأي غرض؟ هنا، على الأقل، قد اجتمع أولئك الذين لديَّ ما أتحدث به إليهم. أولئك الذين لا يقطعون حديثهم حين أقترب منهم. أولئك الذين، حتى وهم لا يشعرون بالود نحوي يقولون ذلك في وجهي، ولا يقذفونني بالحجارة من خلف السياج. أنا ذاهب معهم للسبب ذاته لذهابي معكَ إلى خان ناقلي الخشب العائم، فالأمر عندي سيَّان. ليس لديَّ مكان يمكنني السعي إليه. ليس لديَّ هدف ينبغي له أن يوجد في نهاية الدرب.

تنخَّم أبو الزيغان الثلاثة.

- الهدف موجود في نهاية كل درب. إنه عند كل شخص. حتى عندك أنت، مع أنه يتراءى لكَ أنكَ مختلف تمامًا.

- الآن أنا سأطرح عليكَ سؤالًا.

- اطرحه.

- هل لديك هدف موجود في نهاية الدرب؟

- لديَّ.

- أنت محظوظ.

- إنها ليست مسألة حظ، يا جيرالت. إنها مسألة ما تؤمن به، وما تنذر نفسك له. لا ينبغي لأحد أن يعرف هذا أفضل من... من الويتشر.

تنهَّد جيرالت: «لا أزال دون انقطاع أسمع اليوم بالمهمة؛ مهمة نيدامير هي الاستيلاء على ماليور[1]. ومهمة إيك من دنيسل هي حماية الناس من التنانين. ويشعر درجراي بأنه منذور لمهمة عكس تلك تمامًا. ولا تستطيع ينيفر جراء تغييرات محددة أُخْضِعَ لها جسمها أن تؤدي مهمتها، وتتخبط بانفعال فظيع. اللعنة، وحدهم السيَّافة والأقزام لا يشعرون بأن لديهم مهمة، إنهم ببساطة يريدون جمع المال. ربما لهذا السبب أنجذب إليهم؟

- ليس هم مَن تنجذب إليهم، يا جيرالت من ريفيا. أنا لستُ أعمى ولستُ أصَمَّ. ليس على وقع أسمائهم مددتَ حينذاك يدَكَ إلى صرَّةِ مالك. لكنْ يبدو لي...

قال الويتشر دون أن يغضب: «ما يبدو لكَ، لا داعي إليه».

- أعتذر.

- اعتذارك لا داعيَ إليه.

أوقَفوا خيولهم في آخر لحظة ممكنة لكيلا يصطدموا بقافلة رماة السهام من كاينجورن، التي توقفت فجأة.

نهض جيرالت قائمًا على ركابي فرسه: «ماذا حدث؟».

- لماذا توقَّفنا؟

أدار بورش رأسه: «لا أدري».

نطقت فيًّا ببضع كلمات بسرعة، ووجهها منكمش على نحو غريب.

قال الويتشر: «سأهبُّ إلى المقدمة، وأتحقق من الأمر».

- ابقَ هنا.

- لماذا؟

سكت أبو الزيغان الثلاثة لحظة، ناظرًا إلى الأرض.

---

(1) ماليور: إمارة صغيرة في عالم الويتشر.

كرر جيرالت: «لماذا؟».

قال بورش: «اذهبْ. ربما هكذا سيكون أفضل».

- ماذا سيكون أفضل؟

- اذهب.

بدا الجسر المتسلق حافتي الهاوية متينًا، ومبنيًّا من جذوع الصنوبر الغليظة، مدعومًا برُكن رباعي الزوايا كان يتكسر التيار عليه صاخبًا بألسنة الزبد الطويلة.

صاح بوهولت وهو يقود العربة: «ها، يا دبور القمح! لِمَ توقفتَ عن المسير؟».

- لأنني أعرف، أي جسر هذا؟

سأل جيلنستيرن مقتربًا أكثر: «ولماذا هذه الطريق من هنا؟ لا أستسيغ أن أُحشَر مع العربات على جسر المشاة هذا. ها، يا إسكاف! لماذا تسير بنا من هنا، وليس على الدرب المحدد؟ فإن الدرب يتجه قُدُمًا إلى الغرب؟».

دنا المُسمِّم البطل من هولوبولي، نازعًا قبعة جلد الغنم. بدا مضحكًا جدًّا، متهندِمًا بدرع خفيفة على ردائه، قديمة الطراز ضيقة، من المحتمل أنها صُنِعَتْ في عهد الملك سامبوك.

لم يوجِّهْ كلامه إلى المستشار، بل مباشرةً إلى نيدامير الذي ظهرتْ على وجهه تعابير الألم، لا بل الملل: «الطريق من هنا أقصر، سيدي الرحيم».

سأل جيلنستيرن عابسًا: «وكيف هذا؟».

نيدامير لم يشرِّف الإسكاف حتى لو بنظرة أكثر انتباهًا.

قال آكل الماعز، مشيرًا إلى القمم الثرماء الثلاثة الشامخة عاليًا فوق المنطقة: «هذه، هذه هي شيافا، وبوستولا، وسن العنكبوت النطاطة. إن الدرب يُفضي إلى خرائب الحصن القديم، ويحيط بشيافا من الشمال، وراء منابع النهر. يمكننا اختصار الطريق من خلال الجسر. ونسير على طول الأخدود نحو وهدة مستنقعية بين الجبال. وإذا لم نعثر على آثار للتنين هناك، فلنذهب إلى الشرق قُدُمًا، ونتفحص الأفاجيج. وأبعد من ذلك إلى الشرق ثمة مراعٍ مستوية، والطريق من هناك مستقيمة إلى كاينجورن، إلى مناطقكم يا سيدي».

سأل بوهولت: «ومن أين استقيتَ مثل هذا الفهم عن هذه الجبال يا آكل الماعز؟ من المكوث عند قالب الأحذية؟».

- لا يا سيدي. الغنم كنت أرعى[1] في صغري هنا.

نهض بوهولت قائمًا على مقعد العربة، ونظر إلى الأسفل نحو النهر المزبد: «أوسيصمد هذا الجسر؟ الهاوية عمقها يقارب الأربعين قامة».

- سيصمد يا سيدي.

- ومن أين أتى مثل هذا الجسر أصلًا في هذه البرية؟

قال آكل الماعز: «الجسر[2] بَنَتْهُ كائناتِ الترول في زماناتٌ قديماتٌ، وكل راكبٌ مرَّ من هنا كان عليه أن يدفع لهم مالٌ باهظًا. لكن لأن الراكبين نادرٌ ما كانوا يمرون من هنا، فرغتْ جيوبَ الترولِيين. وبقي الجسر».

قال جيلنستيرن بغضب: «أكرر، عرباتنا فيها معدات وعلف، وقد نعلَق في منطقة تنعدم فيها الطرق. أليس من الأفضل أن نسلك الطريق الرئيسة؟».

حرَّك الإسكاف كتفيْه: «يمكن السير على الدرب أيضًا، لكنَّه مسلك أطول. والملك صرَّح أن بلوغ التنين أمرٌ مُلِحٌّ، وأنه ينتظره كما تنتظر الحدأة[3] دودات الأرض».

صحح المستشار: «كما ينتظر الفطرُ المطرَ[4]».

وافق آكل الماعز: «حسنًا، فليكن المطر. وعلى أي حال، سيكون المسار من خلال الجسر أقرب».

اتَّخذ بوهولت القرار: «إذن، هيا فلنسِرْ، يا آكل الماعز. خذِ المقدمة، أنت وجيشك. من عادتنا أن نُطلِق أشرس المقاتلين في المقدمة».

حذَّره جيلنستيرن: «عربة واحدة لا أكثر من ذلك في آنٍ واحد».

ساط بوهولتُ الخيولَ، فقرقعت حوافرها على عوارض الجسر الخشبية: «لا بأس. خلفنا يا دبور القمح! انتبه أكانت العجلات تسير سيرًا مستقيمًا!».

---

(1) يتحدث البطل لغة غير سليمة نحويًّا.

(2) يتحدث البطل لغة غير سليمة نحويًّا.

(3) لهذه الكلمة بالبولندية معنيان: طائر الحدأة، ونوع من الفطر يؤكل.

(4) يقصد المثل البولندي الذي يوحي به التلاعب بالألفاظ: «كما ينتظر الفطر المطر».

أوقف جيرالت فرسه، وقد أحاط به رماة نيدامير مرتدين قفاطينهم الأرجوانية الذهبية ومحتشدين باكتظاظ على الدعامة الحجرية.

شخرت فرس الويتشر.

ارتجفتِ الأرض، وارتعدتِ الجبال، وانمحتْ حافة الجدار الصخري المسنَّنة في خلفية السماء، والجدار بحد ذاته نطق فجأة بقرقعة جوفاء محسوسة.

زمجر بوهولت وقد صار على الجانب الآخر من الجسر: «انتباه! انتبهوا هناك!».

أحدثتِ الحجارة الأولى حفيفًا، وكانت لا تزال صغيرة إلى الآن، وطقطقتْ إثر الانهيار الراجف رجفًا مباغتًا. أمام عينيْ جيرالت انفتح جزء من الطريق على صدع أسود أخذ يتسع بسرعة رهِيبة، وانهار مقذوفًا في الهاوية محدثًا ضجيجًا يصمُّ الآذان.

صرخ جيلنستيرن: «اهمزوا الخيول! سيدي الكريم! إلى الجانب الآخر!».

اندفع نيدامير إلى الجسر دافنًا رأسه في عُرف الحصان، وتبعه جيلنستيرن وعدد من رماة السهام، وخلفهم عربة الملك التي تهاوت ومعها راية الغريفين المرفرفة، مقرقعة على دعامة خشبية محدثة صريرًا».

زعق ياربن زيجرين من الخلف، وهو يسوط مؤخرةَ حصانه، متجاوزًا عربة نيدامير الثانية، ودافعًا الرماة جانبًا: «إنه انهيار صخري! أخلُوا الطريق! أخلُوا الطريق أيها الويتشر! أخلُوا الطريق!».

على جانب عربة الأقزام، جرى إيك من دنيسل راكبًا حصانه، مستقيم الظهر ومتصلبًا. لولا وجهه الشاحب شحوبًا فظيعًا، وشفتاه المشدودتان بتكشيرة مرتجفة بشدة، لكان من الممكن التفكير أن الفارس الضال لنْ يلاحظ الصخور والحجارة التي كانت تنهال على الدرب. من الخلف، ومن بين فريق الرماة، راح أحدهم يصرخ صراخًا وحشيًّا وكانت الخيول تصهل.

شدَّ جيرالت الزمام، وضغط فرسه، وكانت الأرض أمامه مباشرةً تفور بالصخور المتطايرة من الأعلى. كانت عربة الأقزام تُدحرِج عجلاتها خلال الحجارة، وأمام الجسر مباشرة قفزتْ وحطَّتْ مدويةً على جنبها، على محورها المتكسِّر. ارتدَّت العجلة عن عمود المتكَأ، وهوتْ إلى الأسفل في دوامة الماء.

وقفتْ فرس الويتشر على قائمتيْها الخلفيتيْن، وقد انهالت عليها شظايا الصخر الحادة. أراد جيرالت القفز، لكنه تعثَّر بمشبك حذائه في الرِّكاب فسقط على جانبه على الطريق. صهلتِ الفرس واندفعتْ قُدُمًا، رأسًا إلى الجسر المتراقص فوق الهاوية. ركض الأقزام خلال الجسر صارخين لاعنين.

صرخ ياسكير، وهو يركض وراءهم، متلفتًا حوله: «أسرع يا جيرالت!».

صاح درجراي، متخبطًا على السرج، مثبتًا بمشقة حصانه الهائج: «اقفز، يا ويتشر!».

من الخلف، غرقتِ الطريق كلُّها في سحابة من الغبار وراءهم، وانشقَّت من بين الصخور المتطايرة التي راحت تسحق عربات نيدامير. دسَّ الويتشر أصابعه بين أربطة الخُرجِ خلفَ سرج الساحر، وسمع صرخة.

هوتْ ينيفر وحصانها، وتدحرجت جانبًا، بعيدًا عن الحوافر التي كانت تخبط خبطَ عشواء، وانطرحت على الأرض، مُغطِية رأسها بيديها. خلَّى الويتشر السرج، وركض نحوها، غاطسًا في وابل من الحجارة، واثبًا فوق الصدوع التي كانت تنفتح تحت قدميه. قامت ينيفر واقفةً على ركبتيْها، وقد شُدَّتْ من ذراعها. كانت عيناها مفتوحتين على اتساعهما، وخطٌّ من دمها يسيل من حاجبها المشقوق، بالغًا نهاية أذنها.

- قومي، يا ين!

- جيرالت! احذر!

انزلقت كتلة صخرية ضخمة ومسطَّحة، حاكَّةً جدار الانهيار، ومحدثةً دويًّا وصريرًا، واندفعتْ نحوهم مباشرة. سقطَ جيرالت، وقد غطَّى الساحرة بجسده. في اللحظة نفسها، انفجرتِ الكتلة، وانقسمتْ إلى مليار شظية تساقطت عليهما، لاسعةً كالدبابير.

صاح درجراي: «أسرع! إلى الجسر يا ويتشر!».

وراح يلوِّح بعصاه، وهو على حصانه المتراقص، مفتتًا مزيدًا من الصخور المنزاحة من مكان الانهيار، مُحوِّلًا إيَّاها إلى غبار.

لوَّحت ينيفر بيدها، ثانية أصابعها، وصرختْ صراخًا غير مفهوم. الحجارة التي احتكت بنصف كرة مُزرقَّة انبثقت فجأة فوق رأسيهما، تلاشت كقطرات ماء تساقطت على صفيح ساخن.

- صرختِ الساحرة: «إلى الجسر يا جيرالت! قريبًا مني!».

ركضا ليلحقا بدرجراي وبعض الرماة المتعجِّلين. كان الجسر يتأرجح ويُحدِثُ صريرًا، وقطع الخشب تنثني نحو جميع الاتجاهات، قاذفةً بهم من مُتكأ إلى آخر.

- أسرَع!

انهار الجسر فجأةً بضجيج خارق، وانقطع النصف الذي كانا قد عبراه، وتهاوى صاخبًا في الهاوية ومعه عربة الأقزام، متحطمة على الأسنان الحجرية وسط صهيل الخيول الجنوني. ثبت الجزء الذي كانا يقفان عليه، لكنَّ جيرالت أدرك فجأة أنهما كانا يركضان أسفل مرتفع، تحت منزلق شديد الانحدار غير متوقع. أطلقت ينيفر شتيمة وهي تلهث.

- انبطحي، يا ين! تماسَكي!

أحدث ما تبقى من الجسر صريرًا وطقطقة، ومال منحدرًا كدركات سُفلى. سقطا غارزين أصابعهم في الشقوق بين ألواح الخشب. ينيفر لم تتثبتْ. راحتْ تزعق كبنت صغيرة، وهَوَتْ إلى الأسفل. استلَّ جيرالت خنجره، وكان مثبَّتًا بيد واحدة، وغرس النصل بين ألواح الخشب، وأمسك مقبضَ الخنجر بكلتا يديه. وقد تفرقعت مفاصل مرفقيه حين شدَّته ينيفر، وهي مُعلَّقة على حزامه وغمد سيفه الملقى على ظهره. طقطق الجسر مجددًا، ومال أكثر مما كان عليه، وكاد يصبح شاقوليًّا.

تنهَّد الويتشر بمشقَّة: «ين. افعلي شيئًا... تبًّا، هيًّا، ألقِي تعويذة!».

- كيف (سمع هديرها الغاضب المكتوم) وأنا مُعلَّقة!

- أطلقي يدًا واحدة!

- لا أستطيع...

صرخ ياسكير من الأعلى: «هيه! هل أنتما ثابتان؟ هيه!».

لم يرَ جيرالت في أن الجواب توكيدًا سيكون له أي معنى.

زمجر ياسكير: «أعطوني الحبلَ! بسرعة.. اللعنة!».

بجانب التروبادور، ظهر السيَّافة والأقزام وجيلنستيرن. سمع جيرالت كلمات بوهولت الخفيضة.

- انتظرْ، أيها المغني. إنها ستسقط في الحال. عندئذٍ نُخرِج الويتشر.

فحَّتْ ينيفر مثل أفعى، وهي تتلوى على ظهر جيرالت. ضغط الحزام صدره مُحدِثًا ألمًا كبيرًا.

- ين؟ أيمكنكِ الإمساك بالمسند؟ برجليك؟ أيمكنكِ أن تفعلي شيئًا برجليْكِ؟

تأوَّهت: «نعم. أن أهزَّهما».

تطلع جيرالت إلى الأسفل، إلى النهر الهادر بين الصخور الحادة التي تكسرتْ عليها عوارض الجسر القليلة وهي تنقلب، ومعها حصان وجثة عليها ألوان كاينجورن الزاهية. رأى خلف الصخور، وفي عمق الماء الشفاف الشفاف الزمردي، أسماك سلمون مرقطة، مغزلية الشكل كبيرة، تتحرك مع التيار بكسل.

- ثابتة أنتِ، يا ين؟

- حتى الآن... نعم...

- اسحبي نفسك إلى الأعلى. يجب أن تمسكي بالمسند...

- لا... أستطيع...

صرخ ياسكير: «أعطوني الحبل! ماذا دهاكم، أذهبَتْ عقولكم؟ سيسقطان كلاهما!».

تساءل جيلنستيرن وكان خارج مجال الرؤية: «ربما، وهذا أمر جيد».

علا صرير الجسر، وانزلق أكثر مما كان. بدأ جيرالت يفقد الإحساس في أصابعه، المشدودة حول مقبض الخنجر.

- ين...

- اخرس... وكُفَّ عن الدوران.

- ين؟

- لا تخاطبني هكذا...

- ستثبتين؟

قالت ببرود: «لا».

ولم تعدْ تقاتل، وكانت معلقة على ظهره عبئًا ثقيلًا خاملًا ميتًا.

- ين؟

- اخرس.
- ين. اغفري لي.
- كلا. أبدًا.

كان في الأسفل شيء ما يزحف على قطع الخشب، سريعًا كثعبان.

تلمَّس الحبل -الذي كان ينبعث منه ضوء خافت، وينثني ويلتفُّ كأنه كائن حي- بطرفه المتوتر قذالَ جيرالت، وانزاح إلى تحت إبطيْه، والتفَّ مُشكِّلًا عقدةً فضفاضة. وأنَّتِ الساحرة من تحته، وهي تستنشق الهواء. كان على يقين من أنها ستنفجر منتحبة. وقد أخطأ.

صاح ياسكير من الأعلى: «انتباه! سنُخرِجكما! أيها التمساح غار! يا كينيت! إلى الأعلى! اسحباهما!».

جذْبٌ وضغطٌ مؤلم وخانق بالحبل المشدود. تنهَّدت ينيفر بمشقة. وانطلقا إلى الأعلى بسرعة وبطناهما يحتكان بدعامة الخشب الخشنة.

في الأعلى، نهضتْ ينيفر أولًا.

7

قال جيلنستيرن: «أيها الملك، لقد أنقذنا عربة واحدة من القافلة كلها، دون احتساب مركبة السيَّافة. بقي من الوحدة العسكرية سبعة من رماة السهام. لم تعدِ الطريق موجودة على الجانب الآخر من الهاوية، ولم يكنْ هناك غير ركام الصخور وجدار أملس فقط على مدِّ النظر الذي يتيحه التصدع. من غير المعلوم أكان أيٌّ من أولئك الذين بقوا في الخلف قد نجا عندما انهار الجسر».

لم يُجِبْ نيدامير. وقف إيك من دِنيسل منتصبًا قبالة الملك، مثبتًا عينيه الملتمعتين المحمومتين عليه.

قال وهو يرفع يديه: «غضب الآلهة يلاحقنا. لقد أثِمْنا، أيها الملك نيدامير. كانت حملة مقدسة، حملة ضد الشر. فالتنين شرٌّ، أجل، كل تنين شرٌّ متجسد.

أنا لا أمرُّ عن الشر بحياد، أنا أسحقه تحت قدمي... أُبيده. كما تأمر الآلهة والكتاب المقدس».

عبس بوهولت: «ماذا يثرثر هو؟».

قال جيرالت وهو يعدل أحزمة الفرس: «لم أفهم كلمة واحدة».

قال ياسكير: «اسكتا. أحاولُ أن أحفظ ذلك، ربما يمكن استعماله عند انتقاء القوافي».

انفجر إيك صارخًا بشدة: «يقول الكتاب المقدس إن ثعبانًا، تنينًا مقززًا، له سبعة رؤوس وعشرة قرون، سيخرج من الأعماق! وستمتطي متنه امرأة لباسها أرجواني وقرمزي، في يدها كأس ذهبية، وعلى جبينها ستلوح علامة لكل عهر وآخر عهر!».

انشرح ياسكير: «أنا أعرفها! إنها سيليا، زوجة العمدة سومرهالدر!».

قال جيلنستيرن: «اصمتوا، أيها السيد الشاعر. وأنتم، أيها الفارس من دنيسل، تكلموا بطريقة أوضح، لو تكرمتم».

صاح إيك: «ضد الشر، أيها الملك، يجب التصرف بقلب وضمير نقيين، والرأس مرفوع عاليًا! لكنْ مَن نرى هنا؟ أقزامًا وثنيين يولدون في الظلمات ويسجدون لقوى الظلام! السحرة الكفرة مغتصبي الحقوق الإلهية والسلطات والامتيازات! ويتشرًا مُتحوِّلًا مقززًا، وهو مخلوق ملعون غير طبيعي. وتستغربون أن العقاب قد نزل علينا؟ أيها الملك نيدامير! قد بلغنا حدود الممكن! فدعونا لا نضع الرحمة الإلهية قيد الاختبار. أهيب بكم أيها الملك أن تطهروا صفوفنا من الرجس قبل أن...».

قاطعه ياسكير بطريقة تثير الشفقة: «لا تنطقْ ولا حتى بكلمة عني. ولا بكُلَيْمة واحدة عن الشعراء. وما أكثر ما بذلتُ وأبذلُ من مساعٍ».

ابتسم جيرالت لياربن زيجرين الذي كان يتلمَّس نصل الفأس العالق خلف الحزام بحركة بطيئة. فغر القزم فاه مبتهجًا. استدارت ينيفر بحركة استعراضية، متظاهرة بأن التنورة الممزقة حتى الفخذ، تقلقها أكثر مما تقلقها كلمات إيك.

نطق درجراي بحدة: «لقد بالغنا قليلًا يا سيد إيك. مع أن ذلك كان من جراء بواعث نبيلة، دون شك. وأرى أن إحاطتكم لنا بما تفكرون به في شأن

السحرة والأقزام والويتشريين -أمرٌ غير ضروري البتة. مع أننا جميعنا، كما أظن، قد اعتدنا مثل هذه الآراء غير المهذبة وغير المتوافقة مع الفروسية يا سيد إيك. ويصبح الأمر غير مفهوم على الإطلاق بعد ذلك حين تُهرَعون، أنتم لا غيركم، وتُناوِلون الويتشر والساحرة المهددين بالموت حبلَ الإلفيين السحري. ومما تقولون يُستنتج أنه ينبغي لكم بالأحرى أن تصلُّوا ليسقطا».

همس جيرالت لياسكير: «تبًّا لدم الكلاب. إنه هو من أعطى هذا الحبل؟ إيك؟ وليس درجراي؟».

تمتم الشاعر: «لا. إنه إيك، إنه هو حقًّا».

هز جيرالت رأسه، وهو يكاد لا يصدق. أطلقت ينيفر شتيمة بصوت خافِت، واعتدلتْ.

قالت راسمةً ابتسامة كان يمكن لأي شخص كان، باستثناء جيرالت، أن يعدَّها ابتسامة لطيفة وودودة: «أيها الفارس إيك، كيف يكون هذا؟ أنا رجس، وأنتم تنقذون حياتي؟».

انحنى الفارس بتثاقل: «أنتم امرأة، يا سيدة ينيفر. ووجهكم الجميل والصادق يسمح بالوثوق بأنكم يومًا ما ستنبذون السحر اللعين».

شخر بوهولت.

قالت ينيفر بجفاف: «أشكركم أيها الفارس. والويتشر جيرالت يشكركم أيضًا. اشكرْه يا جيرالت».

تنهَّد الويتشر تنهيدة صادقة تثير التعاطف: «الأوْلى أن يصيبني الجحيم قبل ذلك. أشكره على ماذا؟ أنا متحول مقزز، ووجهي القبيح لا ينبئ بأي آمال في التحسُّن. انتشلني الفارس إيك من الهاوية، دون رغبة منه، لكنْ فقط بسبب أنني كنت ممسكًا بالسيدة الجميلة بعناد. ولو كنتُ معلَّقًا وحدي هناك، لما حرَّك إيك ساكنًا. أنا لست مخطئًا، أليس كذلك، أيها الفارس؟».

قال الفارس الضال بهدوء: «أنتم على خطأ يا سيد جيرالت. أنا لا أرفض مساعدة أي محتاج، حتى لو كان شخصًا كالويتشر».

قالت الساحرة بحدة: «اشكرْه يا جيرالت، واعتذْر. وإلا فإنك ستؤكد أن إيك كان محقًّا تمامًا، على الأقل في ما يتعلق بك. لا يمكنك التعايش مع البشر لأنك مختلف. مشاركتكَ في هذه الحملة خطأ. لقد حثَّك على القدوم إلى هنا غرضٌ

لا معنى له. والشيء الذي سيكون له معنى هو أن تنفصل إذن. أعتقد أنك أنت نفسك قد فهمتَ ذلك. وإن لم يكن الأمر كذلك، فلتفهم في النهاية».

تدخل جيلنستيرن: «عن أي غرض تتحدثين يا سيدتي؟».

نظرتْ إليه الساحرة ولم تُجِبْ. ابتسمَ ياسكير ويارين زيجرين، أحدهما إلى الآخر، ابتسامةً ذات مغزى، لكنْ بطريقة لا يمكن للساحرة أن تلاحظها.

حدَّق الويتشر إلى عينيْ ينيفر. كانتا باردتين.

حنى رأسه: «أعتذر وأشكركم، أيها الفارس من دنيسل. شكرًا لجميع الحاضرين هنا. على إنقاذنا العاجل الذي فعلتموه دون طول تفكير. سمعتُ، وأنا معلَّق، كيف هُرِعْتُم واحدًا تلو الآخر لمساعدتنا. أرجو من جميع الحاضرين هنا المغفرة. باستثناء النبيلة ينيفر، التي أشكرها دون أن أرجو شيئًا. أودعكم، والرجس يترك حملتكم عن طيب خاطر. لأن الرجس سئِم منكم. وداعًا يا ياسكير».

صاح بوهولت: «هيا يا جيرالت. لا تتدلل كأنكَ صبية، لا تجعل من الحبة قُبَّة. فليذهب إلى الشيطان الـ...».

- أيها الناااااااس!

من جهة حلْق الأخدود، جاء آكل الماعز وبضعة رجال من شرطة هولوبولي المبعوثين للاستطلاع.

رفع التمساح غار رأسه: «ما الأمر؟ لماذا يزعق هائجًا هكذا؟».

لهث الإسكاف: «أيها... الناس... حضراتكم...».

قال جيلنستيرن، وهو يدسُّ إبهاميْه خلف حزامه الذهبي: «هيا.. ابصقها يا رجل».

- التنين! هناك.. التنين!

- أين؟

- وراء الأخدود... على المنبسط... يا سيد، هو...

أمر جيلنستيرن: «إلى الخيول!».

صرخ بوهولت: «يا تمساح غار! إلى العربة! يا دبور القمح إلى الحصان واتبعني!».

هدر ياربن زيجرين: «بسرعة البرق يا شباب!».

- بسرعة البرق، اللعنة!

ألقى ياسكير العودَ على كتفه: «مهلًا، انتظروا! جيرالت! خذني على فرسك!».

- هيَّا ثب!

انتهى الأخدود بركام من الصخور ناصعة اللون التي أخذت تتناقص شيئًا فشيئًا مشكِّلةً دائرةً غير منتظمة. وخلفهم انحدرتِ الأرض انحدارًا خفيفًا إلى مرج تَلي عشبي، مغلقة من جميع الجوانب بجدران من الحجر الجيري، وتنفرج بآلاف الثقوب. وعلى المرج انفتحت ثلاثة خوانق ضيقة ومصبَّات جداول جافة.

بوهولت، الذي كان أول من وصل راكبًا إلى حاجز الصخور، أوقف فجأة حصانه المندفع عدْوًا، وقام واقفًا على الركابَيْن.

قال: «أوه، يا للوباء. أوه، يا للوباء الفاقع. هذا... هذا لا يمكن أن يكون!».

سأل درجراي، وهو يقترب راكبًا: «ماذا؟».

إلى جانبه، قفزتْ ينيفر من عربة السيَّافة، وأسندتْ صدرها إلى كتلة صخرية، ثم نظرتْ منحنيةً، وتراجعت وفركتْ عينيها.

صرخ ياسكير، وهو يبرز من خلف ظهر جيرالت: «ماذا؟ ما الأمر؟ ما الأمر، يا بوهولت؟».

- إن هذا التنين... ذهبي.

على بعد مئة خطوة، لا أكثر، من حلق الأخدود الحجري الذي خرجوا منه، في الطريق إلى الأخدود المفضي إلى جهة الشمال، وعلى ربوة غير مرتفعة ومستديرة برفق، جلس مخلوق ما. جلس ثانيًا رقبته الطويلة النحيلة في قوس منتظمة الشكل، حانيًا رأسه الضيق على صدره المقوَّس، لافًّا بذيله يديه الأماميتين الممددتين باستواء.

كان في هذا المخلوق، في وضعية جلوسه، شيء مفعم برشاقة لا مثيل لها، شيء من القطط، شيء ينفي أصله الواضح العائد إلى الزواحف. أصله هذا الذي لا يمكن إنكاره. فالمخلوق كان مغطًّى بقشرة واضحة المعالم ولامعة ببريق من ذهب أصفر ساطع يبهر الأبصار. كان المخلوق الجالس

على الربوة ذهبيًّا، ذهبيًّا من أطراف مخالبه المغروزة في الأرض حتى نهاية ذيله الطويل الذي كان يتحرك بخفة بين أشواك اللُّسان[1] النابت على مدى الأكمة. نشر المخلوق، وهو يُحدِّق إليهم بعينين ذهبيتين كبيرتين، جناحين عريضين مذهَّبين كجناحي خفاش، واستمرَّ على هذه الحال دون حَراك، مثيرًا في النفس الإعجابَ.

همس درجراي: «تنين ذهبي. هذا مستحيل... أسطورة حية!».

بصق التمساح غار، وصرخ: «لا توجد تنانين ذهبية، تبًّا. أعرف ما أقول».

سأل ياسكير سؤالًا موضوعيًّا: «فما هذا الذي يجلس على الربوة إذن؟».

- هذا خداع من نوع ما.

- وهم.

قالت ينيفر: «هذا ليس وهمًا».

قال جيلنستيرن: «إنه تنين ذهبي. أحقُّ تنين ذهبي».

- لا وجود للتنانين الذهبية إلا في الأساطير!

تدخل بوهولت فجأة: «توقفوا. ليس من داعٍ إلى الهياج. يمكن لأي معتوه أن يرى أن ذاك تنين ذهبي. وما الفرق، أيها الأفاضل، ذهبي أم رمادي مُزرَقٌّ، أصفر مُخضَرٌّ أم مقلَّم؟ إنه ليس كبيرًا، سنتمكن منه في لحظات. يا دبور القمح، أيها التمساح غار، أفرغا العربة، وأخرجا المعدات. لا فرق عندي أيضًا، ذهبي أم غير ذهبي».

قال دبور القمح: «ثمة فرق يا بوهولت، وهو مبدئي. إنه ليس التنين الذي نتعقب أثره. ليس ذاك الذي سُمِّمَ بالقرب من هولوبولي، ويجلس في حفرة، على المعادن الثمينة والجواهر. أما هذا فجالس على مؤخرته فحسب. فما لنا به، بحق الجحيم؟».

هدر ياربن زيجرين: «هذا التنين ذهبي يا كينيت. هل رأيتَ مثل هذا الشيء من قبل؟ ألا تفهم؟ مقابل جلده سنأخذ أكثر مما سيتأتى لنا من الخزانة العادية».

---

(1) اللُّسَان: أو الشوك أو الضَهْياء أو الخُرفيش، جنس من النباتات ذات الأشواك.

أضافتْ ينيفر، مبتسمةً ابتسامةً ليست جميلة: «وذلك دون إفساد سوق الأحجار النفيسة. ياربن على حق. الاتفاق لا يزال ساريَ المفعول. ثمة شيء يمكن تقاسمه، أليس كذلك؟».

صرخ التمساح غار من العربة وهو يفتش بضجيج في عدة السفر: «هيه، يا بوهولت! ماذا سنضع على أنفسنا وعلى الخيول؟ ما الذي يمكن أن ينفثه هذا الزاحف الذهبي، هاه؟ نارًا؟ حمضًا؟ بخارًا؟».

قال بوهولت قلقًا: «الوباء وحده يعلم أيها الأفاضل. هيه، أيها السحرة! هل تقول أساطير التنانين الذهبية كيف يمكن قتل مثل هذا الشيء؟».

صرخ آكل الماعز فجأة: «كيف يمكن قتله؟ بطريقة اعتيادية! لا حاجة إلى التأمل، هاتوا أحد الحيوانات بسرعة. سنحشوه بشيء سام ونلقي به إلى الزاحف، ولينفق».

شزر درجراي الإسكافَ، وبصق بوهولت، وياسكير أدار رأسه وكشرة اشمئزاز على وجهه. في حين ابتسم ياربن زيجرين ابتسامة مقززة، واضعًا يديه على جنبيه.

سأل آكل الماعز: «لماذا تنظرون هكذا؟ فلنمضِ إلى العمل، علينا أن نُقرِّر بِمَ سنحشو الجيفة كي يهلك الزاحف بسرعة. يجب أن يكون سُمًّا زعافًا قاتلًا، أو شيئًا متعفنًا».

خطب القزم والابتسامة لم تزلْ على وجهه: «آها. شيء سام كريه ونتن. أتعرف يا آكل الماعز؟ يتبين لنا أنك أنت ذلك الشيء».

- ماذا؟

- لا شيء إلا البراز. اغرب من هنا، أيها المفسد، لا تدعْ عينيَّ تراك.

قال بوهولت، وهو يقترب من الساحر: «يا سيد درجراي. كونوا مفيدين. تذكروا الأساطير والحكايات. ما الذي تعرفون عن التنانين الذهبية؟».

ابتسم الساحر مُقوِّمًا وضعيته بتعالٍ.

- تسأل، ما الذي أعرفه عن التنانين الذهبية؟ قليلًا، لكنه يكفي.

- إذن، نحن نستمع.

- فاستمعوا، واستمعوا بانتباه. هناك، أمامنا، يجلس تنين ذهبي. أسطورة حية، ربما يكون المخلوق الأخير والوحيد من نوعه الذي نجا من

هياجكم الإجرامي. الأسطورة لا تُقْتَل. أنا، درجراي، لن أسمح لكم أن تمسُّوا هذا التنين. مفهوم؟ يمكنكم حزم أمتعتكم، وتثبيت الخروج، والعودة إلى منازلكم.

كان جيرالت مقتنعًا بأن جَلَبة ستندلع. لقد أخطأ.

قطع صوت جيلنستيرن الصمت: «فضيلة الساحر. ألا تنتبهوا لما تقولون ولمن تقولون. قد يأمركم الملك نيدامير، يا درجراي، بحزم خروج خيولكم والذهاب إلى الشيطان. لكنْ ليس العكس. هل هذا واضح؟».

قال الساحر باعتزاز: «لا. ليس واضحًا. لأنني أنا المعلم درجراي، ولن يأمرني بذلك شخص تضم مملكته منطقةً تكاد لا تُرى إلا من مستوى ارتفاع سياج لحامية قلعة بائسة وقذرة ومنتنة. هل تعلمون، يا سيد جيلنستيرن أنني إن نطقتُ بتعويذة ونفَّذتُ حركة بيدي، فسوف تتحولون إلى فطيرة بَقريَّة، ويتحول ملككم القاصر إلى شيء أسوأ على نحو لا يوصَف؟ هل هذا واضح؟».

لم يلحق جيلنستيرن أن يجيب، لأن بوهولت المتقدم نحو درجراي أمسك به من كتفه، وأداره إليه، وخرج التمساح غار ودبور القمح، صامتيْن ومتجهميْن، من خلف ظهر بوهولت.

قال السيَّاف الضخم بصوت خفيض: «ألا فاسمعوا، أيها السيد الساحر. قبل أن تبدؤوا في تنفيذ حركات يدكم هذه، استمعوا. يمكنني أن أشرح طويلًا، أيها الفاضل، ماذا أفعل بممنوعاتك وأساطيرك وثرثرتك الحمقاء، لكنني لا أريد. لذا فليغنِك هذا عن إجابتي».

تنخَّم بوهولت، ووضع إصبعه في أنفه، ثم تمخط من مسافة قصيرة على مقدمة حذاء الساحر.

شحب درجراي، لكنه لم يتحرك. رأى -كما رأى الجميع- هراوة مورجنشترن ذات الجنزير على مقبض بطول المرفق يمسكه التمساح غار في يده، مُنكَّسةً على نحو منخفض. كان يعلم -كما كان يعلم الجميع- أن الوقت اللازم لإلقاء تعويذة أطول على نحو متفاوت من الوقت الذي سيحتاج إليه التمساح غار ليقسم رأسه إلى أرباع.

قال بوهولت: «حسنًا. الآن تنحُّوا جانبًا بتأدب، من فضلكم. وإذا عنَّ على بالك فتح فمك مجددًا، فعجِّلْ ودُسَّ فيه حزمة من العشب. لأنني إن سمعتُ تأوهاتك مرة أخرى، فإنكَ ستتذكرني».

استدار بوهولت وفركَ يديْه.

- حسنًا، أيها التمساح غار ويا دبور القمح، هيا إلى العمل، فالزاحف سيفلتُ منَّا في النهاية.

قال ياسكير، وهو يراقب الساحة: «لا يبدو أنه ينتوي الهرب. انظروا إليه».

تثاءب التنين الذهبي الجاثم على الربوة، ورفع رأسه ولوَّح بجناحيه وساط الأرض بذيله.

زأر زئيرًا كأنه بوق من النحاس الأصفر: «أيها الملك نيدامير، وأنتم أيها الفرسان! أنا التنين فيلِّنتريتنمِرث! كما أرى، فالانهيار الصخري لم يوقفكم كليًّا، وأنا الذي، دون تفاخر، أسقطته على رؤوسكم. لقد وصلتُم حتى إلى هنا. كما تعلمون، ثمة ثلاثة مخارج فقط من هذا الوادي. إلى الشرق نحو هولوبولي، وإلى الغرب صوب كاينجورن، ويمكنكم استخدام هاتيْن الطريقين. أما من خلال الخانق الشمالي، فلن تذهبوا يا سادة، لأنني أنا، فيلِّنتريتنمرث، أمنعه عنكم. وإن شاء أحدكم عدم احترام هذا المنع الصادر عني، سأدعوه إلى النزال في مبارزة شرف فروسية. بالسلاح التقليدي، دون سحر ودون نفث نيران. والقتال حتى الاستسلام الكامل لأحد الطرفين. أنتظر ردًّا من المنادي خاصتكم، كما يأمر العُرف المتبع».

وقفوا جميعًا، وأفواههم مفتوحة على اتساعها.

شهق بوهولت: «إنه يتكلم! غير معقول!».

قال ياربن زيجرين: «وفوق هذا، بحكمة فائقة. هل يعرف أحدكم ما السلاح التلقيدي[1]؟».

قالت ينيفر، مقطِّبة حاجبيها: «السلاح العادي، وليس السحري. لكنْ ثمة شيء آخر يشغل بالي. لا يمكنكَ التكلم كلامًا سليمًا وواضحًا حينما يكون

(1) في الأصل، يلفظ البطل كلمة «التقليدي» خطأً، على أساس كلمة أخرى مشابهة لها لفظًا، وهي «الاعتراف الكنسي».

للمتحدث لسان متفرع. الوغد يستخدم التخاطر. احترسوا، هذا سلاح ذو حدين. إنه يستطيع قراءة أفكاركم».

توتر كينيت دبور القمح: «ما به؟ هل فقد عقله أم ماذا؟ مبارزة شرف؟ مع زاحف غبي؟ مثل هذا فلننقضَّ عليه جماعة! في الجماعة قوة!».

- لا.

نظر بعضهم إلى بعض.

إيك من دنيسل، الذي صار على ظهر حصانه، مرتديًا درعًا كاملة، ومعه رمح مثبت عند الرِّكاب، بدا أفضل بكثير مما كان عليه وهو مترجِّل. توهَّجَت عيناه المحمومتان من تحت حجاب خوذته المرفوع إلى الأعلى، وابيضَّ وجهه الشاحب.

كرَّر الفارس: «لا يا سيد كينيت. إلا إذا كان ذلك سيحدث على جثتي. لن أسمح بإهانة شرف الفروسية أمامي. من يجرؤ على كسر قواعد مبارزة الشرف...!».

راح إيك يتكلم بصوت أعلى فأعلى، فانكسر صوته المفخم وتهدَّج من الإثارة.

- ...من يحقِّر الشرف يحقِّرني، وسيسيل دمه أو دمي على هذه الأرض المعذَّبة. الوحش يطلب مبارزة؟ حسنًا إذن! فليعلن المنادي اسمي! وليكن القرار لحكم الآلهة! وراء التنين، قوة الأنياب والمخالب، والغضب الجهنمي، وورائي...

تمتم ياربن زيجرين: «يا له من أبله».

- ورائي الحق، ورائي الإيمان، ورائي دموع العذارى، اللواتي جعلهنَّ هذا الزاحف...

صرخ بوهولت: «توقف، يا إيك، صارت لديَّ رغبة في التقيؤ! هيا، إلى الميدان! انطلق إلى التنين بدلًا من أن تتكلم!».

قال القزم فجأة، وهو يشدُّ لحيته: «هيه، يا بوهولت، انتظر. هل نسيتَ الاتفاق؟ إذا أسقط إيك الزاحفَ، فسيأخذ النصف...».

فغر بوهولت فاه: «إيك لن يأخذ شيئًا. أنا أعرفه. سيكفيه أن يؤلف ياسكير أغنية عنه».

أعلن جيلنستيرن: «صمتًا! فليكن الأمر على هذا النحو. سيتقدم لمواجهة التنين الفارس الضال القويم، إيك من دنيسل، المقاتل بألوان كاينجورن كرمح وسيف للملك نيدامير وسيفه. هذا قرار الملك!».

صرَّ ياربن زيجرين بأسنانه: «تفضَّل إذن. رمح نيدامير وسيفه. لقد أنهانا مَليك كاينجورن، فماذا الآن؟».

بصق بوهولت: «لا شيء. لا أظنك تريد التصادم مع إيك يا ياربن؟ إنه يتحدث بغباء، لكنه ما دام قد استوى على ظهر حصانه ودبَّت فيه الحماسة، فمن الأفضل الابتعاد عن طريقه. فليذهب إلى الوباء، تبًّا، وليقضِ على التنين. وبعد ذلك، سنرى».

سأل ياسكير: «من سيكون المنادي؟ التنين أراد مناديًا. ربما أنا؟».

عبس بوهولت: «لا. إنها ليست أغنيات تؤدَّى، يا ياسكير. ليكن ياربن زيجرين هو المنادي. له صوت كصوت ثور فحل».

قال ياربن: «حسنًا، وما لي وهذا. ائتوني إلى هنا بمساعد أول برتبة، لكي يكون كل شيء كما ينبغي».

قال جيلنستيرن منبِّهًا: «لكنْ تكلموا بأدب يا سيد قزم، وبلباقة».

شدَّ القزم بطنه باعتزاز: «لا تعلِّموني كيف أتحدث! كنت أُوفَد إلى السفارات عندما كنتم لا تزالون تقولون عن الخبز: «أُبز»، وعن الذباب «دباب»».

كان التنين لا يزال جاثمًا بهدوء على الربوة، ملوِّحًا بذيله بمرح. تسلق القزم أكبر صخرة، وتنحَّم وبصق.

زأر واضعًا يديه على جنبيْه: «هيه، أنت هناك! أيها التنين العاهر! استمعْ إلى ما سيقوله لك المنادي! أي أنا! سيكون الفارس المجيد إيك من دنيسل أول من سيُشرَّف بتولي أمرك! ويغرس الرمح في كرشك حسب العرف المقدَّس، خيبة لك وفرحًا للعذارى المسكينات وللملك نيدامير! القتال يجب أن يكون شرفيًّا، ووفق القانون. نفثُ النارِ ممنوع، بل فقط يسلخ أحدكما الآخر تلقيديًّا، إلى أن يسقط هذا الآخر جثة أو يموت! وهذا ما نتمناه لك من أعماق النفس والقلب! فهمتَ، يا تنين؟».

تثاءب التنين وخفق بجناحيه، وانفلت بسرعة من الربوة إلى منطقة مستوية، منقضًّا على الأرض.

رد بزئير: «فهمتُ، أيها المنادي القويم! فليتقدَّمْ إذن النبيل إيك دنيسل إلى الميدان. فإنني جاهز!».

بصق بوهولت، وهو يشيِّع بنظرات كئيبة إيك المقترِب على حصانه بمشي وئيد، قادمًا من وراء حاجز الصخور: «عرض تمثيلي حقيقي. كَمٌّ من الضحك بحجم الجحيم...».

صرخ ياسكير، فاركًا يديه: «أغلق فمكَ يا بوهولت. انظرْ، إيك يمضي إلى الهجمة الخاطفة! تبًّا لدم الكلاب، لكنها ستكون بالادا رائعة!».

صاح شخص من مجموعة الرماة التابعين لنيدامير: «مرحى! يحيا إيك!».

تكلَّم آكل الماعز بكآبة: «وأنا، لو كان الأمر لي لحشوته بالكبريت، فقط من أجل التيقُّن».

حيًّا إيك الذي قد صار في الميدان، التنينَ بالرمح المرفوع، وأطبق حجاب خوذته، وهمز الحصان بالمهماز.

قال القزم: «حسنًا، حسنًا. قد يكون أحمق، لكنه يجيد الاشتباك حقًّا. فقط انظروا!».

خفض إيك الرمح، وكان محنيًّا ومتشبثًا بالسرج وهو يخبُّ خبًّا تامًّا. لم يرتدِّ التنين قافزًا، خلاف توقُّع جيرالت، ولم يتحرك بنصف دائرة، بل اندفع مباشرة نحو الفارس المهاجم، مستويًا على سطح الأرض.

صرخ ياربن: «اضربه! اضرب يا إيك!».

مع أن إيك كان يخبُّ راكبًا، لم يضرب ضربة رأسية عمياء، وكما اتفق. غيَّر اتجاهه في اللحظة الأخيرة برشاقة، وألقى الرمح على رأس الحصان. وإذ اندفع مارًّا بجانب التنين، طعنه بكل ما أوتيَ من قوة، واقفًا على الركابين.

صرخ الجميع بصوت واحد. جيرالت لم ينضم إلى جوقة الصارخين.

تفادى التنين الطعنة بدورة خفيفة ورشيقة مفعمة باللياقة، ملتفًّا كشريط ذهبي حي، بسرعة البرق، لكنْ بسير مرن على طريقة القطط، وامتدتْ مخالب يده إلى ما تحت بطن الحصان. زعق الحصان، قاذفًا بمؤخرته عاليًا، فتأرجح الفارس على السرج، لكنه لم يُفلتِ الرمح. في اللحظة التي كاد فيها خيشوما الحصان أن ينغرزا في الأرض، أزاح التنين إيك جاذبًا إياه من السَّرْج بيديه

جذبًا شديدًا. رأى الجميع صفائح الدرع تطير إلى الأعلى وتدور، وسمع الجميع القرقعة والدوي اللذين أحدثهما سقوط الفارس على الأرض.

سحق التنين -وهو رابض- الحصانَ بيده ذات المخالب، وأطبق فكَّه المسنن. زعق الحصان زعيقًا مرعبًا، وتخبَّط وهمد.

سمع الجميع الصوت العميق للتنين فيلِّنتريتنمرث، في ظل الصمت الذي ساد المكان: «يمكن أخذ القوي إيك من دنيسل من الميدان، فهو غير قادر على مواصلة القتال. هيا التالي رجاءً».

قال ياربن زيجرين في ظل الصمت الذي ساد المكان: «أوه، يا للعاهرة».

8

قالت ينيفر، وهي تمسح يديْها بخرقة من كتان: «كلتا الساقين. ولعل شيئًا ما قد حدث للعمود الفقري. الدرع على ظهره انأطرت، وكأنها صُدِمَتْ بمدق ركائز. والساقين...، بسبب رمحه. لن يمتطي الحصان قريبًا. هذا إن استطاع امتطاءه أساسًا».

تمتم جيرالت: «أخطار المهنة».

عبست الساحرة.

- هذا فقط ما عليكَ قوله؟
- وما تودين سماعه أيضًا يا ينيفر؟
- هذا التنين سريع على نحو لا يصدق. سريع جدًّا إلى حد لا يمكن للإنسان مقاتلته.
- فهمتُ. كلا يا ين، ليس أنا.

ابتسمتِ الساحرة ابتسامةً لاذعةً: «أهي المبادئ؟ أم الخوف العادي، الأكثر عادية؟ أهو الشعور الإنساني الوحيد الذي لم يُنزَع عنك؟».

وافق الويتشر دون حماسة: «كلاهما معًا، ما الفرق؟».

دنتْ منه ينيفر: «بالضبط. لا فرق. المبادئ يمكن كسرها، والخوف يمكن التغلب عليه. اقتلْ هذا التنين يا جيرالت. من أجلي».

- من أجلك؟
- من أجلي. أريد ذلك التنين. كاملًا. أريده لي فقط.
- استخدمي سحركِ واقتليه.
- لا. أنتَ تقتله. وأنا بالسحر سأمنع السيَّافة وغيرهم كي لا يكونوا مصدر إزعاج.
- ستتساقط جثث يا ينيفر.
- منذ متى يزعجك ذلك؟ تولَّ أنت أمر التنين، وأنا سآخذ على عاتقي أمر الناس.

قال الويتشر ببرود: «ينيفر. لا أستطيع أن أفهم. لِمَ تريدين هذا التنين؟ إلى هذا الحد يبهركِ اللون الأصفر لقشوره؟ أنتِ أساسًا لا تعانين الفقر، لديكِ مصادر دخل لا تُحصى، أنت ذات شهرة وصيت. فما الأمر إذن؟ أرجوكِ، أرجوكِ فقط، لا تقولي شيئًا عن المهمة».

صمتتْ ينيفر، أخيرًا، وعوجتْ شفتيْها، وبقوة هائلة ركلتْ حجرًا كان ملقى على العشب.

- ثمة شخص يمكنه مساعدتي. يبدو أنه أمر... أنت تعرف ما أقصد... يبدو أنه أمر ليس من المستحيل استعادته. ثمة فرصة. يمكن أن يكون لي... أتفهم؟
- أفهم.
- إنها عملية معقَّدة، ومكلِّفة. لكنْ مقابل التنين الذهبي... يا جيرالت؟

ظل الويتشر صامتًا.

قالت الساحرة: «عندما كنَّا مُعلَّقين على الجسر، طلبتَ مني شيئًا. سألبي طلبكَ. بصرف النظر عن أي شيء».

ابتسمَ الويتشر بحزن، وبسبابته لمس نجمة حجر السبج على عنق ينيفر.

- فات الأوان يا ين. لم نعد مُعلَّقيْن. توقفتُ عن الاهتمام. بصرف النظر عن أي شيء.

توقَّع الأسوأ، بركان نار أو برق أو لطمة على الوجه، أي إهانات أو سباب. استغرب إذْ رأى ارتجافَ الشفتيْن المكبوحَ. استدارتْ ينيفر ببطء، وندم جيرالت على ما تفوَّه به من كلمات. ونَدِمَ على العاطفة التي جعلتْها تخرج منه. تُجُووِزَتْ حدودُ الممكن، انقطعتْ كوترٍ من أوتار العود. نظر إلى ياسكير، ورأى كيف يشيح التروبادُور رأسه بسرعةٍ، متجنبًا نظراته.

صاح بوهولت، وقد وقف مرتديًا درعه أمام نيدامير الذي لا يزال جالسًا على الحجر، وعلى وجهه تعابير ملل لا تتغير: «حسنًا، لقد انتهى أمر الشرف الفروسي، أيها الفاضل. الشرف الفروسي مستلق هناك، ويتأوَّه بصوت خافت. لقد كانت فكرة سيئة، حضرةَ جيلنستيرن، أن أَطلقتم إيك فارسًا لكم وتابعًا. لا أفكر في أن أشير بإصبعي إلى أحد، لكنني أعرف لمن يدين إيك برجليْه المكسَّرتيْن. وهكذا، وفي الحقيقة، انتهينا من أمريْن في ضربة واحدة. واحد مجنون يريد بجنون إحياء الأساطير عن كيفية أن يهزم فارس مقدام التنين في مبارزة. وواحد محتال أراد كسبَ المال من ذلك. تعرفون عمَّن أتحدث، يا جيلنستيرن، أليس كذلك؟ هذا جيد. والآن الحركة لنا. الآن التنين لنا. الآن نحن، السيَّافة، سننهي أمرَ هذا التنين. لكنْ لحسابنا الخاص».

امتعضَ المستشار: «والاتفاق يا بوهولت؟ ماذا عن الاتفاق؟».

- الاتفاق في مؤخرتي.
- إنه أمر لا سابقة له! هذه إهانة لمقام الجلالة! (خبطَ جيلنستيرن بقدمه) الملك نيدامير...

صرخ بوهولت متكئًا على سيفه الضخم ذي المقبضين: «ماذا؟ الملك؟ لعلَّ الملك لديه الرغبة في المضيِّ إلى التنين بمفرده؟ أو لعلكم أنتم، مستشاره الأمين، ستحشرون كرشكم بالحديد وتخرجون إلى الميدان؟ لِمَ لا؟ هيا تفضلوا، نحن سننتظر، أيها الفاضل. لقد أتيحت لكم الفرصة يا جيلنستيرن، لو أن إيك قتل التنين لأخذتموه أنتم بأكمله، وما كنا لنحصل على أي شيء، ولا حتى على قشرة ذهبية واحدة من ظهره. سوى مقياس ذهبي من ظهره. لكنْ فات الآن الأوان. تفحَّصوا بعينيكم. لم يبقَ أحد للقتال بألوان كاينجورن. لن تجدوا أحمق آخر مثل إيك».

هُرِعَ الإسكاف، آكل الماعز، دانيًا من الملك الذي كان لا يزال مشغولًا بمراقبة النقطة المعروفة في الأفق فحسب: «غير صحيح! سيدي الملك!

فقط انتظروا قليلًا، ألا فليأتِ قومنا من هولوبولي، ولكم أن تشاهدوهم فقط! ابصقوا على معشر النبلاء المتذاكين، أقصوهم بعيدًا! سترون من هو شجاع حقًّا، ومن هو قوي بقبضته، وليس بفمه!».

نطق بوهولت بهدوء، وهو يمسح بقعة من الصدأ عن درع صدره: «أغلقْ فمك، أغلقْ فمك أيها الوقح، فإن لم تفعلْ سددتُه أنا بحيث تتطاير أسنانك حتى تبلغ حلقك».

تقهقر آكل الماعز منسحبًا بسرعة وهو يرى كينيت والتمساح غار يقتربان، واختبأ بين رجال شرطة هولوبولي.

صاح جيلنستيرن: «أيها الملِك! أيها الملك، بمَ تأمر؟».

اختفتْ تعابير الملل فجأة من على وجه نيدامير. جعد الملك القاصر أنفه المنمَّش ونهض.

قال بصوت رقيق: «بمَ آمر؟ وأخيرًا سألت عن ذلك يا جيلنستيرن، بدلًا من أن تقرر نيابةً عني وتخطب نيابةً عني وباسمي. إني مسرور حقًّا. فليبقَ الأمر هكذا يا جيلنستيرن. من الآن فصاعدًا ستصمت وتطيع الأوامر. وهذا أولها، اجمع الرجالَ، مُرْ بوضع إيك من دنيسل في العربة. سنعود إلى كاينجورن».

- سيدي...
- لا تتفوَّه بكلمة يا جيلنستيرن. سيدة ينيفر، السادة النبلاء، أُودِّعكم. لقد فقدتُ بعض الوقت في هذه الحملة، لكنني أيضًا كسبتُ كسبًا وفيرًا. تعلمتُ الكثير. أشكركم على كلماتكم، سيدة ينيفر، سيد درجراي، سيد بوهولت. وشكرًا على الصمت، سيد جيرالت.

قال جيلنستيرن: «أيها الملك، كيف ذلك؟ التنين ها هو قريب. يكفي مد اليد نحوه. أيها الملك، حُلمُك...».

كرَّر نيدامير وهو شارد الذهن: «حلمي. ليس لديَّ بعد. وإذا بقيت هنا... فربما لن أمتلكه عندئذٍ أبدًا».

- وماليور؟ ويد الأميرة؟ (لم يستسلم المستشار وهو يلوِّح بيديه) والعرش؟ أيها الملك، سيعترف بكَ الشعب الذي هناك...

راح نيدامير يضحك: «على مؤخرتي الشعب الذي هناك، كما يقول السيد بوهولت. عرش ماليور هو لي على أي حال، فلديَّ في كاينجورن ثلاثمئة رجل

مدرَّع، وألف ونصف ألف من المشاة ضد ألف من حَمَلة التروس القذرين. أما أن يعترفوا، فهم سيعترفون بي على أي حال. سأشنقهم، وأمزقهم، وأسحلهم بالخيول مهما طال الأمر، حتى يعترفوا بي. أميرتهم عجل سمين وسأبصق على يدها، كل ما أحتاج إليه منها ردفيها فقط، فلتتجبْ وارثًا، وبعد ذلك سأسمِّمها على أي حال. بطريقة المعلم آكل الماعز. كفى حكيًا يا جيلنستيرن. اشرع في تنفيذ الأوامر التي تلقيتَها».

همس ياسكير إلى جيرالت: «حقًّا. لقد تعلَّم الكثير».

أكد جيرالت، وهو ينظر إلى الربوة حيث كان التنين الذهبي، الخافض رأسه المثلث، يلعق بلسانه القرمزي المتشعب شيئًا كان قابعًا في العشب بجانبه: «الكثير. لكنني لا أريد أن أكون من تابعيه، يا ياسكير».

- وماذا سيحدث الآن؟ ماذا ترى؟

نظر الويتشر بهدوء إلى المخلوق الصغير ذي اللون الرمادي الأخضر، وهو يصفِّق جناحيه الخفاشييْن بجانب المخالب الذهبية للتنين حاني الرأس.

- وما رأيك في هذا كله يا ياسكير؟ ماذا ترى في ذلك؟

- وما أهمية ما أراه؟ أنا شاعر يا جيرالت. هل لرأيي أهمية؟

- أجل.

- حسنًا، سأقول لك. أنا يا جيرالت، عندما أرى زاحفًا، ولنقلْ أفعى أو سحلية أخرى، تأخذني الرجفة بحيث أشعر بالاشمئزاز والخوف من هذه القذارة. أما هذا التنين...

- نعم؟

- إنه... إنه جميل، يا جيرالت.

- شكرًا لك يا ياسكير.

- على ماذا؟

أدار جيرالت رأسه، ومد يده إلى إبزيم حزامه بحركة بطيئة على نحوٍ قُطريٍّ خلال صدره، وقصَّرَهُ فتحتين. رفع يده اليمنى وراح يتحقق أكانَ مقبض سيفه في الوضع الصحيح. أخذ الشاعر يحدِّق بعينين مفتوحتيْن على وسعهما.

- جيرالت! أنت تنوي...

قال الويتشر بهدوء: «أجل، ثمة حدود للممكن. لقد ضقتُ بهذا كله ذرعًا. أستذهب مع نيدامير أم تبقى، يا ياسكير؟».

انحنى التروبادور، ووضع العود بحذر وحِرْص تحت الحجر، واعتدل.

- سأبقى. كيف قلت؟ حدود الممكن؟ سأحجز هذا العنوان لأغنية البالادا.

- قد تكون هذه بالادتك الأخيرة.

- جيرالت؟

- ها؟

- لا تقتلْ... أيمكنكَ؟

- السيف سيف، يا ياسكير. حَالَما يُستَل من غمده...

- حاولْ.

- سأحاولُ.

ضحك درجراي بخفوت، واستدار نحو ينيفر والسيَّافة، وأشار إلى الموكب الملكي الذي كان يبتعد.

قال: «وها هو هناك الملك نيدامير يغادر. لم يعد يُصدِر الأوامر الملكية من خلال فم جيلينستيرن. يغادر، مُظهِرًا تعقُّلًا. أمر جيد أنك هنا، يا ياسكير. أقترح أن تبدأ في نظم أغنية بالادا».

- عمَّ؟

أخرج الساحر عصاه من خلف صدريته: «وحوْل هذا، كيف طارد المعلم درجراي الساحر، المارقين إلى منازلهم، وهم الذين أرادوا بطرقهم الغوغائية قتل آخر تنين ذهبي بقي في العالم. لا تتحرك يا بوهولت! ياربن، ارفع يديْك عن الفأس! لا تحاولي حتى التحرك يا ينيفر! سيروا أيها المارقون وراء الملك، كما وراء السيدة الأم. هيا إلى الخيول، إلى العربات. أحذركم، من يأتِ بحركة خاطئة، فلن تبقى منه سوى رائحة حريق وشظايا لامعة على الرمل. أنا لا أمزح».

هسهست ينيفر: «درجراي!».

قال بوهولت بنغمة تصالحية: «حضرة الساحر المشرف. أهذا يليق...».

- اصمت، يا بوهولت. قلتُ لا تلمسوا هذا التنين. الأسطورة لا تُقتَل. انقلبْ، واغربْ.

انطلقتْ يدُ ينيفر فجأة إلى الأمام، أما الأرض فانفجرت حول درجراي بنار زرقاء، وثارت زوبعة من الخضير المقتلع والحصى. ترنَّح الساحر محاطًا باللهب، وقفز التمساح غار وضربه على وجهه بعقب قبضته. سقط درجراي وانطلق من عصاه برق أحمر كان يتلاشى بين الصخور دون أذى. ركل دبور القمح الساحر المطروح أرضًا، واثبًا من الجانب الآخر، ثم اعتدل ليعيد الكرَّة. اندفع جيرالت بينهما، ودفع دبور القمح بعيدًا، واستلَّ سيفه وضرب ضربة مستوية، مستهدفًا ما بين واقية الكتف ودرع الصدر. عاقه بوهولت صادًّا الضربة بنصل سيفه العريض ذي المقبضين. عرقل ياسكيرُ التمساحَ غار برجله، لكنْ دون جدوى – تشبَّث التمساح غار بسترة الشاعر الملوَّنة، وهوى عليه بين عينيه بقبضة يده. قفز ياربن زيجرين من الخلف، وساطَ ساقَيْ ياسكير من الأسفل، ضاربًا ثنية ركبتيه بفأسه.

تكوَّر جيرالت في دوران على الأصابع، هربًا من سيف بوهولت، وضرب قاطعًا واقيَ الذراع الحديديَّ لدبور القمح الذي كان قد وثب وثبةً قصيرةً. قفز دبور القمح مرتدًّا، فتعثَّر وسقط. تأوَّه بوهولت، وهوى بسيفه بطريقة التفافية منجلية. وثب جيرالت فوق النصل الذي أحدث صفيرًا، وبمسكة السيف ضرب بوهولت على واقية صدره، قذفه إلى الخلف، وطعن مستهدفًا خده. ولمَّا رأى بوهولت أنه لا يستطيع أن يصد السيف الثقيل، ألقى بنفسه إلى الوراء، وسقط على ظهره. وثب الويتشر عليه، وفي تلك اللحظة أحسَّ أن الأرض تنزلق من تحت رجليْه الخدرتيْن. رأى كيف أن الأفق يتحوَّل من أفقي إلى عمودي. في محاولة عبثية لطيِّ أصابعه في **علامة** واقية، هوى بجنبه على الأرض بشدة، مُفلِتًا سيفه من كفه فاقدة الإحساس، وكان في أذنيه خفقان وطنين.

قالت ينيفر من مكان ما من الأعلى بعيد جدًّا: «اربطوهم ما دامت التعويذة تعمل. ثلاثتهم جميعًا».

تيسَّر شدُّ وثاق درجراي وجيرالت اللذيْن كانا فاقدي الإدراك والحركة، ورُبطَا بالعربة دون مقاومة ودون أي كلمة. انقضَّ ياسكير مهاجمًا ومعنِّفا، فتلقَّى ضربة على فمه حتى قبل تقييده.

قال آكل الماعز وهو يقترب: «لماذا يُربَط الخونة أولاد الكلاب؟ يجب سحقهم في الحال، وسيعم الهدوء».

قال ياربن زيجرين: «أنت نفسك ولد، لكنكَ لستَ ولد كلب. لا تُهِنِ الكلاب هنا. اغربْ من هنا أيها النعل».

هدر آكل الماعز: «إنكم تتجرؤون لدرجة مخيفة. سأرى أكانت الشجاعة تكفيكم عندما يفد قومي من هولوبولي، ولكم أن تشاهدوهم فقط! انظـــ...».

هوى ياربن، الذي كان ينعطف، بفأسه على رأسه بخفة غير متوقعة ممن في مثل بنيته. وقد زاد التمساح غار الذي كان واقفًا بجانبه، وحسَّن الوضع بركلة.

انقذف آكل الماعز بضع َقامات، وانغمس بأنفه في العشب.

صرخ حابيًا على أربع: «ستتذكرونني! كلكم...».

زعق ياربن زيجرين: «يا شباب! هيا على مؤخرة الإسكاف، العنوا دُبارة أمه! أمسِكْه أيها التمساح غار!».

لم ينتظرْ آكل الماعز. انفلتَ وهبَّ خابًّا تجاه الخانق الشرقي. جرى وراءه متعقبو الأثر من هولوبولي خفيةً. قذف الأقزام الحجارة خلفهم، مُطلقين صوتًا كالنقيق.

راح ياربن يضحك: «انتعشَ الهواء بطريقة ما مباشرةً. حسنًا يا بوهولت، لنذهب لأخذ التنين».

رفعتْ ينيفر يدها: «مهلًا. يمكنكم أن تأخذوا أرجلكم، لا غير. وأن تُطلقوها للريح. هيا كلكم أنتم، يا من تقفون هنا».

انحنى بوهولت والتمعتْ عيناه بلمعان مشؤوم: «كيف؟ ماذا تقولون حضرة السيدة الساحرة؟».

كررتْ ينيفر: «انقلعوا من هنا، اتبعوا الإسكاف. جميعكم. سأتمكن من التنين وحدي، بالأسلحة غير التقليدية. وعندما ترحلون، يمكنكم أن تشكروني. فلولاي لذقتم سيف الويتشر. هيا بسرعة يا بوهولت قبل أن أغضب. حذارِ، فأنا أعرف تعويذة يمكنني بمساعدتها أن أجعل منكم أحصنة مخصيَّة. يكفي أن أحرك يدي».

قال بوهولت باستياء: «أوه، لا. بلغ صبري حدودَ الممكن. لن أسمح أن أجعل نفسي أحمقَ. يا دبور القمح، افصلْ قضيبَ الجر عن العربة. أشعر أنني أيضًا سأكون في حاجة إلى سلاح غير تقليدي. فبعد هنيهة سيُضرَب أحد الأشخاص على عَجُزه هنا، أيها الأكارم. ولن أشير إليه بإصبعي، لكن بعد هنيهة ستُضرَب على عجُزِها ساحرة قميئة».

- فقط جرِّبْ يا بوهولت. سوف تجعل يومي هانئًا.

قال القزم بعتاب: «ينيفر. لماذا؟».

- ربما أنا ببساطة لا أحب المقاسمة يا ياربن؟

ابتسم ياربن زيجرين: «حسنًا إذن. هذا أمر بشري حتى النخاع. بشري لدرجة أنه يكاد يكون قزميًّا. من الجميل أن يرى المرء صفاته الخاصة في ساحرة. فأنا أيضًا لا أحب المقاسمة يا ينيفر».

انحنى بحركة قصيرة خاطفة. هدرتْ في الهواء كرة فولاذية، لم يعرف متى ومن أين انبثقت، وضربت ينيفر على وسط جبهتها. قبل أن يسعف الوقت الساحرة لتستعيد رشدها، صارت معلقة في الهواء، وقد أمسكها من يديها دبور القمح والتمساح غار، أما ياربن فربط كعبيها بحبل مفتول. صرخت ينيفر هائجة، لكنَّ أحد شبان ياربن الواقفين خلفها ألقى العنان على رأسها وشد بقوة، ضاغطًا الرباط في فمها المفتوح، وكتم صرختها.

قال بوهولت وهو يقترب: «وإذن يا ينيفر. كيف ستجعلينني حصانًا مخصيًّا؟ وأنت لا يمكنكِ حتى تحريك يدك؟».

مزَّق ياقة سترتها، وشقَّ قميصها وفتحه. كانت ينيفر تئنُّ مختنقةً بالعنان.

قال بوهولت وهو يحتضنها دون استحياء وسط نعيق الأقزام: «ليس لديَّ وقت الآن، لكنِ انتظري قليلًا يا ساحرة. بعد أن ننتهي من التنين، سنقيم حفلة لاهية. اربطوها جيدًا على العجلة يا أولاد. كلتا يديها على الإطار بحيث لا تستطيع تحريك أي إصبع من أصابعها. ولا يمسسها أحد الآن، تبًّا لدم الكلاب، أيها الأكارم. سنحدد تسلسل الدور وفقًا لما سيُبدي أحدكم من قدرات عند التنين».

قال جيرالت المحرَج بصوت خافت وبهدوء وشر: «بوهولت، احذرْ! فسأجدكَ ولو في نهاية العالم».

أجاب السيَّاف بهدوء: «أنا مستغرب منكَ. لو كنتُ مكانكَ لجلستُ صامتًا. أنا أعرفكَ وعليَّ أن آخذ تهديدكَ على محمل الجدِّ. لن يكون لي مخرج. قد لا تنجو أيها الويتشر. سنعود إلى هذه المسألة مرة أخرى. أيها التمساح غار، يا دبور القمح، هيا اعتليا حصانيْكما».

تأوَّه ياسكير: «وإذنْ لديك مصيرك. لماذا بحق الشيطان تورطتُ أنا في هذا؟».

تفحَّص درجراي بنظره، وقد حنى رأسه، قطراتِ الدم الكثيفةَ التي كانت تقطر ببطء من أنفه على بطنه.

صرختِ الساحرة على جيرالت وهي تتلوَّى على الحبال مثل أفعوان، محاولةً عبثًا إخفاء مفاتنها العارية: «ألا يمكنكَ أن تتوقف عن التحديق هكذا!».

أدار الويتشر رأسه مطيعًا. لكنَّ ياسكير لم يفعل.

راح الشاعر يضحك: «أظن أنكِ قد استهلكتِ على هذا الذي أراه أمامي، برميلًا كاملًا من إكسير اليبروح[1] يا ينيفر. بشرتكِ كبشرة بنت ذات ستة عشر عامًا، يا للهول!».

عوت الساحرة: «أغلق فمك، يا ابن العاهرة!».

لم يستسلم ياسكير: «كم عمركِ بحق؟ ما يقرب المائتين؟ حسنًا، فلنقل مئة وخمسين. ولقد تصرفتِ كـ...».

عطفتْ ينيفر عنقها وبصقت عليه، لكنَّها أخطأتِ الهدف.

قال الويتشر مُؤنِّبًا، وهو يمسح بكتفِه أذنَه التي طالها البصاق: «ين».

- مُرْهُ أن يتوقف عن التحديق!

هتف ياسكير، دون أن يغضَّ الطرفَ عن المشهد الماتع الذي قدَّمته الساحرة غير المهندمة: «لا أفكر بذلك بتاتًا. فبسببها نحن قاعدون هنا. ويمكنهم جزَّ حلوقنا. أما هي، فعلى الأكثر سيغتصبونها، وهذا في سنها...».

قال الويتشر: «اخرسْ، يا ياسكير».

---

(1) اليَبْروح أو اللفاح أو بيض الجن أو تفاح المجانين أو ماندراكورا: جنس من النباتات البرية ينتمي إلى الفصيلة الباذنجانية.

- لا أفكر في ذلك حتى. وأنتوي فعلًا نظْم أغنية بالادا عن نهديْن. فأرجو عدم الإزعاج.

شخر درجراي بأنفه النازف: «ياسكير. كن جادًّا».

- اللعنة، أنا جاد.

جرجر بوهولت قدميْه، مسنودًا إلى الأقزام، ليعتلي السرج بمشقَّة، ثقيلًا وخشنًا جرَّاءَ الدرع والواقيات الجلدية الموضوعة عليها. كان التمساح غار ودبور القمح قد استويا على حصانيهما، ممسكيْن بسيفيْن ضخميْن ذوي مقبضين، ممدوديْن أفقيًّا بعرض السرجيْن.

تنحنح بوهولت: «حسنًا، سرنا إليه».

قال بصوت عميق له وقع كنغمة زرنة[1] من النحاس الأصفر: «لا، لا. بل أنا من جئتكم!».

من خلف حلقة من الصخور، برز خطم طويل يبرق بالذهب، ورقبة رفيعة مسلَّحة بصف من زوائد مثلثة مسننة، ويدان ذاتا مخالب. نظرت عينا الزاحف الشريرتان وحدقاتهما العموديتان من تحت جفنيْن قرنييْن.

قال التنين فيلِّنتريتنِمرث مُتطلِّعًا حوله: «لم أستطعِ الانتظار في الميدان، لذا جئتُ وحدي. وكما أرى، فإن الراغبين في القتال في تناقص؟».

أخذ بوهولت الزمامَ بأسنانه، وسيفَه المهند بكلتا قبضتيْه.

قال كلامًا غير واضح، عاضًّا الرسن:

- *Jehce stahcy. Stahaj do wahki, hadzie!*

قال التنين، مقوِّسا ظهره، ورافعًا ذيله على نحو مسيء: «إنني واقف».

تلفَّت بوهولت حولَه. طوَّق التمساح غار ودبور القمح ببطءٍ وبهدوءٍ استعراضيٍّ التنينَ من كلا الجانبين. من الخلف انتظر ياربن زيجرين وشبانه والفؤوس في أيديهم.

زأر بوهولت، ضاربًا الحصان بقوة بعقبيْه، وشاهرًا سيفه: «آآآآرغ!».

تكوَّر التنين وانبطح على الأرض، وهوى كعقرب بذيله من الأعلى ومن خلف ظهره، ليس على بوهولت بل على التمساح غار الذي كان يهاجم من

(1) الزرنة أو الصرناية: آلة موسيقية هوائية تعمل بالنفخ وتتألف من قصبتين.

الجانب. تهاوى التمساح غار وحصانه وسط قعقعة وصخب وصهيل. أما بوهولت الذي اندفع وهو يخبُّ، فضرب بقوة رهيبة، وتجنب التنينُ برشاقةٍ طعنةَ النصل العريض. دفع زخم الخبب بوهولت جانبًا. التفَّ التنين، واقفًا على قائمتيْه الخلفيتيْن، وخمش بمخالب يديْه دبورَ القمح، ومزَّق بضربة واحدة بطن الحصان وفخذ الخيَّال. تمكَّن بوهولت، الذي كان مائلًا بشدة على السرج، من عطف الحصان شادًّا الزمام بأسنانه، وهجم مجددًا.

صَفَقَ التنين بذيْله الأقزام المندفعين نحوه، وأوقعهم جميعًا، ثم انقضَّ على بوهولت، وداس في طريقه، بفعلٍ بدا كأنه أمرٌ عرضيٌّ، دبورَ القمح الذي كان يحاول جاهدًا النهوض.

بذل بوهولت، وهو يهز برأسه، جهدًا في المناورة بالحصان المندفع بخبب شديد، لكنَّ التنين كان أسرع وأرشق على نحو لا يُضاهَى. خرج لبوهولت من اليسار بمكر ليُصَعِّب عليه المبادأة بالطعن، وانهالَ عليْه بمخالب يديْه. وقف الحصان على قائمتيْه الخلفيتيْن واندفع جانبًا، فانقذف بوهولت من على السرْج، فاقدًا سيفه وخوذته، وتهاوى إلى الوراء، على الأرض، صادمًا رأسه بصخرة.

زعق ياربن زيجرين زعيقًا فاقَ صراخَ التمساح غار الذي كان الحصان جاثمًا عليه: «سيرًا أيها الشباب، إلى الأعلى!». انطلق الأقزام مرفرفِين بلحاهم، نحو الصخور بسرعة مدهشة قياسًا إلى أرجلهم القصيرة. لم يلاحقْهم التنين. فقد جلس بهدوء ونظر حوله. كان التمساح غار يتلفت متخبطًا ويصرخ تحت الحصان. وكان بوهولت ملقًى دون حَراك. وراح دبور القمح يزحف تجاه الصخور، على جنبه، مثل سلطعون حديدي ضخم.

همس درجراي: «أمر لا يُصدق. لا يُصدق».

شد ياسكير الحبال حتى ارتجت العربة: «هيه! ما هذا؟ هناك! انظروا!».

كان يمكن رؤية سحابة كبيرة من الغبار من الجهة اليسرى للخانق الشرقي، وبسرعة أيضًا سُمِعَتْ صرخاتهم وقرقعة حوافر ووقعها. مدَّ التنين عنقه وأخذ يرقب.

تقدَّمت ثلاث عربات كبيرة ملأى بقوْم مسلحين. انقسموا، وشرعوا يطوقون التنين.

صاح ياسكير: «تبًّا لدم الكلاب. تلك...، تلك شرطة ونقابات هولوبولي! لقد عَبَروا ينابيع ابرا! نعم، إنهم هم! انظروا، إنه آكل الماعز، هناك، في المقدمة!».

خفض التنين رأسه، وبرفق دفع تجاه المركبة مخلوقًا صغيرًا رماديًّا، يصدر صريرًا رفيعًا. بعد ذلك، خبط الأرض بذيْله، وزأر بصوت عالٍ، ثم انطلق كالسهم لملاقاة الهولوبوليين.

سألت ينيفر: «ما هذا؟ ما هذا الصغير؟ ما هذا الذي يدور في العشب يا جيرالت؟».

قال الويتشر: «هذا ما كان التنين يحميه منا. ما فقس منذ مدة قريبة في الكهف، هناك، في الخانق الشمالي. فرخ تنين فقس من بيضة تنين سمَّمَه آكل الماعز».

اقترب فرخ التنين من العربة مترنحًا، ومتعثرًا، وحاكًّا الأرض ببُطيْنه المنتفخ، وصأى ثم وقف منتصبًا، ونشر جناحيه. بعدئذ، ودون أي تفكير دنا حتى لامس جنب الساحرة. تنهَّدت ينيفر بصوت عالٍ وعلى وجهها تعابير غير واضحة إلى حد كبير.

تمتم جيرالت: «هو يحبكِ».

أبرز ياسكير أسنانه، وهو يستدير بوثاقه: «فتيٌّ، لكنه ليس غبيًّا. انظروا أين دسَّ رأسه الصغير، أتمنى أن أكون مكانه، تبًّا. هيه، يا صغير، اهربْ! إنها ينيفر! فزَّاعة التنانين والويتشريين! أو واحد من الويتشريين على الأقل...».

صرخ درجراي: «اصمتْ يا ياسكير. انظروا هناك إلى الميدان! لقد أمسكوا به، فليأخذهم الوباء!».

تدافعت عربات الهولوبوليين مثل عربات الحرب، وأخذتْ تندفع نحو التنين الذي راح يهاجمهم.

زأر آكل الماعز، ممسكًا الحوذيَّ من ظهره: «انهالوا عليه يا أصحاب، كيفما اتفق وبما يقع في أيديكم! لا تبخلوا!».

تجنَّب التنين برشاقة العربة الأولى المقتربة منه، والوامضة بشفرات المحاشِّ، والمذاري، والحراب ذات الخطاطيف، لكنه وقع بين العربتين التاليتيْن اللتين منهما سقطتْ عليه شبكة صيد كبيرة مزدوجة، وكانت مشدودةً بالأربطة. هوى التنين، عالقًا بالشبكة، فتدحرج وتكوَّر مباعدًا

قوائمه. تفرقعت الشبكة بحدَّة، متمزقةً إلى أشلاء. قُذِفَتْ عليه من العربة الأولى التي تمكَّنت من الالتفاف شِباكٌ أخرى، ما جعله مشبوكًا بها تمامًا. استدارت العربتان الأخريان أيضًا، واندفعتا نحو التنين، تُقعقعان وتهتزان فوق التجاويف.

زعق آكل الماعز: «لقد وقعتَ في الشباك يا شبُّوط! سنقشرك من حراشفك في الحال!».

زمجر التنين ونفث مُطلِقًا إلى السماء سيلًا من بخار. تدافع نحوه رجالُ الشرطة الهولوبوليون قافزين من العربات. زمجر التنين مجددًا زمجرة يائسة وراجفة.

جاء الجواب من الخانق الشمالي، صرخة شرسة مرتفعة.

من الخانق الشمالي، بزغوا متمددين في عَدْوٍ جنوني، وضفائرهم الزاهية ترفرف، مُطلِقين صفيرًا خارقًا، مُحاطين بومضاتٍ من السيوف اللامعة...

صرخ الويتشر وهو يشدُّ الحبال من غير قوة: «الزِّرِّكانيتان!».

وافق ياسكير: «أوه، يا للوباء! جيرالت! أنت تدرك؟».

مرَّت الزركانيتان خلال الحشد مثل سكين ساخنة تمر خلال برميل زبدة، وعلَّمتا طريقهما بالجثث المقطَّعة، ثم قفزتا عن حصانيهما وهما تركضان، لتقفا إلى جانب التنين المتخبِّط داخل الشبكة. وقد فقد أول رجل شرطة اقترب منهما رأسَه على الفور. وكان الثاني يهمُّ باستهداف فيًّا بمذراة، لكنَّ الزِّرِّكانية التي كانت تمسك السيف بكلتا يديها، موجهة نهايته إلى الأسفل رأسًا على عقب، شقَّته بطعنة من أدنى محاشمه وحتى نحره. أما الآخرون فولُّوا الأدبار على عجل.

زأر آكل الماعز: «إلى العربات! إلى العربات أيها الأصحاب! سندعسهم بالعربات!».

صرختْ ينيفر فجأةً، مُقلِّصةً رجليْها المربوطتيْن، ودافعةً إياهما برمية مفاجئة تحت العربة، تحت يديِ الويتشر الملتويتيْن إلى الخلف والمقيَّدتيْن: «جيرالت! **علامة إجني**[1]! احرق! أتحسُّ بالحبل؟ احرقه، إلى الجحيم!».

تأوَّه جيرالت: «هكذا، كيفما اتفق؟ سأحرقك، يا ين!».

---

(1) إجني: النار باللاتينية.

- اصنع **العلامة**! سأتحمل!

أطاعها، وأحسَّ بتنميل في أصابعه المضمومة في **علامة إجني** تمامًا فوق كعبيِ الساحرة المربوطيْن.

أدارت ينيفر رأسها، وعضَّت على ياقة سترتها كاتمةً الأنين. وخبط التنين الصغير بجناحيْه، صائيًا بجانبها.

- ين!

عوت: «احرقْ!».

انفكَّت القيود في اللحظة التي غدتْ فيها الرائحة الكريهة المقزِّزة للجلد المحترِق لا تُطَاق. أخرج درجراي صوتًا غريبًا، وأُغمِيَ عليه وهو معلَّق بقيدي يديْه عند عجلة العربة.

شدَّت الساحرة جسدها، عابسةً من الألم ورافعةً ساقها التي صارت طليقة. صاحت بصوت هائج مملوء بالألم والحنق. ارتجفتِ الميدالية حول رقبة جيرالت كما لو أنها كانت حية. شدَّت ينيفر فخذها ولوَّحت بساقها تجاه عربات شرطة هولوبولي المهاجمة، وصرختْ بتعويذة. ارتجَّ الهواء وفاحت رائحة الأوزون.

تأوَّه ياسكير في انبهار: «يا أيتها الآلهة. ينيفر، يا لها من أغنية بالادا ستكون!».

التعويذة التي أُلقِيَتْ بوساطة ساق رشيقة، لم تنجحْ بها الساحرة مع الجميع. ببساطة أخذت العربة الأولى بكل ما كان على متنها لونًا أصفرَ كزهر الخرغوس[1]، وهذا ما لم يلاحظْه حتى المحاربون الهولوبوليون في خضم حماستهم للمعركة. سارت أمور العربة الثانية على نحو أفضل؛ وتحوَّل طاقمها بقضِّه وقضيضه، في رمشة عين، إلى ضفادع ضخمة خشنة راحت تتقافز في كل الاتجاهات، وهي تنقنق بمرح. انقلبتِ العربة التي فقدتْ قائدها وتطايرت أجزاءً. ولَّت الخيول بعيدًا صاهلةً صهيلًا هستيريًّا ومجرجرةً المقطورة خلفها.

عضَّت ينيفر على شفتيها، ولوَّحت بساقها في الهواء من جديد. تبخَّرت فجأة العربة الخرغوسية، وسط نغمات موسيقية حيَّة منبعثة من مكانٍ ما من

(1) الخرغوس: جنس من الأعشاب المعمِّرة، زهره أصفر براق.

الأعلى، وتشكَّلت في دخان خرغوسي، وهوى طاقمها بأكمله خابطًا العشب، وفاقدًا إدراكه، ومشكِّلًا كومة رائعة كلوْحة. تحوَّلت عجلات العربة الثالثة من دائرية إلى مربعة، وكان التأثير فوريًّا. وقفتِ الخيول على قوائمها الخلفية، فتهاوت العربة، وانكمش الجيش الهولوبولي وتناثر على الأرض. وبدافع الانتقام الخالص، لوَّحت ينيفر بساقها بعناد، وصرخت ملقيةً تعاويذها، ومحوِّلةً الهولوبوليين، كيفما اتفق، إلى سلاحفَ وإوزٍّ وظراميط[1] وطيور نحام وخنانيص مُخطَّطة. ومزقت الزِّرِّكانيتان من تبقى بمهارة ومنهج منظم.

بعد أن مزَّق التنين في النهاية الشبكة إلى مِزَق، هبَّ وصفَّق بجناحيه، ثم زأر وانطلق مشدودًا كوتر، راكضًا خلف الإسكافِ آكل الماعز الهارب بعد أن نجا من المذبحة. جرى آكل الماعز مثل أيَّل، لكنَّ التنين كان أسرع منه. عندما رأى جيرالت الفمَ المفتوحَ والأسنانَ اللامعةَ الحادة كالخناجر، أشاح بوجهه. سمع صراخًا مُروِّعًا وقرقعةً منفِّرةً. صرخ ياسكير بصوت مخنوق، وانثنت ينيفر بوجه أبيض كنسيج خام، واستدارتْ جانبًا نصف استدارة وتقيَّأت تحت العربة.

حلَّ الصمت، ولم يقطعْه سوى زبط الإوز في لحظات متفرقة، ونقيق ونعيق من نجا من شرطة هولوبولي.

وقفتْ فيًّا فوق ينيفر، مبتسمةً ابتسامة غير جميلة، وساقاها منفرجتان باتساع. رفعتِ الزِّرِّكانية سيفها. ورفعت ينيفر ساقها شاحبة.

قال بورش، الملقب بأبو الزيغان الثلاثة، وكان جالسًا على حجر، ممسكًا التنين الصغير في حضنه بهدوء ورضا: «لا».

كرَّر التنين فيلنتريتنمرث: «لا، لن نَقتُلَ يا سيدة ينيفر. لم يعد الأمر قائمًا. وأكثر من ذلك، نحن الآن ممتنون لكِ، يا سيدة ينيفر على المساعدة التي لا تُقدَّر بثمن. حرريهم يا فيًّا».

همس ياسكير، وهو يفرك يديه الخدرتيْن: «أتفهم يا جيرالت؟ تفهم؟ ثمة بالادا قديمة عن تنين ذهبي. التنين الذهبي يمكنه...».

تمتم الويتشر: «يمكنه أن يتشكل بأي هيئة كانت».

- وهيئة بشرية كذلك. سمعتُ بذلك أيضًا. لكنني لم أصدق.

---

(1) الظرموط: حشرة من كثيرات الأرجل.

نادى فيلنتريتنمرث القزمَ المتشبثَ بصخرة عمودية بارتفاع عشرين ذراعًا فوق الأرض: «يا سيد ياربن زيجرين! عمَّ تبحثون هناك؟ عن جرذان المرموط؟ ليس هذا ما تستلذون طعمه، إن لم تخنِّي ذاكرتي. اهبطوا إلى الأسفل وانشغِلُوا بالسيَّافة. إنهم في حاجة إلى المساعدة. لن يكون ثمة قتل بعد الآن. لن يُقتَل أحد.

راح ياسكير يوقظ درجراي الذي كان لا يزال فاقدًا الوعي، ملقيًا نظرات قلقة على الزِّرِّكانيتين اللتين كانتا تطوفان في ساح الوغى متيقظتين. دهن جيرالت كعبيْ ينيفر المحروقيْن بمرهم وضمدهما. صأتِ الساحرة من جراء الألم، وتمتمت بتعويذات ما.

قام الويتشر بعد أن تهيأ لخوض المهمة.

قال: «ابقوا هنا. يجب أن أتحدث إليه».

قامت ينيفر، متجهمة.

أخذتْه تحت يدها: «أنا ذاهبة معكَ يا جيرالت.. ممكن؟ أرجوك يا جيرالت».

- معي، يا ين؟ فكرتُ...

ضغطتْ ذراعه: «لا تفكر».

- ين؟

- حالي جيدة الآن يا جيرالت.

نظر إلى عينيها اللتين كانتا تشعان دفئًا. كما في الأيام الخوالي. حنى رأسه وقبَّلها على شفتيْها اللتيْن كانتا ساخنتيْن وطريتيْن وراغبتيْن. كما في الأيام الخوالي.

اقتربا. انثنتْ ينيفر وهي مسنودة بانحناءة عميقة، كما لو أنها مَثُلَتْ أمام ملك، ململمةً ثوبها بأناملها.

قال الويتشر: «أبو الزيغان الثـ... فيلنتريتنمرث...».

قال التنين: «اسمي في ترجمة فضفاضة إلى لغتكم يعني **ثلاثة طيور سود**».

وضع التنين الصغير، وقد ثبَّت مخالبه بساعده، ومؤخرة رأسه تحت راحة اليد التي كانت تداعبه.

ابتسم فيلنتريتنمرث: «**الفوضى والنظام**».

- أتذكرُ يا جيرالت؟ **الفوضى** عُدوان، **والنظام** دفاع أمامها. إن الاندفاع إلى نهاية العالم لمقاومة العدوان والشر أمر يستحق البذل، أليس كذلك أيها الويتشر؟ خاصةً عندما يكون الأجر مُجزِيًا كما قلتَ أنت. وفي هذه المرة كان الأجر كذلك. إنه كنز التنينة ميرجتبراكي التي سُمِّمَتْ على مقربة من هولوبولي. هي مَن استدعتني كي أساعدها، لوقف الشر المُحدِّق بها. كانت ميرجتبراكي قد غادرت طائرةً، بعد مدة وجيزة من حمل إيك من دنيسل من الميدان. كان لديها ما يكفي من الوقت، عندما كنتم تهرجون وتتشاجرون. لكنها تركتْ لي كنزها، أجري.

صأى التنين الصغير وصفَّق بجناحيه.

- إذن، أنت...

قاطعه التنين: «نعم. حسنًا، هكذا هي أيامنا. منذ بعض الوقت غدت الكائنات، التي اعتدتمْ أن تسموها بالوحوش، تشعر بتهديد البشر لها تهديدًا يتزايد باطِّراد. لم تعد تستطيع الوقوف في وجه ذلك وحدها. تحتاج إلى حامٍ لها. حامٍ... ويتشر من أمثالك».

- والهدف... الهدف الذي في نهاية الطريق؟

رفع فيلنتريتنمرث ساعدَه فصأى التنين الصغير مرعوبًا: «ها هو! ها قد حققتَه حقًّا. بفضلِه، سأبقى حيًّا، يا جيرالت من ريفيا، سأثبتُ أنه لا حدودَ للممكن. أنت أيضًا ستجد مثل هذا الهدف يومًا ما أيها الويتشر. حتى أولئك الذين يختلفون عنًّا يمكنهم البقاء أحياء. وداعًا يا جيرالت. وداعًا يا ينيفر».

انحنت الساحرة مجددًا، شادةً ذراع الويتشر بقوة. نهض فيلنتريتنمرث، نظر إليها، وكان وجهه غاية في الجدية.

- اغفري لي صراحتي واستقامتي يا ينيفر. إنه مكتوب على وجهيكما، حتى إنني لستُ مضطرًّا إلى المحاولة لقراءة أفكاركما. أنتما مخلوقان أحدكما من أجل الآخر.. أنتِ والويتشر. لكنْ لن يتأتى شيء من ذلك. لا شيء. أشعر بالأسف.

شحبتْ ينيفر قليلًا: «أعرف. أعرف يا فيلنتريتنمرث. لكنني أنا أيضًا أودُّ أن أومن بأنه لا حدود للممكن. أو على الأقل أن أومن بأن ذلك لا يزال بعيدًا جدًّا».

اقتربتْ فيًّا ولمستْ كتف جيرالت، ونطقتْ ببضع كلمات بسرعة. ضحك التنين.

- جيرالت، تقول فيًّا إنها ستتذكر طويلًا طَسْتَ الغسيل في «تحت التنين المتأمل». إنها تأمل أننا سنلتقي مرة أخرى في يوم ما.

سألت ينيفر وهي تضيِّق عينيْها: «ماذا؟».

قال الويتشر بسرعة: «لا شيء. فيلنتريتنمرث...».

- إني أسمعك يا جيرالت من ريفيا.

- يمكنكَ أن تتشكل بأي هيئة؟ أي هيئة تريدها؟

- أجل.

- إذن، لماذا بهيئة إنسان؟ لماذا بورش وثلاثة طيور سود في شعار النبالة؟

ابتسم التنين بوداعة.

- لا أعرف يا جيرالت في أيِّ ظروف احتكَّ أسلافُنا القدماء، المنتمون إلى أعراقنا، بعضهم ببعض أول مرة. لكنَّ الحقيقة هي أن التنانين لا ترى شيئًا آخر أكثر إثارة للاشمئزاز من الإنسان. يثير الإنسان في التنانين تقززًا غريزيًّا غير عقلاني.

- الأمر عندي مختلف. بالنسبة إليَّ... أنتم لطفاء. الوداع.

لم يكن ذلك تحولًا تدريجيًّا ماحقًا، ولا رجفًا ضبابيًّا نابضًا كما في الوهم. كان مفاجئًا مثل طرفة عين. في المكان الذي كان يقف فيه قبل ثانية، فارس أجعد الشعر، مرتديًا غلالة مزيَّنة بثلاثة طيور سود جلس تنين ذهبي، ممددًا رقبته الطويلة النحيلة ببهاء. فرد التنين جناحيْه، وقد حنى رأسه، ساطعًا بالذهب في أشعة الشمس. تنهدتْ ينيفر بصوتٍ عالٍ.

لوَّحت فيًّا بيدها، وقد صارت على السرج، بجانب تيًّا.

قال الويتشر: «فيًّا، لقد كنتِ محقة».

- همم؟

- إنه الأجمل.

فُتاتة جليد

1

شاةٌ نافقة ومُتورِّمة ومنتفخة تحركت ميمِّمةً رجليْها المتصلبتيْن شطر السماء. استلَّ جيرالت، الذي كان جاثيًا أسفل الحائط، سيفَه ببطء، حذرًا لئلا تصطكَّ الشفرة بإطار الغمد المعدني. على بعد عشر خطوات منه، انثنتْ فجأة كومة من المخلفات وتمايلت. هبَّ الويتشر ووثب قبل أن تصل إليه موجة الرائحة الكريهة المنبعثة من كومة القمامة المضطربة.

انطلق مجسٌّ منتهٍ بانتفاخ خشن بيضاوي على هيئة مغزل ذي أشواك، منبثقًا فجأة من تحت القمامة، ليلقاه بسرعة مذهلة. هبط الويتشر بثقة على بقايا أثاث محطَّم تترنح على كومة خضراوات خمجة، فثبتَ مكتسبًا توازنه، وبضربة واحدة قصيرة من سيفه شقَّ المجسَّ، قاطعًا المصاصة التي كانت على شكل هراوة. ارتدَّ جانبًا على الفور، ولكنه انزلق عن الألواح هذه المرة، وانغمس حتى فخذيه في الزبل الزلِق.

انفجرَّ مكبُّ القمامة، واندفعتْ إلى الأعلى مادةٌ لزجةٌ كثيفةٌ نتنةٌ وقِطَعُ آنيةٍ وخِرَقٌ مهترئةٌ وخُيوطٌ باهتةٌ من الكرنب المخلل، ومن تحتها انبثقَ جسم ضخم منتفخ معدوم الشكل مثل حبة بطاطس مشوهة، وراح يسوط الهواء بثلاثة مجسَّات وبشلو المجس الرابع.

ضرب جيرالت، الذي كان عالقًا ومقيدَ الحركة، بانعطافة واسعة لردفيْه، شاقًّا مجسًّا آخرَ بسلاسة. أما الآخران الغليظان كفروع الأشجار فسقطا عليه بقوة، وانغرسا في المخلفات إلى حد أعمق. تزحزح الجسم متحركًا نحوه، حارثًا المكبَّ مثل برميل يتدحرج. رأى الدرنةَ المقززةَ تنشقُّ منفرجةً عن فم واسع مملوء بأسنان كبيرة شبه مستطيلة. أتاح للمجسات أن تلتفَّ حول خصره، فانفلتتْ من المادة اللزجة النتنة بصوت يشبه المضغ، وبحركات دائرية جَرَتْ نحو الجسم المنغرس في المكب. أطبق الفم المسنن بتوحش وشراسة. ضرب الويتشر بسيفه الذي كان يمسكه بكلتا يديْه، مجرجرًا بالقرب من الفك الفظيع، وانغرس النصل بسلاسة ولين. قطعتِ الرائحةُ الكريهةُ ذات الطعمِ الحلوِ النَّفَسَ. صأى الوحشُ وارتعدَ، وتحررتِ المجسَّات وخفقتْ في الهواءِ باختلاج. هوى جيرالت، العالقُ في القمامة، بسيفِه مرة أخرى، بكل ما كان لديه من عزم، فقرقع النصلُ قرقعةً منفرةً وفرقع على الأسنان البارزة. قرقر المخلوق وتهاوى، لكنه انفجر على الفور زاعقًا وهو يرش الويتشر بمادة لزجة كريهة الرائحة. تحرر جيرالت وقد أمسك بالمسند بحركات عنيفة لساقيْه الغائصتيْن في القذارة، واندفع إلى الأمام شاقًّا القمامة بصدره كما يشق السبَّاح الماءَ، وضرب من الأعلى، بكل ما أوتي من بأس، مع قوة ضغطت النصل وهو يغرسه في الجسم بين العينين الفسفوريتيْن الباهتتيْن. تأوَّه الوحش بصوت بقبقة، وراح ينتفض متمددًا على كوم الروث مثل مثانة مثقوبة، مسببًا الإزعاج بهبَّات دافئة محسوسة، وموجات من الرائحة النتنة. وكانت المجسَّات ترتجف وتتلوَّى في العفن.

خرج الويتشر بمشقة من الكتلة اللينة الكثيفة، ووقف على أرضية عائمة مهتزَّة، لكنها صلبة. شعر بشيء لزج ومثير للاشمئزاز نفذ إلى حذائه، وراح يزحف على ربلته. فكَّرَ: هيا إلى البئر، للاغتسال بأسرع ما يمكن من هذا الشيء، من هذه القذارة. الاغتسال. خبطتْ مجساتُ المخلوقِ النفاياتِ مرةً أخرى، بشخير وبَلَل، وهمدتْ.

سقط نجم، مع برق بمقدار ثانية، أحيا السماء السوداء المبقَّعة بأضواء ساكنة، ولم ينطقِ الويتشر بأي أمنية.

كان يتنفس بصعوبة، بشخير، حاسًّا كيف يتلاشى تأثير جرعات الإكسير التي شربها قبل القتال. بدا كوم القمامة والنفايات العملاق جميلًا ومثيرًا،

وكان ملاصقًا لأسوار المدينة، ومنحدرًا إلى الأسفل تجاه شريط النهر الساطع، في ضوء النجوم. بصق الويتشر.

مات الوحش. لقد صار جزءًا من كوم القمامة الذي عاش فيه ذات يوم.

سقط نجم ثانٍ.

قال الويتشر بمشقَّة: «المكب. قذارة، وروث، وبراز».

2

عبستْ ينيفر، دون أن تبتعد عن المرآة التي كانت تغسل أمامها الصِّبَاغ لتزيلها عن جفنيْها ورموشها: «رائحتكَ كريهة، يا جيرالت. هيا، استحمْ».

قال متطلعًا إلى داخل الدلو: «لا ماء هنا».

وقفتِ الساحرة وفتحتِ النافذة أوسع مما كانت عليه: «سنتدبرُ الأمر. تُفضِّل الماءَ البحريَّ أم العاديَّ؟».

- البحري، من أجل التغيير.

نشرتْ ينيفر يديها بعنف، وصرختْ بتعويذة، مؤديةً إيماءة قصيرة وغامضة براحتيْها. ومن خلال النافذة المفتوحة هبَّتِ الريح فجأةً ببرد رطب حادٍّ، واهتزَّتِ المصاريع، ونفذ إلى الغرفة عجاج أخضر مصحوبٌ بصفير، وانقلب إلى كرة غير منتظمة. رغَّى طَسْتُ الغسيل بالماء المتماوج باضطراب، ضاربًا الحوافَ، ومتناثرًا على الأرضية. جلستِ الساحرة، وقد عادتْ إلى ما انقطع من عمل.

سألتْ: «نجح الأمر؟ ماذا كان في مكب النفايات هناك؟».

خلعَ جيرالت حذاءه ونضا عنه ملابسَه، ثم وضع قدمه في السطل: «زيوجل، كما ظننتُ. اللعنة يا ينِ، ما أبرده! ألا يمكنكِ تسخين هذا الماء؟».

قطرتِ الساحرةُ عينَها بشيء ما، بعد أن أدنتْ وجهها من المرآة، مستعينةً بمرود زجاجي صغير: «لا. مثل هذه التعويذة مرهقة كالوباء وتسبب لي الغثيان. وأنت، بعد جرعات الإكسير، ستريحك البرودة».

لم يجادلْ جيرالت. مجادلةُ ينيفر لا معنى لها.

دسَّتِ الساحرة المرودَ في القنينة، ثم قطرتْ عينَها الأخرى بشيء ما، معوِّجة فمَها بطريقة هزلية: «هل أثار زيوجل المتاعب؟».

- لا شيء مهم.

انبعث دوي من وراء النافذة المفتوحة، وفرقعة حادة من خشب متكسر، وصوت مُغمغم، ولازمة متكررة دون اتساق من أغنية فاحشة شهيرة.

تناولتِ الساحرة قنينةً أخرى من الطقم الباهر المصفوف على المنضدة، وسحبتِ الفلينة منها. وفاحتْ في الغرفة رائحة الليلك وعنب الثعلب: «زيوجل. تفضلوا، اسمعوا. ليس عسيرًا العثور على شغل للويتشر حتى في المدينة، فما من ضرورة تجعلكَ تجوب القِفار. أتدري، إن إسترْيد يقول إن ذلك يتحول فعلًا إلى قاعدة. صار يحلُّ محلَّ أي مخلوق آيل للانقراض من الغابات والمستنقعات شيء آخر، طفرة ما جديدة تتكيَّف مع البيئات التي خلقها الإنسان».

قَطَّب جيرالت، كما كان يفعل دائمًا عند ذكر إسترْيد. بدأ يضيق ذَرْعًا من انبهار ينيفر بعبقرية إسترْيد. حتى لو كان إسترْيد على حق.

واصلتْ ينيفر الكلامَ، وهي تمسح خديْها وجفنيْها بشيء تفوح منه رائحة الليلك وعنب الثعلب: «إسترْيد على حق. انظرْ بنفسكَ، الفئران الزائفة في المجارير والأقبية، والزيوجليون في مكبات القمامة، ووحوش المجارير في الخنادق المائية والمجاري الملوثة، والسحلبيات في بِرك الطواحين. هذا ما يقارب التكافل، ألا تظن ذلك؟».

والغيلان في المقابر تلتهم الموتى رأسًا في اليوم التالي بعد الجنازة، ظنَّ ذلك وهو يشطف الصابون عنه. تكافل كامل.

أزاحتِ الساحرةُ القنانيَ والبرطماناتِ جانبًا: «نعم... في المدن يمكن أيضًا إيجاد شغل للويتشر. أعتقد أنكَ ذات يوم ستستقر على نحو دائم في إحدى المدن، يا جيرالت».

فكَّرَ: فليصبْني الوباءُ قبل أن يكون ذلك. لكنه لم يقلْ ذلك بصوت مسموع. إن مخالفة ينيفر، كما كان يعلم، ستؤدي حتمًا إلى مشاجرة، والمشاجرة مع ينيفر لم تكنْ مِن آمَن الأشياء.

- هل انتهيتَ يا جيرالت؟
- نعم.
- هيا، اخرجَ من الطَّسْتِ.

لوَّحت ينيفر بيدها من غير مبالاة، دون أن تنهض، وتلفظتْ بتعويذة. تجمَّع الماءُ من الطَّسْتِ، مع ذلك المنسكبِ على الأرضية، وذلك المتقطِّرِ من جيرالت، وتركَّز هادرًا في كرة شبه شفافة وانقذف من النافذة بصفير. سمعَ جيرالت بقبقةً شديدةً.

انطلق صراخ غاضب من الأسفل: «ليأخذكم الوباءُ يا... أبناء العواهر! أليس لديكم مكان تصبُّون فيه بولكم؟ ألا فليلتهمنَّكم القمل أحياء، وليقهركم الخزي، وليتكم تفطسون!».

أغلقتِ الساحرة النافذة.

ضحك الويتشر بصوت خافت: «تبًّا يا ين. كان بإمكانكِ قذفُ الماءِ بعيدًا إلى مكان آخر».

تمتمت: «كان بإمكاني. لكنني لم أرغبْ في ذلك».

أخذتِ الفانوس من على المنضدة واقتربتْ منه. جعلها ثوب النوم الأبيضُ الملتصق بحركة جسدها جذَّابةً على نحو خارق. أكثر مما لو أنها كانت عارية – هكذا فكَّر.

قالت: «أريد أن أتفحَّصك. قد يكون زيوجل قد تمكن من خدشك.»

- لم يخدشْني. لو فعل لأحسستُ بذلك.
- بعد جرعات الإكسير؟ لا تجعلني أنفجر ضحكًا. بعد تلك الجرعات، لن تشعر بكسر مفتوح ما دام العظم البارز لم يبدأ في وكز الأسوجة النباتية. ويمكن أن يكون زيوجل حاملًا كل شيء، من بين ذلك الكزاز وسُمُّ الجثث. في حال وجود شيء ما، فلا يزال ثمة وقت لمكافحته. استدرْ.

أحسَّ بدفء خفيف يرتمي على جسده من شعلة الفانوس، وبلمسات ناعمة من شعرها، من حين إلى آخر.

قالت: «يبدو أن كل شيء على ما يرام. استلقِ قبل أن يطيح الإكسير برجليْك. هذه الخلطات خطِرة خطورة الشياطين. ستدمِّر نفسك بها ببطء».

- يجبْ أن أتناولها قبل القتال.

لم تردِّ ينيفر. جلستْ مجددًا قبالة المرآة، ومشَّطت ضفائرها السود الملتفَّة اللامعة. دائمًا ما كانت تمشط شعرها قبل الذهاب إلى الفراش. عَدَّ جيرالت ذلك فعلًا غريبًا، لكنه بالرغم من ذلك، كان يهوى مراقبتها وهي تفعل هذا الأمر. كان يشك في أن ينيفر كانت تعلم ذلك.

أحسَّ فجأة بحالة برد شديدة، وكانت جرعات الإكسير تهزه فعلًا، وتُخدِّر عنقه، وتجري في بطنه بدوامات من الغثيان. شتم بصوت خفيض وارتمى على السرير، ولمَّا يكفَّ في غضون ذلك عن التطلع إلى ينيفر.

لفتتِ انتباهه حركة في زاوية الغرفة، وشدَّت نظره. على قرون إيَّل مثبتة على الحائط باعوجاجٍ، ومغطاةٍ بنسْج العنكبوت، جَثَمَ طائر صغير أسود كالقطران.

أدار رأسَه جانبًا، ونظر إلى الويتشر بعين صفراء ثابتة.

- ما هذا يا ين؟ من أين جاء هذا إلى هنا؟

أدارتْ ينيفر رأسها: «ماذا؟ هذا.. هذا عوسق»[1].

- عوسق؟ العواسق لها بقع حمر، وهذا أسود.

- هذا عوسق سحري. أنا صنعته.

- لأي غرض؟

- أحتاج إليها.

قطعتْ كلامَها. ولم يطرحْ جيرالت أي أسئلة أخرى، كان يعلم أن ينيفر لن تجيب.

- ستذهب غدًا إلى إسترْيد؟

أزاحت الساحرة القنانيَ إلى حافة المنضدة، وأخفتِ المشط في الصندوق، ثم أغلقتْ إطارات المرآة ثلاثية الدرفات.

- سأذهب. عند مطلع الصباح. وماذا؟

- لا شيء.

---

(1) عوسق أو غاسوق: طائر يسمى أيضًا صقر الجراد.

استلقتْ بجانبه، دون أن تطفئ الفانوس. لم تكنْ تطفئ الضوء قطُّ، فهي لم تكن تطيق النوم في الظلام. وكان يجب أن يترك كل ما يضيء حتى يخبو تمامًا، سواء أكان فانوسًا، أم مصباحًا، أم شمعة. دائمًا. أمر غريب آخر. كان لدى ينيفر عدد لا يُصدَّق من الغرائب.

- ين؟

- ها؟

- متى سنخرج من هنا؟

شدَّت اللحاف بحدة: «لا تكن مملًّا. نحن هنا منذ ثلاثة أيام، وقد طرحتُ هذا السؤال ثلاثينَ مرة على الأقل. قلتُ لكَ، لديَّ قضايا سأسوِّيها».

- مع إسترْيد.

- نعم.

تنهَّد وعانقها، دون أن يخفي نيته.

همستْ: «هيه. تناولتَ جرعات الإكسير...».

- وماذا في ذلك؟

- لا شيء.

ضحكتْ ضحكةً خافتة كمراهقة، وهي ترتمي في حضنه، منثنيةً ورافعةً نفسها كي تسهل إزاحة قميصها. كالعادة، أثار انبهارُه بعريِها الرجفةَ على طول ظهرِه، وجعل أصابعه الملامسة لبشرتها خدرة. لمس بشفتيْه نهديْها المكوريْن الناعميْن، ومقدمتيهما الشاحبتيْن إلى درجة أنهما لم تحتفظا إلا بشكلهما. مرَّر أصابعه في شعرها الذي فاحت منه رائحة الليلك وعنب الثعلب.

استسلمتْ لمداعباته، وهي تهرهر كقط، وتحك وركه بركبتها المثنية.

سرعان ما اتضح أنه، كالعادة، بالغ في تقدير قدرته على تحمل الإكسير الويتشري، ونسيَ تأثيره القميء في الجسم. فكر: ربما ليس الإكسير، ربما هو التعب من القتال والمخاطرة والخطر والموت؟ التعب الذي لم أعد أعيره اهتمامًا بحكم رتابته؟ لكنَّ جسمي، مع أنه قد تمتَّن بطريقة مصطنعة، لا يخضع للرتابة. يتفاعل تفاعلًا طبيعيًّا. لكنْ فقط عندما لا يكون ثمة داعٍ لذلك. تبًّا للوباء.

لكنَّ ينيفر، كالعادة، لم تسمحْ أن تُثبَّط عزيمتها لأي سبب تافه. أحسَّ بها تلمسه، وسمع هرهرتها، قُرْبَ أذنه تمامًا. كالعادة، تفكَّر على نحو غير إرادي في العدد الفلكي للمناسبات الأخرى، التي كان عليها أن تستخدم فيها هذه التعويذة العملية إلى حد كبير. ثم توقف عن التفكير.

كالعادة كان الأمر غير عادي. نظر إلى فمها، إلى زاويته المرتجفة بابتسامة غير إرادية. كان يعرف تلك الابتسامة جيدًا، وقد بدتْ له دائمًا أنها انتصار أكثر من كونها سعادة.

لم يسألْها عن ذلك قطُّ. كان يعلم أنها لن تجيب. رفرف العوسق الأسود الجاثم على قرون الإيَّل بجناحيه، وأطبقَ منقارَه الأعوج. أدارت ينيفر رأسها وتنهَّدتْ بحزن بالغ.

- ين!

قبَّلته، وقالت: «لا شيء يا جيرالت. لا شيء».

ومض الفانوس وميضًا خافتًا متمايلًا. في الجدار فأر يصدر صريفًا، وفي الخوان ذي الأدراج خنفساء لحاء تدق دقات خافتة بتوالٍ متناسب ومتماثل.

- ين!

- هممم؟

- فلنخرجْ من هنا. أشعر بسوء الحال هنا. هذه المدينة تؤثر فيَّ تأثيرًا فظيعًا.

انقلبتْ على جنبها، ومرَّرت يدها على خده، رادَّةً شعرها، وسيَّرت أصابعها إلى أسفل، ولمستِ الندوبَ السميكةَ التي شكَّلت علامات على جانب من رقبته.

- هل تعلم ماذا يعني اسم هذه المدينة؟ أيِد جينفايل؟

- لا. هل هو من لغة الإلفيين؟

- أجل. ويعني فُتاتة جليد.

- ذلك لا يتناسب مع هذه الحفرة البائسة على نحو غريب.

همستِ الساحرة شاردةَ الذهن: «تدور بين الإلفيين أسطورة عن ملكة الشتاء التي تجوب البلاد وقت العاصفة الثلجية بزلَّاجة تجرها خيول بيض. تنثر الملكة من حولها، في أثناء سيرها، كِسَرَ جليد صغيرة صلبة وحادة، وويل لمن يصاب بمثل هذه الكِسَرِ في العين أو في القلب. مثل ذاك الشخص

سيضيع. لا شيء بعد ذلك يمكن أن يجعله سعيدًا، وسيكون في نظره أي شيء ليس له بياض الثلج قبيحًا ومقززًا ومثيرًا للاشمئزاز. لن يعرف السكينة، وسيترك كل شيء، ويتبع الملكة وحلمه وحبه. طبعًا، لن يجد شيئًا من هذا أبدًا، وسيموت من شدة الشوق. وعلى ما يبدو، فإن شيئًا من هذا القبيل قد حدث هنا، في هذه المدينة، في عصور سحيقة. أسطورة رائعة.. أليس كذلك؟».

تمتم ناعسًا وهو ينقل شفتيْه على كتفها: «يجيد الإلفيون تغليفَ كل شيء بكلمات جميلة. إنها ليست أسطورة بتاتًا يا ين. هي توصيف جميل للظاهرة القميئة التي تُسمَّى **المطاردة الوحشية**، لعنة مناطق معينة. جنون جماعي لا يمكن تفسيره، يجبر الناس على الانضمام إلى الموكب الشنيع الذي يندفع عابرًا السماء. رأيتُ ذلك. في الواقع، يحدث هذا كثيرًا في فصل الشتاء. عُرض عليَّ مبلغ غير قليل من المال لأضع حدًّا لهذا الوباء، لكنني لم أفعل. ما من وسيلة لصد **المطاردة الوحشية**...».

همستْ وهي تُقبِّله على خده: «ويتشر. ليس فيكَ ولا حتى نُتفة من الرومانسية. وأنا... أنا أحب أساطير الإلفيين، إنها رائعة جدًّا. أمر مؤسف أن الناس ليس لديهم مثل هذه الأساطير. ربما ستكون لديهم مثلها يومًا ما؟ ربما سيبتدعونها؟ لكنْ إلامَ ستتطرق أساطير البشر؟ أنى نظرتَ حولكَ، وجدتَ كل شيء رماديًّا وشاحبًا. حتى ذاك الشيء الذي يبدأ رائعًا، سرعانَ ما سيكون مآله الملل والابتذال، في هذه الشعائر البشرية، هذا الإيقاع المضني الذي يُسمَّى الحياة. أوه يا جيرالت، ليس من السهل أن أكون ساحرة، لكنَّ مقارنة ذلك بالوجود البشري العادي... جيرالت!».

أسندتْ رأسها إلى صدره متحركةً بأنفاس بطيئة.

همست: «نم. نم يا ويتشر».

3

أثَّرتِ المدينة فيه تأثيرًا سيئًا.

منذ مطلع الصباح. منذ مطلع الصباح، أفسد كلُّ شيء مزاجَه، وجعله يشعر بالكآبة والحنق. كل شيء. غضب لأنه نام، وهذا ما جعل الصباح نفسه هو الظهر عمليًّا. ووتَّرَه غياب ينيفر التي خرجت قبل أن يستيقظ.

لا بدَّ أنها كانت في عجلة من أمرها، لأن الأواني التي عادةً ما كانت تصفُّها متسقة في الصناديق، ارتمتْ على المنضدة متناثرةً من غير انتظام، كمكعبات الزَّهر التي يُلقي بها العراف في طقوس التنبؤ. والفُرَش المصنوعة من الشعيرات الرقيقة – أكبرها تستخدم لبَوْدَرة الوجه، وأصغرها هي تلك التي كانت تدهن بها شفتيْها بالأحمر، وتلك هي الفرش الصغيرة جدًّا للحناء التي كانت تصبغ بها رموشها. وأقلام وأعواد الجفون والحواجب. والملاقط والملاعق من الفضة. والجِرار والبرطمانات والقوارير من البورسلين والزجاج الحليبي التي تحتوي، كما كان يعلم، على الإكسير والمراهم بمكونات تافهة تفاهة بالغة، كالسِّناج ودهن الإوز وعصير الجزر، وغامضة على نحو خطِر كاليبروح والإثمد والبيلادونا والقنب ودم التنين وسم العقارب العملاقة المركَّز. وفوق ذلك كله، وفي جميع الاتجاهات، فاحت في الهواء رائحة الليلك وعنب الثعلب، العطر الذي كانت تستخدمه دائمًا.

كانت في هذه الأشياء. كانت في هذه الرائحة.

لكنها لم تكن هناك.

نزل إلى الأسفل، حاسًّا بقلقه المتنامي وغضبه المتزايد على كل شيء.

أثار البيض المقلي البارد والصلب حنقَه، وهو ما قدَّمه صاحب الخان له في وجبة الفطور، وقد انفكَّ لحظةً عن الصبية التي كان يتلمسها في غرفة التخزين. ما أثار حنقَه أن الصبية لم يكن لها من العمر أكثر من اثني عشر عامًا. وقد اغرورقت عيناها بالدموع.

لم يحسِّن من مزاج جيرالت الجوُّ الربيعيُّ الدافئُ وهمهمة الشارع البهيج النابض بالحياة. فلا شيء يعجبه في **أيد جينفايل** إلى الآن، البلدة التي رأى

فيها محاكاةً خبيثةً لجميع البلدات التي يعرفها – لقد كانت أصخب وأكتم للنَّفس وأقذر وأكثر إثارة للتوتر بطريقة كاريكاتورية.

كان لا يزال يشعر بنتانة باهتة لمكبِّ قمامة مقيم في ملابسه وشعره، فقرَّر الذهاب إلى الحمام.

وتَّرتْه، وهو في المغتسل، تعابيرُ وجهِ ناظرِ الحمَّام الذي حدَّق إلى الميدالية الويتشرية وإلى السيف الموضوع على حافة الحوض. ما وتَّره هو أن ناظر الحمَّام لم يعرض عليه مومسًا. لم تكن لديه نية الاستفادة من خدمات البغايا، لكنهم في الحمَّامات يعرضون مثل هذه الخدمات على الجميع، فما أغضبه أنهم جعلوه استثناءً.

عندما خرج، وكانت رائحة الصابون الرمادي الصلب تفوح منه بحدة، لم يتحسَّن مزاجه، ولم تكتسبْ **أيد جينفايل** أيَّ جمال ولو قليلًا. ولا يزال الأمر هنا كما كان، لا شيءَ فيه يمكن أن يستهويه. لم تُعجِب الويتشر أكوامُ السماد الحر التي تغصُّ بها الأزقة. لم يعجبْه المتسولون الجاثون أسفل جدار المعبد. لم تعجبْه الكتابة العوجاء على الحائط التي تقول: **الإلفيون إلى المحمية!**

لم يُسمَح له بالدخول إلى القصر، ورُدَّ إلى النقابة التجارية بغية البحث عن القائمقام[1]. وهذا ما وتَّره. وقد وتَّره أيضًا كبيرُ النقابة، الإلفي، عندما طلب منه أن يبحث عن القائمقام في ساحة السوق، وكان ينظر إليه نظرة ازدراء واستعلاء غريبة عند شخص على وشك أن يُطرَد في الحال إلى المحمية.

عجَّتِ الساحة بالناس، ملأى بالأكشاك والعربات والخيول والثيران والذباب. انتصبتْ مُشهِّرةٌ[2] على منصة مرتفعة، فوقها شخص محكوم، كان العامة المحتشدون يرشقونه بالطين والروث. وقد قَذَفَ المحكومُ معذِّبيه بالشتائم المهينة، برباطة جأش مثيرة للإعجاب، دون أن يرفع صوته على نحو مميز

بالنسبة إلى جيرالت، الذي يتمتع بخبرة لا بأس بها، كان الهدف من وجود القائمقام وسط هذه الضوضاء واضحًا تمامًا. كان لدى تجار القوافل

(1) القائمقام: منصب إداري لمديري الأقضية، دون المحافظ.

(2) المُشَهِّرَة أو الجِنِاك: جهاز مصنوع من إطار خشبي أو معدني يُشيد على أحد الأعمدة، مع وجود ثقوب لاحتواء الرأس واليدين، كانت تستخدم للعقاب من خلال الإذلال العلني والمزيد من الإساءة البدنية.

الوافدون رُشًى محسوبة ضمن الأسعار، لذلك كان عليهم تسليم هذه الرُشَى لشخص ما. ظهر القائمقام، المدرِك أيضًا لهذا العُرف، حتى لا يُضطَر التجار إلى بذل جهد كبير.

المكان الذي يدير منه عمله عُلِّم بظُلَّة زرقاء متسخة، منفرجة على أوتاد. كانت ثمة منضدة يحيط بها مراجعون كانوا يصرخون بتوتر. كان القائمقام هِربولث جالسًا إلى المنضدة، مُبدِيًا أمام جميعِ الحاضرين الاحتقار والازدراء المرتسمين على وجهه الباهت.

- هيه! أنت إلى أين؟

أدار جيرالت رأسه ببطء. وكتم غضبه في الحال، متحكِّما في توتره، وجمد في فتاتة جليد صلبة وباردة. لا يمكنه أن يسمح لنفسه أن يكون عاطفيًا بعد الآن. كان الرجل الذي سدَّ عليه الطريق ذا شعر مُصفَرٍّ مثل ريش الصفير الذهبي، وذا حاجبين متماثلين تمامًا فوق عينيْن شاحبتيْن وفارغتيْن. أسند كفيه الضيقتيْن بأصابعهما الطويلة إلى حزام من الصفائح النحاسية المتينة مثقل بسيف وصولجان وخنجريْن.

قال الرجل: «أوه. عرفتكَ. أنت الويتشر، أليس كذلك؟ إلى هربولث؟».

هزَّ جيرالت رأسه، دون أن يكفَّ عن مراقبة يديِ الرجل. كان يعلم أن ترك يدي هذا الرجل خارج نطاق نظره أمر خطر.

قال ذو الشعر الأصفر، وهو يراقب يديْ جيرالت بيقظة: «لقد سمعتُ بكَ يا جزار الوحوش. ومع أني يبدو لي أننا لم نلتقِ قطُّ من قبل، فأغلب الظن أنك سمعتَ بي أيضًا. أنا إيفو ميرس. بيدَ أن الجميع يدعونني بالزيز».

أومأ الويتشر برأسه في إشارة أنه سمع به. كان يعلم أيضًا ما الثمن الذي يُدفَع مقابل رأس الزيز في فيزيما وكايلف وفاتوير. لو سُئل عن رأيه، لقال إنه ثمن ضئيل جدًّا. لكنه لم يُسأل.

قال الزيز: «حسنًا. القائمقام، حسب علمي، ينتظرك. يمكنك الذهاب. لكنَّ السيف يا صديقي ستتركه. كما ترى، هنا يدفعون لي مقابل أن أحرس مثل هذه المراسيم. لا يحق لأي شخص أن يقترب من هربولث حاملًا السلاح. فهمت؟».

هزَّ جيرالت كتفيه دون اكتراث، وفكَّ حزامه، ثم لفَّ به الغمد وسلم السيف إلى الزيز.

ابتسم الزيز بزاوية فمه.

قال: «إذن تفضَّل. يا للتهذيب الجم، ولا كلمة احتجاج واحدة. كنت أعلم أن الشائعات التي تقال عنك مبالغ فيها. أود أن تطلب أنت يومًا ما سيفي، لترى حينئذٍ ردي».

فجأة صاح القائمقام، وهو ينهض: «هيا، أيها الزيز! دعه يمر! تعالوا هنا بسرعة يا سيد جيرالت، مرحبًا، مرحبًا. تنحُّوا جانبًا أيها السادة التجار، اتركونا وحدنا بعض الوقت. مصالحكم يجب أن تفسح المجال لقضايا ذات أهمية كبرى للمدينة. التماساتكم قدِّموها لأمين السر في مكتبي!».

لم تخدعْ حفاوةُ الاستقبال المتصنعة جيرالت. كان يعلم أنها لم تكن سوى ورقة مساومة، لا غير. كسب التجار وقتًا للتفكير في أكانت الرُّشَى على قدر عالٍ بما يكفي.

ردَّ هربولث على انحناءة الويتشر غير المبالية بما يساويها: «أراهن أن الزيز قد حاول استفزازك. لا تقلق من ذلك. الزيز لا يُشهِر سلاحه إلا مأمورًا. صحيح أنه لا يستمرئ ذلك كثيرًا، لكنني ما دمتُ أدفع له فعليه الاستماع، وإلا فليغرب إلى قارعة الطريق الريفية من جديد. لا تقلق منه».

- تبًّا، وما حاجتكم إلى شخص مثل الزيز أيها القائمقام؟ هل الوضع هنا خطِر إلى هذا الحد؟

ضحك هربولث: «الوضع آمنٌ لأنني أدفع للزيز. شهرته تملأ الآفاق وهذا مريح لي. كما ترى، أيد جينفايل والمدن الأخرى في وادي تويني تخضع لولاة من راكفيرلين. والولاة يستبدلون في كل موسم في الأوقات الماضية الأخيرة. وليس معلومًا الهدف من استبدالهم أصلًا، لأن نصفهم على أي حال أنصاف إلفيين أو أرباع إلفيين، ملعون دمهم وعرقهم، كل ما هو شر سببُه الإلفيون».

لم يضفْ جيرالت بأن سببه أيضًا سائقو العربات، وهذه مع أنها نكتة معروفة لم تكن تُضحِك الجميع.

تابع هربولث المستاء: «كل والٍ جديد يبدأ بإقصاء آمري القلاع ومديري الأقضية من العهد القديم ليجلس على كراسيهم أقاربه ومعارفه. ولكن بعد ما فعله الزيز ذات يوم بمبعوثي أحد الولاة، لم يعد أحد يحاول إقصائي من وظيفتي، وإني أقدَم قائمقام من العهد الأقدَم، حتى إنني لم أعد أتذكر أي عهد هو. حسنًا، وها نحن هنا نثرثر وقد انطبق الوريد، كما اعتادتْ أن تقول

زوجتي الأولى المغفور لها. فلندخلْ في الموضوع. ما هذا الزاحف الذي خرج لك في كوم القمامة خاصتنا؟»؟.

- زيوجل.
- لم أسمع بمثل هذا الشيء قطُّ. أفترض أنه قد ذُبِحَ؟
- لقد ذُبِحَ.
- كم سيكلف هذا خزانة المدينة؟ سبعون؟
- مئة.
- واو، واو يا سيد ويتشر! لا بدَّ أنكم قد ابتلعتم كمية من الشوكران! مئة مارك لقتل دودة تافهة في كوم براز؟
- دودة أم لا، لقد ابتلع ثمانية من البشر أيها القائمقام، حسب ما أفدتمونا أنتم.
- بشر؟ يا للهول! حسب ما بلغني فقد أكل الوحش الضخم زاكوريك المُسنَّ الذي اشتهر بأنه لم يكن يصحُو من سُكْرِه قطُّ، وعجوزًا من أرباض المستوطنات، وبضعة أطفال لعامل النقل سوليراد، الذين مضى وقت غير قليل لاكتشاف ما جرى لهم، لأن سوليراد نفسَه لا يعرف عدد أطفاله، فهو ينجبهم بسرعة بالغة بحيث لا يمكنه أن يحصيهَم. يا لهؤلاء البشر! ثمانون.
- لو لم أقتل زيوجل، لالتهم من هم أهم بعد مدة وجيزة. فلنقل: الصيدلي مثلًا. فمن أين ستحصلون عندئذ على مرهم للقُريْح[1]؟ مئة.
- مئة مارك مبلغ ضخم. لا أعرف أكنت سأدفع هذا القدر من المال مقابل هيدرا ذات تسعة رؤوس. لنقل خمسة وثمانون.
- مئة يا سيد هربولث. ضعوا في اعتباركم أن لا أحد من السكان المحليين، ولا أستثني منهم الزيز الشهير، استطاع التغلب على زيوجل بأي طريقة كانت، مع أنه لم يكن هيدرا ذات تسعة رؤوس.
- لأن لا أحد هنا اعتاد نبش الروث والنفايات. كلمتي الأخيرة: تسعون.

(1) القُريْح أو القرح اللين: مرض بكتيري يصيب الجهاز التناسلي، وينتقل عن طريق الاتصال الجنسي أو التلامس المباشر للمنطقة المصابة.

- مئة.

- خمسة وتسعون، بحق الشياطين والأبالسة!

- اتفقنا.

ابتسم هربولث ابتسامة عريضة: «حسنًا. سُوِّيَ الأمر. هل تساوم دائمًا بهذه الروعة أيها الويتشر؟».

لم يبتسم جيرالت: «لا. بالأحرى نادرًا. لكني أردتُ أن أدخل السرور إلى نفسكم أيها القائمقام».

قهقه هربولث: «وَقد فَعَلْتَ، فليأخذكَ الطاعون».

- يا فُطيْري! تعالَ هنا وحدك! هاتِ الكتاب والمحفظة، وَعُدَّ لي تسعين ماركًا هنا في لمح البصر.

- المفروض أنها خمسة وتسعون.

- والضريبة؟

نبر الويتشر بشتيمة مكتومة. وضع القائمقام على الإيصال طابعًا أنيق الشكل، ثم راح يعبث بأذنه بطرف ريشة نظيفة.

- الذبيحة، هل يحل الهدوء في المزبلة الآن؟ ها يا ويتشر؟

- ينبغي له أن يحل. لم يكن هناك سوى زيوجل واحد. وحقيقة الأمر أنه ربما قد تمكن من أن يتكاثر. مخلوقات الزيوجل ثنائية الجنس كالحلازين.

نظر هربولث إليه بطرفيْ عينيْه: «ما هذه الخزعبلات التي تُتحفْني بها هنا؟ لا بدَّ من وجود زوجيْن للتكاثر، أي ذكر وأنثى. ماذا، أتُفرِّخ هذه الزيوجلات، مثل البراغيث أو الفئران، من القش الخمج في حشية منه؟ أي أحمق تراه يعرف أنه ليس ثمة فئران وفرانب[1]، جمعيها متماثلة وتُفرِّخ من تلقاء نفسها، ومن القش الخمج».

تدخَّل أمين السر، فُطيْري الذي كان لا يزال منشغلًا في صفِّ النقود المعدنية على هيئة أعمدة: «والحلازين تفرِّخ من الورق الرطب».

(1) ا الفِرنِب أو القَرنب: أنثى الفأر.

وافق جيرالت مبتسمًا بوداعة: «الجميع يعلم ذلك. ليس ثمة حلازين وحلزونات. ثمة أوراق فقط. ومخطئ من يعتقد غير ذلك».

قاطعه القائمقام ناظرًا إليه بعين الريبة: «كفى. ضاق صدري بالحديث عن الديدان. سألتُ أكان قد فرَّخ لنا شيئًا ما في مكب النفايات من جديد، وأجبْني، لو تكرمتَ، بوضوح واختصار».

- بعد ما يقارب الشهر، سيكون من اللازم اختراق المكب، والأفضل بمعية الكلاب. الزيوجلات الصغيرة ليست خطِرة.

- وأنت، ألا تستطيع فعل ذلك يا ويتشر؟ أما بخصوص الأجر فسوف نتفق.

تناول جيرالت المال من يدي فُطيْري: «لا! ليست لديَّ النية للبقاء في مدينتكم الخلابة، ولو حتى أسبوعًا واحدًا، فما بالك أن أبقى شهرًا».

ابتسم هربولث ابتسامةً عوجاءَ، ناظرًا إلى عينيْه مباشرةً: «تروي أشياء مثيرة. مثيرة حقًّا. وأنا أظنك ستمكث هنا مدة أطول».

- ظنكم غير صائب أيها القائمقام.

- أحقًّا؟ جئت إلى هنا مع تلك العرافة سوداء الشعر، ماذا تُدعَى؟ لقد نسيتُ... جُينيفر، ربما. في «تحت سمك الحفْش» مكثتَ معها في إحدى الدور. وقيل في غرفة واحدة.

- وماذا في ذلك؟

- فيه، أنها كلما حلَّت على أيد جينفايل ضيفةً، كانت لا تغادرها بسرعة. وبخصوص مجيئها إلينا، فقد كانت عندنا من قبل.

ابتسم فُطيْري ابتسامة عريضة ثرماء وذات مغزى. وكان هربولث لا يزال ينظر إلى عينيْ جيرالت دون أن يبتسم. وابتسم جيرالت أيضًا بأبشع صورة ممكنة.

صوَّب القائمقام بصره إلى اتجاه آخر، وراح يُدير عقب حذائه في الأرض: «في المحصلة أنا لا أعلم شيئًا. وأهمية هذا الأمر عندي كأهمية براز الكلاب. لكنَّ الساحر إسترْيد، ضعوا هذا في اعتباركم، شخص مهم عندنا. ويمكنني القول إنه لا بديل عنه لهذه المدينة، ولا يُقدَّر بثمن. يحظى باحترام الناس،

سواء المحليين أو الآخرين من أي مكان. نحن لا نحشر أنوفَنا في سحره، ولا في شؤونه الأخرى على وجه الخصوص».

وافق الويتشر: «قد يكون هذا صحيحًا. ولكنه أين يسكن، إذا جاز لي السؤال؟».

- ألا تعرف أين؟ إنه هنا، أترى ذاك المنزل؟ ذاك الأبيض العالي، المحشور بين المستودع ومخزن الأسلحة كشمعة في الردفيْن دون قياس. لكنك لن تجده هناك الآن. منذ وقت غير بعيد احتفر إستْريد شيئًا في الأرض على طول الحاجز الترابي الجنوبي، والآن يشق الأخاديد مثل الخلد. وقد قاد الناس من عندي إلى هذه الحفر. ذهبتُ إليه أسأله بأدب، لِمَ أيها المعلم تحفرون هذه الحفر كطفل، فبدأ الناس يتضاحكون. ماذا يوجد في هذه الأرض؟ ونظر إليَّ كما ينظر إلى أحد العجزة المساكين، وقال: «التاريخ». فأسأله مجددًا أيُّ تاريخ. يردُّ: «تاريخ البشرية. الإجابتان عن السؤالين. عن السؤال، ماذا كان، وعن السؤال، ماذا سيكون». كان ردي، أنه قبل بناء المدينة كانت هنا قذارة وأرض بور وشجيرات ومستذئبون. وما سيكون، سيعتمد على من سيُعيَّن واليًا على راكفيرلين، ومجددًا على أي نصف إلفي بائس. ليس في الأرض أي تاريخ، لا شيء هناك، ربما الديدان الأسطوانية فقط، إذا شعر أحد برغبة في صيد السمك. أتظن أنه استمع إليَّ؟ هيهات. لا يزال يحفر. لذا إن كنت تريد رؤيته، فاذهب إلى تحت الحاجز الترابي الجنوبي.

شخر فُطيْري: «لا يا سيدي القائمقام، إنه في المنزل الآن. أين سيتسنى له الحفر الآن، الآن عندما...».

نظر هربولث إليه نظرة تهديد. تقوَّس فُطيْري وتنحنح، محرِّكًا رجليْه. عَقَدَ الويتشر ذراعيْه على صدره، وهو لا يزال مبتسمًا ابتسامةً ليستْ وديعةً.

تنخَّم القائمقام: «نعم، إحم، إحم. من يدري؟ لعل إستْريد حقًّا في المنزل الآن. وفي النهاية، ما لي وله...».

قال جيرالت، دون أن يحاول حتى محاكاة انحناءة التحية: «دمتم بعافية أيها القائمقام. أتمنى لك نهارًا طيبًا».

سار إلى الزيز، الذي خرج للقائه مقرقعًا بسلاحه. دون أن ينبسَّ بكلمة، مدَّ يده طالبًا سيفَه الذي كان الزيز يمسكه بثنية مرفقه.

تراجع الزيز.

- أمستعجل أنت أيها الويتشر؟

- مستعجل.

- لقد تفحصتُ سيفَك.

قاسه جيرالت بنظرة، لا يمكن أن تعدَّ دافئة، حتى في أحسن درجات حسن النية.

أومأ برأسه: «شيء يمكن التباهي به. قلَّة من تسنَّت لهم معاينته. وأقل من تلك القلة تسنَّى له أن يُحدِّث عن ذلك».

لمع الزيز بأسنانه: «واه، واه. مخيف جدًّا ما نطقتَ به، حتى إن القشعريرة سرتْ بي. دائمًا ما أثار فضولي أيها الويتشر، لماذا يخافكم الناس إلى هذه الدرجة! وأظن أنني صرتُ أعرف لماذا».

- أنا في عجلة من أمري، أيها الزيز. أعطني السيفَ، لو تكرمتَ.

- دخان في عينيك أيها الويتشر، لا شيء سوى الدخان في عينيك. تُخيفون الناس كما النحَّال يخيف النحل بالدخان والرائحة الكريهة، بوجوهكم الحجرية هذه، بهذا الكلام، والشائعات التي لعلكم تنشرونها عن أنفسكم. والنحل يهرب من الدخان، فهو أبله، وبدلًا من غرس إبرة في مؤخرة الويتشر التي ستنتفخ حينئذٍ مثل أي واحدة أخرى. يقولون إنكم لا تشعرون كما يشعر البشر. هذا كذب. فلو طُعِنَ أحدكم طعنة نافذة، لشعر بها.

- هل انتهيتَ؟

قال الزيز، وهو يسلمه السيف: «نعم».

ثم سأله..

- أتعلم ما الذي يثير فضولي أيها الويتشر؟

- أعلم. النحل.

- لا. تراودني فكرة، إذا دخلتَ الزقاقَ بالسيف من جهة، وأنا من الجهة الأخرى، فمن منا سيصل إلى نهاية الزقاق؟ شيء يتراءى لي أنه يستحق الرهان.

- لماذا تضايقني أيها الزيز؟ تبحث عن شِجار؟ ما قصدكَ من وراء ذلك؟

- لا شيءَ. أشعر بالفضول فقط لمعرفة مقدار الحقيقة في ما يقوله الناس. أنكم بارعون في القتال، أنتم أيها الويتشريون، فلا قلب فيكم، ولا روح، ولا رحمة، ولا ضمير. هل هذا يكفي؟ فهم مثلًا يقولون عني الشيء ذاته. وليس دون أسس. لذا فإني أشعر بالفضول الشديد، مَن مِنَّا، اثنينا، بعد دخول الزقاق، كان سيخرج منه حيًّا. ما ترى؟ ألا يستحق الأمر الرهان؟ ما رأيك؟

- قلتُ لك، أنا في عجلة من أمري. لن أضيعَ وقتي في التفكر في حماقات، ولم أعتدْ أن أراهن. لكنْ إن عنَّ لبالك في وقت ما أن تزعجني خلال سيري في الزقاق، فأنصحك نصحًا طيبًا، أيها الزيز، بالتفكير مليًّا أولًا.

ابتسم الزيز: «دخان. دخان في عينيك أيها الويتشر. لا شيء آخر. إلى اللقاء، من يدري، ربما في زقاق ما؟».

- من يدري!

4

- هنا سيكون بإمكاننا التحدث بحرية. اجلس يا جيرالت.

كان عدد الكتب المذهل أكثر ما يلفت النظر في المشغل – فقد احتلت الكتب جُلَّ المساحة في هذه الغرفة الفسيحة.

ملأت المجلدات السميكة الخزانات الجدارية، أثنت الأرفف، وتكدَّست على الصناديق والأصونة. ولا بدَّ أنها كلَّفت، كما قدَّر الويتشر ثمنَها، ثروةً كبيرةً. ولم ينقصْها، طبعًا، عناصر نموذجية أخرى للتزيين: تمساح محشو، وسمكة نيص مجفَّفة معلَّقة في السقف، وهيكل عظمي مغبر، ومجموعة ضخمة من برطمانات بها كحول وتحتوي على كل قبح يمكن تخيُّله. وحُرَش وعناكب وثعابين وعلاجيم، وكذلك أشلاء بشرية وغير بشرية تُعَدُّ فلا تحصى، وفي معظمها أحشاء. حتى إن الأُنَيْسيان كان هناك، أو شيء يشبه الأُنَيْسيان وصحيح أيضًا أنه قد يكون مخلوقا حديث الولادة مدخَّنًا.

لم تتركْ هذه المجموعة في جيرالت انطباعًا جاذبًا – فقد سكن عند ينيفر في فينجربيرج نصف عام، وكان لدى ينيفر مجموعة أكثر إثارة للاهتمام، تحتوي حتى على قضيب ذكري ذي مقاسات لم يسمعْ بها من قبل، وكان على ما يُظَنُّ لعفريت الترول الجبلي. كان في حوزتها أيضًا أحادي قرن محشو بطريقة موفقة إلى درجة كبيرة، كانت تهوى ممارسة الحب على ظهره. كان رأي جيرالت أنه إذا كان ثمة مكان أقل صلاحية لممارسة الحب، فلعله لن يكون إلا ظهر أحادي قرن حي. على النقيض منه، وكان يرى في السرير رفاهية، ويثمِّن جميع الاستخدامات الممكنة لهذه القطعة الرائعة من الأثاث، كانت ينيفر تبدو مسرفة بجنون. تذكر جيرالت اللحظات الجميلة التي قضاها مع الساحرة على السطح المنحدر، في جوف شجرة مليء بنشارة الخشب، على شرفة لشخص غريب، على متكأ الجسر، على زورق ضيق مهتز على نهر شديد التدفق، وفي أثناء التحليق الصاعد إلى ثلاثين قامة فوق الأرض. لكنَّ أحادي القرن كان الأسوأ. فذات يوم سعيد، انكسرت الدمية تحته، تمزقت وتفتت، موفرةً أسبابًا عدَّة للضحك.

سأله إستْريد، جالسًا إلى منضدة طويلة غصَّ سطحُها بعدد كبير من الجماجم المتعفنة والعظام والحديد الصدئ: «ما الذي يسلِّيك هكذا، أيها الويتشر؟».

جلس الويتشر قبالته، مشيرًا إلى البرطمانات والقوارير: «في كل مرة أرى هذه الأشياء، أتساءل هل حقًّا أن من غير الممكن مزاولة السحر دون كل هذا القبح المقزز الذي تنكمش المعدة عند رؤيته».

قال الساحر: «المسألة مسألة ذوق. وكذلك مسألة تعوُّد. ما يثير اشمئزاز أحد الناس، فإنه لسبب ما لا يحرك الآخر. وأنت يا جيرالت ما الذي ينفِّرك؟ ما الذي، يا ترى، يمكن أن يجعل شخصًا يشمئز، وهو كما سمعتُ يمكنه أن يغوص في الروث والقذارة حتى رقبته من أجل المال؟ أرجو ألا تأخذ هذا السؤال على أنه إهانة أو استفزاز. أنا فضولي حقًّا، أتساءل ما الذي قد يثير شعور الاشمئزاز عند الويتشر».

– ألا تحتفظ في هذا البرطمان الصغير بدم حيض عذراء لم يمسسْها أحد يا إستْريد؟ اعلمْ أنني أشمئز حين أتخيلكَ ساحرًا جادًّا، في قبضتِهِ قارورة صغيرة، محاولًا الحصول على هذا السائل الثمين من المصدر عينِه قطرة فقطرة، راكعًا، إن جاز التعبير.

ابتسم إسترْيد: «أصبتَ الهدف. أنا أتحدث عن مزحتك الفطنة طبعًا، لأنك في ما يتعلق بمحتوى البرطمان أخطأتَ».

- لكنكَ تستخدم مثل هذا الدم أحيانًا، أليس كذلك؟ كما سمعتُ، فإن بعض التعويذات لا تنطلق دون دم عذراء، والأفضل أن تُقتَل وقت اكتمال القمر ببرق من سماء صافية. أسأل بدافع الفضول، بأي شيء يكون مثل هذا الدم أفضل من دم بغيٍّ مسنَّة سقطتْ ثملة من فوق السياج؟

وافقَ الساحر بابتسامة لطيفة على فمه: «ولا بأي شيء. لكنْ إذا تبيَّن أن دم الخنزير يمكن أن يؤدي هذا الدور أيضًا على نحو جيد وعملي، بقدر ما يكون الحصول عليه أسهل، عندئذٍ يمكن أن يبدأ أي صنف من الرُّعاعِ التجريبَ بالسِّحر. وعندما يأتي الرُّعاع لجمع دم العذراء واستخدامه، ذلك المفتون أنتَ به، ودموع التنين، وسُمٍّ من الرُّتَيلاوات البيض، ومرق من أيدي الرُّضَّع المقطوعة أو من جثة أُخرِجَتْ من القبر في منتصف الليل، لغيَّر عديد من الناس رأيهم».

سكتا. نقر إسترْيد بأظفاره جمجمةً متشققةً، ملقاةً أمامه بلون ضارب إلى البني، من دون فك، وأعطى انطباعًا بأنه شارد الذهن بعمق، ثم مرَّر سبابته على الحافة المسنَّنة لثقب يرى واضحًا من العظم الصدغي. راقبه جيرالت من غير مضايقة. فكَّر كم يمكن أن يكون عمر الساحر. كان يعلم أن هؤلاء الموهوبين يمكنهم إبطاء عملية الشيخوخة على نحو دائم وفي أيِّ مرحلة عمرية. كان الرجال، من أجل السمعة والوجاهة، يُفضِّلون مرحلة النضج المتقدمة، وهذا ما يُوحي بالمعرفة والخبرة. أما النساء، مثل ينيفر، فكنَّ يهتممنَ بالوجاهة بدرجة أقل، وبالجاذبية بدرجة أكبر. لم يكن إسترْيد يبدو في عمر أكثر من أربعين سنة مستحقةً بكامل قوتها. شعره أشيب قليلًا، لكنه مستقيم يبلغ كتفيْه، وعلى جبهته تجاعيد -تضيف إليه مزيدًا من المهابة- حول الفم وزاويتي الجفنين. لم يعرف جيرالت أكان عمق العينين الرماديتين الوديعتين وذكاؤهما طبيعيين أم استُحضِرَا بالسحر. بعد لحظة قصيرة، توصَّل إلى استنتاج مفاده أن الأمر سيَّان.

كسر الصمت المحرج: «إسترْيد. لقد جئتُ هنا لأنني أردت أن أرى ينيفر. ومع أنَّني لم أجدْها، فقد دعوتني إلى الدخول لنتحدث. عمَّ؟ عن الرُّعاع الذين يحاولون كسر احتكارك لاستخدام السحر؟ أعلم أنك تعدُّني أنا أيضًا واحدًا

من هؤلاء الرعاع. لا شيء جديد بالنسبة إليَّ. ساورني خلال لحظة انطباع أنك ستبدو مختلفًا عن رفاقك الذين كثيرًا ما كانوا يدخلون في محادثات جادة معي، فقط من أجل أن يُعلِموني أنهم لا يحبونني».

أجاب الساحر بهدوء: «لا أفكر أن أعتذر لكَ عما فعل رفاقي، حسب ما وصفتهم. أنا أفهمهم لأنني مثلهم، كان عليَّ أن أجهد في العمل بصبر للوصول إلى مثل هذه المهارة في مزاولة السحر. وأنا كجرو مكتمِل، أضنتني المخطوطات بمشاقِّها، في حين كان أقراني يركضون خلال الحقول ومعهم أقواس صيد، أو كانوا يصطادون السمك، أو يلعبون لعبة « زوجان أم فرد »[1]. قصمت الأرضية الحجرية في القلعة عظامي وحطَّمت مفاصلي، طبعًا في الصيف، ففي الشتاء كان المينا في أسناني يتصدَّع. ومن جرَّاء غبار اللفائف والكتب القديمة كنت أسعل حتى تجحظ عيناي خارجةً من رأسي، ولم يفوِّت معلمي المسن رويدسكيلد، فرصةً واحدةً قطُّ للسع ظهري بالسوط المجدول، معتقدًا أنه من دون ذلك، كما يبدو، لن أحقق تقدُّمًا مُرضِيًا في التعلم. لم أجرب لا القتال ولا الفتيات ولا الجعة في أفضل سنيِّ حياتي، عندما كانت كل هذه التسليات أشهى ما يتذوق المرء».

تجهَّم الويتشر: «مسكين أنت. حقًّا إن العين بالدمع تغرق».

- لِمَ هذه السخرية؟ أحاول أن أشرح لك أسباب عدم استساغة السحرة لمدِّعي الطب القرويين، والرقاة، والمعالجين المزعومين، والعجائز المحدودبات والويتشريين. سَمِّ ذلك ما شئتَ، سَمِّهِ حتى حسدًا عاديًّا، بيدَ أن سبب النفور يكمن هنا تحديدًا. إننا نغضب عندما نرى السحرَ في متناول أيدي قليلي المعرفة وغير المؤهلين، السحرَ والفنَّ الذي تعلمنا أن نعامله على أنه براعة تخص النخبة، وامتيازًا لمن هم أفضل، وسرًّا مقدَّسًا. حتى عندما يكون ذلك سحرًا متهالكًا بائسًا ومثيرًا للسخرية. لذلك فإن رفاقي لا يحبونك. وأنا، وأضع كلامي بين قوسين، لا أحبك أيضًا.

---

(1) لعبة قديمة أصلها يوناني ورومي، على اللاعبين أن يحزروا ماهية العدد: أزوجي أم فردي.

ضاق صدر جيرالت بالنقاش، ضاق بالمراوغة، ضاق بشعور القلق المؤسف، الذي كان كحلزون يزحف على رقبته وظهره. نظر مباشرة إلى عينيْ إستْريد، وضغط بأصابعه حافة المنضدة.

- الأمر مرتبط بينيفر، أليس كذلك؟

رفع الساحر رأسه، ولا يزال ينقر برفق بأصابعه الجمجمةَ الملقاة على المنضدة.

قال متحملًا نظرة الويتشر: «أهنئكَ على بصيرتكَ، ولكَ تقديري. بلى، الأمر مرتبط بينيفر».

صمت جيرالت. ذات مرة، قبل سنوات، سنوات عدَّة، وكان لا يزال ويتشرًا شابًّا، جلس ينتظر مانتيكورا في كمين. وشعر أن مانتيكورا تقترب. لم يرَها، ولم يسمعْها. لكنه شعر بها. لم ينسَ هذا الشعور قطُّ. والآن يشعر بالشيء نفسه تمامًا.

تابع الساحر: «بصيرتك ستوفِّر لنا الكثير من الوقت، الذي كان سيشغله اللف والدوران التالي. وهكذا، فالأمر صار واضحًا لدينا».

لم يعلِّق جيرالت.

واصل إستْريد كلامه: «تعود معرفتي الوثيقة بينيفر إلى وقت مديد أيها الويتشر. كانت هذه المعرفة خلال مدة طويلة دون التزامات، استندت إلى مراحل كان وجودنا معًا في غضونها أطول أو أقصر، وأكثر أو أقل انتظامًا. من هذا النوع غير المُلزِم من الشراكة، والشائع عمليًّا بين الناس في مهنتنا. بيْدَ أن ذلك فجأةً لم يعدْ يناسبني. فقررتُ أن أقدِّم لها عرضًا أن تبقى معي دائمًا».

- وماذا كان ردها؟

- أنها ستفكر في الأمر. أعطيتُها الوقت لتفكِّر. أعلم أن اتخاذها القرار ليس سهلًا.

- لِمَ تخبرْني بهذا يا إستْريد؟ ما الذي يدفعك إلى ذلك، باستثناء الصراحة شديدة الندرة بين الناس في مهنتك، والجديرة بالاحترام، مع أنها مفاجِئة؟ فما الغرض من وراء هذه الصراحة؟

تنهَّد الساحر: «غرض عادي. فكما ترى، شخصك هو من يعسِّر على ينيفر اتخاذ قرار. لذا أطلب منك أن تبديَ الرغبة لتنسحب، وتختفيَ من حياتها، وتكفَّ عن مضايقتها. باختصار: أن تغرب إلى الشيطان. والأفضل بصمت ودون وداع، وهذا ما اعتدتَ ممارسته، كما أسرَّتْ هي لي بهذا».

ابتسم جيرالت مكرهًا: «حقًّا. صراحتك المباشرة تجعلني في ذهول يزداد تعاظمًا. كان يمكنني توقُّع كل شيء، لكنْ ليس مثل هذا الطلب. ألا ترى أنه بدلًا من أن تطلب، كان ينبغي -بالأحرى- أن ترميني من وراء الركن بكُرة برق؟ لن يكون ثمة عائق، بل بعض السخام الذي سيكون من اللازم حكُّه وإزاحته عن الجدار. إنها وسيلة أسهل وأضمن. فكما ترى، الطلب يمكن رفضه، أما كرة البرق فلا سبيل إلى ذلك».

- لا آخذ بعين الاعتبار إمكانية الرفض.

- لماذا؟ ألن يكون هذا الطلب الغريب إلا مجرد تحذير يسبق صاعقة البرق أو تعويذة مرحة أخرى؟ أم إن هذا الطلب قد يكون مدعومًا بحجج صاخبة؟ المبلغ الذي سيذهل الويتشر الجشع؟ فكم تنوي أن تدفع لي مقابل أن أنسحب من الطريق المفضية إلى سعادتك؟

توقف الساحر عن نقر الجمجمة، وضع كفه عليها، وضغط بأصابعه. لاحظ جيرالت أن مفاصل أصابعه ابيضَّت.

قال: «لم يكن في نيتي إهانتك بمثل هذا العرض. كنت بعيدًا عن ذلك. لكنْ... إذا... يا جيرالت، أنا ساحر، وأضف إلى ذلك، لست الأسوأ. لا أقصد التباهي هنا بالقدرة المطلقة، لكنَّ العديد من أمنياتك، لو أردتَ الإفصاح عنها، لأمكنني تحقيقها. وبعضها، هكذا، بسهولة مماثلة».

لوَّح بيده عرضيًّا، كما لو كان يُبعِد بعوضة عنه. غصَّ الهواء فوق المنضدة فجأةً بفراشات خطافية الذيل ملوَّنة بطريقة بديعة.

قال الويتشر من دون رغبة، مبعدًا الحشرات المُرفرِفة حول وجهه: «أمنيتي، يا إسترْيد، هي أن تَكُفَّ عن حشر نفسك بيني وبين ينيفر. لا تهمني كثيرًا عروضك التي تقدمها إليها. كان يمكنك أن تطلب يدها عندما كانت معك. في وقت سابق. لأن الوقت السابق كان في الوقت السابق، والآن هو الآن. والآن هي معي. أعليَّ أن أنسحب، وأسهِّل الأمر لك؟ أرفض. لن أكتفي بعدم

مساعدتكَ فحسب، بل سأضايقكَ على قدر إمكاناتي المتواضعة. كما ترى، أنا لا أقل عنك صراحة».

- ليس لكَ الحق أن ترفض طلبي. ليس أنت.

- من تظنني يا إسْترِيد؟

نظر الساحر مباشرةً إلى عينِه، منحنيًا فوق المنضدة.

- أراكَ لحظة هوى عابر لها. افتتانًا مؤقتًا في أحسن الأحوال، نزوة، مغامرة من مئات المغامرات التي عاشتْها يينا، لأن يينا تحب اللعب بالعواطف، فهي تلقائية ولا يمكن التكهُّن بما يتأتى من أهوائها. أراكَ هكذا، لأني بعد تبادل هذه الكلمات القليلة معك، أبعدتُ فكرة احتمال أنها عاملتكَ كأداة فحسب. وصدِّقني، إن ذلك لا يحدث لها كثيرًا.

- أنت لم تفهمِ السؤال.

- أنت مخطئ، لقد فهمتُه. لكنني أتحدَّث قصدًا عن عواطف يينا لا غيرها. لأنكَ ويتشر ولا يمكنكَ معايشة أيَّ شعور. أنت لا تريد تحقيق طلبي، لأنكَ يُخيَّل إليكَ أنكَ تحرص عليها، وتظن أن... يا جيرالت، أنت معها لأنها هي تريد ذلك فحسب، وستكون معها ما دامتْ راغبةً في ذلك. وما تشعر به ما هو إلا إسقاطٌ لشعورها، وللاهتمام الذي تظهره لك. بحق شياطين الجحيم أجمعين يا جيرالت، أنتَ لستَ طفلًا، إنكَ تعلم من أنت. أنت مخلوق متحوِّل. لا تُسِئْ فهمي، لا أقول هذا لأحطَّ من قدركَ أو لأظهر لكَ الازدراء. أنا أذكر حقيقة واقعة. أنت متحول، وإحدى الخصائص الأساسية للطفرة التي لحقتْ بكَ تتمثَّل في انعدام الحساسية كاملًا إزاء العواطف. هكذا خُلِقْتَ لتتمكن من أداء عملكَ. أتفهم؟ لا يمكنكَ الإحساس بأي شيء. إن ما تحسبه شعورًا ليس إلا ذاكرة خلايا، ذاكرة جسدية، إذا كنتَ تعرف ما تعنيه هذه الكلمة.

- إنني أعرف، تخيَّلْ.

- هذا أفضل. فاسمعْ إذن. أطلب منكَ شيئًا يمكنني أن أطلبه من ويتشر، ولا يمكنني أن أطلبه من إنسان.

- أنا صريح مع أي ويتشر، ولكنني لن أستطيع السماح لنفسي أن أكون صريحًا مع الإنسان. أنا يا جيرالت أريد أن أمنح يينا التفاهمَ والاستقرارَ وشعورَ الودِّ والسعادة. هل تستطيع، ويدك على قلبك، أن تعلن ذلك

https://t.me/fantazynov

الشيء نفسه؟ لا، لا تستطيع. بالنسبة إليكَ هذه كلمات لا معنى لها. أنت تحوم خلف يينا، فرِحًا كطفل من لحظات التعاطف الذي تظهره لكَ. كقط متوحش يرشقه الجميع بالحجارة، تُهرهر راضيًا، فقد وجدتَ مَن لا يخشى أن يربِّتك. أتفهم ما أقصد؟ أوه، أعلم أنكَ تفهم، لستَ غبيًّا، هذا واضح. لذا أنتَ نفسكَ ترى أن ليس لديك الحق في أن ترفض طلبي عندما أرجوك بأدب.

قال جيرالت على مضض: «لديَّ حق الرفض، تمامًا كما لديك الحق عندما تطلب، وبهذا فإن حقوقنا بعضها يلغي بعضًا، ونعود إلى نقطة البداية، وهذه النقطة كما يلي: ين معي الآن، بصرف النظر عن طفرتي وتداعياتها. أنت طلبتَ يدها وهذا حقك. قالتْ لكَ إنها ستفكر، وهذا حقها. هل لديك انطباع بأنني أعوقها عن اتخاذ القرار؟ وأنها مترددة؟ وبأنني سبب ترددها؟ يظل هذا الآن حقي. وإن كانت مترددة، فلعل ذلك على الأرجح له أسباب إذن. وإنني، على الرغم من ذلك، أعطيها شيئًا ما على الأرجح، مع أن الكلمات بخصوص ذلك قد تنعدم في المعجم الويتشري».

- استمع...
- لا. فلتسمعني أنتَ. تقول لي، لقد كانت معكَ في وقت ما، من يدري، قد لا أكون أنا، ولكنكَ أنت من كنتَ لها مجرد لحظة هوى عابر، أو نزوة، أو انفلات عاطفة غير منضبط، وهو نموذجي تمامًا بالنسبة إليها؟ إستْريد.. لا يمكنني حتى أن أستبعد أنها لم تعاملك عندئذٍ إلا كأداة. وهذا يا حضرة الساحر لا يمكن استبعاده اعتمادًا على المحادثة وحدها. في هذه الحالة، كما يبدو لي، أن الأداة أهم من البلاغة.

لم يرفّ لإستْريد جفن البتة، ولم يطبق فكيه ولو قليلًا.

أُعجِبَ جيرالت برباطة جأشه. بيد أن الصمت المطوَّل بدا أنه يشير إلى أن الضربة قد أصابت الهدف تمامًا.

أخيرًا نطق الساحر: «أنت تلعب بالكلمات. تنتشي بها. بالكلمات تريد التعويض عن الشعور الإنساني الطبيعي الذي ليس فيكَ. كلماتكَ لا تعبِّر عن شعور، إنها فقط أصوات كهذه التي تصدرها هذه الجمجمة عندما أنقرها. فأنت فارغ مثل هذه الجمجمة. ليس لديك حق...».

قاطعه جيرالت بحدة، بل ربما بحدة زائدة: «توقفْ. توقفْ عن إنكار حقوقي معاندًا، فقد ضقتُ ذرعًا بهذا، أتسمعُ؟ قلتُ لكَ إن حقوقنا متساوية. اللعنة، بل حقوقي أكبر».

شحب وجه الساحر قليلًا، وهذا ما جعل جيرالت يشعر بمتعة لا تُوصَف: «حقًّا؟ وهذا تحت أي بند؟».

فكَّر الويتشر لحظة، وقرَّر الإجهاز عليه.

قال هائجًا: «تحت بند أنها البارحة ليلًا مارست الحب معي، وليس معك».

سحب إسترْيد الجمجمة وقرَّبها نحوه، ومسح عليها. يده، ورغم قلق جيرالت، لم ترتعشْ ولو حتى قليلًا.

- هل هذا حسب رأيكَ يمنحكَ حقًّا ما؟

- حقًّا واحدًا فقط. الحق لاستخلاص الاستنتاجات.

نطق الساحر ببطء: «آها. لا بأس. كما تشاء. لقد مارستْ معي الحب اليوم قبل الظهر. استخلِص الاستنتاجات، لكَ الحق في هذا. أنا قد استخلصتُها».

دام الصمت طويلًا. كان جيرالت يبحث بيأس عن الكلمات. لم يجد. أي كلمة.

أخيرًا قال وهو ينهض غاضبًا من نفسه لأن الأمر بدا فظًّا وغبيًّا: «مضيعة للوقت هذا الكلام. أنا ذاهب».

قال إسترْيد أيضًا بفظاظة، ودون أن ينظر إليه: «اذهب إلى الشيطان».

5

عندما دخلتْ، كان مستلقيًا على السرير بكامل ملابسه، وكانت كفاه ممددتيْن تحت مؤخرة عنقه. تظاهر بأنه ينظر إلى السقف، ثم نظر إليها.

أغلقت ينيفر الباب ببطء خلفها. كانت رائعة الجمال. فكَّر: ما أجملها. كل شيء فيها جميل. وخطِر. ألوانها هذه، هذا التباين بين البياض والسواد. الجمال والرعب. ضفائر شعرها الطبيعية الغُدافية الفاحمة. عظمتا الوجنتين

اللتان ترسمان بوضوح تجعيدة مميَّزة تُشكِّلها الابتسامة -إذا رأت أن من المستحسَن الابتسام- بجانب ثغرها الضيق على نحو بديع، والشاحب تحت أحمر الشفاه. حاجباها يكونان غير منتظميْن بطريقة فاتنة، عندما تغسل الفحم الذي عُلِّما به خلال النهار. أنفها طويل جدًّا على نحو بديع. يداها الضئيلتان متوترتان على نحو بديع، غير هادئتين وقادرتان. خصرها رقيق وطري، يُبرزه حزام مشدود أكثر مما ينبغي. ساقاها نحيلتان، تمنحان التنورة السوداء أشكالًا بيضاوية عند الحركة. رائعة.

جلستْ إلى المنضدة دون أن تنبسَّ بكلمة، أسندتْ طرف ذقنها إلى راحتيْها المتشابكتيْن.

قالت: «حسنًا، لنبدأْ. هذا الصمت المطوَّل المملوء بالدرامية تافه جدًّا لشخص مثلي. فلنسوِّ الأمرَ. انهضْ من السرير، ولا تحدقْ إلى السقف بوجه مُغضَب. الوضع أحمق بما يكفي، ولا داعي إلى أن تزيد من حمقه أكثر. قلت لك انهض».

نهض طائعًا دون تلكؤٍ، ثم جلس على كرسي خشبي قبالتها، منفرج الساقيْن. لم تتحاشَ بصره. أمكنه توقع ذلك.

- كما قلتُ، لنُسوِّ الأمرَ. لنسوِّه بسرعة. كي لا أضعكَ في موقف حرج، سأجيب عن كل أسئلتكَ في الحال، ولستَ في حاجة حتى إلى طرحها. أجل، ذلك صحيح، حين كنتُ مسافرة معك إلى أيد جينفايل، سرتُ إلى إستْريد، وكنت أعرف أنني بعد لقائه، سأمضي معه إلى الفراش. ما ظننتُ أن الأمر سيخرج، وأنكما ستتباهيان أحدكما قبالة الآخر. أعرف كيف تشعر الآن، وأنا آسفة بسبب ذلك. لكنني لا، أنا لا أشعر بالذنب.

صمت.

هزَّت ينيفر رأسها، ضفائر شعرها السود اللامعة تدفقت شلالًا من كتفيْها.

- جيرالت، قلْ شيئًا.

تنحنح: «هو... هو يسميكِ يينا».

لم تخفضْ عينيها: «نعم. وأنا أدعوه فال. وهذا اسمه. أما إستْريد فهو لقبه. أعرفه منذ سنين يا جيرالت. هو قريب جدًّا مني. لا تنظر إليَّ هكذا. أنت أيضًا قريب مني. وهنا تكمن المشكلة بأكملها».

- تفكرين في قبولِ عرضه؟

- نعم، فاعلم ذلك، أفكر في ذلك. قد قلتُ لكَ، إننا نعرف بعضنا منذ سنين. منذ... سنين عدَّة. تربطني به اهتمامات وأهداف وطموحات. نحن نفهم بعضنا دون كلمات. يمكنه أن يكون لي سندًا، ومن يدري، ربما يأتي اليوم الذي سأحتاج فيه إلى المساندة. وفوق هذا كله... هو... هو يحبني. أعتقد ذلك.

- لن أقف حجر عثرة في طريقكِ يا ينْ.

ألقتْ رأسها إلى الخلف، وبرقتْ عيناها البنفسجيتان بنار زرقاء رمادية.

- حجر عثرة؟ أأنت لا تفهم شيئًا أيها الأبله؟ أنت لو وقفتَ حجرَ عثرة في طريقي أو ببساطة لو ضايقتني، لتخلصتُ من هذه العقبة بلمح البصر، ولنقلتكَ آنيًّا إلى نهاية رأس بريميرفورد، أو لحولتُ إعصارًا إلى بلاد هانُّو. ولأذبتُكَ بقليل من الجهد في قطعة كوارتز، ووضعتُها في الحديقة على زهور عود الصليب[1]. ولكان في وسعي أن أغسل دماغكَ حتى تنسى من كنتُ وماذا كان اسمي. وكل هذا بشرط أن تكون لي رغبة في ذلك. لأنني يمكنني أن أقول ببساطة: «لقد قضينا وقتًا سعيدًا، الوداع». ويمكنني التسلل بعيدًا خفية، كما فعلتَ أنت ذلك من قبل، هاربًا من منزلي في فينجربيرج.

- لا تصرخي يا ين، لا تكوني عدوانية. ولا تستحضري هذه القصة من فينجربيرج، لقد تعاهدْنا ألا نعود إليها بعد ذلك. أنا لا أعاتبكِ يا ين، ولا أنحو عليكِ باللوم والتأنيب أساسًا. أعلم أنه لا يمكن وضعكِ تحت معيار عادي. أما كوني أشعر بالأسف... وأن إدراكي أنني أفقدكِ يقتلني... فليس إلا ذاكرة خلايا. بقايا مشاعر تأسُّلية لدى متحول فاقد العاطفة...

انفجرتْ: «لا أطيق مثل هذا الكلام حين تنطق به! لا أحتمل هذه الكلمة حين تستخدمها. لا تستخدمْها أمامي مرة أخرى أبدًا.. أبدًا!».

- هل يغير ذلك الحقيقة؟ أنا أصلًا متحول.

- ليس ثمة أي حقيقة. لا تقلْ أمامي هذه الكلمة.

---

(1) عود الصليب: نبات ذو زهور كبيرة كالورد، تُسمَّى أيضًا الفاوانيا.

رفرف العوسقُ الأسودُ الجاثمُ على قرون الإيَّل بجناحيْه، وأحدثتْ مخالبه صريفًا. رمق جيرالت الطائر وعينه الصفراء الثابتة. أسندت ينيفر طرف ذقنها إلى راحتيْها المشابكتيْن مجددًا.

- ين.

- أسمعكَ يا جيرالت.

- وعدتِني أن تجيبي عن أسئلتي. حتى عن الأسئلة التي لستُ في حاجة إلى أن أطرحها. بقي سؤال واحد، وهو الأهم. ذلك الذي لم أطرحْه عليكِ قط. الذي كنتُ أخشى أن أطرحَه. أجيبي عنه.

قالت بصلابة: «لا أستطيع يا جيرالت».

- أنا لا أصدقكِ يا ين. أعرفكِ تمامَ المعرفة.

- لا يمكن معرفة الساحرة جيدًا.

- أجيبي عن سؤالي يا ين.

- أجيبُ، لا أعرف. لكنْ، أي جواب هذا؟

سكتا. خفتتِ الضوضاءُ القادمةُ من الشارع وهدأتْ.

أشعلتِ الشمس التي كانت تميل نحو الغروب، النيرانَ في شقوق مصاريع النوافذ، واخترقتِ الغرفة بخطوط مائلة من الضوء.

تمتم الويتشر: «أيد جينفايل. فتاة جليد... شعرتُ بهذا. كنتُ أعرف أن هذه المدينة... معادية لي. شريرة».

كررتْ ببطء: «أيد جينفايل. مزلجة ملكة الإلفيين. لماذا؟ لماذا يا جيرالت؟».

- أتبعكِ يا ين، لأني شبكتُ أحزمة مزلجتي وربطتُها بضلعيْ مزلجتك. وعاصفة ثلجية تحيطُ بي، وصقيع، وبرد.

همستْ: «يمكن للدفء أن يذيب فيكَ فتاة الجليد التي طعنتْك بها. عندئذٍ سينفضُّ السِّحر، وتراني كما أنا في الحقيقة».

- اضربي إذن الخيول البيض يا ين، ولتحث السير إلى الشمال، حيث لا يحلُّ موسم ذوبان الثلج أبدًا. ليته لا يحل أبدًا. أريد أن أكون في قصرك الجليدي في أسرع وقت ممكن.

ارتعشتْ شفتا ينيفر واعوجَّتا: «هذا القصر غير موجود. إنه رمز. وما درب مزلجتيْنا إلا ركض وراء حلم بعيد المنال. فأنا ملكة الإلفيين أتوق إلى الدفء. هذا هو سرِّي. لذلك، تحملُني مزلجتي كل عام في خضم العاصفة الثلجية خلال إحدى البلدات، وفي كل عام يعقد شخص، مصعوق بسحري، أحزمة مزلجته بضلعيْ مزلجتي. كل عام. كل عام شخص جديد دون نهاية. فالدفء الذي أتوق إليه كثيرًا يسحق السحر، ومعه يسحق الطلاسم وخلب الألباب. وفجأة يصبح مصطفاي، المطعون بنجم جليدي، عدَمًا عاديًّا. وأُصبحُ في عينيه الذائبتين بحال ليست أفضل من حال النساء الفانيات... الأخريات...».

قال: «ويبزغ الربيع من البياض الخالص. تبزغ أيد جينفايل البلدة القبيحة ذات الاسم الجميل. أيد جينفايل ومكب النفايات فيها، كوم ضخم من القمامة النتنة الذي يجب أن أدخل فيه، لأنهم يدفعون لي المال مقابل هذا الفعل، فقد خُلِقْتُ من أجل الولوج في هذه القذارة، الولوج الذي يبعث في الآخرين شعورَ الاشمئزاز والتقزُّز. حُرِمْتُ من مَلَكة الشعور حتى لا يكون في وسعي الإحساس بمدى فظاعة هذه القذارة وشناعتها، حتى لا أتراجع، ولا أهرب منها مرعوبًا. أجل، حُرِمْتُ من الشعور. لكنْ ليس بالضبط. هذا الذي فعل ذلك، كان عمله بعيدًا عن الإتقان يا ين».

سكتا. أحدث العوسقُ الأسودُ بريشِه حفيفًا، ناشرًا وطاويًا جناحيْه.

- جيرالت...

- أسمعك.

- الآن أنت أجب عن سؤالي. السؤال الذي لم أطرحه عليكَ قطُّ. ذاك الذي كنت أخاف... لن أطرحَه عليك الآن أيضًا، لكنْ أجب. لأن... لأنني أودُّ كثيرًا سماع إجابتك. هي كلمة واحدة وحيدة لم تقلها لي قطُّ. قلْها يا جيرالت. أرجوك.

- لا أستطيع.

- ما السبب؟

ابتسم بحزن: «لا تعرفين؟ سيكون جوابي كلمةً فقط. كلمةً لا تُعبِّر عن الشعور، لا تُعبِّر عن العواطف، لأني فاقدها. كلمة لن تكون إلا صوتًا تصدره جمجمة جوفاء وباردة عند طرقها».

نظرتْ إليه بصمت. اكتسبتْ عيناها المفتوحتان باتساع كبير لونًا بنفسجيًّا ناريًّا.

قالت: «لا يا جيرالت، هذا ليس حقيقيًّا. أو ربما يكون حقيقةً، لكنْ ليستْ كاملة. أنتَ لستَ فاقدَ الشعور. هذا ما أرى الآن. الآن أعلم أن...».

سكتت.

- أكملي يا ين. لقد اتخذتِ القرار. لا تكذبي. إني أعرفكِ. أرى ذلك في عينيكِ.

لم تخفضْ نظرها. فعرف.

همس: «ين».

قالت: «أعطني يدكَ».

أخذتْ كفَّه بين راحتيْها، أحسَّ على الفور بخدر وخفقان دمٍ في عروق ساعده. همستْ ينيفر بتعويذةٍ بصوت هادئ ومتوازن، لكنه رأى قطرات عرق بها غمر الجهد المبذول جبينها الشاحب، ورأى حدقتيْها وقد اتسعتا من الألم.

وإذ أطلقتْ يده، سحبتْ كفيها وحرَّكتهما بإيماءة فيها غُنج، مداعبة شكلًا غير مرئي، ببطء، من أعلى إلى أسفل. بدأ الهواء بين أصابعها يتكثَّف ويتعكَّر، يتكوَّر ويخفق متصاعدًا كالدخان.

نظر مفتونًا. كان السحر الإبداعي الذي يُعَدُّ قمة إنجازات السحرة، دائمًا ما يفتنه أكثر بكثير من الخداع الوهمي أو سحر التحوُّل. فكَّرَ: أجل، لقد كان إسْتريد محقًّا، فما لديَّ من **علامات**، مقارنة بمثل هذا السحر، يبدو ببساطة مضحكًا.

بين راحتيْ ينيفر المرتعشتيْن بسبب الإجهاد، تجسَّد ببطء شكل الطائر الأسود كالفحم. داعبتْ أصابع الساحرة برفق ريشه المنتصب، ورأسه المسطَّح، ومنقاره المعوج. حركة واحدة أخرى، انسيابية انسيابَ التنويم المغناطيسي، فيها غنج، وراح العوسق الأسود ينعق بصوت عالٍ، وهو يدير رأسه. ردَّ شقيقه التوأم ناعقًا، وكان لا يزال جاثمًا على القرون دون حَراك.

قال جيرالت بصوت خافت: «عوسقان. عوسقان أسودان، خُلِقَا بالسحر. كما أعتقد، فإنكِ في حاجة إليهما كليهما».

قالت بصعوبة: «اعتقادكَ صائب. أحتاج إلى كليْهما. أخطأتُ إذ ظننتُ أن واحدًا سيكون كافيًا. كم كنتُ مخطئةً يا جيرالت... إلى أي خطأ قادتْني خُيلاء ملكة الشتاء المقتنعة بقدرتها المطلقة. ثمة أشياء... لا يمكن الاستحواذ عليها بأي وسيلة، حتى بالسحر. وثمة هِبَات لا يمكن قبولها، إلا إذا كان بالإمكان أن تردَّ على هيئة شيء مماثل لقيمتها. خلاف ذلك، فسوف تنزلق هذه الهبة من بين الأصابع وتذوب مثل فُتاتة جليد شُدَّ عليها في راحة اليد. ولا يبقى سوى الأسف والإحساس بالخسارة والأذى...».

- ين...

- أنا ساحرة يا جيرالت. سُلطَتي على المادة التي في حوزتي هي هبة. هبة متبادلة. دفعتُ مقابلها... كل ما كنتُ أملك. لم يتبقَّ شيء.

صمتَ. ومسحتِ الساحرة جبهتَها براحة يدها المرتجفة.

كررتْ: «أخطأتُ. لكنني سأصلح خطأي. العواطف والمشاعر...».

لمستْ رأس العوسق الأسود. نفض الطائر ريشه، فاتحًا منقاره المعوجَّ دون صوت.

- العواطف والنزوات والافتتان واللعب. الشعور وانعدامه... الهِبات التي لا يمكن قبولها... الكذب والحقيقة. ما تكون الحقيقة؟ أهي إنكار الكذب؟ أم إقرار واقعة وقعت؟ وإذا كانت الواقعة كذبًا فما تكون الحقيقة عندئذ؟ مَن هو المملوء بمشاعر تعذِّبه، ومن يكون القشرة الفارغة من الجمجمة الباردة؟ مَن؟ ما الحقيقة يا جيرالت؟ ما تكون الحقيقة؟

- لا أعرف، يا ين. أنتِ قولي لي.

قالت وخفضت عينيها: «لا».

كانت هذه أول مرة تخفضهما فيها. فلم يرْها تفعل ذلك من قبل قَطُّ.

كررتْ: «لا. لا أستطيع يا جيرالت. لا أستطيع ان أقول لكَ ذلك. سيخبركَ هذا الطائر المولود من لمسة راحة يدك. أيها الطائر؟ ما تكون الحقيقة؟».

نطق العوسق: «الحقيقة فتاتة جليد».

6

مع أنه خُيِّل إليه أنه كان يتجول في الأزقة دون غاية أو مقصد، فقد وجد نفسه فجأة عند السور الجنوبي في منطقة الحفر، وسطَ شبكة خنادق قاطعة الأنقاض عند الجدار الحجري، وضائعة بمنعطفات حادة وسط مربعات أساسات مكشوفة تعود للعصور القديمة.

إستْريد كان هناك. مرتديًا قميصًا مشمَّر الكُمَّين وحذاءً طويلًا، وكان يصرخ بين الفينة والأخرى على الخدم الذين كانوا يحفرون بمعاولهم الجانب المخطط من الخندق المملوء بطبقات متعددة الألوان من التراب والطين والفحم النباتي. وبجانبهم أُلقِيَتْ على الألواح عظام مسودَّة، وشظايا أوانٍ، وأشياء أخرى لا يمكن تعرُّفها متآكلة ومتكتلة بالصدأ.

لاحظه الساحر على الفور. بعد أن أعطى الحفارين بعض التعليمات الصاخبة، قفز من الحفرة، وسار ماسحًا يديه بسرواله.

سأل بفظاظة: «أسمعك، ما الأمر؟».

لم يردِّ الويتشر، وكان واقفًا قبالته دون حَراك. أما الخدم الذين تظاهروا بأنهم يعملون، فراقبوهما بحرص، وتهامسوا في ما بينهم.

عبس إستْريد: «إن الكراهية تسيل منك. أسألكَ، ما الأمر؟ هل اتخذتَ القرار؟ أين يينا؟ آمل أن...».

- لا ترفعْ سقف آمالك كثيرًا يا إستْريد.

قال الساحر: «أوه. أسمع شيئًا في صوتك؟ هل ما أحس به صحيح؟».

- وما هذا الذي تحس به؟

أسند إستْريد قبضتيه إلى وَركيْه ونظر إلى الويتشر بتحدٍّ.

قال: «دعنا لا يخدع أحدنا الآخر. أنت تكرهني وأنا أكرهكَ أيضًا. لقد أهنتَني بالحديث عن ينيفر... أنت تعلم ماذا. وقد رددتُ عليك بإهانة مماثلة. أنت تضايقني، وأنا أضايقكَ. فلننْهِ الأمر كالرجال. لا أرى حلًّا آخر. هذا ما أتيت من أجله، أليس كذلك؟».

قال جيرالت وهو يلمس جبهته: «بلى. أنت على حق يا إستْريد. هذا ما أتيت من أجله دون شك».

- صحيح. لا يمكن أن يستمر هذا الأمر. اليوم فقط علمتُ أن يينا كانت تدور بيننا منذ عدة سنوات ككرة من خُرق. مرة تكون معي، ومرة معك. تهرب مني لتبحث عنكَ، ثم تفعل العكس. أما الآخرون الذين تكون معهم في أوقات الانقطاع، فلا يُحسَب لهم حساب. نحن الاثنين من يُحسَب لهما حساب فحسب. لا يمكن أن يستمر الأمر على هذا النحو. نحن اثنان، ويجب أن يبقى واحد فقط.

كرَّر جيرالت دون أن يزيح يده عن جبهته: «نعم. نعم... أنت محق».

تابع الساحر: «في خضم ثقتنا الزائدة بالنفس اعتقدنا أن يينا ستختار أفضلنا دون تردد. أما بخصوص من هو أفضلنا، فلم يكن لدى كليْنا أي شك من يكون. ووصل الأمر إلى اللحظة التي بدأنا فيها، كالمراهقين الصغار، ندخل في مشاكسة على محاسنها، وكنا أيضًا نفهم، بما يقارب فهم الصبيان القُصَّر، ما هي تلك المحاسن، وما كانت تعنيه. أعتقد أنكَ مثلي فكرتَ في الأمر وتعرف كم أخطأ كلانا. يينا ليست لديها أي نية للاختيار بيننا، حتى على افتراض أنها ستستطيع الاختيار. حسنًا، ستتعيَّن علينا تسوية الأمر نيابةً عنها. فأنا لا أفكر في أن أقاسم يينا أحدًا، وحقيقة أنكَ أتيتَ هنا، تشهد أن موقفكَ مماثل. نحن نعرفها معرفة أكثر من جيدة. ما دُمنا اثنيْن، فلا أحد منَّا سيكون واثقًا منها. يجب أن يبقى أحدنا. فهمتَ هذا، أليس كذلك؟».

قال الويتشر، محرِّكًا شفتيْه الخدرتيْن بمشقة: «حقًّا. الحقيقة فتاتة جليد...».

- ماذا؟

- لا شيءَ.

- ماذا بكَ؟ أمريض أنت أم ثمل؟ أم لعلك قد أُتخِمتَ بالأعشاب الويتشرية؟

- لا أشكو شيئًا. شيء ما... شيء دخل إلى عيني. إستْريد، يجب أن يبقى أحدنا. نعم، هذا ما أتيتُ من أجله دون شك.

قال الساحر: «كنت أعرف ذلك. كنت أعرف أنكَ ستأتي. على أي حال، سأكون صريحًا معك. لقد أنذرتني بنواياك».

ابتسم الويتشر ابتسامة شاحبة: «كرة البرق؟».

قطَّب إستْريد حاجبيه.

قال: «ربما. ربما كرة البرق أيضًا. لكنها بالتأكيد ليست تلك التي من وراء الركن. بل وجهًا لوجه وبشرف. أنت ويتشر، وهذا يجعل الفرص متكافئة. إذن قرِّر أين ومتى».

فكَّر جيرالت. وقرَّر.

أشار بيده: «هذه الساحة الصغيرة... كنت أمرُّ من هناك...».

- أعرف. هناك بئر تُسمَّى المفتاح الأخضر.

- عند البئر إذن. أجل عند البئر... غدًا، بعد شروق الشمس بساعتيْن.

- لا بأسَ. سأكون هناك في الوقت المحدَّد.

وقفا ساكنيْن لحظةً، دون أن ينظر أحدهما إلى الآخر. أخيرًا، تمتم الساحر بشيء، بصوت يكاد لا يُسمَع، وركلَ برميلًا من الطين، وحطمه بضربة من عقب حذائه.

- جيرالت؟

- ماذا؟

- ألا تشعر بالحمق؟

اعترف الويتشر على مضض: «أشعر بالحمق».

تمتم إستْريد: «أحسستُ بالارتياح الآن. لأنني أشعر بأنني كآخر غبي. لم يخطرْ ببالي قطُّ أنني في يوم ما سأُضطرُّ إلى مقاتلة أحد الويتشريين إلى حد الموت والحياة بسبب امرأة».

- أعرف ما تشعر به يا إستْريد.

ابتسم الساحر مكرهًا: «وماذا... حقيقة أن الأمر وصل إلى أنني قررتُ أن أفعل شيئًا مخالفًا كثيرًا لطبيعتي، يثبت أن... أن الأمر يجب أن يكون هكذا».

- أعرفُ يا إستْريد.

- وطبعًا أنت تعرف أيضًا أن من ينجو منَّا، سيتعيَّن عليه الهروب بسرعة والاختباء من يينا في نهاية العالم؟

- أعرف.

- وأنت طبعًا تأمل أنها عندما تهدأ بعد ذهاب غضبها، تصبح العودة إليها ممكنة؟

- طبعًا.

نفذ الساحر حركة كما لو أنه كان يريد أن يستدير مبتعدًا، وبعد لحظة من التردد، مدَّ يده إليه: «حسنًا، لقد سُوِّيَ الأمر. فإلى الغد يا جيرالت».

صافح الويتشر اليدَ الممدودة إليه: «إلى الغد. إلى الغد يا إسترْيد».

7

- يا ويتشر!

رفع جيرالت رأسه عن المنضدة التي كان، في أثناء شرود ذهنه، يمسح عن سطحها الجعة المسكوبة في خطوط تشكيلية خيالية.

جلس القائمقام هربولث، وأزاح الأباريق والأقداح: «لم يكنْ من اليسير العثور عليكَ. قالوا لنا في النُّزُل إنكَ انصرفت إلى الإصطبلات، وفي الإصطبلات لم أجد سوى الحصان والبُقَج. وأنت هنا... وهذه ربما هي أردأ حانة في المدينة بأكملها. لا يأتي إلى هنا إلا أسوأ الغوغاء. ماذا تفعل هنا؟».

- أشربُ.

- أرى هذا. أردتُ أن أدردش معك. أنتَ صاحٍ؟

- مثل طفل.

- يسرُّني ذلك.

ابتسم جيرالت للخادمة التي كانت تضع إبريقًا آخرَ على المنضدة: «ماذا تبغون يا هربولث؟ أنا مشغول كما ترون».

تجهَّم القائمقام: «انتشرتْ شائعة، أنك أنت وساحرنا قد قررتما أن تتقاتلا حتى الموت».

- هذه القضية قضيتنا نحن، هو وأنا. لا تتدخلوا.

لم يوافقْه هربولت: «لا، إنها ليست قضيتكما. نحن في حاجة إلى إستْريد، ولا طاقة لنا بتحمل تكلفة ساحر آخر».

- اذهبوا إذن إلى المعبد وصلُّوا من أجل انتصاره.

هدر القائمقام: «لا تسخرْ، ها. ولا تتذاكَ، أيها المتسكع. وحق الآلهة لو لم أكن أعرف أن الساحر لن يغفر لي، لكنتُ ألقيتُ بكَ في زنزانة في قاع حفرة، أو لجررتكَ خلف الأسوار بحصانيْن، أو لأمرتُ الزيز بذبحك مثل خنزير. لكنَّ إستْريد، يا للأسف، مهووس بالشرف ولن يغفر لي ذلك. أعلم أنه لن يغفر لي».

- أمر مناسب للحال على نحو رائع.

أنهى الويتشر شرب قدح آخر وبصق تحت المنضدة عُويد القش الذي سقط عليه: «لقد أفلتُّ من العقاب، حسنًا. أهذا كل شيء؟».

قال هربولت وهو يخرج صرة محشوَّة من تحت معطفه: «لا. هاكَ، هنا مئة مارك أيها الويتشر، خذْها واغرب عن أيدْ جينفايل. اغربْ من هنا، والأفضل على الفور، وفي كل الأحوال قبل شروق الشمس. قلتُ إننا لا طاقةَ لنا بتحمل تكاليف ساحر آخر، ولن أسمح لساحرنا بالمخاطرة بحياتِه في مبارزة مع شخص مثلكَ لسبب تافه، من أجل إحدى...».

قطع كلامَه ولم يكمل، مع أن الويتشر لم يرتعشْ ولو قليلًا.

قال جيرالت: «أبعدْ فمكَ الكريهَ من وراء هذه المنضدة يا هربولث. وأدخلِ المئة مارك خاصتكَ في مؤخرتك. ابتعدْ، فمنظركَ يؤثر فيَّ تأثيرًا سيئًا، لحظة أخرى وسأتقيأ عليك من أعلى قبعتكَ إلى أسفل حذائكَ الناعم».

أخفى القائمقام الصرة ووضع راحتيْه كلتيهما على المنضدة.

قال: «لا، إذن لا. أردتُ الحلَّ بالطيبة، لكنْ إذا قلتَ لا، فلا. فلتتقاتلا وتتطاعنا، وليحرق أحدكما الآخر، وليمزق بعضكما بعضًا إرْبًا إرْبًا من أجل هذه العاهرة التي تفرج ساقيْها لكل مَن يريد. أعتقد أن إستْريد سيتمكن منك، أنت أيها السفاح المأجور لن يتبقى منك سوى الحذاء، لكنْ إذا لم يحصل ذلك فسأمسك بك قبل أن تبرد جثته، وسأكسر عظامكَ كلها تحت التعذيب. لن أترك على جسدك نقطة سالمة، أنت يا...».

لم يسعفْه الوقتُ لسحب يديْه من على المنضدة، فقد كانت حركة الويتشر غاية في السرعة، وذراعه التي قفزت من تحت سطح المنضدة كانت غير واضحة في عينيِ القائمقام، واستقرَّ الخنجر، مصحوبًا بِدَويٍّ، بين أصابع كفه.

همس الويتشر، ضاغطًا بقبضتِه مقبضَ الخنجر، ومُحدِّقًا إلى وجه هربولث، الذي سال منه الدم: «ربما، ربما يقتلني إستْريد. لكنْ إن لم يحصل ذلك... فسوف أرحل من هنا، وأنت أيها القمامة المقززة لا تحاول إيقافي، إن كنتَ لا تريد أن تُغمَر أزقة مدينتك القذرة بالدماء. اغرب من هنا».

- السيد القائمقام! ماذا يحدث هنا؟ هيه، يا هذا...

قال هربولث، وهو يسحب كفَّه ببطء ويزيحها بتمهل خلال المنضدة، أبعد فأبعد عن نصل الخنجر: «اهدأ أيها الزيز. لم يحدث شيء.. لا شيء».

أدخل الزيز سيفَه المسحوبَ إلى نصفه في الغمد.

جيرالت لم ينظرْ إليه. لم ينظرْ إلى القائمقام الخارج من الحانة، الذي كان الزيز يحميه من رجال الطوَّافات النهرية والحوذيين المتحلقين حولهما. كان يتطلع إلى رُجيْل صغير ذي وجه كرأس الجرذ، وعينين سوداوين ثاقبتين، كان جالسًا على بعد بضع مناضد.

قال بذهول: «لقد فقدت أعصابي. يداي ترتعشان. حقًّا، يداي ترتعشان. ما يحدث لي أمر لا يُصدَّق. هل هذا يعني أن...؟».

نعم، فكَّر، وهو ينظر إلى الرجيْل جرذي الوجه. ربما نعم.

فكَّرَ: هكذا يجب أن يكون.

ما أبرد المكان...

نهض.

ابتسم، وهو ينظر إلى الرجيْل. ثم أزاح جانبًا طرف سترته السفلي، وأخرج قطعتيْ نقود ذهبيتيْن من الصرة المحشوة، وألقى بهما على المنضدة. رنَّت القطعتان المعدنيتان، حيث تدحرجتْ إحداهما وضربتْ حد الخنجر الذي كان لا يزال مغروزًا في الخشب المصقول.

8

هوتِ الضربة على نحو غير متوقع، صفَّرت العصا في الظلام صفيرًا خافتًا، بسرعة كبيرة لدرجة أن الوقت كاد يفوت الويتبشر ليحمي رأسه بذراعه التي ارتفعتْ تلقائيًّا، وليتمكن من امتصاص الضربة بانحناءة مرنة من جسده. ارتدَّ قافزًا وهبط على ركبة واحدة، تشقلب ثم وقف على قدميْه، وشعر بحركة الهواء المتاح لضربة جديدة من العصا التي تجنَّبها بدوران سريع على أصابع قدمه، ملتفًّا بين الطيفيْن المحيطيْن به في الظلام. مدَّ يده فوق ذراعه اليمنى ليستلَّ سيفه.

لم يكنْ لديه سيف.

فكَّر وهو يقفز مرتدًّا بِدَعَةٍ: لا شيءَ يمكن أن ينتزع مني ردودَ الفعل هذه. الرتابة؟ ذاكرة الخلايا؟

أنا مخلوق متحول، أتفاعل كمتحول – فكَّر، وهو يهبط على ركبته مجددًا، متفاديًا ضربة، مادًّا يده إلى رقبة حذائه ليستلَّ خنجره. لم يكن لديْه خنجر.

ابتسم ابتسامة معوجَّة، وتلقى العصا على رأسه. لمعتْ عيناه وسرى الألم حتى بلغ أطراف أصابعه. هوى متراخيًا دون أن يكفَّ عن الابتسام.

ارتمى عليه شخص ما ضاغطًا إياه إلى الأرض. وآخر انتزع المحفظة من حزامه. التقط بعينه لمعة السكين. مزق الذي كان جاثيًا على صدره السترة من تحت العَنق، ثم أمسك بالسلسال، وسحب الميدالية، وأطلقها من يده على الفور.

سمع شهيقَ لهاث: «وحق بعل-زيبوث. إنه ويتشر... ذو شخصية...».

ذاك الآخر شتم لاهثًا.

- لم يكن لديه سيف... أيتها الآلهة، تفًّا، تفًّا على السحر، على الشر.. دعنا نخرج من هنا، يا رَدْجاست! لا تلمسه، تفًّا، تفًّا!

أضاء القمر لحظة من خلال سحابة أرقِّ من سواها. رأى جيرالت فوقه مباشرةً وجهًا جرذيًّا هزيلًا، وعينيْن صغيرتيْن سوداويْن لامعتيْن. سمع خبط

قدميْ ذاك الآخر الذي مضى مبتعدًا، ليختفي في زقاق هبَّت منه روائح كريهة لقططٍ ولِدُهْنٍ محترق.

رفع الرجيْل ذو الوجه الجرذي ركبته ببطء عن صدر الويتشر.

- في المرة القادمة... -سمع جيرالت همسه الواضح- المرة القادمة، إن أردت الانتحار أيها الويتشر، فلا تجرَّ الآخرين إلى ذلك. وببساطة، علِّق نفسكَ على الأعنة في الإصطبل.

9

لا بدَّ أنها أمطرتْ في الليل.

خرج جيرالت أمام الإصطبل، وهو يفرك عينيْه ويزيل بأصابعه القشَّ عن شعره. لمعتِ الشمس المشرقة على الأسطح الرطبة وتلألأت ذهبًا في البرك. بصق الويتشر ولا يزال الطعم في فمه كريهًا، وكان الورم على رأسه يخفق بألم خفَّت حدتُه.

جثم قِطٌّ على الحاجز أمام الإصطبل منكبًّا على مخالب يديه يلحسها بتركيز.

قال الويتشر: «كيتي، كيتي يا قُطيط».

نظر إليه القط، وكان ساكنًا، نظرات تُنذر بالشر، وأرخى أذنيْه وهسهس كاشفًا عن أنيابه الصغيرة.

هزَّ جيرالت رأسه: «أعرف... أنا أيضًا لا أحبكَ. مزحتُ فقط».

شد بحركات متمهلة مشابكَ وعقدَ سترته شدًّا قويًّا، وسوَّى ثنيات ملابسه على جسده، وتحقَّق من أنها لا تُقيِّد حريته في الحركة في أي مكان. ألقى سيفَه على ظهره، وعدَّل وضعية المقبض فوق كتفه اليمنى. طوَّق جبهته بعصابة من جلد، دافعًا شعره إلى الوراء خلف أذنيْه. دسَّ كفيْه بقفازيْن قتاليْن طويليْن مغطييْن بأشواك فضية مخروطية قصيرة.

نظر إلى الشمس مرة أخرى، مُضيِّقًا حدقتيْ عينيْه لتصبحا شقين رأسيين. يوم رائع – فكَّر. يوم رائع للقتال.

تنهد ثم بصق ومشى ببطء حتى أسفل الزقاق، محاذاة الجدران التي تنبعث منها رائحة حادة نفاذة من الملاط الرطب والنورة[1].

- هيه، أنت يا غريب الأطوار!

تلفَّت. كان الزيز جالسًا، رفقة ثلاثة ذكور مسلحين مظهرهم يثير الشك، على كوم من ألواح خشبية موضوعة على طول الحاجز الترابي. نهض ومدَّد أطرافه، ثم خرج إلى منتصف الزقاق متجنبًا البرك بعناية.

سأل، وهو يتكئ بكفيْه الضيقتين على حزامه المثقَل بالسلاح: «إلى أين؟».

- هذا ليس شأنك.

قال الزيز نابرًا حروف الكلمات ببطء: «فقط لتوضيح الأمر، لا يهمني في شيء العمدة والساحر ومدينة البراز هذه بأكملها. لكنْ أنت من يهمني أيها الويتشر. لن تصلَ إلى نهاية هذا الزقاق. أتسمع؟ أريد أن أختبر مدى صلاحيتك للقتال. هذا الأمر يؤرقني. قِفْ، أقول لك!».

- ابتعد عن طريقي.

صرخ الزيز، واضعًا يده على مقبض سيفه: «قفْ! ألم تستوعبْ ما أقول؟ سوف نتقاتل! أدعوك إلى النزال! وسيظهر بعد قليل من هو الأفضل!».

هز جيرالت كتفيْه دون أن يبطئ خطوَهُ.

صرخ الزيز سادًّا الطريق أمامه من جديد: «أدعوكَ إلى القتال! هل تسمعني أيها المتحول؟ ماذا تنتظر؟ أخرجِ الحديدةَ من غِلافها الجلدي! ما هذا؟ هل اعتراك الخوف؟ أم إنكَ ربما تقف فقط أمام من وطأوا ساحرتكَ تلك من أمثال إستْريد؟».

واصل جيرالت المشيَ، مُجبِرًا الزيز على التراجع، والمسير غير الرشيق إلى الخلف. نهض الأفراد المرافقون للزيز من كوم الجذوع المقطعة وتبعوهما، لكنهم ظلوا على مبعدة في الخلف. سمع جيرالت كيف يتمطَّق الطين تحت أحذيتهم.

---

(1) النورة: مادة بناء تستخدم في صنع أنواع من الملاط والشيد والطلاء.

كرَّر الزيز، وقد أخذ وجهه يشحب ويحمرُّ بالتناوب: «أتحداك! أيها الوباء الويتشري؟ ماذا تريد أكثر من ذلك؟ هل عليَّ أن أبصق في فمك؟».

- هيا ابصق.

توقف الزيز، وفعلًا أخذ نفسًا إلى صدره ضامًّا شفتيه ليبصق. نظر إلى عيني الويتشر، لا إلى يديه، وكان ذلك خطأً. أما جيرالت الذي واصل عدم إبطاء خطوه، فضربه بسرعة البرق، دون أن يتحفَّز مرتدًّا، وكان ثانيًا ركبتيْه فحسب، ضربه بقبضته في القفاز الشائك. لكمه في فمه تمامًا، في شفتيْه المعوجتيْن مباشرة. انشقَّت شفتا الزيز، فانفجرتا مثل حبات كرز حامض. انحنى الويتشر وضرب مرة أخرى، في المكان ذاته، وقد تحفَّز في هذه المرة بارتداد قصير، حاسًّا كيف أن الغضب يخرج منه مع قوة الضربة وزخمها. تقيَّأ الزيز دمًا، وهو يستدير في الوحل برجل واحدة، وبالأخرى إلى الأعلى، وتهاوى في البركة على ظهره. عندما سمع الويتشر صليلَ نصلٍ في غمده ينبعث من خلفه، توقف واستدار برشاقة، ويده على مقبض سيفه.

قال بصوت يرتجف من الحنق: «حسنًا. فلتتفضلوا».

نظر ذاك الذي استلَّ سلاحه إلى عينيْه. لحظة. ثم حوَّل بصره عنه. بدأ الآخران في التراجع. ببطء، ثم أسرع فأسرع. تراجع الرجل حاملُ السيف أيضًا عند سماعه ذلك، محركًا فمه دون صوت. واستدار ذاك الأبعد وراح يركض مبعثرًا الطين من حولِه. جَمُدَ الآخران في مكانهما، ولم يحاولا الاقتراب.

تخبَّط الزيز في الوحل، ونهض متكئًا على مرفقيْه، وتمتم وتنحنح وبصق شيئًا أبيض معه قدْر كبير من الحمرة. حين مرَّ جيرالت بجانبه، ركله على خده عَرَضًا، مُحطِّمًا عظمة الوجنة، فتهاوى مبقبقًا في البركة من جديد.

واصل سيره دون أن يتلفَّت حوله.

صار إستْريد عند البئر، وقف هناك متكئًا على تحويطة الجُبِّ، على غِلاف الملفاف الخشبي المخضوضر بالطحلب. سيفه على حزامه: حسام تِرجانوي[1] جميل وخفيف ذو واقية يد نصف مغلقة، مسنود بطرف الغمد المثبَّت على رقبة حذاء الركوب اللامع. جثم طائر أسود نافشًا ريشه على كتف الساحر.

---

(1) تِرجانوي: نسبة إلى مدينة تِرجانو المتخيلة.

العوسق.

أدنى إستْريد من العوسق يده التي كانت في قفاز، ووضع الطائر برفق وحذر على السقيفة فوق البئر: «قد حضرتَ أيها الويتشر».

- حضرتُ يا إستْريد.
- لم أكنْ أعتقد أنكَ ستأتي. ظننتُ أنكَ غادرتَ.
- لم أغادرْ.

ضحكَ الساحر بحرية وبصوتٍ عالٍ، ملقيًا رأسه إلى الخلف.

قال: «أرادتْ أن... أرادتْ أن تنقذ كليْنا. هذا لن يحدث يا جيرالت. دعنا نُعمِل النصال. يجب أن يبقى أحدنا».

- هل تنوي القتال بالسيف؟
- وهل تستغرب ذلك؟ وأنت أساسًا، تنوي أيضًا القتال بالسيف. استمِرَّ، انهضْ.
- لماذا يا إستْريد؟ لماذا بالسيف لا بالسحر؟

شحب وجه الساحر وارتجفتْ شفتاه بتوتر.

صرخ: «أقول لكَ انهضْ! لا وقتَ للأسئلة، لقد انتهى وقت الأسئلة! والآن وقت الأفعال!».

قال جيرالت ببطء: «أريد أن أعرف. أريد أن أعرف لماذا السيف. أريد أن أعرف من أين ولماذا جاءك هذا العوسق الأسود. لي الحق في معرفة ذلك. لي الحق في الوصول إلى الحقيقة يا إستْريد».

- إلى الحقيقة؟ -كرَّر الساحر بمرارة- حسنًا، ربما لك الحق في ذلك. أجل، ربما لك الحق. حقوقنا متساوية. عن العوسق تسأل؟ حطَّ عند الفجر مبتلًّا من المطر. أحضر رسالة قصيرة جدًّا، أعرفها عن ظهر قلب. «وداعًا يا فال. اغفرْ لي. ثمة هِبات لا يمكن قبولها، ولا شيء فيَّ يمكنني أن أردَّ لكَ الجميل به. وهذه هي الحقيقة يا فال. الحقيقة فتاتة جليد». حسنًا يا جيرالت؟ هل أرضيتكَ؟ هل مارستَ حقك؟

حرَّك الويتشر رأسه ببطء.

قال إستْريد: «لا بأس. الآن أنا سأمارس حقي. فأنا لا أقبل بهذه الرسالة. لا أستطيع من دونها... أفضِّلُ أن... انهضْ إلى الشيطان!».

انحنى واستلَّ سيفه بحركة سريعة ورشيقة تدلُّ على براعته. زعق العوسق.

وقف الويتشر ساكنًا، مُسدِلًا يديْه على جانبيه.

نبح الساحر: «ماذا تنتظر؟».

رفع جيرالت رأسه ببطء، نظر إليه لحظة، ثم استدار على عقبيْه.

قال بصوت خفيض: «لا يا إسترْيد. وداعًا».

- ما الذي يمكن أن يعنيه هذا بحق الجحيم؟

توقفَ جيرالت.

قال من فوق كتفِه: «إسترْيد. لا تجرَّ الآخرين إلى هذا الأمر. إذا كان لا بدَّ لك من ذلك، فعلِّق نفسكَ على الأعنة في الإصطبل».

صرخ الساحر وانكسر صوته فجأة، ولطَم أذنه بنغمة سيئة مزيفة: «جيرالت! لن أستسلم! لن تهرب هي مني! سوف أتبعها إلى فينجربيرج، وسأتبعها إلى نهاية العالم، سأجدها! لن أتخلى عنها أبدًا! اعلمْ هذا!».

- وداعًا، يا إسترْيد.

مضى في الزقاق، دون أن يلتفت إلى الوراء ولا حتى مرة واحدة.

سار دون أن يعير الناس اهتمامًا، وكانوا ينزاحون مبتعدين عن طريقه بسرعة، ودون أن يهتم بالأبواب ومصاريع النوافذ التي كانت تُغلَق على عجل. لم يلاحظ أحدًا، لم يلاحظ شيئًا.

كان يفكر في الرسالة التي تنتظره في النُّزُل. حثَّ الخُطى. كان يعلم أن العوسق الأسود المبلل بالمطر ينتظره في موضع الرأس على السرير، ممسكًا الرسالة بمنقاره المعوجِّ. أراد قراءة الرسالة في أسرع وقت ممكن.

مع أنه عَرَفَ محتواها.

النار الأبدية

1

- أنت يا خنزير! أنت أيها المغني، أيها الموبوء! أيها المحتال!

سحب جيرالت الفرسَ خلف زاوية الزقاق، وقد ثار فيه الفضول. وقبل أن يتمكن من تحديد مصدر الأصوات الصاخبة، انضم إليها صرير زجاج لزج عميق. برطمان من مربى الكرز الحامض – فكرَّ الويتشر. مثل هذا الصوت يصدره برطمان من مربى الكرز عندما يُرمَى به على شخص من ارتفاع كبير أو بقوة شديدة. لقد تذكر ذلك جيدًا، فحين كان هو ووينيفر يعيشان معًا، حدث أحيانًا أنها وقت الغضب كانت تقذفه ببرطمانات المربى. تلك التي كانت تتلقاها من زُبُنِها. لم يكن لدى ينيفر أي فكرة عن صنع المُرَبَّيات، وكان السحر غير موثوق به من هذه الناحية.

وراء زاوية الزقاق، تجمَّعت مجموعة كبيرة من الفضوليين عند منزل ضيق مطلي باللون الوردي. وقفتِ امرأة شابة شقراء الشعر في ثوب نوم، على شرفة صغيرة مزيَّنة بالأزهار، مباشرة تحت السقف البارز المنحدر. أمالت المرأة ساعدها الغضَّ البضَّ المستديرَ الذي كان يُرى من تحت كشكشة القميص، وبحركة كاسحة قذفت بأصيص متكسر إلى الأسفل.

قفز رجل نحيف كان مرتديًا قبعة برقوقية اللون عليها ريشة بيضاء، مرتدًّا إلى الخلف كالملسوع، وتفرقع الأصيص على الأرض أمامه تمامًا، متناثرًا قطعًا متشظية.

صرخ الرجل ذو القبعة والريشة: «أرجوكِ، يا فسبولا! لا تصدقي الشائعات! كنتُ مخلصًا لكِ، فلأَمُتْ، إن كان هذا كذبًا!».

صرختِ الشقراء الغضَّة البضَّة: «أيها الوغد! يا ابن الأبالسة! أيها المتسكع!».

وغابتْ في عمق المنزل، بحثًا -دون شك- عن مزيد من المقذوفات.

صاح الويتشر، وهو يجرُّ الفرسَ الممانعةَ وهي تشخر إلى ساحة القتال: «هيه، ياسكير. كيف أنت؟ ماذا يحدث؟».

قال التروبادور كاشفًا عن أسنانه: «الأمور طبيعية، كالمعتاد. مرحبًا يا جيرالت. ماذا تفعل هنا؟ اللعنة، احترسْ!».

صفَّرَتِ الكؤيسُ القصديريَّةُ في الهواء، وضربت الطريق المرصوفة مرتدةً بفرقعة. التقطها ياسكير، وعاينها، ثم ألقى بها إلى مزراب الشارع.

صرختْ شقراءُ الشعر، وهي تنوس بكشكشات قميصها على نهديها الغضَّيْن البضَّيْن: «خذْ هذه الخرق من هنا! واغرب عن عيني! وإياك أن تطأ قدمكَ هذا المكان بعد الآن أيها الموسيقي الهاوي!».

استغربَ ياسكير، وهو يرفع من على الأرض سروالًا رجاليًّا ذا ألوان مختلفة: «إنه ليس لي. لم يكن لديَّ مثل هذا السروال قطُّ».

- انقلعْ! لا أريد رؤيتكَ! أنت... أنت... تعرف كيف أنت في السرير؟ لا تصلحُ لشيء! لا تصلحُ لشيء، هل تسمع؟ هل تسمعون أيها الناس؟

صفَّر أصيص آخر، وقرقع ومعه ساق نبات جافة كانت تنمو فيه. تمكَّن ياسكير من تجنب الضربة بشق الأنفس. خلف الأصيص، طار قِدر نحاسي وهو يدور إلى الأسفل، سِعته جالونان ونصف الجالون على الأقل. تمايل حشد الفضوليين من شدة الضحك، متماسكين خارجَ نطاق القصف. صفَّق أكبر المازحين وحرَّضوا الشقراء، دون ذرة شرف، على مواصلة فعلها.

شعر الويتشر بالقلق: «ليس لديها في المنزل قوس نشَّاب؟».

قال الشاعر رافعًا رأسَه نحو الشرفة: «لا يمكن استبعاد ذلك. لديها في البيت غرفة مهملات رهيبة. أرأيتَ هذا السروال؟».

- إذن، ربما من الأفضل أن نخرج من هنا، هيا؟ تعود أنت عندما تهدأ هي.

تجهَّم ياسكير: «إلى الشيطان. لن أعود إلى المنزل الذي تُرمَى عليَّ منه الافتراءات والقدور النحاسية. أرى أن هذه العلاقة غير الثابتة قد انقطعت أواصرها. لننتظر فقط، دعها تقذفْ بـ... أوه، يا أمي، لا! فسبولا! يا عودي!».

ألقى بنفسه مادًّا يديْه، تعثَّر وسقط وفي اللحظة الأخيرة تلقَّف آلته الموسيقية، تمامًا فُوَيق حجارة الطريق المرصوفة. نطق العود بتأوه وترنيم!

تنهَّد الشاعر المغني، وهو يهبُّ من الأرض واقفًا: «أُف. صار في يدي. لا بأس يا جيرالت، يمكننا الآن الذهاب. في الحقيقة لا يزال لي عندها معطف ذو ياقة من جلد الخز، لكنَّ هذا لا يهم وليكنْ جزءًا من خسارتي. حسب معرفتي بها، فلن تلقيَ بالمعطف».

انفجرتِ الشقراء صارخةً، وراحت تبصق من الشرفة في كل الجهات: «أيها العفن الكاذب! أنت يا صعلوك! أيها التُّدرُج المبحوح!».

- لماذا تعاملكَ هكذا؟ ما الذي ارتكبتَه يا ياسكير؟

هز التروبادور كتفيْه: «الأمر طبيعي. هي تطلب الزواجَ الأحاديَّ، شخص واحد مع شريكة واحدة، وهي نفسها تقذفني بسروال شخص آخر. هل سمعتَ ماذا نبرت صارخةً بي؟ وحق الآلهة، أنا أعرف أيضًا أمثال هؤلاء اللاتي يرفضن بطريقة أجمل مما تعطي هي، لكنني لا أصرخ بذلك في الشوارع. فلنذهبْ من هنا».

- إلى أين؟ ماذا تقترح؟

- وماذا تعتقد؟ إلى معبد **النار الأبدية**؟ تعالَ، سنمرُّ على «رأس الرمح». يجب أن أهدئ أعصابي.

جرَّ الويتشر الفرسَ خلف ياسكير، دون أن يعترض، سائرًا بحيوية في الزقاق الضيق. شدَّ التروبادور أوتارَ عودِه ماشيًا، وراح ينقرُ الأوتار مُجرِّبًا، ثم أحدث تآلفًا نغميًّا عميقًا مهتزًّا.

«*فاحت نسائم الخريف*

معنى الكلمات حلَّق بعيدًا مع الريح الباردة

هذا ما يجب أن يكون، لم يعدْ بمقدورهم أن يغيروا شيئًا

فالماسات على أطراف رموشك...».

توقف، ولوَّح بمرح لطفليْن كانا يمشيان بجوارهما ومعهما سلتان ملآنتان بالخُضَر.

ضحك الصغيران بصوت خافت.

- ما الذي جاء بك إلى نوفيجراد يا جيرالت؟

- التسوُّق. أحزمة الخيل، وبعض معدات السفر، وسترة جديدة.

مدَّد الويتشر على نفسِه سترة الجلد التي أصدرت حفيفًا وفاحت منها رائحة الجِّدة: «كيف ترى سترتي الجديدة يا ياسكير؟».

تجهَّم الشاعر وهو يزيح ريشة دجاج عن كُم قفطانه الأزرق اللامع ذي الكُمَّيْن المنتفخيْن والياقة المقصوصة بمسننات زينة: «لن تلحق الموضة. آه، أنا سعيد لأننا التقيْنا. هنا في نوفيجراد، عاصمة العالم، مركز الثقافة ومهدها. هنا يمكن للإنسان المتنوِّر أن يتنفس الصُّعداء ملءَ صدره!».

اقترح جيرالت، ناظرًا إلى أحد الرُّعاع الذي كان يجلس القرفصاء وعيناه جاحظتان، ويتغوَّط في زقاق جانبي: «لنذهبْ، ربما نتنفس في زقاق أبعد».

تجهَّم ياسكير مجددًا: «إن تهكمكَ الأبديَّ هذا صار مثيرًا للأعصاب. نوفيجراد، أقول لك، هي عاصمة العالم. فيها ما يقرب من ثلاثين ألف نسمة يا جيرالت، دون احتساب زوارها، هل تتخيل؟ منازل من الطوب، وشوارع رئيسة مرصوفة بالحجارة، وميناء بحري، ومستودعات، وأربع طواحين مائية، ومسالخ، ومناشر خشب، ومعمل ضخم يُنتِج أحذية ناعمة الجلد، بالإضافة إلى ذلك جميع النقابات والحرف التي يمكن تخيلها. دارُ سكِّ النقود، وثمانية مصارف، وتسعة عشر محلًّا للرهن، وقصر ومحرس، شيء يحبس الأنفاس. وتسليات: مقصلة، مشنقة لها منصة متحركة، خمسة وثلاثون نُزُلًا، ودار مسرح، وحديقة حيوانات، بازار، واثنا عشر بيتًا للدعارة. ومعابد، لا أتذكر كم عددها. فهو كبير. حسنًا، وأولئك النسوة يا جيرالت، المغتسلات والمجدولات الشعر والمُتأرِّجات، وهذا الساتان والمخمل والحرير، وهذا البَلِّين[1]، وهذه الشرائط الرقيقة... أوه جيرالت! تنزل القصائد على فمي من تلقاء نفسها:

---

(1) البَلِّين: البالين أو عظمة الحوت.

«هناك، حيث تسكن أنت، صار المكان أبيض من الثلج
يلمع بجليد البحيرة الصغيرة والطين
هذا ما يجب أن يكون، لم يعدْ في وسعه أن يغيِّر شيئًا
الشوق المتربص في عينيكَ...»».

- بالادا جديدة؟
- آها. سأسميها: «الشتاء». لكنها لم تجهزْ بعد. لا يمكنني إنهاؤها، فأنا بسبب فسبولا متوتر بأكملي. والقوافي لا تنتظم لي طائعة. أوه جيرالت، لقد نسيت أن أسألَ، كيف تسير أحوال ينيفر؟
- لا تسير بتاتًا.
- فهمتُ.
- أنت لا تفهم إلا البراز. حسنًا، أين هذه الحانة؟ ألا تزال بعيدة؟
- وراء الزاوية. أوه، ها نحن قد وصلنا. هل ترى اللافتة؟
- أراها.

فَغَرَ ياسكير فاهُ كاشفًا عن ضواحِكِه للفتاة البِكر التي كانت تكنس الدَّرَجَ: «أرحب بكم، وأحييكم أجمل تحية! هل قال أحد من قبل، إنك أيتها البِكر المكرَّمة، فاتنة؟».

احمرَّ وجه الفتاة البِكر فأمسكتِ المكنسة بإحكام براحتيْ يديها. ظنَّ جيرالت خلال لحظة أنها ستنهال على التروبادور بالعصا. كان مخطئًا. ابتسمتْ الصبية بودٍّ ورفَّت برموشها. ياسكير، كعادته، لم يُعِرْ ذلك اهتمامًا.

زمجر داخلًا النُّزُل وشادًّا بإبهامه أوتارَ العود بحدَّة: «مرحبًا وتحية! طاب نهاركم! المعلم ياسكير أشهر شاعر في هذه البلاد، أتى محلكَ الذي يعيث بالفوضى زائرًا أيها المضيف! فقد راودتْني الرغبةُ لشرب الجعة! فهل تقدِّر الشرف الذي أحيطكَ به، أيها المحتال؟».

قال صاحب الحانة مكفهرًّا، وهو ينحني من خلف النضد: «أقدِّر ذلك. سُررْتُ برؤيتكَ أيها السيد المغني. أرى أن كلمتَكم حقًّا ليست دخانًا. وعدتموني أنكم ستمرونَ فورًا في الصباح، وستدفعونَ ثمنَ مآثركم في الأمس. وأنا اعتقدتُ، تصوروا، أنكم تكذبون كالعادة. أشعر بالخجل بكل تأكيد».

قال التروبادور غيرَ مكترث: «أنت تُشنِّع على نفسك دون داعٍ أيها الإنسان الطيب. فأنا ليس عندي مال. سنتحدث في ذلك فيما بعد».

قال صاحب الحانة ببرود: «لا. بل سنتحدث في ذلك الآن حالًا. انتهى الدَّيْنُ يا حضرة السيد الشاعر. لن أُخدَعَ مرتيْن على التوالي».

علَّق ياسكير العود على خطَّاف بارز من الحائط وجلس إلى المنضدة، ثم خلع قبعتَه ومسَّد ريشة البلشون المثبَّتة عليها، وهو شارد الذهن.

سأل وفي صوتِهِ أمل: «هل لديكَ نقود يا جيرالت؟».

- ليس لديَّ. كل ما كان لديَّ ذهب ثمنًا للسترة.

تنهَّد ياسكير: «هذا ليس جيدًا، ليس جيدًا. اللعنة، لا روحَ حية، لا أحدَ يمكن أن يقدِّم لنا الجعَّة ضيافةً. يا صاحب الحانة، لماذا محلك فارغ اليوم؟».

- ما زال الوقت باكرًا جدًّا للزوار المألوفين. والبناؤون المياومون، أولئك الذين يُصلِحون بناء المعبد، لم يفتهمْ الوقتُ أن يكونوا هنا مبكرين، وعادوا إلى موقع البناء آخذين معهم رئيس العمال.

- ولا أحد، لا أُحَيْدَ؟

- لا أحدَ ما عدا حضرة التاجر المشرَّف بيبرفيلدت الذي يفطر الآن في الحجرة الملحقة الكبيرة.

سُرَّ ياسكير: «داينتي هنا؟ كان يجب أن تقول منذ البداية. هيا إلى الحجرة الملحَقة يا جيرالت. هل تعرف داينتي بيبرفيلدت الهوبيتي؟».

- لا.

- لا يهمُّ. ستتعرَّفه. -صاح التروبادور، وهو يسير تجاه الغرفة الجانبية- أوه! أشمُّ من جهة الغرب رائحةَ حساءِ البصل وفوحه الذي يستهوي مِنخريَّ. هنا، هنا! نحن هنا! مفاجأة!

جلس الهوبيتي منتفخ الخدين، أجعد الشعر، مرتديًا صدرية خضراء فُستقية، إلى المنضدة المركزية في الحجرة الملحقة، تحت عمود مزيَّن بأكاليل الثوم وحزم الأعشاب الطبية. كان يمسك ملعقةً خشبيةً براحته اليمنى، وباليسرى إناءً فخاريًّا. جَمُدَ الهوبيتي ساكنًا عند رؤيته ياسكير وجيرالت، فاتحًا فمه وقد اتسعتْ عيناه الجَوْزيتان الكبيرتان من شدة الخوف.

قال ياسكير، مُلوِّحًا بقبعتِهِ بمرح: «مرحبًا يا داينتي».

لم يُغيِّر الهوبيتي وضعية جلوسه، ولم يُغلِق فمه. ارتجفتِ اليد قليلًا كما لاحظ جيرالت، وتأرجحتْ خصلة طويلة من البصل المسلوق كالنوَاس، متدليةً من الملعقة.

تلعثم وابتلع ريقه بصوتٍ عالٍ: «مممر... مممرحبا ياسكير».

- أصابتكَ نوبات فُواق؟ سأخيفكَ، تريد ذلك؟ احترسْ: شُوهِدَتْ زوجتكَ في حاجز مدخل المدينة! ستكون هنا بعد قليل! جاردينيا بيبرفيلدت بلحمها ودمها! ها ها ها!

قال الهوبيتي مُؤنِّبًا: «يا لكَ من أحمق يا ياسكير».

أطلقَ ياسكير ضحكةً لؤلؤيةً مجددًا، وفي الوقت نفسه طنطن نغمتيْن من أصوات مُركَّبة مختلفة على أوتار العود.

- حسنًا، فأنتَ يا أخي لديك تعابير وجه غاية في الغباء. وأنت تفنجر عينيْك علينا، كما لو كانت لنا قرون وذيول. لعلكَ ارتعبتَ من الويتشر؟ ها؟ أم لعلكَ تعتقد أن موسم صيد الهوبيتيين قد افتتح؟ ربما...

لم يحتملْ جيرالت الأمرَ، واقترب إلى المنضدة: «توقَّف. المعذرة، أيها الصديق. لقد عايشَ ياسكير مأساةً شخصيةً عصيبةً، لم يخرجْ منها بعد. يحاول أن يقنِّعَ بالمزاح الحزنَ والكآبةَ والعارَ».

- لا تقولوا لي! (أخيرًا التهم الهوبيتي ما كان في الملعقة) سأحزر أنا وحدي. طردتكَ فسبولا في النهاية شر طردة؟ أليس كذلك يا ياسكير؟

قال التروبادور: «لا أدخل في محادثات ذات موضوعات حساسة مع الأفراد الذين يلتهمون الطعام ويشربون بمفردهم، في حين يطلبون من الأصدقاء الوقوف».

ثم جلس دون أن ينتظر. غَرَفَ الهوبيتي ملعقةً من الحساء، ولعق منها خيوط الجبن المتدلية.

قال بكآبة: «الحقيقة هي الحقيقة. أدعوكما إذن. اجلسا، والجود بالموجود. هل تتناولان حساء البصل؟».

رَفَعَ ياسكير أنفَه: «من حيث المبدأ، أنا لا أتناول الطعام في وقت باكر مثل هذا، لكنْ فليكن، سآكل. لكنْ ليس والمعدة فارغة. هيه، يا صاحب الحانة! جعة لو تكرمتَ! وبسرعة!».

أحضرتِ الأكواب وأوعية الحساء صبيةٌ ذات جديلةٍ ثخينةٍ، مثيرةٍ للإعجاب، تصل إلى ردفيْها. اعتقد جيرالت، بعد أن رنا إلى وجهها المستدير المغطَّى بالزغب، أن فمها سيكون جميلًا، لو تذكرت أن تُغلقه.

صرخ ياسكير، ملتقطًا يدَ الصبية ومقبِّلًا راحتها: «يا دريادا الغابيَّة! يا سيلفيدا! أيتها العرافة! أيتها الكائن الإلهي ذو المقلتيْن كبحيرتيْن زرقاويْن مبيضَّتيْن! جميلة أنت كالصباح، وتقاطيع فمكِ المفتوح مثيرة».

تأوَّه داينتي: «أعطوه الجعة. بسرعة، وإلا وقعتْ مصيبة».

أكَّد الشاعر المغني: «لن تقع، لن تقع. حقًّا يا جيرالت؟ من الصعب أن تجد أناسًا أهدأ منا نحن الاثنين. أنا أيها السيد التاجر شاعرٌ وموسيقيٌّ، والموسيقى تجعل العادات طيعة. والويتشر الحاضر هنا خطِرٌ على الوحوش فحسب. أقدِّمه لكِ: إنه جيرالت من ريفيا، مُخوِّف استريجا والمستذئبين وجميع القذارات. لعلكَ سمعتَ بجيرالت يا داينتي؟».

نظر الهوبيتي إلى الويتشر بعينِ الريبة: «سمعتُ».

- ماذا ذا... ماذا تفعل في نوفيجراد يا سيد جيرالت؟ تُرى هل ظهرتْ هنا أيُّ وحوشٍ مخيفة؟ هل أنتم... إحم، إحم... مستأجَرون؟

ابتسم الويتشر: «لا. أنا هنا للتسلية».

قال داينتي، مُحرِّكًا بتوتر قدميْه المشعرتيْن المتدليتيْن فوق الأرضية بارتفاع نصف ذراع: «أوه، هذا جيد...».

- ما الجيد؟ (ابتلع ياسكير ملعقة من الحساء وأتبعها بجرعة جعة) لعلك تنوي دعمنا يا بيبرفيلدت؟ في الترفيه، على ما يُفهَم؟ هذا يتوافق مع ما نشتهي توافقًا رائعًا. هنا، في «رأس الرمح»، نعتزم أن ننتشي بالخمر قليلًا. بعد ذلك، سنخطِّط لكي نقفز إلى «زهرة الآلام»، إنه بيت فجور باهظ الثمن وجيد، يمكننا فيه أن نمنح أنفسَنا نصف إلفية، ومن يدري، ربما تكون إلفية أصيلة كاملة. لكننا نحتاج إلى ممول.

- من؟

- ذلك الذي سوف يدفع.

- هكذا ظننتُ -تمتم داينتي- أنا آسف. أولًا، أنا على موعد مخصَّص لمحادثات تجارية. ثانيًا، ليستْ عندي السيولة اللازمة لتمويل مثل هذا الترفيه. ثالثًا، لا يُسمَح إلا للبشر بدخول «زهرة الآلام».

- وماذا نحن، بوماتُ أمٌّ قويق؟ أوه، لقد فهمتُ. لا يُسمَح للهوبيتيين بالدخول هناك. هذا صحيح. أنت مُحقٌّ يا داينتي، هذه هي نوفيجراد.. عاصمة العالم.

قال الهوبيتي، ولا يزال ينظر إلى الويتشر، ويعوج فمه على نحو غريب: «أنا الآن سأذهب. لديَّ موعد...».

فُتِحَ بابُ الحجرةِ الملحَقةِ. وقع مُحدِثًا دويًّا، إلى الداخل انقذف...

داينتي بيبرفيلدت.

صرخ ياسكير: «أيتها الآلهة!».

الهوبيتي الواقف عند الباب لم يكنْ مختلفًا بأي شيء عن الهوبيتي الجالس إلى المائدة، هذا إنْ لم نأخذ في الحسبان حقيقة أن هذا الذي وراء المنضدة كان نظيفًا، وذاك الذي عند الباب كان وسخًا وأشعثَ ورثَّ الأسمال.

زمجر الهوبيتي الوسخ، مندفعًا نحو المنضدة: «لقد أمسكتُ بكَ يا قضيب العاهرة! أيها اللص!».

هبَّ توأمه النظيف، قالبًا الكرسي الخشبي وطارحًا الأوعية. كان رد فعل جيرالت تلقائيًّا وفوريًّا – انتزع السيف وهو في غمده من على المقعد، وساطَ بيبرفيلدت على عنقِه بحزام ثقيل. هوى الهوبيتي على الأرضية، تدحرج وغاص بين ساقي ياسكير، واندفع على أطرافه الأربعة إلى المخرج، واستطالتْ يداه وساقاه فجأة مثل أرجل العنكبوت. في هذا المشهد، شتم داينتي بيبرفيلدت الوسخ، وزعق ثم قفز مرتدًّا، واصطدم ظهره بحُويَط خشبي محدثًا دويًّا. رمى جيرالت غمد سيفه، وأزاح عن طريقِه الكرسيَّ بركلة، وألقى نفسه في المطاردة. داينتي بيبرفيلدت النظيف، لم يعد يشبه داينتي بيبرفيلدت في شيء ما عدا في لون صدريته، تجاوز العتبة مثل جخدب واقتحم الغرفة العامة، واصطدم بصبية بِكر ذات فم نصف مفتوح. عندما رأت العذراء يديْه الطويلتيْن ووجهه الكاريكاتوري المنتفخ، فتحتْ فمها على وسعه، وأطلقتْ صراخًا يثقب الآذانَ. أمسك جيرالت، مستغلًّا فقدان السرعة الذي سببه

الاصطدام بالفتاة، بالمخلوق في وسط الغرفة وطرحه أرضًا بركلة رشيقة على الركبة.

هسهس بصوت من بين أسنانه المطبقة، واضعًا على رقبة غريب الأطوار حد سيفه: «لا تتزحزح يا أُخَيَّ. لا تتزحزح من مكانك».

زمجر صاحب الحانة راكضًا وفي قبضته عصا مجرفة: «ماذا يجري هنا؟ ما الأمر؟ الحرس! ديتشكا[1]، انطلقي ونادي الحرس!».

أنَّ المخلوقُ منبطحًا على الأرضية وقد أصبح أكثر تشوهًا: «لاااا! الرحمة، لاااااا!».

رافقه في الصوت الهوبيتي الوسخ وهو يبزغ من الحجرة الملحقة: «لا داعي لأي حرس! امسكِ الفتاةَ يا ياسكير!».

أمسك التروبادور ديتشكا التي كانت تصرخ، وعلى الرغم من استعجاله اختار من أين يمسكها بعناية. كانت ديتشكا تزعق وقد جثتْ على الأرضية بمحاذاة قدميْه.

زفر داينتي بيبرفيلدت قائلًا: «بهدوء يا صاحب المحل. هذه المسألة أمر شخصي، لن نستدعيَ الحرس. سأدفع للتعويض عن كل الأضرار».

قال صاحب الحانة دون اكتراثٍ ملتفتًا حولَه: «لا أضرار البتَّة».

اصطكتْ أسنان الهوبيتي ذي الكرش: «لكنها ستكون. لأنني سأشبعه ضربًا الآن. وبطريقة لا يمكن تخيُّلها. سأشبعه ضربًا بطريقة قاسية وطويلة ولا تُنسَى. وعندئذٍ سوف يتكسر كل شيء هنا».

نشج داينتي بيبرفيلدت بهيئته الكاريكاتورية على نحو يثير الشفقة، هيئته الباهتة والمتطاولة اليد والمسطحة والملتصقة بالأرضية.

قال صاحب الحانة ببرود، مُضيِّقًا عينيْه ورافعًا عصا المجرفة قليلًا: «لا شيء من ذلك. أشبعْه ضربًا في الشارع أو في الفناء يا حضرة الهوبيتي. وليس هنا. وأنا سأستدعي الحرس. واجب عليَّ، سأهتم بهذا. إنه... إنه وحش من نوع ما!».

---

(1) ديتشكا: كلمة من اللهجات البولندية تعني منديلَ المائدة، أو قطعةَ قماش زخرفية تعلَّق على حائط المطبخ، أو لحافًا للطفل الرضيع.

قال جيرالت بهدوء، دون أن يخفف ضغط النصل عن رقبة غريب الأطوار: «حضرة صاحب المحل، حافظوا على هدوئكم. لن يكسر أحد شيئًا، ولن يقعَ أي تخريب. الوضع تحت السيطرة. أنا ويتشر والوحش، كما ترون، في قبضتي. لكنْ لأن الأمرَ في الواقع يبدو أنه مسألة شخصية، فلنشرحْه بهدوء في الحجرة الملحَقة. دعِ الفتاة يا ياسكير، وتعالَ هنا. لديَّ سلسال فضي في الحقيبة. أخرجْه واربطْ جيدًا يديْ سعادة هذا السيد عند المرفقيْن خلفَ ظهره. لا تتحركْ يا أُخَيَّ».

أنَّ المخلوقُ بصوتٍ خافتٍ.

قال ياسكير: «حسنًا يا جيرالت. لقد ربطتُه. تعالوْا إلى الحجرة الملحقة. وأنتم يا صاحب المحل، لماذا تقفون هكذا؟ لقد طلبتُ جعةً. وأنا حين أطلب الجعةَ، فعليكم تقديمها مرارًا وتكرارًا ما دمتُ لا أصرخ: «ماء»».

دفع جيرالت المخلوقَ المقيدَ إلى الحجرة الملحقة وأجلسه بطريقة خشنة تحت العمود. جلس داينتي بيبرفيلدت أيضًا ونظر إليه بنفور.

قال: «إنها الفظاعة ذاتها، هذا ما يبدو عليه هذا الشيء. حقًّا إنه كومة من العجين المحمَّض. انظر إلى أنف، يا ياسكير، إنه على وشك أن يسقط منه، لا أمَّ له. وأذناه مثل أذنيْ حَماتي قُبيْل جنازتها. بَخٍ بَخٍ!».

تمتم ياسكير: «لحظة، لحظة. أنت بيبرفيلدت؟ حسنًا، نعم دون أدنى شك. لكنَّ ذاك الشيء الذي يجلس تحت العمود، كان أنت قبل قليل. إن لم أخطئْ. جيرالت! كل العيون مصوَّبة إليك. أنت ويتشر. ماذا يجري هنا بحق الشيطان؟ ما هذا؟».

- مقلِّدُ تعابيرِ الوجه.

قال المخلوق بصوت غليظ هازًّا أنفه: «وحدك أنت المقلِّد. أنا لستُ مقِّلدًا البتَّة، بل شبيه، واسمي تيليكو لونجريفينك ليتورت. واختصارًا بينستوك. الأصدقاء يدعونني دودو».

صرخ داينتي، مسددًا إليه ضربة بقبضته: «الآن حالًا سأعطيكَ دودو يا ابن العاهرة! أين خيولي؟ أيها اللص!».

ذكَّر صاحبُ الحانة، وهو يدخل حاملًا إبريقًا وأكوابًا ملءَ يديه: «أيها السادة، لقد وعدتُم أن الهدوء سيعم».

تنهد الهوبيتي: «أوه، الجعة. أنا عطشان، اللعنة. وجائع!».

صرَّح تيليكو لونجريفينك ليتورت: «أيضًا أودُّ أن أشرب».

وتُجوهِلَ تمامًا.

سأل صاحب الحانة، متطلعًا إلى المخلوق الذي ما إن رأى الجعة أخرج لسانه الطويلَ من خلف شفتيْه المتدليتيْن والعجينيتيْن: «ما هذا؟ ما يكون هذا أيها السادة؟».

كرَّر الويتشرَ، دون أن يلتفت إلى كشرات الوحش: «مُقلِّد. في المحصلة له أسماء عدَّة. ميناياك ومزدوج وفيكسلينج وبيداك. أو شبيه، كما سمَّى نفسه».

صاح صاحب الحانة: «فيكسلينج! هنا في نوفيجراد؟ في محلي هذا؟ يجب استدعاء الحرس على عَجَلٍ! والكهنة! سأهتم بهذا...».

تنحنح داينتي بيبرفيلدت، محتسيًا على عجل الحساء من صحن ياسكير الذي نجا بمعجزة: «مهلًا، مهلًا، سنتمكن من استدعاء من نحتاج إليه دون تأخير. لكنْ في وقت لاحق. هذا الوغد هنا سرقني، ولا أنوي تسليمه ليد القانون المحلي قبل استعادة ممتلكاتي. أنا أعرفكم أيها النوفيجراديون، وأعرف قُضاتكم. قد أحصل على العُشْرِ لا أكثر».

تأوَّه الشبيه بيأس: «الرحمة، الرحمة! لا تسلموني للبشر! هل تعرفون، ما يفعلون هم بأمثالي؟».

هزَّ صاحب الحانة رأسَه: «بالتأكيد، نحن نعرف. إن الكهنة يؤدُّون على الشبيه المقبوض عليه طقوس طرد الأرواح الشريرة. وبعد ذلك يُربَط بعصا ويلصَق بشدة بكُرة وطين ممزوج ببرادة، ويُشوَى في النار، حتى يتصلَّب الطين ويصير لَبِناتِ بناءٍ. هذا على الأقل ما كان يحدث في الماضي، عندما كان يُعثَر على هذه الوحوش بِنِسب أكثر».

تجهَّم داينتي، مُزيحًا عنه الصحنَ الذي صار فارغًا: «عادة همجية، إنسانيَّة حقًّا. لكنها قد تكون أيضًا قَصاصًا عادلًا من اللصوصية والسرقة. فلتنطقْ إذن أيها الوغد، أين خيولي؟ بسرعة، وإلا سحبتُ أنفكَ هذا بين رجليْك وحشوتُه في مؤخرتك! أسألكَ، أين خيولي؟».

تلعثم تيليكو لونجريفينك ليتورت، وقد انكمشتْ أذناه المتدليتان فجأة لتصيرا كرتيْن تشبهان رأسيْ قرنبيط مصغريْن: «قد بعـــ... لقد بعتُها».

أرغى الهوبيتي وأزبد: «لقد باعَها! هل سمعتم؟ لقد باع خيولي!».

قال ياسكير: «طبعًا. كان لديه الوقت الكافي. هو هنا منذ ثلاثة أيام. منذ ثلاثة أيام وأنا أراك... أعني أراه هو... اللعنة، يا داينتي، هل هذا يعني...».

زأر التاجرُ وهو يخبط برجليه المشعرتيْن: «بالتأكيد! هذا يعني! أنه سلبني في الطريق على مسافة يوم من المدينة! جاء إلى هنا على أساس أنه أنا، هل تفهمون؟ وباع خيولي! سأقتله! سأخنقه بهاتيْن اليديْن!».

- حدِّثونا كيف حدث ذلك يا سيد بيبرفيلدت.

- جيرالت من ريفيا إن لم أكن مخطئًا؟ الويتشر؟

أكد جيرالت بإيماءة من رأسه.

قال الهوبيتي: «هذا أمر جيد جدًّا».

- أنا داينتي بيبرفيلدت من مرج رديستوفا، مزارع ومربٍّ وتاجر. خاطِبْني بداينتي يا جيرالت.

- تحدث يا داينتي.

- نعم، لقد سارت الأمور على هذا النحو. أنا ورعاة خيولي قدنا الجياد لبيعها في السوق في **مخاضة الشيطان**. وعلى مِسافة يوم من المدينة، لاحت لنا آخر محطة للاستراحة. وقد نمنا بعد أن أنهيْنا دنًّا صغيرًا من الحُميًّا مع الكراميل. أستيقظ في منتصف الليل، أشعر أن مثانتي تكاد تنفجر، لذا نزلتُ من العربة وبالمعية فكرتُ أن ألقي نظرة على الخيول ماذا تفعل هناك في المرج. أخرجُ والضباب كالطاعون، أنظرُ وإذْ بي ألمح فجأة شخصًا قادمًا. أسألُ: مَن هنا؟ ولا شيء يبدر منه. أقتربُ أكثر فأرى... نفسي. كما في المرآة. فأفكر، لم يكنْ ثمة داعٍ إلى شرب الحُميًّا مع الكراميل، تلك الخمرة اللعينة. وهذا الذي هنا... كان أصلًا هو نفسه، هذا إن لم أكن قد فقدتُ صوابي! وانقلبتُ رأسًا على عقب. أستيقظُ في الصباح في دغلٍ لعينٍ، وعلى رأسي ورم مثل ثمرة خيار، وما من نَفْسٍ حية من حولي، وما من أثر لمخيمنا أيضًا. سرتُ على غير هدًى طوال اليوم، قبل أن أهتدي في النهاية إلى الدرب، جرجرت نفسي يوميْن وأكلت الجذور والفطر النيء. وهو... هذا دودوليكو المنحط، أو أيًّا كان اسمه، مضى في هذه الأثناء إلى نوفيجراد على أساس أنه أنا، وسرق خيولي! أنا سأريه الآن... أما رعياني هؤلاء، فسأسلخ جلودَهم

بالسياط، مئة جلدة لكل واحد منهم على مؤخرته العارية بأوامر عمياء! فكيف لم يعرفوا رئيسَهم! وكيف خُدِعُوا بمثل هذه الطريقة! البُلْهُ الحمقى السكِّيرون...

قال جيرالت: «لا تغضبْ منهم يا داينتي. كانت فرصهم معدومة. الشبيه ينسخ الآخر بدقة لدرجة يستحيل فيها تمييزه عنَ الأصل، أي عن الضحية التي ينتقيها. ألمْ تسمعْ بالشبيهين من قبل؟».

- من ناحية السمع، سمعتُ. لكنني اعتقدتُ أن ذلك مجرد تهيؤات.

- ذلك ليس تهيؤات. يكفي الشبيه أن ينظر إلى الضحية بإمعان، كي يتقمَّص هيكل المادة اللازم بسرعة ودون أخطاء. ألفتُ انتباهكَ إلى أن هذا ليس وهمًا، بل تغيير كامل ودقيق، في أدق التفاصيل. ومن غير المعروف، بأي طريقة يفعل مقلدو تعابير الوجه ذلك. يشتبه السحرة أن الأمر هنا مرتبط بعمل مكوِّن الدم نفسه، كما يحدث عند تحوُّل الإنسان إلى ذئب ليلًا، لكنني أعتقد أن ذلك، إما شيء مختلف كليًّا، وإما شيء أقوى ألف مرة. وفي المحصلة، فإن للمستذئب هيئتيْن فقط، أو على الأكثر ثلاثًا، أما الشبيه فيمكنه التحوُّل إلى أي شيء يريده، ولا يهمه إلا أن تكون كتلة الجسم مناسبةً نوعًا ما.

- كتلة الجسم؟

- أجل، فلن يتحول إلى صنَّاجة[1]. ولا إلى فأر.

- فهمتُ. والجنزير الذي ربطتْه به، من أجل ماذا؟

- الفضة. قاتلة للمستذئب، أما لمقلدِ التعابير فهي، كما ترى، لا تكبح إلا التحوُّلات فحسب. لذلك تراه جالسًا هنا في هيئته الأصلية.

ضغط الشبيه فمه المتشقق، وحدج الويتشر بنظرة شر من عينيْه العكرتيْن اللتيْن فقدتا لونَ قزحيتيْ الهوبيتي وصارتا صفراويْن.

زأر داينتي: «جيد أنه جالس، ابن الكلبة الوقح. وانظروا فقط، إنه توقف هنا، في نُزُل «الحد القاطع»، حيث اعتدتُ المكوث في هذا المحل! لقد أوهم نفسه فعلًا أنه أنا!».

أدار ياسكير رأسه.

---

(1) الصَنَّاجة أو الماستودون: حيوان ضخم الجثة بائد يشبه الفيل.

قال: «داينتي. لقد كان أنت. التقيتُه هنا منذ ثلاثة أيام، بدا مثلكَ وتكلم مثلما تتكلم أنت، وكان يفكر كما تفكر أنت. وعندما وصل الأمر إلى تقديم الضيافة كان بخيلًا مثلكَ، أو ربما أكثر منكَ».

قال الهوبيتي: «هذا الشيء الأخير لا يقلقني، فربما أستعيد جزءًا من مالي، إني أشمئز حتى من أن ألمسه. خذ منه المحفظة، يا ياسكير، وانظر ما في داخلها. لا بدَّ أن يكون هناك الكثير، إذا كان سارق الخيل هذا قد باع فعلًا جيادي».

- كم كان لديك من الجياد يا داينتي؟

- اثنا عشر.

وقال التروبادور، محدقًا إلى داخل صرة المال: «إذا حسبنا وفق الأسعار العالمية ما هو موجود هنا، فقد يكفي لحصان واحد هَرِم، معتل الحافر، هذا إن وُجِدَ. وإذا ما حسبناه وفق أسعار نوفيجراد، فبه تشتري عنزتيْن أو ثلاثًا على الأكثر».

لم يقلِ التاجر شيئًا، لكنه بدا كما لو أنه أوشك أن ينفجر باكيًا. نكس تيليكو لونجريفينك ليتورت أنفَه خفيضًا، والشفة السفلى خفضها أكثر، ثم قرقر بصوتٍ خافتٍ.

وأخيرًا تنهَّد الهوبيتي: «بكلمة واحدة، سلبني وحطمني مخلوق، حسبتُ أن وجوده لا يكون إلا بين سطور القصص الخيالية. وهذا ما يُطلَق عليه سوء الطالع».

قال الويتشر، رامقًا الشبيه المنكمش على الكرسي الخشبي بنظرة: «تمامًا، لا زيادة، ولا نقصان. أنا كنتُ مقتنعًا أيضًا أن المقلِّدين قد أُبيدوا منذ زمن طويل. في الماضي، حسب ما سمعت، كان يعيش الكثير منهم هنا في الغابات وعلى الهضبة المستوية. لكنَّ قدراتهم على تقليد التعابير أقلقت المستوطنين الأوائل كثيرا، فبدأتْ مطاردتُهم على نحو فعَّال بما يكفي، وقُضِيَ عليهم جميعًا، على وجه التقريب».

قال صاحب الحانة: «من حسن الحظ. تُفًّا، تُفًّا، أقسم بالنار الخالدة، أفضِّل التنين أو الشيطان الذي دائمًا يكون تنينًا أو شيطانًا، ومعروفًا ما يلتزم به. لكنَّ الاستئذاب، وتلك التحوُّلات والاختلافات، ما هي إلا ممارسة شيطانية بشعة، خداع وتآمر غادر على الناس من أجل إيذائهم وإشقائهم من خلال

هذه الفظاعات المختلَقة! أقول لكم، دعونا نستدعِ الحرس، وإلى النار فليرموا هذا البغيض!».

أثير فضول ياسكير: «جيرالت! سأفرح بسماع رأي شخص متخصص. هل مقلدو التعابير هؤلاء هم أيضًا خطرون وعدوانيون في الحقيقة؟».

قال الويتشر: «قدراتهم على نسخ الآخرين هي خصيصة بالأحرى من أجل الدفاع أكثر من كونها للاعتداء. لم أسمع...».

قاطعه داينتي بغضب، خابطًا المنضدة بقبضته: «أيها الوباء. إذا كان ضَربُ أحدهم على رأسه ونهبُه ليس اعتداءً، فلا أدري، ما يكون إذن! توقفوا عن التذاكي. الأمر بسيط: لقد هوجِمْتُ وسُلِبْتُ، لا من الرزق الذي حصلتُ عليه بالعمل الشاق فحسب، بل من شخصيتي ذاتها أيضًا. أطالب بالتعويضات، لن أرتاح...».

قال صاحب الحانة: «الحرس.. يجب استدعاء الحرس. ويجب استدعاء الكهنة! وحرق هذا المسخ، هذا غير البشري!».

خطف الهوبيتي رأسَه إلى أعلى: «توقفوا، يا صاحب المحل. أصبحتم مملين بحرسكم هذا. ألفتُ انتباهَكم إلى أن هذا اللابشري لم يفعل شيئًا لكم، بل لي أنا فقط. وأقول، بين قوسيْن، أنا أيضًا غير بشري».

ضحك صاحب الحانة بتوتر: «ماذا تقولون يا سيد بيبرفيلدت؟! أين أنتم وأين هو؟ أنتم تكادون تصلون إلى مرتبة إنسان تقريبًا، وهذا مسخ أساسًا. أستغرب يا سيد ويتشر أنكم تجلسون بهدوء هكذا. أرجو المعذرة، لأي مهامٍ أنتم؟ شغلكم قتل الوحوش، أليس كذلك؟».

قال جيرالت ببرود: «الوحوش. لكنْ ليس تلك التي تمثل الأعراق العاقلة».

قال صاحب الحانة: «حسنًا يا سيدي. الآن أنتم قد بالغتم قليلًا».

تدخَّل ياسكير: «ككائن حي! لقد تجاوزتَ المعقول يا جيرالت بقولك هذا عن العرق العاقل. ألا فانظر إليه فحسب».

في الواقع، لم يكنْ تيليكو لونجريفينك ليتورت في هذه اللحظة يبدو ممثلًا لعرق ذكي. لقد بدا شبيهًا بدمية خُلِقَتْ من طين وطحين، وهو ينظر إلى الويتشر نظرة متوسلة، بعينيْن عكرتيْن وصفراويْن. كما أن أصوات المخاط

التي أحدثها أنفُه الذي بلغ بطولِه سطحَ المائدة، لم تكنْ مناسبةً لممثل العرق العاقل.

فجأة زأر داينتي بيبرفيلدت: «يكفي هذا الهراء الفارغ! لا يوجد شيء نناقشه! شيء واحد يهمني هو خيولي وخسارتي! هل تسمع أيها الهزنوع[1] اللعين؟ لمن بِعْتَ خيولي؟ وماذا فعلتَ بالمال؟ قلْ على الفور وإلا ركلتكَ وسحقتكَ وسلختُ جلدكَ!».

أدخلتْ ديتشكا نصف رأسها إلى الحجرة الملحَقة وهي توارب الباب.

همست: «الأضيافُ في الحانة يا أبي. آل مولارتشيك من موقع البناء وآخرون. أنا سأخدمهم، لكنْ أنتم لا تصرخوا هنا بصوت عالٍ لهذه الدرجة، لأنهم سيبدؤون في الاستغراب في الحجرة الملحقة».

شعر صاحب الحانة بالخوف ناظرًا إلى الشبيه المشوَّه: «وحق **النار الخالدة**! إذا نظر أي شخص هنا ورآه... إذا كان علينا ألا ننادي الحرس، فـ... يا سيد ويتشر! إذا كان هذا فيكسلينجَ حقيقيًّا، فقولوا له ليتحول إلى شيء لائق، بغرض التستر تظاهرًا في الوقت الراهن».

قال داينتي: «صحيح. فليتحوَّل إلى شيء ما يا جيرالت».

قرقر الشبيه فجأة: «إلى ماذا؟ يمكنني أن أتقمص الشخصية التي أعاينها بدقة. مَن منكم إذن سيكون الشخصية التي سأتحول إليها؟».

قال صاحب الحانة بسرعة: «ليست شخصيتي».

احتدَّ ياسكير: «ولا شخصيتي. وفي المحصلة لن يكون ذلك أي تمويه. الجميع يعرفني، لذا فإن منظر ياسكيريْن حول منضدة واحدة يمكن أن يحدث إثارة أكبر مما يُحدِثُهُ هذا ذو الشخصية الأصلية هنا».

ابتسم جيرالت: «سيكون الأمر معي مشابهًا. أنت من بقي يا داينتي. وبهذا يأتي الأمر متوافقًا بطريقة جيدة. لا تزعل، فأنت نفسك تعلم أن الناس يُميِّزون بصعوبة بين هوبيتي وآخر».

لم يفكر التاجر طويلًا.

قال: «حسنًا، فليكن. فكَّ الجنزيرَ يا ويتشر. وأنت، هيا تحوَّل إلى شخصيتي، أيها العِرْق العاقل».

---

(1) الهزنوع: نبات من الفطريات.

فركَ الشبيهُ كفيْه العجينيتيْن بعد أن فكَّ الجنزير، ودلَّك أنفه وحدَّق جاحظ العينين إلى الهوبيتي. انشدَّ الجلدُ المترهلُ على وجهه وتلوَّن. تقلَّص أنفُه وسُحِبَ بتمطُّق مكتوم، ونما على الجمجمة الصلعاء شعرٌ مجعَّد. فتح داينتي عينيْه على وسعيْهما، وفغر صاحب الحانة فمه بإعجاب صامتٍ، تنهَّد ياسكير وتأوه.

وآخر ما تغيَّر كان لون العينين.

تنخَّم داينتي بيبرفيلدت الثاني، مدَّ يده على المنضدة، وأمسك كوب داينتي بيبرفيلدت الأول وضغطه بشفتيه بنهم.

قال ياسكير بصوت خفيض: «لا يمكن، لا يمكن. ألا فانظروا فحسب، لقد نسخه بأمانة. لا يمكن إيجاد أي فرق. بين كل الأشياء. وفي هذه المرة حتى بين آثار لدغات البعوض والبقع على السروال... بالضبط، على السروال! جيرالت، حتى السحرة لا يقدرون على ذلك! مسِّدْهُ إنه صوف حقيقي، وليس وهمًا بتاتًا! شيء استثنائي! كيف يفعل ذلك؟».

تمتم الويتشر: «لا أحد يعلم ذلك. هو أيضًا لا يعلم. قلتُ إن لديه قدرة كاملة لتغيير غير محدود لتركيب المادة، لكنها قدرة عضوية وغريزية...».

- لكنَّ السروال... من أي شيء صُنِعَ السروال؟ والصدرية؟

- هذه بشرته الخاصة المتكيِّفة. لا أظن أنه يمكن أن يتخلص من ذلك السروال راغبًا. في المحصلة، كان سيفقد خصائص الصوف على الفور...

أظهر داينتي فطنته: «يا للخسارة. فقد كنتُ قد فكرت متسائلًا، أكنت سأطلب منه تحويل دلو المادة إلى دلو ذهب».

جلس الشبيه، وهو الآن نسخة طبق الأصل عن الهوبيتي، منفوشًا بارتياح وابتسم ابتسامةً عريضةً، وبدا فرحًا من كونه أصبح مركز الاهتمام. جلس بوضعية مطابقة تمامًا لوضعية داينتي، وكان يؤرجِّح قدميْه المشعرتيْن بالطريقة نفسها.

قال: «أنت تعرف الكثير عن الشبيهين، يا جيرالت».

ثم جرع من الكوب، وتمطَّق، وتجشأ: «الكثير، حقًّا».

قال ياسكير: «أيتها الآلهة، إنه صوت بيبرفيلدت وسلوكياته أيضًا. أليس لدى أحدكم قطعة حرير رقيق حمراء؟ يجب أن تُوضَع علامة عليه، تبًّا لدم الكلاب، فقد تقع مصيبة».

اعترض داينتي بيبرفيلدت الأول: «ما بكَ يا ياسكير؟ أظنكَ تخطئ في التفريق بيني وبينه؟ من أول...».

أكمل داينتي بيبرفيلدت الثاني، وتجشَّأ بجاذبية: «...نظرة يمكن تبيُّن الفروق. في الواقع، أن يخطئ المرء في هذا الأمر، فلا بدَّ أن يكون أغبى من مؤخرة الفرس».

همس ياسكير بإعجاب: «ألم أقل ذلك؟ يفكر ويتكلم مثل بيبرفيلدت. لا يمكن التفريق بينهما...».

أمال الهوبيتي شفتيه: «مبالغة، مبالغة فادحة».

نفى جيرالت: «لا. هذه ليست مبالغة. صدق أو لا تصدق، لكنه في هذه اللحظة قد صار أنت يا داينتي. إن الشبيه ينسخ بدقة، وبوسائل غير معروفة، نفسية ضحيته أيضًا».

- نفسي...، ماذا؟
- حسنًا، هي خصائص العقل، والشخصية، والمشاعر، والأفكار. الروح. وهذا ما يمكن أن يؤكد ما ينكره غالبية السَّحرة وجميع الكهنة. بأن الروح هي أيضًا مادة.

شهق صاحب الحانة: «هذا تجديف...».

قال داينتي بيبرفيلدت بحزم: «وهراء. لا تقصَّ علينا حكايات خرافية، أيها الويتشر. خصائص العقل، يا للروعة. نسخ أنف شخص ما وسرواله هذا شيء، لكنَّ الفهم ليس ضراطًا على البلاط. وسأثبت لكَ ذلك الآن. لو نسخ هذا الشبيه المقزز عقلي التجاري، فما كان ليبيع الخيول في نوفيجراد، حيث لا إقبال على شرائها، بل لسار إلى مخاضة الشيطان، إلى سوق الخيل، حيث تُحدَّد الأسعار بالمزاد، وعلى أساس من يُعطي أكثر. والمرء هناك لا يخسر...».

قلَّد الشبيه تعابير وجه الهوبيتي الغاضبة مستهزئًا، وشخر شخيرًا مميَّزًا: «بل إنه يخسر. أولًا، السعر في المزاد بمخاضة الشيطان أيضًا في الحضيض،

لأن التجار يتآمرون حين يشاركون في المناقصة. بالإضافة إلى ذلك، لا بدَّ من دفع عمولة للقائمين على المزاد».

ثار بيبرفيلدت غاضبًا: «لا تعلمني التجارة، أيها الأحيمق! أنا في مخاضة الشيطان كان يمكنني أن آخذ تسعين أو مئة مقابل كل رأس. وأنت كم حصلتَ من المحتالين النوفيجراديين؟».

قال الشبيه: «مئة وثلاثين».

- أنت تكذب، أيها الخليع.

- أنا لا أكذب. لقد سقتُ الخيول إلى المرفأ رأسًا يا سيد داينتي، وهناك وجدتُ تاجرَ فراء بحريًّا. لا يستخدم الفرَّاؤون الثيران، وهم يشكِّلون القوافل، فالثيران بطيئة جدًّا. والفرو خفيف لكنه ثمين، لذا يجب أن يكون السفر سريعًا. لا إقبال على الخيل في نوفيجراد، لذلك لا توجد فيها خيول أيضًا. وأنا كان لديَّ ما توفر منها حصرًا، لذا أمليتُ عليهم السعر. الأمر يسير...

صاح داينتي وقد احمرَّ: «لا تعلمني، قلتُ لك! حسنًا، لقد كسبتَ إذن. فأين المال؟».

قال تيليكو بفخر، مقلدًا الهوبيتي وهو يصفِّف غرة شعره الكثَّة بأصابعه على عادته النمطية: «داولتُه. المال يا سيد داينتي يجب أن يُتدَاول، والعمل التجاري يجب أن يدور جاريًّا».

- احذر، وإلا فصمتُ رأسَك عن جسدك! قُلْ، ماذا فعلتَ بالنقود التي كسبتَها مقابل الخيول؟

- لقد قلتُ. اشتريتُ بضائع.

- أيُّ بضائع؟ وماذا اشتريتَ أيها القميء؟

تأتأ الشبيه، ثم تلا بسرعة: «صـــ... صباغًا قرمزيًّا. خمسمئة بوشل من الصباغ القرمزي، واثنين وستين قنطارًا من لحاء الميموزا، وخمسة وخمسين كيلًا من زيت الورد، وثلاثة وعشرين برميلًا من زيت السمك وستمئة وعاءٍ فخاريٍّ وثمانين رطلًا من شمع العسل. زيت السمك، والكلام بيننا، اشتريتُه بسعر رخيص جدًّا، فقد كان فاسدًا بعض الشيء. أوه، كدتُ أنسى. اشتريتُ أيضًا مئة ذراع من الحبل القطني».

ساد صمت طويل، طويل جدًّا.

وأخيرًا، قال داينتي ناطقًا كل كلمة ببطء شديد: «زيت سمك فاسد. حبل قطني. ماء ورد. أظن أنني أحلم. نعم، هذا كابوس. يمكن شراء كل شيء في نوفيجراد، كل الأشياء الثمينة والمفيدة، وهذا الأبله هنا ينفق مالي على البراز، متلبسًا شخصيتي! لقد انتهيتُ، وذهبت أموالي هباءً، وذهبتْ سمعتي كتاجر. لا. ما عدتُ أحتمل. أعِرْني سيفك يا جيرالت. سأُرديه قتيلًا في الحال».

انفتحَ باب الحجرة الملحقة محدثًا صريرًا.

صرخ الشخص الداخل، المرتدي توجة[1] أرجوانية متدلية على جسد رفيع كالعصا. كانت على رأسه قبعة مخملية على شكل قعادة مقلوبة: «التاجر بيبرفيلدت! هل التاجر بيبرفيلدت هنا؟».

ردَّ كلا الهوبيتييْن في وقت واحد: «نعم».

في اللحظة التالية، رشَّ أحد الداينتيين البيبرفيلدتيين محتوى كوبه على وجه الويتشر، وأزاح الكرسي بخفة من تحت ياسكير واندفع تحت المنضدة تجاه الباب، صادمًا في طريقه الشخص ذا القبعة المضحكة.

زعق، مقتحمًا الغرفة العامة: «حريق! النجدة! إنهم يُقتَلون! النار تشتعل!».

اندفع جيرالت وراءه، نافضًا عنه الرغوة، لكنَّ ثاني البيرفيلدتيين الذي كان يجري أيضًا نحو الباب، انزلق على نشارة الخشب وسقط عند قدميْه. كلاهما سقطا عند العتبة تمامًا. أطلق ياسكير شتائم بذيئة وهو يتفلَّت خارجًا من تحت المنضدة.

صرخ الشخص الرفيع من على الأرضية، مشبوكًا بالتوجة الأرجوانية: «سطو! سطو!! قطاع طرق!! ».

تدحرج جيرالت على الهوبيتي واقتحم الحانة، رأى الشبيه نازلًا إلى الشارع دافعًا الزُّبُن جانبًا. اندفع وراءه، وما كان إلا أن علق على الجدار المرن، والصلب في الوقت نفسه، المتشكل من الناس الذين سدوا الطريق عليه. تمكن من أن يُسقِط واحدًا منهم متسخًا بالطين وتفوح منه رائحة جعة، لكنَّ الباقين ثبَّتوه بضغط حديدي من أكتافهم القوية. راح يتفلَّت هائجًا، وقد

(1) التوجة: لباس قديم يتكون من رداء أبيض متفاوت الطول يُلَفُّ حول الجسم. كانت تلبس فوق الغلالة.

ترافق ذلك مع الصوت الجاف لتقطع الخيوط وتمزق الجلد، ونشأ تحت الإبط الأيمن فراغ. وأطلق الويتشر شتيمة، متوقفًا عن محاولة الإفلات.

صاح البناؤون: «أمسكنا به! أمسكنا بقاطع الطريق! ماذا نفعل به يا حضرة المعلم؟».

زعق المعلم رافعًا رأسه عن سطح المنضدة وموجهًا عينيْه الضريرتيْن على كل الجهات: «الجير!».

زأر الأرجواني وهو يصارع دابًّا على أربع من الحجرة الجانبية: «يا حرااااس! اعتداء على موظف حكومي! يا حراس! ستذهب إلى المشنقة جرَّاءَ ذلك أيها الشرير!».

صرخ البناؤون: «أمسكنا به! أمسكنا به يا سيد!».

عوى الرجل المرتدي التوجة: «ليس هذا! اقبضوا على السافل. طاردوه!».

- من هو؟

- بيبرفيلدت.. الهوبيتي! طاردوه.. طاردوه! إلى الزنزانة معه!

قال داينتي وهو يبزغ من الحجرة الملحقة: «لحظة، لحظة. ما بكم يا سيد شوان؟ لا تمسحوا فمكم باسمي. ولا تدقوا ناقوس الخطر، لا حاجة إلى ذلك».

سكت شوان، مُحدِّقًا إلى الهوبيتي بدهشة.

خرج ياسكير من الحجرة الملحَقة مُعوِجًا القبعة على رأسه ومتفحصًا عوده. بعد أن تهامس البناؤون في ما بينهم تركوا جيرالت أخيرًا. ومع أن الويتشر كان حانقًا جدًّا، فقد اكتفى ببصقة كثيفة على الأرضية.

صاح شوان، وهو يُغلِق عينيْه قصيرتيِ النظر: «أيها التاجر بيبرفيلدت! ما المفترض أن يعنيه هذا؟ الاعتداء على أحدِ موظفي المدينة قد يكلفكم غالــ... من كان ذلك؟ ذاك الذي فرَّ؟».

قال داينتي بسرعة: «ابن عم. ابن عم بعيد لي...».

أيَّده ياسكير، شاعرًا بمودَّته: «نعم، نعم. إنه ابن عم بعيد لبيبرفيلدت. يُعرف باسم تشوبك-بيبرفيلدت. النعجة السوداء في الأسرة. عندما كان طفلًا، سقط في بئر جافة، لكنْ من سوء الحظ وقع الدلو على رأسه مباشرة. عادة ما يكون هادئًا، ولا يُثير هياجه إلا رؤية اللون الأرجواني. لكنْ لا شيء يدعو إلى

القلق، فهو يهدأ عند رؤية الشعيرات الحمر على صدور النساء. لذلك قد اندفع رأسًا إلى «زهرة الآلام». أؤكد لكم يا سيد شوان...».

صأى الويتشر: «كفى يا ياسكير. تبًّا، فلتخرس».

شد شوان التوجة إلى أسفل، ونفض نشارة الخشب عنها واستقام، مبديًا تعابيرَ استعلاء على وجهه.

قال: «نعمم. راقبوا أقاربكم بانتباه أكبر أيها التاجر بيبرفيلدت، فأنتم على أي حال تعلمون أنكم مسؤولون عن ذلك. لو قُدِّمَتْ شكوى... لكنَّ الوقت لا يسعفني. أنا هنا يا بيبرفيلدت لأمور الخدمة. وباسم سلطات المدينة، أدعوكم إلى دفع الضريبة».

- هاه؟

كرَّر الموظف ونفخ شفتيه في تكشيرة يُحتمَل أن تُرى عند شخص ذي أهمية كبرى: «الضريبة. ما بكم؟ أخذتُم ذلك من ابن عمكم؟ مزاولة الأعمال التجارية تقتضي دفع الضرائب، أو الذهاب إلى غياهب الظلمات».

زمجر داينتي: «أنا؟! أنا، أعمال تجارية؟ ليست لديَّ إلا الخسائر، أمَّ العاهرات! أنا...».

صأى الويتشر: «احذرْ يا بيبرفيلدت».

أمَّا ياسكير فقد ركل الهوبيتي خفيةً على كعبه المشعِر، فسعل الهوبيتي.

قال، مصطنعًا ابتسامة على وجهه الممتلئ: «طبعا. طبعًا يا سيد شوان. مزاولة الأعمال التجارية تقتضي دفع الضرائب. الأعمال التجارية الجيدة تعني ضرائب كبيرة. والعكس صحيح على ما أعتقد».

امتقع وجه الموظف، جلس إلى المنضدة واستلَّ مِحسبة ولفَّة من الرقاق من بين أثناء توجته العميقة، ثم نشر اللفَّة على سطح المنضدة، ماسحًا إياها بكمه أوَّلًا: «ليس لي أن أحكم على أعمالك أيها السيد التاجر. مهمتي أن أُحصِي وأَجْبي. أجل... لنُجرِ الحساب إذن... سيكون... هممم ...أطرحُ اثنين، لديَّ واحد في عقلي... أجل... ألف وخمسمئة وثلاث وخمسون كورونة، وعشرون كوبيرًا».

انبثقتْ من حلق داينتي بيبرفيلدت حشرجة مكتومة. همهَمَ البناؤون في انبهار. أفلتَ صاحبُ الحانة الصحنَ من يده، وتنهَّد ياسكير.

قال الهوبيتي بمرارة: «إذن، إلى اللقاء يا شُبَّان. إن سأل عني أحد فأنا في غياهب الظلمات».

2

تأوَّه داينتي: «حتى يوم غد، حتى الظهر. ابن الكلبة هذا، شوان، هذا المهلهل المقزِّز، لتأخذه الجحيم، كان يمكنه أن يمدِّد مهلة الدفع أكثر. أزيد من ألف ونصف ألف كورونة، من أين أجيء بمثل هذا المبلغ حتى يوم غدٍ؟ لقد انتهيتُ، حُطِّمْتُ، سأتعفن في سجن الجنايات! دعونا لا نجلس هنا، اللعنة، أقول لكم، فلنقبضْ على هذا الشبيه الوغد! يجب أن نقبض عليه!».

جلس الثلاثة جميعهم على الغلاف الرخامي لحوض نافورة لا تعمل، كانت تتوسط ساحة صغيرة بين دور التجار الفخمة التي كانت تنقصها الأناقة على نحو استثنائي. كانت المياه في الحوض خضراء وقذرة قذارة رهيبة، وأسماك البَرْعَان الذهبي، السابحة وسط النفايات، تعمل جاهدةً بخياشيمها وأفواهها المفتوحة تلتقط الهواء من السطح. كان ياسكير والهوبيتي يمضغان كعك الراتسوخ[1] الذي سرقه التروبادور من أحد الأكشاك التي مرَّ بها قبل لحظات.

قال الشاعر المغنِّي: «لو كنتُ مكانكَ، لتخلَّيتُ عن المطاردة، وبدأتُ في البحث عن شخص يُقرِضني المالَ. ماذا سيعطيك الإمساك بالشبيه؟ هل تظن أن شوان سيقبله كمكافئ؟».

- أنت أحمق يا ياسكير. بعد القبض على الشبيه سآخذ أموالي منه.
- أيُّ أموال؟ لقد ذهب ما كان في حقيبته لتغطية الأضرار ورشوة لشوان. لم يكن لديه أكثر من ذلك.

عبس الهوبيتي: «ياسكير، قد تكون تعرف ما الشعر، ولكنك في الأمور التجارية، سامحْني، فأنت مهرج كليًّا. أسمعتَ كم قدْر الضريبة التي احتسبها شوان عليَّ؟ ومن أي شيء تُجبَى الضرائب؟ هاه؟ من أي شيء؟».

---

(1) : راتسوخ: صنف من أنواع الحلوى البولندية التقليدية، يُقلى بالزيت.

صرَّح الشاعر: «من كل شيء. أنا أدفعها حتى من الغناء. وهم لا يكترثون بأعذاري، وهي أنني كنتُ أغني بدافع الحاجة الداخلية».

- قلتُ لك إنك أحمق. تُدفَع الضرائب في التجارة من الربح. من الربح يا ياسكير! هل تفهم؟ لقد انتحل هذا الشبيه الصعلوك شخصيتي وانخرط في أعمال تجارية معينة كانت احتيالية حتمًا. وكسب من ورائها! لقد ربح! وأنا سأُضطَر إلى دفع الضريبة، بالإضافة إلى أنني، على الأرجح، سأغطِّي ديونَ ذلك التافه، إن كان قد أغرق نفسه في الديون! وإذا لم أدفع، فسيُزجُّ بي في زنزانة تحت الأرض، وسيُشهَّر بي بالحديد علانية، وسأُرسَل إلى المناجم! تبًّا للوباء!

قال ياسكير بمرح: «ها. لا مخرج لديك، يا داينتي. يجب أن تهرب من المدينة متخفِّيًا. أتعلم؟ لديَّ فكرة. سنلفُّك كاملا بجلد خروف. تعبر البوابة صائحًا: «أنا نُعيجة، مااااع، مااااع»، لن يتمكن من معرفتك أحد».

تكلم الهوبيتي مكتئبًا: «ياسكير! اخرسْ وإلا ركلتك. جيرالت؟».

- ماذا يا داينتي؟

- أستساعدني في الإمساك بالشبيه؟

قال الويتشر، وكان لا يزال يحاول دون جدوى رتق كم سترته الممزق بالإبرة والخيط: «اسمع، هنا نوفيجراد. ثلاثون ألف نسمة من بشر وأقزام وأنصاف إلفيين وهوبيتيين وأقزام الجنوم، ومن المحتمل أن يكون هناك ضعفا هذا العدد من الوافدين. فكيف تريد أن تجد شخصًا ما في مثل هذا الزحام من الشعب؟».

ابتلع داينتي قطعة الراتسوخ، ثم لعق أصابعه.

- والسحر يا جيرالت؟ تعاويذكم الويتشرية التي تدور حولها الكثير من الحكايات؟

- لا يمكن كشف الشبيه بالسحر إلا إذا كان في هيئته الأصلية، وهو في هيئته الخاصة لا يمشي في الشوارع. وحتى لو فعل ذلك، فسيكون السحر معدومَ الفائدة، لأن إشارات السحرة الضعيفة تملأ كل الجهات. كل منزل من اثنين هنا له قفل سحري على الباب، وثلاثة أرباع الناس يضعون التمائمَ بكل تنوعاتها، ضد اللصوص والبراغيث والتسمم الغذائي، وأشياء أخرى لا تُعَدُّ أو تُحصى.

مرَّر ياسكير أصابعه على زند عوده، وطنطن ناقرًا الأوتار.

شرع يغني: «سيعود الربيع، فوَّاحًا بالمطر الدافئ! لا، هذا ليس جيدًا. سيعود الربيع، بالشمس... لا، تبًّا لدم الكلاب. لا يسير الأمر على ما يرام. قيد أنملة...».

هدر الهوبيتي: «كُفَّ عن الصراخ. إنك تثير أعصابي».

ألقى ياسكير ما بقي من قطعة الراتسوخ إلى سمكات البَرْعان، وبصق في الحوض.

تكلم: «انظروا! سمكات ذهبية. ووفق ما يُحكَى، فإن مثل هذه الأسماك تحقق الأمنيات».

لاحظ داينتي: «لونهنَّ أحمر».

- لا يهم، هذا أمر تافه. تبًّا، نحن ثلاثة، وهنَّ يحققن ثلاث أمنيات. كل واحد يحظى بأمنية واحدة. ماذا يا داينتي؟ ألا ترغب في أن تدفع الأسماك الضريبة عنك؟
- نعم. وما عدا ذلك أن يسقط شيء من السماء ويضرب رأس الشبيه. وأيضًا...
- قف! قف! نحن لدينا أيضًا أمنيات. أودُّ أن تلقنني السمكة خاتمة أغنية البالادا. وأنت يا جيرالت؟
- دَعْكَ مني يا ياسكير.
- لا تفسدْ لهونا أيها الويتشر. قل ماذا كنت ستتمنى؟

نهض الويتشر.

تمتم: « كنت سأتمنى أن حقيقة أنهم يحاولون تطويقنا مجرد سوء فهم».

خرج أربعة أفراد بلباس أسود من الزقاق قبالة النافورة، يرتدون قبعات جلدية مستديرة، ويتجهون نحو المسبح ببطء. أطلق الهوبيتي شتيمةً بصوت خافت، متلفتًا حواليه.

ومن الزقاق الكائن خلفهم، خرج أربعة آخرين. لم يقترب هؤلاء، وبعد أن تباعد بعضهم عن بعض، سدوا الزقاق. كانوا يمسكون بأيديهم كرابيجَ تبدو غريبة كأنها قطع من حبال ملتفَّة. دقق الويتشر النظر حوله، وحرَّك كتفيه معدِّلًا وضعية السيف المتدلي على ظهره. تأوَّه ياسكير.

من خلف الأفراد السود انبثق رجل غير طويل يلبس قفطانًا أبيض ومعطفًا رماديًّا قصيرًا. لمع السلسال الذهبي على عنقه على إيقاع الخطوات، باعثًا أضواءً صُفرًا منعكسة.

تأوه ياسكير: «تشابيل... هذا تشابيل...».

من خلفهم، تحرَّك الأفراد السود نحو النافورة ببطء. مدَّ الويتشر يده إلى السيف.

همس ياسكير، مزحزحًا نفسه إليه: «لا يا جيرالت. بحق الآلهة لا تُشهِر السلاح. هذا حرس المعبد. إذا قاومناهم فلن نخرج أحياء من نوفيجراد. لا تلمس السيف».

سار الرجل المرتدي قفطانًا أبيضَ نحوهم بخطو حثيث. تبعه الأفراد السود في المسير، مُطوِّقين المسبحَ وشاغلين موقعًا استراتيجيًّا اختير بدقة. راقبهم جيرالت بحيطة، حانيًا ظهره قليلًا. لم تكن الكرابيج الغريبة التي كانوا يمسكونها بأيديهم سياطًا عادية كما ظنَّ في البداية. كانت بمنزلة صفائح معدنية.

اقترب الرجل المرتدي القفطان الأبيض.

همس الشاعر المغني: «جيرالت.. بحق الآلهة كلها، حافظ على هدوئك...».

تمتم الويتشر: «لن أدعَ أحدًا يلمسني. لن أدع أحدًا منهم، كائنًا من كان، يلمسني. احذر يا ياسكير... عندما يبدأ الأمر، اهربوا بقدر ما في سيقانكم من قوة. أنا سأشغلهم... لبعض الوقت...».

لم يردَّ ياسكير. ألقى العود على كتفه وانحنى بشدة أمام الرجل ذي القفطان الأبيض المطرَّز تطريزًا كثيفًا بخيوط ذهبية وفضية على شكل زخرفي صغير.

- تشابيل الموقَّر...

توقف الرجل المدعو تشابيل، ووجه نظره إليهم. كانت عيناه، كما لاحظ جيرالت، باردتيْن على نحو شنيع، وكان لونهما فولاذيًّا. جبهته شاحبة ومتعرقة تعرقًا مَرَضيًّا، وعلى خديْه بقع حمر غير منتظمة.

قال: «السيد داينتي بيبرفيلدت.. التاجر. السيد الموهوب ياسكير. وجيرالت من ريفيا.. ممثل حرفة ويتشرية نادرة. أهو لقاء بين معارف قدامى عندنا في نوفيجراد؟».

لم يجب أحد.

تابع تشابيل: «أرى أن ما جرى من وشاية بكم شيء غاية في الشؤم».

شحب ياسكير قليلًا، أما الهوبيتي فاصطكَّت أسنانه. لم ينظر الويتشر إلى تشابيل. لم يرفعْ عينيْه عن أسلحة الأفراد السود ذوي القبعات الجلدية، المُطوِّقين النافورة. في جُلِّ البلدان التي كان يعرفها جيرالت، كانت صناعة الكرابيج الشائكة المسماة بسوط مايِهن وحيازتها ممنوعتيْن منعًا باتًّا، ولم تكنْ نوفيجراد استثناءً. لقد رأى جيرالت الناسَ الذين ضربوا على وجوههم بالكرابيج الشائكة. لم يكنْ من سبيل لنسيان تلك الوجوه.

تابع تشابيل: «كان لدى صاحب النُّزُل في «رأس الرمح» الجرأة لاتهامكم أيها السادة الأفاضل بتدبير المكايد مع أحد الشياطين، وهو وحش يُدعَى مينياك أو فيكسلينج».

لم يُجِبْ أحد. شبَّك تشابيل يديه على صدره ونظر إليهم نظرات باردة.

- شعرتُ بأن من واجبي إخطارَكم بهذه الوشاية. ثم إنني أبلغكم أن صاحبَ الحانة المذكور قد حُبِسَ في الزنزانة. يُشتبَه في أنه كان يهذي إذ كان تحت تأثير الجعة أو الحُميًّا. في الحقيقة، لم يتركِ الناس شيئًا إلا واختلقوا الكثير حوله. أولًا، لا وجود للفيكسلينجيين؛ إنه اختراع من الفلاحين المؤمنين بالخرافات.

لم يعلقْ أحد.

ابتسم تشابيل: «ثانيًا، كيف يجرؤ الفيكسلينج على الاقتراب من الويتشر ولا يغدو قتيلًا على الفور؟ هذا حقيقي؟ أليس كذلك؟ لذا فاتهامات صاحب الحانة كان من الممكن أن تصبح أمرًا يستحق السخرية، لولا أن تفصيلًا محددًا مهمًّا لم يظهر».

هزَّ تشابيل رأسه، وهو يتوقف توقفًا له تأثير فعَّال. سمع الويتشر كيف يُطلق داينتي بتؤدة الهواءَ المستنشق إلى الرئتين في شهيق عميق.

كرر تشابيل: «أجل، تفصيل محدد مهم. وهو بالتحديد أننا سنقف أمام قضية الهرطقة وتدنيس المقدسات والتجديف. فمن المعروف أن الفيكسلينج، أي فيكسلينج على الإطلاق وأيضًا أي وحش آخر، لا يمكنه الاقتراب من أسوار نوفيجراد، فهنا في تسعة عشر معبدًا، تشتعل **النار الخالدة** التي بقوَّتها المقدَّسة تحمي المدينة. من يدعي أنه رأى الفيكسلينج عند «رأس الرمح»، على مرمى حجر من مذبح **النار الأبدية** الرئيس، فهو مهرطق مجدِّف، وسيكون لزامًا عليه إبطال ادِّعائه. وإنْ لم يشأ إبطاله، فسنساعده على ذلك قدر المستطاع بالوسائل التي، صدقوني، هي في حوزتي في الزنازين وفي متناول اليد. لذا، وكما ترون، لا داعي إلى القلق».

أظهرت تعابيرُ وجهيْ ياسكير والهوبيتي بجلاء أن لكل منهما رأيًا مختلفًا عن الآخر.

كرر تشابيل: «لا شيء يدعوكم إلى القلق بتاتًا. يمكنكم، أيها السادة، مغادرة نوفيجراد دون عوائق. لن أستوقفكم. لكن عليَّ أن أحثكم، أيها الأفاضل، على ألَّا تنشروا في أحاديثكم تخرصات صاحب الفندق الحَرِيَّة بالأسف، وألَّا تعلقوا جهارًا على هذه الواقعة. التصريحات التي تشكك في القوة الإلهية **للنار الخالدة**، سيتعيَّن علينا، نحن خدام الكنيسة المتواضعين، التعامل معها على أنها هرطقة، مع ما يترتب عليها من عواقب، بصرف النظر عن النيات التي تقف وراء إطلاقها. إن قناعاتكم الدينية تحديدًا أيها الأفاضل مهما كانت، والتي أحترمها، ليست ذات أهمية. آمِنوا بما شئتم. إنني متسامح ما دام ثمة من يعبد **النار الأبدية** ولا يجدف بها. لكنْ إن جدف، أمرتُ بحرقه فحسب. الجميع في نوفيجراد متساوون أمام القانون. والقانون سويٌّ للجميع – أي شخص يجدف بالنار الأبدية يذهب إلى كومة الحطب وتُصادَر ممتلكاته. لكنْ، كفى حديثًا عن ذلك. أكرر، يمكنكم أن تعبروا بوابات نوفيجراد دون عوائق. والأفضل...».

ابتسم تشابيل ابتسامة خفيفة، وغضَّن خده بتكشيرة ماكرة، ونقَّل نظراته على طول الساحة. حثَّ عدد غير كبير من المارة، الذين كانوا يراقبون ما جرى، الخُطى وأداروا رؤوسهم بسرعة.

– ... والأفضل، (أتمَّ تشابيل كلامه) الأفضل على الفور. دون تأخير. وطبعًا، في ما يخص التاجر المحترم بيبرفيلدت، فإن «دون تأخير»

هذه تعني «فور تسوية المسائل الضريبية دون تأخير». أشكركم، أيها السادة على تضحيتكم بالوقت من أجلي.

حرك داينتي شفتيه، دون صوت، وهو يدير رأسه.

لم يكن لدى الويتشر أدنى شك في أن الكلمة التي لم تخرج بصوت، كانت «ابن حرام». ونكس ياسكير رأسه مبتسمًا ببلاهة.

قال تشابيل فجأة: «السيد ويتشر. لو تكرمت بكلمة على انفراد».

اقترب جيرالت، فمدَّ تشابيل يده قليلًا. فكَّر الويتشر: إذا لمس مرفقي، سألطمه. سألطمه مهما كانت العواقب.

لم يلمس تشابيل مرفق جيرالت.

قال بصوت خافت، وقد أدار ظهره إلى الآخرين: «السيد ويتشر. أعلم أن بعض المدن، خلافًا لما في نوفيجراد، محرومة من العناية الإلهية بالنار الخالدة. فلنفترض، إذن، أن مخلوقًا شبيهًا بالفيكسلينج يعيث فسادًا في إحدى هذه المدن. من باب الفضول، كم ستأخذ عندئذٍ للقبض على الفيكسلينج حيًّا؟».

هز الويتشر كتفيه: «أنا لا أُستأجَر لاصطياد الوحوش في المدن الآهلة. فقد يتأذى أحد عابري السبيل».

- إلى هذا الحد تهتم كثيرًا بمصير عابري السبيل؟
- إلى هذا الحد. لأنني عادة أُحَمَّل مسؤولية مصيرهم، وأهدَّد بالعواقب.
- أفهم ذلك. ألا يمكن أن يتناسب الحرص على مصير عابري السبيل عكسيًّا مع مقدار الأجر؟
- لا يمكن.
- لا تعجبني نبرة صوتك كثيرًا أيها الويتشر. لكنَّ هذا لا يهم، أنا أفهم ما تقصد بهذه النبرة. أنت تلمح إلى أنك لا تريد أن تفعل ما قد أطلب منك، ومقدار الأجر في هذا السياق لا أهمية له. ونوع الأجر؟
- لا أفهم.
- لا أعتقد ذلك.
- ومع ذلك.

قال تشابيل بخفوت وبهدوء ودون غضب أو تهديدات في صوته: «نظريًّا تمامًا، من الممكن أن يكون الأجر لقاء ضمانة لكي تخرج أنت وأصدقاؤك أحياء من... من المدينة النظرية. فماذا عندئذ؟».

ابتسم الويتشر ابتسامة شنيعة: «هذا السؤال لا يمكن الإجابة عنه نظريًّا. إن الوضع الذي تتحدثون عنه أيها الموقر تشابيل، يجب العمل عليه في الممارسة العملية، فلستُ في عجلة من أمري بتاتًا لفعل ذلك، لكنْ إذا كان لا بدَّ من ذلك... إذا لم يكن ثمة مخرج آخر... فأنا مستعد لممارسة هذا الأمر».

أجاب تشابيل ببرود: «ها، قد تكون محقًّا. نحن ننظِّر كثيرًا. أما في ما يتعلق بالممارسة العملية، فأرى أن التعاون لن يكون. ولعله أمر جيد أيضًا، على أي حال، لديَّ أمل أن هذا لن يكون سببًا للصراع بيننا».

قال جيرالت: «وأنا لديَّ مثل هذا الأمل».

- إذن ليشتعل هذا الأمل فينا يا جيرالت من ريفيا. هل تعلم ما **النار الأبدية**؟ لهب لا ينطفئ، رمز البقاء، طريق يشار إليها في الظلام، نذير التقدم، الغد الأفضل؟ **النار الأبدية** يا جيرالت، أمل للجميع، للجميع دون استثناء. لأنه إذا كان ثمة شيء ما، مشترك... لك، ولي... وللآخرين... فالأمل هو هذا الشيء تحديدًا.. تذكر ذلك. سُرِرْتُ بمعرفتك أيها الويتشر.

انحنى جيرالت بصلابة صامتًا. نظر تشابيل إليه لحظةً ثم استدار بحيوية وسار عبْر الساحة الصغيرة، ولم يلتفتْ إلى مرافقيه. تبعه الأشخاص المسلحون بالكرابيج الشائكة، مشكِّلين نسقًا معتبرًا.

ناح ياسكير رانيًا بخوف خلف أولئك المغادرين: «أوه، يا أمي. يا لنا من محظوظين إن كانت هذه هي النهاية. ما لم يمسكوا بنا حالًا...».

قال الويتشر: «اهدأ وتوقف عن التأوه. لم يحدث شيء أصلًا».

- هل تعرف من كان ذلك يا جيرالت؟

- لا.

- إنه تشابيل، مفوَّض الحاكم لشؤون الأمن. ومصلحة الأمن السرية في نوفيجراد خاضعة للكنيسة. تشابيل ليس كاهنًا، بل شخصية مؤثرة خفية في السلطة الكنسية، أقوى وأخطر إنسان في المدينة. إن الجميع

هنا، حتى مجلس المدينة ونقاباتها، يرتعدون في سراويلهم أمامه، فهو وغد لا مثيل له يا جيرالت، هو منتشٍ بالسلطة كما تنتشي العنكبوت بدم ذبابة. في المدينة يقال الكثير، مع أنه كلام أشبه بالهمس، عما في وسعه أن يفعل؛ إخفاء الناس دون أثر، اتهامات باطلة، تعذيب، القتل غيلة، ترهيب، ابتزاز، ونهب عادي، إكراه، ونصب، وفضائح. بحق الآلهة، قد أقحمتنا في قصة جميلة يا بيبرفيلدت.

شخر داينتي: «أرحْنا يا ياسكير. أنت تحديدًا ليس لديك ما تخاف منه. لن يمسَّ أحد شاعرَ تروبادور. لأسباب لا أعلمهما، أنتم محصنون».

تأوَّه ياسكير، وكان لا يزال شاحبًا: «الشاعر محصن، ويمكن أيضًا أن يقع تحت عربة مسرعة في نوفيجراد، وأن يتسمم من سمكة فيموت، أو أن يغرق في خندق مائي متعوسًا. تشابيل متخصص في مثل هذه الحوادث. وأرى أن مجرد مبادرته لنا الحديث هي أمر غير مسبوق. ثمة شيء واحد مؤكد، أنه لم يفعل ذلك دون سبب. إنه يضمر شيئًا ما، سترون قريبًا أنه سيورطنا في شيء ما، سوف يقيدوننا ويجروننا إلى التعذيب وفقًا لجلالة القانون. هكذا تسير الأمور هنا!».

قال الهوبيتي لجيرالت: «ثمة الكثير من الحقيقة في ما يقول. يجب أن نحذر. أعجَب كيف أن هذا السافل تشابيل لا تزال الأرض تحمله.. منذ سنوات وهم يقولون إنه مريض وإنه ينزف، والجميع ينتظر ساعة موته...!».

صأى التروبادور بجُبن، ملتفِّتًا حواليه: «اصمت بيبرفيلدت، فثمة من يتهيَّأ ليسمع. انظروا كيف يحدق الجميع إلينا. قلتُ لكم فلنخرج من هنا. وأنصح أن نأخذ ما قاله لنا تشابيل عن الشبيه على محمل الجد. أنا، مثلًا، لم أرَ قطُّ أيَّ شبيه، وإذا لزم الأمر سأقسم على هذا أمام **النار الأبدية**».

قال الهوبيتي فجأة: «انظروا. أحدهم يركض نحونا».

زعق ياسكير: «فلنهرب».

ابتسم داينتي ابتسامة واسعة، وصفَّف غرة شعره بأصابعه: «اهدأ، اهدأ. أنا أعرفه. إنه فأر المسك، تاجر محلي، أمين صندوق النقابة الحرفية. عملنا معًا في التجارة. هيه، انظروا كيف هي تعابير وجهه! يبدو كأنه قد تغوط في سرواله. هيه، يا فأر المسك، هل تبحث عني؟».

قال فأر المسك لاهثًا، وهو يزيح قبعته الثعلبية إلى مؤخرة رأسه، ويمسح جبينه بكم ردائه: «أقسمُ بالنار الخالدة. كنت على يقين من أنهم سيجرونك إلى مرقب الحصن. حقًّا، إنها معجزة. إني أستغربُ...».

قاطعه الهوبيتي متهكمًا: «هذا لطف منك أنك تستغرب. زِدْ من فرحنا أكثر بأن تقول لماذا».

عبس فأر المسك: «لا تتظاهرْ بالغباء يا بيبرفيلدت. المدينة بأكملها أصبحت تعلم ما حجم الأرباح التي جنيتَها من تجارة الصباغ القرمزي. بات الجميع يتحدثون عن ذلك، لذا يبدو واضحًا أنها وصلت إلى السلطة، وإلى تشابيل، وكم كان ماكرًا، وكم كسب بدهاء مما جرى في بوفيس!».

- ما الذي تهذي به يا فأر المسك؟

- أيتها الآلهة، ألا توقفتَ يا داينتي عن جرجرة ذيلك كثعلب صغير. اشتريتَ الصباغ القرمزي؟ بثمن شبه مجاني، المكيال الواحد بخمسة وعشرين، اشتريتَ؟ دفعتَ من خلال سند إذني مستغلًّا الإقبال الضعيف، ولم تعطِ فلسًا واحدًا نقدًا. وماذا؟ خلال يوم واحد بعت الحمولة أكملها، ولقاءها أخذتَ نقدًا من على المنضدة، أغلى بأربعة أضعاف من سعرها! ربما ستكون لديك الجرأة لتقول إن ذلك قد حدث مصادفة، أو كأنها مسألة حظ؟ أو إنك عندما اشتريت الصباغ القرمزي لم تكن تعلم شيئًا عن الانقلاب في بوفيس؟

- ماذا؟ عمَّ تتكلم؟

زأر فأر المسك: «حدث انقلاب في بوفيس! وهذه الــ... ماذا تسمى، حسنًا هذه... الوثرة[1]! لقد أطيح بالملك ارْهيد، وهناك في الوقت الراهن يحكم آل ثيسينيد! كان البلاط والنبلاء وجيش ارهيد يرتدون لباسًا أزرق، وكانت معامل النسيج المحلية تشتري النيلي فقط. أما لون آل ثيسينيد فكان السِّقِلَّاتِيَّ، ثم رخص سعر النيلي وارتفع ثمن الصباغِ القرمزيِّ، وعندئذٍ خرج إلى العلن أنكَ أنت يا بيبرفيلدت، تمسك بقبضتك حمولة البضاعة الوحيدة المتاحة، هي بالذات! ها!».

صمت داينتي مهمومًا.

---

(1) يقصد الثورة.

https://t.me/fantazynov

تابع فأر المسك: «هذا مكر يا بيبرفيلدت، لا شيء غير ذلك. لم تقلْ كلمة واحدة لأحد، ولا حتى للأصدقاء. لو أنك بُحتَ لي، لربما كسب الجميع، ولكان ممكنًا أن ننشئ معملًا مشتركًا. لكنكَ فضلتَ أن تكون وحدك خفية-خلسة! لكَ ما شئت، لكنْ أيضًا لا تعول عليَّ. قسمًا **بالنار الخالدة**، إن كل هوبيتي هو وغد أناني وكلب قذر، هذه هي الحقيقة. لا يعطيني فيم فيفالدي سندًا إذنيًا أبدًا، أما أنت؟ فتحصل عليه على الفور. لأنكما عصابة واحدة، أنتم لستم من البشر الملعونين، إنكم هوبيتيون منتفخون وأقزام. فليحل الوباء عليكم!».

بصق فأر المسك، ثم نكص وذهب. حكَّ داينتي رأسه، شارد الذهن، إلى حد أن غرة شعره تهزَّمت.

وأخيرًا قال: «شيء ما بدأ يتضح يا شباب. صرتُ أعرف ما علينا أن نفعل. فلنذهب إلى المصرف. إذا كان أحد يستطيع أن يستوعب هذا كله فهو تحديدًا شخص من معارفي، إنه المصرفي فيم فيفالدي».

3

همس ياسكير، باحثًا بنظره في جميع أنحاء الغرفة: «تخيلتُ المصرف على نحو مختلف. أين يحتفظون بالمال يا جيرالت؟».

أجاب الويتشر بصوت خفيض، حاجبًا كُمَّ سترته الممزَّق: «وحدها الشياطين تعلم».

- ربما في القبو؟
- هراء. لقد نظرتُ من حولي. لا قبو هنا.
- لعله في العليَّة.

قال فيم فيفالدي: «لو سمحتم أيها السادة، إلى مكتب الصرافة».

شُبَّان وأقزام لا تُعرف كم أعمارهم، كانوا جالسين إلى مناضد طويلة، مشغولين بتغطية صحائف من الرَّق بصفوف من الأرقام والحروف. أحنوا جميعهم دون استثناء ظهورهم، وكانت ألسنتهم بارزة قليلًا. كان العمل، وفقًا

لرأي الويتشر، رتيبًا حتى النخاع، لكنْ يبدو أنه يلتهم العاملين التهامًا كاملًا. في الزاوية، على كرسي منخفض، جلس رجل مسن، مظهره كمظهر متسول، وكان مشغولًا بشحذ الريش. لم ينجزِ الكثير مما في يده.

أغلق المصرفي باب المكتب بعناية، مسَّد لحيته الطويلة البيضاء المشذبة الملطَّخة بالحبر، قليلًا هنا وقليلًا هناك، وعدَّل معطفه المخملي العنابي الذي لاءم بطنه البارز بصعوبة.

قال، وهو يجلس خلف منضدة ضخمة من خشب الماهوجني، مغطاة بالرقاق: «أتعلمون يا سيد ياسكير. تخيلتكم على نحو مختلف تمامًا. وأنا أعرف أغانيكم، أعرفها. سمعتها. وكانت عن الأميرة فاندا التي غرقت في نهر دوبي لأن أحدًا لم يكن يريدها. وعن طير القرلي الذي سقط في مرحاض الفناء...».

احمرَّ ياسكير من شدة الغضب: «إنها ليست لي. لم أكتب قطُّ شيئًا على هذه الشاكلة!».

- أوه. إذن فأنا أعتذر.

تدخل داينتي: «ربما ندخل في الموضوع رأسًا! الوقت يمر، وأنتما تتحدثان عن الحماقات. أنا واقع في مشكلات خطِرة يا فيم».

أومأ القزم برأسه: «كنت أخشى ذلك».

- إن تتذكر، فقد حذَّرتكَ يا بيبرفيلدت. قلتُ لك قبل ثلاثة أيام، لا تشغِّل نقودكَ في زيت السمك الزنخ هذا، حتى لو كان رخيصًا، فالسعر المحدد رسميًّا ليس مهمًّا، المهم درجة الربح من بيع المشتريات. والحال نفسها بخصوص زيت الورد هذا، وهذا الشمع، وهذه الأواني الفخارية. ماذا دهاك يا داينتي لتشتري هذه الزبالة، وتزيد عليها أن تدفع عدًّا ونقدًّا، بدلًا من الدفع بتعقل من خلال اعتماد مالي أو سند إذني؟ قلت لك إن تكاليف التخزين في نوفيجراد مرتفعة ارتفاعًا جنونيًّا، وفي غضون أسبوعيْن ستتجاوز قدر ثلاثة أضعاف قيمة هذه السلعة. وأنت...

تأوه الهوبيتي بصوت خفيض: «حسنًا، تكلم يا فيفالدي. أنا ماذا؟».

- وأنت في هذا الشأن تقول لا خوف من ذلك، وإنك ستبيع كل شيء في غضون أربع وعشرين ساعة. والآن تأتي وتصرح أنك في ورطة، مبتسمًا خلال ذلك بحمق وسذاجة. الأمور لا تسير، حقًّا؟ والتكاليف تزيد، أليس

كذلك؟ ها، الأمر سيئ، سيئ. كيف لي أن أخرجك من هذا الوضع يا داينتي؟ لو أنك على الأقل أمَّنتَ على هذه الفضلات، لأرسلتُ في الحال أحد كتبة الديوان ليحرق المستودع خفية. لا يا حبيبي، أمر واحد يمكنك فعله، أن تتناول الموضوع فلسفيًّا، أي أن تقول لنفسك «هذا براز كلب». هذه تجارة، مرة تربح ومرة تخسر. وفي المحصلة، ما هذا المال وزيت السمك هذا والشمع والزيت العطري؟! أمر مضحك. لنتحدث عن أعمال أكثر جدية. قل لي، هل عليَّ أن أبيع الآن لحاءَ الميموزا، فقد بدأتِ العطاءاتُ في الاستقرار عند الخمسة وخمسة أسداس.

- ها؟

عبس المصرفي: «أأنت أصم؟ العطاء الأخير هو خمسة وخمسة أسداس تمامًا. قد عدتَ كما آمُل كي تزيد في السعر؟ على أي حال، لن تحصل على سبعة، يا داينتي».

- عدتُ؟

مسَّد فيفالدي لحيته وأخرج منها فتاتًا من فطيرة سترودل.

قال بهدوء: «كنت هنا قبل ساعة، وأوصيتَ أن نمسك البضاعة حتى يصل سعرها إلى سبعة. ربح بسبعة أضعاف زيادة عن ثمن الشراء الذي دفعته، وهو كورونتان وخمسة وأربعون كوبيرًا مقابل الرطل. وهذا سعر مرتفع جدًّا يا داينتي، حتى لمثل هذه السوق التي عليها إقبال عظيم. كان لزامًا على المدابغ أن تتفق، وستتضامن للمحافظة على السعر. فليُقطعْ رأسي إن...»».

فُتِحَ الباب ودلف إلى المكتب شيء في لباس أخضر، وطاقية من اللباد، وفروة من الأرانب المرقَّطة، وكان محزمًا بحبل من القنب.

خنخنَ كخنزير: «التاجر سوليمير يعطيك كورونتين وخمسة عشر!».

حسبَ فيفالدي بسرعة: «ستة وسُدس. ما العمل يا داينتي؟».

صاح الهوبيتي: «نبيع! هذا ربح بقدر ستة أضعاف، وما زلتَ تفكر؟! تبًّا!».

دلف إلى المكتب شيء ثانٍ يرتدي قبعة صفراء وجلبابًا يشبه كيسًا قديمًا. وكالشيء الأول كانت قامته ماً يقارب الذراعيْن طولًا.

صرخ: «ينصحكم التاجر بيبرفيلدت ألا تبيعوا بسعر أقل من سبعة!».

مسح أنفه بكُمِّ ردائه، وولى هاربًا.

قال القزم بعد لحظة صمت طويلة: «آها. بيبرفيلدت أول يطلب أن نبيع، وبيبرفيلدت ثانٍ يطلب الانتظار. وضع مثير للاهتمام. فماذا نفعل يا داينتي؟ ستباشر الشرحَ على الفور، أو سننتظر حتى يُهرَع بيبرفيلدت ثالث ليحمل القوادس باللحاء وينقله إلى بلاد رؤوس الكلب؟ ها؟».

غمغم ياسكير، مشيرًا إلى شيء لباسه أخضر لا يزال واقفًا عند الباب: «ما هذا؟ ما هذا، تبًّا؟».

قال جيرالت: «جنوم شاب».

أكد فيفالدي بجفاف: «لا شك. إنه ليس من عفاريت الترول القدماء. وعلى أي حال لا يهم ما يكون. حسنًا يا داينتي، أستمع لك».

قال الهوبيتي: «يا فيم! أرجوك رجاءً حارًّا. لا تطرحْ أسئلة. لقد حدث شيء فظيع. افترضْ وتقبَّلْ أنني أنا داينتي بيبرفيلدت من مرج رديستوفا، تاجر أمين، ليست لديَّ أي فكرة عما يحدث هنا. قل لي كل شيء بالتفصيل. عما حدث في الأيام الثلاثة الماضية. أرجوك يا فيم».

قال القزم: «هذا مثير للاهتمام. حسنًا، لكنني مقابل العمولة التي أتقاضاها، يجب أن أحقق رغبات المسؤول العام، مهما كانت. اسمع إذن، لقد قَدِمْتَ إلى هنا قبل ثلاثة أيام، وأعطيْتني وأنت تلهث وديعة بألف كورونة، وطالبتَ بسند إذني يتضمن ألفين وخمسمئة وعشرين لحامله. وأعطيتكَ هذا السند».

- دون ضمان؟

- دون ضمان. أحبكَ يا داينتي.

- استمر في الحديث يا فيم.

- في صباح اليوم التالي أتيتَ مع جلبة وخبط أقدام، تطالبني بفتح اعتماد مالي للمصرف في فيزيما. مقابل مبلغ معتبر من ثلاثة آلاف وخمسمئة كورونة. كان المستفيد، على قدر ما أذكر، المدعو ثير لوكوكيان، واسمه المستعار الكمأة. وكان أن فتحتُ الاعتماد المالي المطلوب.

قال الهوبيتي وفي صوته أمل: «دون ضمانات».

تنهد المصرفي: «مودتي لك يا بيبرفيلدت تنتهي عند حدود الثلاثة آلاف كورونة. في هذه المرة أخذتُ تعهدًا مكتوبًا منكَ، هو أنه في حال عدم قدرتك على الدفع، فإن الطاحونة ستكون لي».

- أيٌّ طاحونة؟

- طاحونة حميك، أرنو هاردبوتوم، في مرج رديستوفا.

صرَّح داينتي بكآبة، لكنْ بحزم: «لن أعود إلى المنزل، سألتحق بإحدى السفن وأصبح قرصانًا».

حكَّ فيم فيفالدي أذنه، ونظر إليه بارتياب.

قال: «هيه. أنت أصلًا استرددتَ هذا التعهد ومزَّقته منذ وقت طويل. أنت قادر على الدفع، ولا غرابة في ذلك مع هذه الأرباح...».

- أرباح؟

تمتم القزم: «حقًّا، قد نسيتُ. كان من المفترض ألا أستغرب شيئًا. لقد أنجزتَ عملًا جيدًا في الاتجار بالصباغ القرمزي يا بيبرفيلدت. فكما ترى، في بوفيس وصل الأمر إلى حدوث انقلاب...».

قاطعه الهوبيت: «الآن صرتُ أعرف. انخفض سعر النيلي وارتفع ثمن الصباغ القرمزي، وأنا كسبتُ. هل هذا صحيح يا فيم؟».

- صحيح. لك عندي ستة آلاف وثلاثمئة وست وأربعون كورونة، وثمانون كوبيرًا. صافية بعد خصم عمولتي والضريبة.

- دفعتَ الضريبة عني؟

تعجب فيفالدي: «وكيف يمكن للأمر أن يكون غير ذلك، إنك كنت هنا قبل ساعة وطلبتَ أن ندفع. كاتب الديوان قد حمل المبلغ بأكمله إلى دار البلدية. ما يقارب الألف ونصف الألف، فبيع الخيول كان هنا محسوبًا، طبعًا».

فُتِحَ البابُ، وحلَّ في المكتب شيء مُحدِثًا جلبة، ومرتديًا قبعة شديدة القذارة.

صرخ: «كورونتان وثلاثون! التاجر هازِلكويست!».

صاح داينتي: «لا تبيعوا! سننتظر سعرًا أفضل! هيا، كلاكما عودا إلى البورصة!».

التقطَ الجنوميان النقودَ النحاسية التي رماها القزم إليهما واختفيا.

تفكر فيفالدي وهو يلهو بقطعة جمشت[1] بلورية ضخمة ذات شكل غريب تُستخدَم كثقالة للورق: «حسسننا... عند أي شيء أنا توقفتُ؟ أها، عند الكلام عن الصباغ القرمزي الذي اشتريتَه بسند إذني. أما خطاب الائتمان الذي ذكرتُه عرَضًا، فكنتَ أنت في حاجة إليه لشراء شحنة كبيرة من لحاء الميموزا. ولقد اشتريتَ الكثير منه، لكنْ بثمن رخيص جدًّا، بخمسة وثلاثين كوبيرًا للرطل الواحد، من وسيط من زنجويبار، هذا المدعو الكمأة أو الغوشنة[2]. وقد دخلتِ السفينة إلى الميناء البارحة. وعندئذٍ بدأ كل شيء».

تأوَّه داينتي: «أتخيَّل ذلك».

لم يحتملْ هذا ياسكير: «وما حاجة المرء إلى لحاء الميموزا؟».

غمغم الهوبيتي: «لا يفيد في شيء.. يا للأسف!».

أوضح القزم: «إن لحاء الميموزا يا سيدي الشاعر يحوي مادة العفص، وهي تستخدم في دبغ الجلود».

تدخل داينتي: «إذا كان شخص ما أحمق إلى هذا الحد، فليشترِ لحاء الميموزا من وراء البحار، في حين يمكن الحصول على لحاء البلوط في تيميريا بثمن بخس».

قال فيفالدي: «وهذا هو تحديدًا بيت القصيد. لأن كهنة الدرويد قد أعلنوا في تيميريا أنهم سينشرون في البلاد جائحة جراد وجرذان، ما لم يُوقَف تدمير أشجار البلوط على الفور. ساندتِ الدريادات[3] كهنةَ الدرويد، وكان الملك هناك ضعيفًا أمام الدريادات. وباختصار: ثمة حظر كامل على البلوط التيميري منذ يوم أمس، لذا فإن قيمة الميموزا آخذة في الارتفاع. كان لديك معلومات جيدة يا داينتي».

انبعث من الديوان وقع خطو، بعدئذٍ اقتحم المكتب شيء لاهث، يرتدي قبعة خضراء.

---

(1) الجمشت: حجر كريم بنفسجي له حمرة وردية وسماوية.

(2) الغوشنة: نوع من الفطريات.

(3) دریاد، أو حورية الغاب: هي روح شجرة في الأساطير اليونانية. تعني «بلوط» في اليونانية. وكانت تعد في الأصل ممثلة لأرواح أشجار البلوط.

- المشرَّف التاجر سوليمير... -زفر الجنوم- أمرَ أن أكرر على مسامعكم أن التاجر بيبرفيلدت، الهوبيتي، هو خنزير بري بفروة صلبة، ومُضارب ومختلس، وأنه، أي سوليمير، يتمنى لبيبرفيلدت أن يتمكن منه الجرب اللاذع. أُعطِي كورونتين وخمسة وأربعين، وهذه هي آخر كلمة.

اهتاج الهوبيتي: «نبيع. استمر يا صغير، أسرعْ وأكِّدْ. احسب يا فيم».

مد فيفالدي يده إلى ما تحت لفَّات الرَّقِّ وأخرج محسبة قزمية، وهي تحفة حقيقية. بخلاف المحسبة التي يستخدمها البشر، كانت المحسبات القزمية على هيئة أهرام صغيرة مُخرَّمة. لكنَّ محسبة فيفالدي كانت مصنوعة من أسلاك ذهبية، تنزلق عليها فصوص من الياقوت والزمرد والجزع والعقيق الأسود، هُذِّبَتْ على شكل زوايا بارزة، يتناغم بعضها مع بعض. حرَّك القزم الجواهر خلال لحظة إلى الأعلى وإلى الأسفل وإلى الجانبين، حركات سريعة ورشيقة بإصبعه الغليظة.

- سيكون المبلغ... هممم، هممم... نطرح التكاليف وعمولتي... نطرح الضريبة... حسسنننًا. خمسة عشر ألفًا وستمئة واثنتين وعشرين كورونةً وخمسة وعشرين كوبيرًا. لا بأس.

قال داينتي بيبرفيلدت متمهلًا: «إذا حسبتُ جيدًا، فلا بدَّ أن يكون لي عندك مبلغ إجماليٌّ صافٍ...».

- على وجه الدقة، واحد وعشرون ألفًا وتسعمئة وتسع وستون كورونة، وخمسة كوبيرات. لا بأس.

صاح ياسكير: «لا بأس.. لا بأس. بهذا المبلغ يمكن شراء قرية كبيرة، أو قصر صغير! لم أرَ قطُّ مثل هذا القدر من المال دفعة واحدة!».

قال الهوبيت: «وأنا أيضًا. لكنْ دون حماس يا ياسكير. فالواضح أن هذه الأموال لم يرَها أحد بعد، ومن غير المعلوم أكان سيراها أحد».

احتدَّ القزم: «هيه، يا بيبرفيلدت. من أين لك هذه الأفكار القاتمة؟ سيدفع سوليمير نقدًا أو من خلال السند الإذني، وسندات سوليمير موثوقة. فما الأمر إذن؟ هل تخشى من الخسارات في زيت السمك المنتن والشمع؟ في ظل هذه الأرباح ستغطي الخسائر وأنت تغني...».

- ليس هذا هو المقصود.

- فما المقصود إذن؟

تنحنح داينتي، ونكس رأسه الأجعد.

قال ناظرًا إلى الأرضية: «فيم. إن تشابيل يراقبنا».

التمَظَ المصرفي بشفتيه.

قال ممتعضًا: «هذا سيئ. لكنْ كان لا بدَّ من توقع ذلك. كما ترى يا بيبرفيلدت، إن المعلومات التي استخدمتَها في صفقاتك لا تتمتع بأهمية تجارية فحسب، بل سياسية أيضًا. لم يعلم أحد ما كان يعتمل في بوفيس وتيميريا، ولا تشابيل أيضًا، وتشابيل يحب أن يكون أول من يعلم. لذا تراه الآن، كما يمكنك أن تتخيل، يشغل رأسه بكَ من أين علمتَ. وأعتقد أنه قد خمَّن الآن. لأنني أنا أيضًا أخمن».

- هذا مثير للاهتمام.

وجَّه فيفالدي نظره إلى ياسكير وجيرالت وجعَّد أنفه الأفطس.

قال: «مثير للاهتمام! إن شركتكَ مثيرة للاهتمام يا داينتي. تروبادور وويتشر وتاجر، أهنئكم! يحل السيد ياسكير هنا وهناك، وتراه حتى في القصور الملكية، وإنه على الأرجح يفتح أذنيْهِ على وسعيهما. والويتشر؟ حارس شخصي؟ فزاعة للمَدينين؟».

قال جيرالت ببرود: «استنتاجات متسرعة يا سيد فيفالدي. نحن لا تجمع بيننا شركة».

احمرَّ وجه ياسكير: «وأنا! أنا لا أفتح أذنيَّ على وسعيْهما ولا في أي مكان. أنا شاعر لا جاسوس!».

عبس القزم: «ما يقال مختلف. مختلف جدًّا يا سيد ياسكير».

صرخ التروبادور: «كذب! هراء لا حقيقة!».

- حسنًا، أصدِّق، أصدِّق. بيدَ أنني لا أعرف أكان تشابيل سيصدِّق. لكنْ، من يدري، ربما سينتهي ذلك كله دون عواقب وخيمة. دعني أخبرك يا بيبرفيلدت أن تشابيل قد تغيَّر كثيرًا بعد أن أصابته السكتة الدماغية الأخيرة. ربما الخوف من الموت حدَّق بمؤخرته وأرغمه على أن يتفكر؟ بكلمة واحدة: هو لم يعد تشابيل نفسه الذي نعرفه. أصبح مهذَّبًا وعقلانيًّا وهادئًا و... وأمينًا، على ما يبدو.

قال الهوبيتي: «هيه. تشابيل أمين؟ ومهذَّب؟ هذا مستحيل».

رد فيفالدي: «أقول ما أراه في الواقع. وهو حقيقي مثلما أقول. بالإضافة إلى ذلك، فإن مشكلة أخرى تشغل بال الكنيسة الآن، اسمها **النار الأبدية**».

- وكيف؟

- يجب أن تلتهب **النار الأبدية** في كل مكان، كما يقولون. ستقام مذابح مقدسة لهذه النار في كل مكان في المنطقة بأسرها. مذابح كثيرة. لا تسألني عن التفاصيل، يا داينتي، فأنا لا دراية كبيرة لي بخرافات البشر. لكني أعلم أن جميع الكهنة وكذلك تشابيل، لا يزاولون شيئًا عمليًّا سوى أمور هذه المذابح وتلك النار. الاستعدادات الكبيرة جارية. سترتفع الضرائب، هذا أمر مؤكد.

قال داينتي: «وإذن! عزاء لا قيمة له، لكن...».

فُتِحَ باب المكتب مجددًا، واندفع إلى الداخل شيء يرتدي قبعة خضراء وفروة أرانب، عرفه الويتشر من قبل.

صرَّح: «يأمر التاجر بيبرفيلدت بشراء المزيد من القدور، إن لم تعد تتوفر. السعر لا يهم».

ابتسم الهوبيتي ابتسامة استدعتْ إلى الذهن فمًا معوجًّا لسنور بريٍّ هائج: «رائع. سنشتري الكثير من القدور، فمشيئة السيد بيبرفيلدت أمر لنا. ماذا يجب أن نشتري أيضًا؟ كُرُنبًا؟ قطرانًا؟ مِدمَّات حديدية؟».

بُحَّ صوت الشيء ذي الفروة: «إلى جانب ذلك، يطلب التاجر بيبرفيلدت ثلاثين كورونةً نقدًا، لأن عليه أن يدفع رشوة، ويأكل شيئًا، ويشرب جعة، ولقد سرق ثلاثة من السلَّابين محفظته عند «رأس الرمح»».

قال داينتي بتباطؤ: «آه. ثلاثة سلَّابين».

- أجل، يبدو أن هذه المدينة ملأى بالسلَّابين.

- وأين هو، إن جاز لي السؤال، أين التاجر المشرَّف بيبرفيلدت الآن؟

قال الشيء: «وأين يمكن أن يكون، إن لم يكن في البازار الغربي».

قال داينتي بنبرة تنذر بالشر: «يا فيم، لا تطرح أسئلةً، بل جِدْ لي في مكان ما هنا قضيبًا متينًا وغليظًا. سأمضي إلى البازار الغربي، لكنني لا أستطيع

الذهاب إلى هناك دون قضيب. ثمة عدد زائد عن الحد من اللصوص والسلابين هناك».

- قضيبًا، تقول؟ سنجده. لكنْ يا داينتي ثمة شيء واحد أريد أن أعرفه، لأنه يقلقني. لم يكنْ من المفترض أن أطرح أسئلة، لذا لن أسأل، لكنني سأخمن، وأنت ستؤكد أو تنفي. حسنًا؟

- خمِّن.

- زيت السمك الزنخ هذا، وهذا الزيت العطري، والشمع والأوعية، وهذا الحبل المفتول اللعين، كل ذلك كان لعبة تكتيكية، أليس كذلك؟ أردتَ صرف انتباه المنافسين عن الصباغ القرمزي والميموزا؟ أثرتَ ارتباكًا في السوق؟ ها يا داينتي؟

فُتِح الباب بعنف، واندفع شيء دون قبعة إلى المكتب.

صرخ بصوت رقيق: «إن اللشيش[1] يبعث تقريرًا أن كل شيء جاهز! يسأل، هل يصُبُّ؟».

زمجر الهوبيتي: «فليصُبَّ! ليصُبَّ فورًا!»

ما إن انغلق الباب خلف الجنوم، زعق فيم فيفالدي: «وحق اللحية الحمراء، لحية رهوندُرين المسن.. لا أفهم شيئًا! ما الذي يجري هنا؟ ما الذي يُصبُّ؟ وفي أي شيء يُصبُّ؟».

أقرَّ داينتي: «ليست لديَّ أي فكرة. لكنَّ العمل التجاري يا فيم يجب أن يسير».

4

بعد أن شقَّ جيرالت طريقه خلال الزحام بصعوبة، خرج رأسًا إلى الكشك، الذي عُلِّقَتْ عليه قدور نحاسية وطناجر ومقالٍ لامعة لمعانًا أحمر في أشعة شمس الأصيل. خلف الكشك وقف قزم ذو لحية حمراء بقلنسوة زيتونية اللون

(1) اللشيش أو الحميضة أو الأوكسيريا: نبات من رتبة القرنفليات.

وحذاء ثقيل من جلد الفقمة. ارتسمتْ على وجه القزم علائم امتعاض واضحة، وباختصار يمكن القول، إنه بدا كأنه على وشك أن يبصق على وجه الزبونة التي كانت تنتقي البضاعة. تمايلتِ الزبونة بنهديْها وهزَّت ضفائرها الذهبية وضايقت القزم بسيل متواصل من البلاغة الخالية من النظام والانتظام.

لم تكن الزبونة سوى فسبولا، لا أكثر ولا أقل، التي كان جيرالت يعرفها كقاذفة المقذوفات. دون أن ينتظر حتى تتعرفه، ذاب بسرعة في الحشد.

كان البازار الغربي ينبض بالحياة، وكان الطريق خلال الجمهرة يشبه المسيرَ خلال شجيرات الزعرور. بين خطوة وأخرى يعلق شيء ما بالكُمَّيْن وشقَّيِ السروال، وثمة أطفال أضاعتهم أمهاتهم عندما رُحْنَ يسحبن آباءهم من خيمة شرب الخمر، وثمة جواسيس من المحرس، وثمة عارضون غير قانونيين لطواقي الإخفاء، والمنشطات الجنسية، والمشاهد الخليعة المنحوتة على خشب الأرْز. توقف جيرالت عن الابتسام وراح يشتم، جاعلًا من مرفقيْه عامل إفادة مناسبًا.

سمع نغمات العود، والضحك متوالي الرنات الذي يعرفه. انبعثت الأصوات من جهة الكشك الملوَّن على نحو خرافي، والمزين بعبارة مكتوبة: «هنا عجائب، وتمائم، وطُعوم للأسماك».

صرخ ياسكير، جالسًا في الكشك ومؤرجحًا ساقيْه بمرح: «هل قال أحد لحضرتكِ إن حضرتكِ فاتنة؟ لا؟ لا يمكن أن يكون ذلك! إنها مدينة العميان، لا شيء، ليست سوى مدينة عميان. هيا تعالوا أيها الناس الطيبون! من يرغب في سماع أغنية بالادا عن الحب؟ من يريد أن تجيش عواطفه ويثرى روحيًّا، فليضع قطعة نقود في القبعة. بِمَ، بِمَ تحشر نفسك هنا يا كوم البراز؟ احتفظ بالنحاس للمتسولين، لا تُهِنْ الفنان هنا بالنحاس. أنا قد أسامحكَ، لكنَّ الفن أبدًا!».

قال جيرالت، وهو يقترب: «ياسكير.. يبدو أننا انقسمنا للبحث عن الشبيه. وأنت تنظِّم الحفلات الموسيقية. ألا تخجل من الغناء في الأسواق الموسمية مثل جَدٍّ متسول؟».

استغرب الشاعر: «أخجل؟ المهم هو ماذا يغنى المرء وكيف، وليس المكان الذي يغني فيه. وعدا ذلك أنا جائع، وقد وعدني مالك الكشك بوجبة غداء.

أما ما يتعلق بالشبيه، فابحثوا عنه وحدكم. أنا لا أصلح للمطاردات والعراك، ولمحاسبة الآخرين خارج القانون. أنا شاعر».

- من الأفضل أن تفعل أيها الشاعر متجنبًا الضجيج. خطيبتك هنا، وقد تحدث بعض المتاعب.

راح ياسكير يرمش بتوتر: «خطيبة؟ من تقصد؟ فلديَّ بضع منهن».

اخترقت فسبولا التي كانت تحمل مقلاة نحاسية بيدها، حشدَ المستمعين بزخم ثور بري مندفع للهجوم. هبَّ ياسكير فارًّا من الكشك، قافزًا برشاقة فوق السلال المعبَّأة بالجزر. استدارتْ فسبولا نحو الويتشر، نافخة خطمها. انكفأ جيرالت إلى الخلف، ملاقيًا بظهره المقاومة الصلبة لجدار الكشك.

صرخ داينتي بيبرفيلدت، قافزًا من وسط حشد الناس، ودافعًا فسبولا: «جيرالت! بسرعة، بسرعة! لقد رأيتُه! أوه، هناك، إنه يهرب».

صرختْ فسبولا مستعيدة توازنها: «سأمسك بكم في وقت ما أيها الخلعاء! وسأسوي حسابي مع عصابتكم القذرة بأكملها! شِلَّة رائعة! طائر تدرج، ومتسكع أشعث، وقزم ذو عقبين مشعرين! ستتذكرونني!».

زأر داينتي، مُفرِّقًا في أثناء جريه مجموعة تلاميذَ كانوا منهمكين باللعب بـ «الصدفات الثلاث»: «مِن هنا يا جيرالت! هناك، هناك، توارى بين العربات! خذه من اليسار! بسرعة!».

انطلقا في المطاردة، وكانا هما أنفسهما مطاردين بلعنات البائعين والمشترين الذين دُفِعُوا جانبًا. تفادى جيرالت بأعجوبة التعثر بطفل صغير يسيل المخاط منه علق تحت رجليه. وثب من فوقه، لكنه قلب برميلين صغيرين من سمك الرنجة، ما جعل الصياد الحانق يلطمه على ظهره بأنقليس حي، كان إذَّاك يعرضه للزبائن.

ثم لاحظا الشبيه يحاول جاهدًا الإفلات محاذيًا حظيرة الغنم.

صرخ داينتي: «من الجهة الثانية! خذه من الجهة الثانية يا جيرالت!».

انطلق الشبيه مثل سهم على طول السياج، يلمع بصدريته الخضراء. أصبح واضحًا لِمَ لمْ يتحول إلى شخص آخر. لا أحد يستطيع أن يضاهي الهوبيتي بخفة الحركة. لا أحد. باستثناء الهوبيتي الثاني والويتشر.

رأى جيرالت كيف يُغيِّر الشبيه اتجاهه بغتة، ويثير سحابة من الغبار، وكيف يغوص بمهارة في حفرة في السياج المحيط بخيمة كبيرة تُستخدَم مجزرًا وملحمة، وهذا ما رآه داينتي أيضًا. قفز فوق جذع دقيق وبدأ يشق طريقه خلال قطيع الخراف التي كانت تثغو وقد اكتظت بها الحظيرة. كان واضحًا أنه لن يلحق. انعطف جيرالت واندفع في إثر الشبيه بين ألواح السياج. أحس بتدافع مفاجئ، وسمع انصياح جلد يتمزق، وأصبحت السترة فجأة، وكانت أيضًا تحت الإبط الآخر فضفاضة جدًّا.

توقف الويتشر. شتم. بصق. وعاد يشتم مرة أخرى.

هُرِعَ داينتي إلى الخيمة خلف الشبيه. انبعثتْ من الداخل صرخات وأصوات ضربات وشتائم وجلبة فظيعة.

شَتَمَ الويتشرُ مرة ثالثة ببذاءة استثنائية، ثم سُمِعَ صرير أسنانه، ثم ضغط أسنانه حتى اصطكَّت. رفع يده اليمنى، وضمَّ أصابعه صانعًا علامة آراد، ووجهها إلى الخيمة مباشرة. لاحت الخيمة مثل شراع في خضم الإعصار، وفي داخلها تعالى عواء لعين وقعقعة وجؤار ثيران.. انهارت الخيمة.

تسلل الشبيه، الذي كان يزحف على بطنه، من تحت الملاءة المشمعة واندفع باتجاه خيمة ثانية صغرى، على الأرجح أنها للتبريد. وجَّه جيرالت كفه نحوه في الحال، وطعنه في ظهره **بالعلامة**. هوى الشبيه على الأرض كما لو أن صاعقة أصابتْه وتشقلب، لكنه هبَّ على الفور وحط في الخيمة. تبعه الويتشر.

فاحتْ في الخيمة رائحة لحم. وكان الظلام مخيمًا.

وقف تيليكو لونجريفينك ليتورت هناك يلهث بمشقة، مُطوِّقًا بكلتا يديه نصفَ خنزيرٍ مذبوحٍ معلقًا على جذع دقيق. لم يكن ثمة مخرَج آخر من الخيمة، وكانت الملاءة المشمَّعة مثبَّتة بإحكام وثبات على الأرض.

قال جيرالت ببرود: «من دواعي سروري أن ألتقيك من جديد أيها المقلِّد».

كان الشبيه يتنفس بمشقة وجُشَّة.

وأخيرًا تأوه: «دعني وشأني. لماذا تطاردني أيها الويتشر؟».

قال جيرالت: «تيليكو. أنت تسأل أسئلة غبية. للاستحواذ على الخيول وشخصية بيبرفيلدت، هشَّمت رأسه وتركته في الخلاء. ولا تزال مستمرًّا في

استخدام شخصيته والاستهزاء بالمشكلات التي تسببها له. وحدها الشياطين تعلم ما الذي تواصل تخطيطه، لكنني سأعوق مخططاتك هذه في الأحوال أجمعها. لا أريد قتلكَ ولا تسليمكَ للسلطات، لكنْ عليك أن تنصرفَ عن المدينة. وسأحرص على أن تنقلع راحلًا».

- وإن لم أشأ فعل ذلك؟

- إذنْ، سأنقلك داخل كيس على عجلة يدوية.

انتفخ الشبيه دفعة واحدة، ثم نحف فجأةً وبدأ في التنامي، وابيضَّ شعره المتجعِّد الضارب إلى اللون الكستنائي واستوى بالغًا كتفيه. لمعت صدرية الهوبيتي الخضراء لمعانًا زيتيًّا، لتصير جلدًا أسود، وبرقت الأزرار الفضية على الذراعين والكمَّين. تطاول الوجه الممتلئ المحمرُّ وشحب.

انزلق مقبض السيف من فوق كتفه اليمنى.

قال الويتشر الثاني بصوت أجش وابتسم: «لا تقتربْ. ابقَ بعيدًا يا جيرالت. لن أدعك تلمسني».

واه، ما أشنع ابتسامتي! فكَّرَ جيرالت، وهو يمد يده إلى سيفه. وما أشنع وجهي. وما أشنعني حين أضيِّق عينيَّ. إذن، هكذا تبدو صورتي؟ اللعنة.

لمست يد الشبيه ويد الويتشر مقبضي السيفين في اللحظة ذاتها، واستُلَّ السيفان من غمديهما في اللحظة ذاتها. خطا كلا الويتشرين خطوتيْن سريعتيْن وخفيفتيْن، واحدة إلى الأمام والثانية إلى الجانب. كلاهما رفعا سيفيْهما في اللحظة ذاتها، ولوَّحا بهما بحركة طاحونة هواء أحدثت صريرًا.

كلاهما جمدا في اللحظة ذاتها، وسكنا في مكانهما.

هدر الشبيه: «لا يمكنك أن تهزمني. لأنني أنا أنت نفسك يا جيرالت».

قال الويتشر بصوت خفيض: «أنت مخطئ يا تيليكو. ألقِ سيفك وعُدْ إلى شخصية بيبرفيلدت، وإلا فستندم! إني أحذرك».

كرَّر الشبيه: «أنا أنت. لن تستطيع أن تتفوق عليَّ. لا يمكنك أن تهزمني، لأني أنت!».

- ليست لديك أيَّ فكرة عمَّا تعنيه حقيقة أن تكون أنت، أيها المقلد، أنا.

أنزلَ تيليكو يده القابضة على السيف.

كرر: «أنا أنت».

نفى الويتشر: «لا.. لستَ كذلك. أوَتعرف لماذا؟ لأنك صغير وفقير وشبيهٌ وديعٌ. شبيهٌ كان يمكن أن يقتل بيبرفيلدت في كل الأحوال، ويدفن جثته في إحدى الآجام، وبذلك يكتسب الأمان المطلق واليقين المطلق أن أمره لن ينفضح أمام أي شخص أبدًا، من بين ذلك قرينة الهوبيتي، جاردينيا بيبرفيلدت الشهيرة. لكنكَ لم تقتله يا تيليكو، لأنك لم تكن قادرًا على ذلك. لأنك شبيه صغير وفقير ووديع، يدعُونكَ أصدقاؤك دودو. ولو تحولت إلى أي شخص مهما كان، بقيتَ كما أنت دائمًا. تستطيع نسخ ما هو طيب فينا، لأنك لا تفهم ما هو سيئ فينا. هذا هو أنت بالضبط أيها الشبيه».

تراجع تيليكو، ساندًا ظهره إلى ملاءة الخيمة المشمعة.

تابع جيرالت: «لذا ستتحول الآن بتأدب فتصير بيبرفيلدت، وتعطيني كفيك لأقيدهما. لن يكون في وسعك أن تقاومني فأنا ذاك الذي لا يمكنكَ نسخه. تعلم هذا جيدًا جدًّا يا دودو. فإنك قد استوليت على أفكاري هنيهة».

استقام تيليكو فجأة، وراحت ملامح وجهه، الذي كان وجه الويتشر، تتغبش ثم تنمحي، وتماوج الشعر الأبيض وبدأ يتحول إلى داكن.

قال بغير وضوح، لأن شفتيْه كانتا تتغيران في شكلهما: «أنت محق يا جيرالت. لقد استوليتُ على أفكارك. هنيهة قصيرة، لكنها كانت كافية. هل تعلم ما سأفعل الآن؟».

اكتسبتْ سترة الويتشر الجلدية لونًا برَّاقًا أزرق كزهر القنطريون. ابتسم الشبيه، وعدَّل قبعته ذات اللون البرقوقي ومعها ريشة البلشون، وشدَّ حزام العود الملقى على كتفه. ذاك العود الذي كان سيفًا قبل لحظة.

ضحك بضحكة ياسكير الرنانة بنغمات متوالية: «سأقول لكَ ما سأفعل يا ويتشر. سأمضي، وأحشر نفسي بين جموع الحشد، وأتحول خفية إلى شخص ما، حتى لو كان متسولًا. لأنني أفضل أن أكون متسولًا في نوفيجراد بدلًا من أن أكون شبيهًا في الخلاء. نوفيجراد تدين لي بشيء ما يا جيرالت. لقد أدى إنشاء المدينة إلى تلويث البيئة التي كان يمكن أن نعيش فيها ونعيش في هيئاتنا الطبيعية. لقد دُمِّرْنا، وهم يطاردوننا مطاردة الكلاب المسعورة. وأنا أحد الناجين القلائل. أريد أن أعيش، وسأعيش. في الماضي، عندما كانت الذئاب تلاحقني في الشتاء، حوَّلت نفسي إلى ذئب، وجريت مع القطيع عدة أسابيع، ونجوتُ. الآن أيضًا سأفعل الشيء نفسه، لأنني لا أريد بعد الآن أن

أتسكع في الغياض النائية وأن أشتّي في حُفَرِ الأشجار المقلوعة، لا أريد أن أكون جائعًا إلى الأبد، ولا أريد أن أكون هدفًا للسهام طوال الوقت. الجو دافئ هنا في نوفيجراد، والطعام متوفر، ويمكن جني المال، ومن النادر جدًّا هنا أن يطلق الناس على بعضهم السهام من أقواسهم. نوفيجراد هي قطيع من الذئاب. سأنضم إلى هذا القطيع وأعيش. تفهم؟».

أومأ جيرالت برأسه دون حماسة.

تابع الشبيه، معوجًا شفتيْه بابتسامة ياسكيرية وقحة: «أعطيتم الأقزام والهوبيتيين ومعشر الجنوم، وحتى الإلفيين إمكانية متواضعةً للاندماج. فلمَ عليَّ أن أكون أسوأ منهم؟ لمَ يُنكَر عليَّ هذا الحق؟ فما عليَّ أن أفعل كي أتمكن من العيش في هذه المدينة؟ أأتحول إلى إلفية لها عينا يحمور، وشعر حريري وساقان طويلتان؟ ماذا؟ بِأي شيء الإلفية أفضل مني؟ بحقيقة أنكم عندما تلمحون الإلفية تنفتح شهيتكم، وعند رؤيتي تشعرون برغبة في التقيؤ؟ فلتعهدوا لأنفسكم بمثل هذه الحجة. وأنا في كل الأحوال سأبقى حيًّا، وأعلم كيف. فأنا، وقد كنت ذئبًا، جريتُ وعويتُ وتعاركتُ مع الآخرين من أجل أنثى. وكوني مواطنًا من نوفيجراد، سأتاجر، سأنسج السلال من الخوص، سأتسول أو أسرق، وكواحد منكم سأفعل ما يفعل أحدكم عادةً. من يدري، فمن الممكن أن أتزوج؟».

ظل الويتشر صامتًا.

واصل تيليكو بهدوء: «كما قلتُ، أنا سأخرج. وأنت يا جيرالت لن تحاول إيقافي، حتى إنك لن تتحرك. لأنني يا جيرالت عرفتُ أفكارك هنيهة. من بينها تلك التي لا تريدُ الاعتراف بها وتخفيها حتى عن نفسك. وكي يكون في وسعك إيقافي، سيتعيَّن عليك قتلي. إن فكرة قتلي بدم بارد تثير فيكَ الاشمئزاز. أليس كذلك؟».

ظل الويتشر صامتًا.

عدَّل تيليكو حزام عوده من جديد، واستدار وتحرَّك نحو المخرج. مشى غير هيَّاب، ولكنَّ جيرالت رآه يُقلِّص رقبته ويحني كتفيه، متوقعًا صفير النصل. أولج السيف في غمده، وتوقف الشبيه بعد نصف خطوة، وتلفت.

قال: «وداعًا جيرالت. شكرًا لك».

أجاب الويتشر: «وداعًا يا دودو. بالتوفيق».

استدار الشبيه وسار تجاه البازار الغاص بالناس يخطو خطوَ ياسكير النابض بالحياة، المرِح، المتمايل. لوَّح بيده اليسرى بحدة تمامًا كما يفعل ياسكير، وكشَّر عن ضواحكه للفتيات المارات قربه، أيضًا كما يفعل ياسكير. تبعه جيرالت ببطء.. ببطء.

تناول تيليكو العود في أثناء مسيره، أبطأ وعزف مقطوعتيْن، ثم طنطن على الأوتار ببراعة لحنًا يعرفه جيرالت. راح يغني وقد استدار بعض الشيء.

تمامًا مثل ياسكير.

«سيرجع الربيع، ويسيل المطر على الدروب

بحرارة الشمس ستتدفأ القلوب

هذا ما يجب أن يكون، فهذه النار لا تزال مشتعلة فينا

***النار الأبدية**، التي هي الأمل».*

صاح: «كرر هذا الكلام على مسامع ياسكير، إن حفظتْه في ذاكرتك، وقل له إن «الشتاء» عنوان سيء. ينبغي لهذه البالادا أن تُسمَّى «النار الأبدية». وداعًا أيها الويتشر!».

انبعث فجأة صوت: «هيه! أيها التدرج!».

استدار تيليكو متفاجئًا. بزغت فسبولا من خلف الكشك تتمايل بنهديها بعنف، وتقيسه بنظرة تنذر بالشر.

صأت متمايلةً على نحو يزداد إثارةً أكثر فأكثر: «تنظر باحثًا عن العاهرات أيها المخادع؟ وتغني الطقاطيق أيها الوغد؟».

خلع تيليكو قبعته وانحنى، مبتسمًا الابتسامة الياسكيرية المميزة وسع شفتيه.

قال متودِّدًا: «فسبولا عزيزتي. ما أسعدني أن أراك. اغفري لي يا حلوتي. أنا مدين لك...».

قاطعته فسبولا بصوت عالٍ: «وأنت.. أنت. أما إنك مدين لي، فستدفع الدين الآن! خذ!».

التمعت المقلاة النحاسية الضخمة في الشمس، وهوت على رأس الشبيه بقرقعة رنانة عميقة. ترنَّح تيليكو بتكشيرة حمقاء لا توصف جمدت على وجهه، وتهاوى وذراعاه ممدودتان جانبًا، وأخذت ملامحه تتغير فجأة،

وتذوب، وتفقد التشابه مع كل شيء. وإذ رأى جيرالت ذلك، قفز نحوه، منتزعًا من الكشك بساطًا كبيرًا في أثناء ركضه. مد البساط على الأرض، وبركلتين دحرج الشبيه عليه، ولفه بسرعة لكنْ بإحكام.

بعد أن جلس على الحزمة، مسح جبهته بكمه. نظرت فسبولا، الممسكة بالمقلاة، إليه نظرة تنذر بالشر، في حين تكاثف الحشد من كل الجهات.

قال الويتشر وابتسم مُكرهًا: «إنه مريض. من أجل مصلحته لا تتزاحموا أيها الناس الطيبون، فالمسكين في حاجة إلى هواء».

سأل تشابيل بهدوء وبصوت جُهْوَري، حاشرًا نفسه فجأة بين الحشد: «سمعتم؟ أرجو ألا تتجمهروا هنا! من فضلكم انفضُّوا! التجمهرات محظورة. ويُغرَّم من يشارك فيها ماليًّا!».

تبعثر الحشد على الجانبين في غمضة عين، فقط من أجل أن يظهر ياسكير الذي كان يقترب بخطو حثيث على أصوات العود. صرخت فسبولا عند رؤيته صراخًا مرعبًا، ألقت المقلاة وركضت تاركة الساحة.

سأل ياسكير: «ماذا حدث لها؟ أرأت شيطانًا؟».

نهض جيرالت من على الحزمة التي بدأت تتحرك حركة ضعيفة. دنا تشابيل ببطء. كان وحده، وحرسه الشخصي لم يكنْ يُرى في أي مكان.

قال جيرالت بصوت خافت: «ما كنتُ لأقترب لو كنتُ مكانكم يا سيد تشابيل، ما كنت لأقترب».

ضغط تشابيل شفتيه الضيقتين، وهو ينظر إليه ببرود: «تقول هذا؟».

- لو كنتُ مكانكم يا سيد تشابيل، لتظاهرتُ أنني لم أرَ شيئًا.

قال تشابيل: «نعم، هذا مؤكد. لكنكَ لستَ أنا».

من خلف الخيمة جرى نحوهم داينتي بيبرفيلدت لاهثًا ومتعرقًا. توقَّف عند رؤية تشابيل، ثم وضع يديه خلف ظهره وهو يصفِّر، وتظاهر بأنه معجب بسقف الشَّوْنة.

دنا تشابيل من جيرالت قريبًا جدًّا. لم يتحرك الويتشر واكتفى بتضييق عينيه. نظر أحدهما إلى الآخر خلال لحظة، ثم انحنى تشابيل على الحزمة.

قال لحذاء ياسكير المصنوع من جلد الجدي، المشوَّه على نحو غريب، البارز من البساط الملفوف: «دودو. هيا انسخ بيبرفيلدت بسرعة».

صرخ داينتي وقد كفَّ عن التحديق إلى الشونة: «ماذا؟ وكيف؟».

قال تشابيل: «اخفضوا أصواتكم. حسنًا يا دودو، كيف الحال؟».

انبعث أنين مكتوم من داخل البساط: «الآن. الآن... لحظة».

تشوَّه حذاء جلد الجدي الذي كان يبرز من اللفة، وانمحى متحولًا إلى شعر قدمِي الهوبيتي الحافيتيْن.

قال تشابيل: «اخرج يا دودو. وأنت يا داينتي، فلتهدأْ. بالنسبة إلى البشر، كل الهوبيتيين يبدون متشابهين تمامًا. أليس كذلك؟».

تمتم داينتي بشيء غير واضح. نظر جيرالت وكان لا يزال مضيقًا عينيه إلى تشابيل بارتياب. أما مفوض الحاكم فاعتدل وتطلَّع نحوه، وحينئذٍ لم يتبقَّ خلف الفضوليين الذين كانوا لا يزالون ثابتين في أقرب بقعة، سوى طقطقة القباقيب الخشبية الآخذة في الخفوت في البعيد.

بزغ داينتي بيبرفيلدت الثاني من الحزمة وتدحرج خارجًا وعطس، ثم جلس ومسح عينيْه وأنفه. قعد ياسكير على صندوق بجانبه، وطنطن على العود ولاح فضول معتدل في تعابير وجهه.

سأل تشابيل بوداعة: «من هذا؟ ما رأيك يا داينتي؟ يشبهك كثيرًا، ألا تعتقد ذلك؟».

تجرَّأ وفغر الهوبيتي فمه: «هذا ابن عمي. قرابة أُسَريَّة وثيقة جدًّا. دودو بيبرفيلدت من مرج رديستوفا، مخ تجاري عظيم. لقد قررتُ...».

- نعم يا داينتي؟

- لقد قررتُ أن أجعله وسيطي في نوفيجراد. ماذا تقول يا ابن العم؟

- أوه، شكرًا لك ابن العم.

ابتسمتِ القرابة الأُسَريَّة الوثيقة جدًّا، فخر آل بيبرفيلدت، ابتسامة عريضة. ابتسم تشابيل أيضًا.

تمتم جيرالت: «هل تحقَّق الحلم بالعيش في المدينة؟ ماذا أنتم أيضًا ترون في هذه المدينة يا دودو... وأنت يا تشابيل؟».

رد تشابيل متمتمًا: «لو أنكَ عشتَ في أرض براح، لكنت ستأكل الجذور، وكنت ستبتل وتجمد من البرد، ولكنتَ عرفت. نحن أيضًا لنا شيء يخصنا من الحياة يا جيرالت. لسنا أسوأ منكم».

أومأ جيرالت برأسه: «الحقيقة. لستم كذلك. وأحيانًا تكونون حتى أفضل منا. ماذا عن تشابيل الحقيقي؟».

همس تشابيل الثاني: «حلَّت عليه مصيبة. كان ذلك منذ ما يقرب الشهريْن. سكتة دماغية. فليتغمده الثرى خفيفًا، ولتُنِرْ له **النار الأبدية**. واتفق أنني كنت في الجوار... لم يلاحظ أحدٌ... جيرالت؟ لعلكَ لن...».

سأل الويتشر بوجه جامد: «ما الذي لم يلاحظه أحد؟».

تمتم تشابيل: «شكرًا».

- يوجد المزيد منكم هنا؟

- وهل هذا مهم؟

وافق الويتشر: «لا، ليس مهمًّا».

ظهر فجأة من وراء العربات والأكشاك شكل يهرول، طوله قدْر ذراعين، يرتدي قبعة خضراء وفروة من الأرانب المرقَّطة.

خنَّ الجنوم وتأتأ متلفتًا حوله، منقِّلًا عينيه من هوبيتي إلى آخر: «يا سيد بيبرفيلدت».

قال داينتي: «أعتقد أيها الصغير أن لديك قضية عند ابن عمي دودو بيبرفيلدت. فقل... قل.. ها هو».

تحدث الجنوم وابتسم ابتسامة عريضة مبرزًا أسنانه الصغيرة الحادة: «اللشيش يبعث تقريرًا أن كل شيء سار على ما يرام. أربع كورونات للقطعة الواحدة».

قال داينتي: «يُخيَّل إليَّ أنني أعرف ما الأمر».

- خسارة أن فيفالدي ليس هنا، لحسب الربح في لمح البصر.

نطق تيليكو لونجريفينك ليتورت، واسمه اختصارًا بينستوك، وبين الأصدقاء دودو، أمَّا لنوفيجراد بأسرها، فهو عضو أسرة آل بيبرفيلدت الكبيرة: «اسمح لي يا ابن العم. اسمح لي أن أحسب. لديَّ ذاكرة للأرقام. كما للأشياء الأخرى أيضًا».

انحنى داينتي: «تفضل. تفضل يا ابن العم».

غضَّن الشبيه جبينه: «لم تكن التكلفة مرتفعة. ثماني عشرة للزيت العطري، وثماني كورونات وخمسين لزيت السمك، هممم... كلها معًا، من بين

ذلك الحبل، خمس وأربعون كرونة. الغلة: ستمئة بأربع كورونات، أي ألفين وأربعمئة. دون أيِّ عمولة، لأن البيع كان دون وسطاء...».

ذكَّر تشابيل الثاني: «أرجو عدم نسيان الضريبة. أرجو عدم نسيان أن ممثل سلطات المدينة والكنيسة واقف أمامكم، وهو يتعامل مع واجباته بجدية وضمير».

صرَّح دودو بيبرفيلدت: «مُعفًى من الضريبة. لأنه بيعٌ لمصلحة غاية مقدسة».

- ها؟

- زيت السمك الممزوج بالنِّسَب الملائمة، والشمع، والزيت العطري المصبوغ بقليل من الصباغ القرمزي -أوضح الشبيه- هذا كله يُصبُّ في الأواني الفخارية، وتُغمَس قطعة من الحبل في كل واحدة منها. يُعطي الحبل المشتعل لهبا أحمر رائعًا يحترق طويلًا، وقليلًا ما تفوح منه رائحة نتنة... **النار الأبدية**. كان الكهنة يحتاجون إلى الشموع تُوضَع على مذبح **النار الأبدية**. لم يعودوا يحتاجون إليها.

تمتم تشابيل: «تبًّا... هذا صحيح... كانت الحاجة إلى الشموع كبيرة... دودو، أنت عبقري».

قال تيليكو بتواضع: «ورثتُ هذا عن أمي».

أكد داينتي: «وكيف لا، هو نسخة من أمه. يكفي أن تنظروا إلى هاتين العينين الذكيتيْن. نسخة من بيجونيا بيبرفيلدت، عمتي الحبيبة».

تأوَّه ياسكير: «جيرالت. لقد جنى من المال في ثلاثة أيام أكثر مما كسبتُ من غنائي طوال حياتي كلها!».

قال الويتشر بجدية: «لو كنتُ مكانك لتركتُ الغناء وبدأتُ مزاولة التجارة. اطلبْ منه فلعلَّه يأخذك إلى ورشة تعليم الحرفة».

شده تيليكو من كمه: «يا ويتشر! قل لي كيف يمكنني أن... أرد الجميل لك...».

- اثنتان وعشرون كورونة.

- ماذا؟

- من أجل سترة جديدة. انظرْ ما بقي من القديمة.

صرخ ياسكير فجأة: «أتدرون؟ لنذهب جميعًا إلى بيت الدعارة! إلى «زهرة الآلام»! آل بيبرفيلدت سيدفعون».

أبدى داينتي قلقه: «وهل يدعون الهوبيتيين يدخلون؟».

ظهرت تعابير تهديد على وجه تشابيل: «فليحاولوا منعكم من الدخول. ليحاولوا فقط، فإني سأتِّهم ماخورهم هذا كله بالهرطقة».

صاح ياسكير: «حسنًا. هذا جيد. جيرالت.. ستذهب؟».

ضحك الويتشر ضحكة خافتة.

قال: «أتعلم يا ياسكير؟ سأفعل بكل سرور».

قليلًا من التضحية

1

خرجتْ حورية البحر من الماء طافية حتى نصف جسدها، فجأة خبطتْ بكفيْها على السطح بحدة. أقرَّ جيرالت أن نهديْها كانا جميلين، لا.. بل يبلغان حد الكمال. ولم يفسدْ فعَّالية التأثير إلا اللون. كانت الثآليل خضراء داكنة، أما الهالات على جوانبها فكانت أفتح قليلًا فحسب. انثنتْ حورية البحر بخفة، متلائمة برشاقة مع موجة آخذة بالاقتراب، وهزَّت شعرها الزبرجديَّ المبتلَّ وغنَّت بعذوبة.

انحنى الأمير فوق جانب القارب الشراعي: «ماذا؟ ماذا تقول؟».

قال جيرالت: «ترفض. تقول إنها لا تريد».

- هل ترجمتَ لها أنني أحبها.. أنني لا أتخيل الحياة من دونها؟ أنني أريد الزواج بها؟ أنها هي فقط لا غيرها؟
- ترجمت.
- وماذا؟
- ولا شيء.
- فلتكرِّرْ، إذن.

لمس الويتشر شفتيه بأصابعه وأخرج من داخله تغريدة صاخبة جياشة. وراح يترجم ما باح به الأمير، منتقيًا الكلمات واللحن.

قاطعتْه حورية البحر، مستلقية وظهرها على الماء.

غنَّتْ: «لا تترجم، لا تتعب نفسك. أنا فهمتُ. عندما يقول إنه يحبني، فإن تعابيرَ غبية تظهر دائمًا على وجهه. هل قال شيئًا محددًا؟».

- ليس تمامًا.

- خسارة.

رفرفتْ حورية البحر في الماء وغطستْ، وهي تثني ذيلها بقوة، غامرة البحر بالزبد بزعنفتها النحيلة التي تشبه زعنفة البربوني المخطَّط[1].

سأل الأمير: «ماذا؟ ماذا قالت؟».

- قالت، خسارة.

- لماذا خسارة؟ ما الذي تعنيه خسارة؟

- يبدو لي أن ذلك كان رفضًا.

صرخ الأمير ناكرًا الحقائق البديهية: «أنا لا يُرفَض لي طلب».

تمتم قبطان القارب الشراعي، مقتربا منهما: «سيدي. الشِّباك لدينا جاهزة، يكفي أن نرميها، وستكون هي لكم...».

قال جيرالت بصوت خافت: «لا أنصح بذلك. إنها ليست وحدها. ثمة المزيد منهنَّ تحت الماء، وتحتنا في العمق قد يكون الكراكن موجودًا».

ارتجف القبطان وشحب، ثم أمسك مؤخرته بكلتا يديه، بحركة لا معنى لها.

- كرا... كراكن؟

أكد الويتشر: «كراكن. لا أنصح بمحاولة المزاح بالشِّباك. يكفي أن تصرخ هي، ولن يبقى من هذه الفلوكة سوى ألواح عائمة، وسيغرقوننا كالقطط. وفي المحصلة، يا أجلوفال، قرِّرْ أكنت تريد الزواج بها، أم اصطيادها بالشِّباك والاحتفاظ بها في برميل؟».

---

(1) بربوني: نوع من الأسماك، يسمى أيضًا: السلطان إبراهيم.

قال أجلوفال بحزم: «أنا أحبها. أريدها زوجة. لكنْ إضافة إلى ذلك، يجب أن تكون لها ساقان، وليس ذيلًا متحرشفًا. يمكن فعل ذلك، لأنني قد اشتريت إكسيرًا سحريًّا بضمان كامل، مقابل رطليْن من اللآلئ الرائعة. سوف تشربه، وستنمو لها ساقان. ستعاني قليلًا فحسب، ثلاثة أيام، لا أكثر. نادِها أيها الويتشر، بلِّغْها هذا مرة أخرى.

- قد أخبرتُها مرتيْن، وقالت إنها لا توافق مطلقًا. لكنها أضافت أنها تعرف ساحرة بحرية فوقية، مستعدة لأن تحول ساقيْك بتعويذة إلى ذيل أنيق. دون ألم.
- لعلها جُنَّتْ! أنا من سيكون له ذيل سمكة؟ هذا لن يكون أبدًا! نادِها يا جيرالت!

انحنى الويتشر بشدة فوق جانب القارب. كان الماء في ظله أخضر، وبدا كثيفًا كالهلام. لم يكنْ مضطرًّا إلى مناداتها. انبجست حورية البحر فجأة فوق السطح في نافورة من الماء. خلال لحظة وقفت مباشرة على ذيلها ثم انسابت في الأمواج، قَلَبَتْ نفسها على ظهرها عارضةً بكل بهاء ما كان فاتنًا لديها. وابتلع جيرالت ريقه.

غنَّتْ: «هيه، أنتم! كم سيطول الانتظار؟ بشرتي تخشُن من جراء الشمس! يا أبيض الشعر، اسأله أكان يوافق».

رد الويتشر غناءً: «لا يوافق. افهمي يا شئيناز، ليس ممكنًا أن يكون له ذيل، لا يمكنه العيش تحت الماء. أنت يمكنك تنفُّس الهواء، هو لا يمكنه التنفس تحت الماء إطلاقًا!».

صرخت حورية البحر بصوت رقيق: «كنت أعلم! كنت أعلم! حُجَج، حُجَج غبية ساذجة، ولا ذرة من التضحية! من يحبُّ، يُضحِّ بنفسه! أنا ضحيتُ من أجله، تسلقتُ الصخور من أجله كل يوم، وكشطتُ الحراشف عن مؤخرتي، وقصقصت زعنفتي، وأُصِبْتُ بنزلة برد من أجله! وهو لا يريد أن يضحِّي بهاتيْن الرِّجليْن المُنفِّرتيْن من أجلي؟ إن الحب لا يعني الأخذ فقط، بل أيضًا وجوب القدرة على التخلي والتضحية! أعدْ عليه ذلك!».

صاح جيرالت: «شئيناز! ألا تفهمين؟ هو لا يستطيع العيش في الماء!».

- أنا لا أقبل الأعذار الغبية! أنا أيضًا... أنا أيضًا أودُّه وأريد أن تكون لي منه أفراخ، لكنْ كيف، وهو لا يريد أن يصبح فحلًا سمكيًّا؟ أين سيكون عليَّ أن أضع بطارخي[1] له، ها؟ في القبعة؟

صرخ الأمير: «أخبرني ماذا تقول يا جيرالت! لم آتِ بكَ إلى هنا لتجري محادثة معها، بل...».

- إنها متمسكة برأيها. هي غاضبة.

زأر أجلوفال: «هاتوا هذه الشباك! سأحتفظ بها في المسبح شهرًا، و...».

- مثل هذا! (رد القبطان صارخًا وهو يستعرض على مرفقه أي شيء كان قصد) قد يكون تحتنا كراكن! هل رأيتم كراكنَ من قبل يا سيدي؟ اقفزوا إلى الماء إن شئتم وأمسكوها بأيديكم! أنا لن أتدخل. إنني أعيش من هذا القارب!

- أنت تعيش من نعمتي أيها الوغد! أعطني الشباك وإلا أمرت بشنقك!

- اذهبوا وقبِّلوا مؤخرة الكلب! على هذا القارب إرادتي فوق إرادتكم!

صرخ جيرالت بغضب: «اهدآ كلاكما! إنها تقول شيئًا، لهجتها صعبة، يجب أن أركز!».

صرختْ شئيناز بطريقة غنائية: «لقد ضقتُ ذرعًا! أنا جائعة! هيا يا أبيض الشعر، دعه يقرِّر، دعه يقرِّر في الحال. كرِّر عليه شيئًا واحدًا: لن أعرِّض نفسي للسخرية ولن أتعاطى معه بعد الآن، إن كان سيبقى شبيهًا بنجم البحر ذي الأربع أرجل. كرِّرْ عليه عمَّا يتعلق بالأشياء العبثية التي يقترحها عليَّ عند الصخور، إن لديَّ صديقات يفعلن ذلك على نحو أفضل بكثير! لكنني أعدُّ ذلك لهوًا غير ناضج، جيد للأطفال قبل أن يُغيِّروا حراشفهم. أنا حورية بحر طبيعية وكاملة الصحة».

- شئيناز...

- لا تقاطعني! أنا لم أنتهِ بعد! أنا كاملة الصحة وطبيعية وقد بلغتُ سن التبويض، وإذا كان يريدني حقًّا فيجب أن يكون له ذيل وزعنفة وكل شيء، كمثل سمندر ماء طبيعي. وإلا فأنا لا أريد أن أعرفه بعد الآن!

---

(1) بطرخ: جمعها بطارخ وهي البيوض التامة النضج التي تتكون في مبايض الأسماك أو الحيوانات المائية الأخرى.

ترجم جيرالت بسرعة محاولًا ألا يكون بذيء الكلام. لم يسِرِ الأمر كما أراد تمامًا. احمرَّ وجه الأمير وشتم شتمًا قميئًا.

صرخ: «عاهرة لا تخجل! سمكة إسقمريٌّ باردة! فلتجد لنفسها ذكرًا من سمك القد!».

سألت شئيناز متشوقة: «ماذا قال؟».

- إنه لا يريد أن يكون لهِ ذيل!

- فلتقل له... أن ينشِّف نفسه!

- ماذا قالت؟

ترجم الويتشر: «قالت فلتغرق».

2

قال ياسكير: «آخ، يا للأسف أنني لم أستطعْ أن أبحر معكم، لكنْ ماذا يمكنني أن أفعل؟! أنا أتقيأ في البحر لدرجة أن الحديث عن ذلك لا يصلح. أتعْلَم، لم أتحدث في حياتي قطُّ مع حورية بحر، يا للخسارة، اللعنة».

قال جيرالت وهو يدفع الخرج: «حسب معرفتي بك، فإنك على أي حال ستكتب البالادا».

- بالتأكيد. وصارت لديَّ المقاطع الأولى. في أغنيتي هذه ستضحي حورية البحر من أجل الأمير، وستُحوِّل الذيل السمكي إلى ساقيْن فاتنتيْن، لكنها ستدفع ثمنًا باهظًا وهو فقدان صوتها. يخونها الأمير ويتركها، وعندئذٍ تموت كمدًا، وتصير زبدًا في البحر عندما أشعة الشمس الأولى...

- ومن سيصدق مثل هذا الهراء؟

هدر ياسكير: «ليس مهمًّا. لا تُكتَب قصائد البالادا لكي يصدقها الناس. تُكتَب لتهز الشعور. لكنْ عن أي شيء سأتحدث معك، أنت لا تعرف عن هذا الأمر شيئًا. من الأفضل أن تقول لي، كم دفع أجلوفال لكَ؟».

- لم يدفعْ لي شيئًا. قال إنني لم أنجزِ المهمة. وإنه كان يتوقع شيئًا آخر، وهو يدفع مقابل النتيجة، لا مقابل النوايا الحسنة.

أومأ ياسكير برأسه، ثم خلع قبعته ونظر إلى الويتشر بتكشيرة على شفتيه تثير الشفقة.

- هل هذا يعني أننا ما زلنا دون مال؟

- هكذا يبدو.

أبدى ياسكير على وجهه تعابيرَ تثير الشفقة أكثر مما كانت عليه.

تأوه: «أنا المذنب في هذا كله. هذا كله بسببي. جيرالت، أأنت غاضب مني؟».

لا، لم يكن الويتشر غاضبًا من ياسكير. بتاتًا.

إن ما لقياه حدث جراء خطأ من ياسكير، لا شك في ذلك على الإطلاق، لا من أحد آخر. وياسكير أصر على أن يذهبا إلى «القياقب الأربعة» لحضور احتفالية عامة فيها. كان تنظيم الاحتفاليات -كما استنتج الشاعر- يلبي احتياجات الناس العميقة والطبيعية. من حين إلى آخر -في رأي مؤلف البالادا- على الإنسان أن يلتقي أناسًا آخرين في مكان يمكن الضحك فيه والغناء، وأن يُتخَم بالشواء والفطائر، وأن يكرع الجعة ويستمع إلى الموسيقى، ويتلمس ضاغطًا نهود الفتيات المتعرقة في أثناء الرقص. ولو أراد كل إنسان تلبية هذه الاحتياجات بتفاصيلها، عَرَضًا وبطريقة غير منظمة -استنتج ياسكير- لنشأت فوضى لا توصف. لهذا كله اختُرِعَتِ الأعياد والاحتفاليات. وما دامت الأعياد والاحتفاليات تقام، فقد وجب حضورها.

لم يجادلْ جيرالت، مع أن المشاركة في الاحتفاليات تبوأت مكانا بعيدًا جدًّا على قائمة احتياجاته العميقة والطبيعية الخاصة. بيد أنه وافق على مرافقة ياسكير، فقد عوَّل على أن تجمع الناس سيمكنه من الحصول على معلومات عن مهمة متوقَّعة أو شغل محتمل – لم يشغِّله أحد منذ مدة طويلة، وتضاءل مخزونه النقدي على نحو خطِر.

لم يزعل الويتشر من ياسكير لتحرُّشه **بنُظَّار الحِراج**. هو نفسه أيضًا لم يكنْ دون ذنب. أساسًا كان يمكنه التدخل وإيقاف الشاعر المغني. لم يفعل ذلك، كان هو نفسه لا يطيق **حراس الغاب** سيِّئي السمعة الذين يُسمُّون نُظَّار الحِراج، وهم تشكيل طوعي، يُعنى بمحاربة غير البشر. هو نفسه كان

يثور غضبًا حين يستمع لتفاخرهم بما فُعِلَ بالإلفيين والبوليطيين وشياطين المامون المذبوحين أو المشنوقين، الذين نهشتهم السهام. أما ياسكير الذي كان يجول رفقة الويتشر، فقد تشكلت لديه قناعة أنه محصَّن من العقاب، وتجاوز نفسه. لم يردِّ الحراس في البداية على تهكماته وتحرشاته وتلميحاته البذيئة التي أثارت زوبعة من الضحك لدى القرويين الذين كانوا يراقبون الأحداث. لكنْ عندما رد ياسكير منشدًا أغنيته الساخرة الماجنة المسيئة التي نَظَمَها على عجل، وأنهاها بهذه الكلمات: «إذا تريد أن تكون لا شيء، فكنْ ناظر حِراج»، ووصل الأمر إلى شجار وعراك عام عنيف. وصار المبنى الخشبي الذي كان يستخدم كمرقص، أثرًا بعد عين. تدخَّل فريق آمر المنطقة بوديبوج، المسمى بالأصلع، والذي كانت **القياقب الأربعة** تقع في عقاراته الخاصة. نظار الحراج وياسكير وجيرالت عُدُّوا مذنبين بالتضامن في التسبب بكل الأضرار والجرائم، ومن ضمنها أيضًا إغواء بكماء قاصر ذات شعر أحمر، عُثِرَ عليها بعد انتهاء الحادث بقضه وقضيضه بين الشجيرات، وراء الشونة، محمرَّة الوجه ومبتسمة ابتسامة ببلادة، وكان قميصها الفضفاض مرفوعًا حتى إبطيها. من حسن الحظ، كان آمر المنطقة الأصلع يعرف ياسكير، لذلك انتهى الأمر أن دفعوا غرامة، أتت على كل ما كان في حوزتهم من مال. ثم إنهم اضطُرُّوا إلى الفرار من **القياقب الأربعة** بأسرع ما كان بمقدور الخيل أن تعدو، لأن **نظار الحراج** المطرودين من القرية كانوا يهددون بالانتقام، وفي الغابات المحيطة كانت وحدتهم بأكملها، التي جاوز عددها الأربعين رجلًا، تطارد حوريات الماء. لم يكنْ لدى جيرالت أي رغبة في التعرض لسهم من **نظار الحراج** – كانت سهام **نظار الحراج** ذات رؤوس مسنَّنة كالحراب وتُلْحِق أذًى شنيعًا بالجسد.

كان عليهما إذن التخلِّي عن الخطة الأولية التي وضعا فيها تصورًا للقيام بجولة في القرى المفترضة، حيث كانت للويتشر آمال بعمل يستطيع احتماله. بدلًا من ذلك، انطلقا نحو البحر، إلى بريميرفورد. وما يؤسف أن الويتشر لم يجد شغلًا، باستثناء علاقة الحب بين الأمير أجلوفال والحورية شئيناز التي كانت تنبئ بحظوظ قليلة لتنعم بالتوفيق. وقد أنفقا على مأكلهما مما أخذاه مقابل خاتم جيرالت الذهبي، والمشبك المشغول من حجر ألكسندريت الذي كان التروبادور قد تلقَّاه ذات مرة تذكارًا من إحدى خطيباته العديدات. كانت أيامهم عجافًا. لكنْ لا، لم يكن الويتشر غاضبًا من ياسكير.

قال: «لا، يا ياسكير. أنا لستُ غاضبًا منك».

لم يصدق ياسكير، وهو ما كان واضحًا من حقيقة أنه ظل صامتًا. نادرًا ما كان ياسكير يصمت. ربَّت عنقَ الحصان، وفتَّش في الخرج مرات، مرة بعد مرة، غير معلوم كم عددها. كان جيرالت يعلم أنه لن يجد شيئًا هناك يمكن بيعه لكسب المال. رائحة الطعام، التي يحملها النسيم من النُّزُل القريب، أصبحت لا تُحتمل.

صرخ أحدهم: «يا معلم؟ هيه، يا معلم!».

استدار جيرالت: «أسمعكَ».

من عربة ذات عجلتين أُوقِفَتْ جانبًا وقد رُبِطَتْ بحمارين بريين، خرج رجل ذو كرش، طويل القامة، ينتعل حذاءً من اللباد ويرتدي معطفًا ثقيلًا من جلد الذئب.

- يا... هذا. (شعر ذو الكرش بالحرج، وهو يقترب) الأمر ليس متعلقًا بكم، يا سيدي، بل بالمعلم ياسكير...

استقام الشاعر باعتزاز، مُعدِّلًا قبعتَه وريشة البلشون عليها: «أنا هو. ما حاجتك أيها الإنسان الطيب؟».

قال ذو الكرش: «مع كل الاحترام، أنا تيليري دروهارد، تاجر جذور، وكبير من نقابة الحرفيين هنا. كان ابني جاسبارد قد خطب داليا ابنة ميستفين، قبطان القارب».

قال ياسكير، محافظًا على جديته المتعالية: «ها. أهنئكم متمنيًا السعادة للعروسيْن. لكنْ كيف يمكنني أن أساعدكم؟ هل الأمر مرتبط بقانون الليلة الأولى؟ أنا لا ارفض ذلك أبدًا».

- ها؟ لا... هذا... أعني، ستكون الوليمة وحفلة الخِطبة اليوم مساء. زوجتي، حينما شاع خبر قدومكم أنتم أيها المعلم إلى بريميرفورد، راحت تزنُّ على رأسي... مثلها مثل غيرها من النسوان. اسمع ما يقول، تيليري، سنظهر للجميع أننا لسنا ساذجين مثلهم، وأننا نقف مع الثقافة والفن. وأنه حين نُولِم تكون وليمتنا روحية، وليستْ من أجل كرع الخمور والتقيؤ، فحسب. أقول لها، أيتها المرأة البَلهاء، لقد استأجرتُ أصلًا أحد الشعراء المغنين، ألا يكفي؟ أما هي، فترد أن شاعرًا واحدًا لا يكفي، وأن المعلم ياسكير، آه أوه، يا له من مجد، سيكون شوكة في

مؤخرات الجيران. أيها المعلم! امنحنا هذا الشرف... خمسة وعشرون تالارًا نقدًا، ينبغي أن تُفهم على أنها رمز... فقط لدعم الفن...

سأل ياسكير بتمهل: «هل يخدعني سمعي؟ أنا.. أنا سأكون الشاعر الثاني؟! تكملة لأحد الموسيقيين الآخرين؟! أنا؟! لم يحدث لي أن سقطتُ هذا السقوط الذريع، سيدي الفاضل، كي أكون صوتًا مرافقًا لشخص ما!».

احمر وجه دروهارد.

- سامحوني يا معلم -تلعثم- لم أكن أعتقد ذلك... فقط زوجتي... سامحوني... امنحونا الشرف...

هسهس جيرالت بصوت خفيض: «ياسكير. لا ترفع أنفكَ كثيرًا. نحن في حاجة إلى تلك القروش القليلة».

اهتاج الشاعر: «لا تُعلِّمني! أأنا أرفع أنفي؟ أنا؟ انظروا إليه! وماذا أقول عنكَ وأنت الذي ترفض العروض المربحة كل يوم؟ لا تقتل هيريقا، لأنه آيل إلى الانقراض! ولا الشوَّال، لأنه غير ضار! ولا السِّعلاة، لأنها لطيفة! ولا التنين أيضًا، لأن القانون يمنع ذلك! أنا، تخيل، أنا أيضًا أحترم نفسي! لديَّ أيضًا قانوني الخاص!».

- ياسكير أرجوك، افعل ذلك من أجلي. قليلًا من التضحية يا رجل، لا أكثر. أعدك أنني لن أتأفف من المهمة التالية إذا ما أتت. حسنًا، ياسكير...

نظر التروبادور إلى الأرض، وحكَّ أسفل ذقنه المغطاة بشعر ناصع وناعم. دنا دروهارد أكثر، فاغرًا فمه.

- يا معلم... أكرمونا بهذا الشرف. لن تسامحني زوجتي أنني لم أُلِحَّ في دعوتكم. حسنًا... فلتكن ثلاثين.

قال ياسكير بحزم: «خمسة وثلاثين».

ابتسم جيرالت، متشممًا بأمل رائحة الطعام المنبعثة من النُّزُل.

قال تيليري دروهارد بسرعة شديدة، أبدتْ بوضوح أنه كان يمكن أن يعطي أربعين إذا لزم الأمر: «اتفقنا يا معلم، اتفقنا. والآن... إن كانت مشيئتكم تقتضي أن ترتبوا أموركم وتأخذوا قسطًا من الراحة، فبيتي بيتكم. وأنتم يا سيد، ما اسمكم؟».

- جيرالت من ريفيا.

- وأنتم يا سيد، ليكن مفهومًا، أدعوكم أيضًا. هل تأكلون شيئًا، وتشربون...

قال ياسكير: «أي نعم، بكل سرور أروني الطريق أيها السيد الودود دروهارد. وذاك الشاعر المغني الآخر، وليكنِ الكلام بيننا، من هو؟».

- الآنسة النبيلة إيسي دافين.

3

مسح جيرالت مرة أخرى بكمه أزرار سترته الفضية ومشبك حزامه، ومشَّط بأصابعه شعره المشدود بشريطة نظيفة، وفرك الحذاء حاكًّا إحدى ساقيه بالأخرى.

- ياسكير؟

مسَّد الشاعر ريشة البلشون المثبَّتة على قبعته، وعدَّل المعطف على جسده وشدَّه إلى الأسفل. قضى كلاهما نصف اليوم في تنظيف ملابسهما وجعلاها تبدو بمثل هذا الترتيب: «هاه؟ ماذا يا جيرالت؟».

- حاول جهدكَ أن تتصرف كي نُطرَد بعد العشاء وليس قبله.

استاء الشاعر: «لعلك تمزح. احرص أنت نفسك على تأدبك. ندخل؟».

- ندخل. أتسمع؟ شخص ما يغني. امرأة.

- الآن فقط سمعت؟ هذه هي إيسي دافين، المسماة مُقلَة. ماذا، ألم تقابل امرأة تروبادور من قبل؟ صحيح، لقد نسيتُ أنك تتجنب الأماكن التي يزدهر الفن فيها. مقلة شاعرة ومغنية موهوبة. حسنًا، هي لا تخلو من العيوب، ومن بينها الوقاحة، وكما أسمع ليست أقلَّها. ما تغنيه هي الآن بالادا من تأليفي. ومن أجل ذلك ستسمع مني بعد قليل بضع كلمات، وهي كلمات ستجعل مقلتها الصغيرة تدمع.

- ياسكير، ارحمنا. سيطردوننا.

- لا تتدخلْ. هذه مسائل مهنية. فلندخل.

- ياسكير؟

- ها؟

- لماذا مقلة؟

- سترى.

أقيمتِ الوليمة في مستودع كبير خالٍ من براميل الرنجة وزيت السمك. كُتِمَتِ الرائحة -ليس برمَّتها- بأن عُلِّقَتْ، كيفَما اتفق، طاقات من نباتي الهدال والخلنج مزيَّنة بشرائط ملونة. وعُلِّقَتْ أيضًا، هنا وهناك جريًا على العادة، جدائل الثوم التي كانت معدَّة لتخويف مصاصي الدماء. غُطِّيَتِ المناضد والأرائك التي أزيحت إلى الجدران بقماش أبيض، وجُهِّزَ على عَجَلٍ موقد كبير في الركن وسفود. كان المكان مزدحمًا ولكنه ليس صاخبًا. أكثر من خمسين شخصًا من أكثر الشرائح والمهن تنوعًا، وكذلك الخطيب ذو البثور وخطيبته المبهورة به، ذات الأنف المرفوع، استمع الحضور بتركيز وصمت للبالادا ذات الأنغام الإيقاعية التي غنَّتها فتاة ترتدي ثوبًا أزرق متواضعًا، وتجلس على المنصة، والعود مسنود إلى ركبتها. لا يمكن أن تكون الفتاة قد تجاوزتِ الثامنة عشرة، وكانت شديدة النحف. كان لشعرها الناعم الطويل لون الذهب الداكن. في لحظة دخولهما أنهتِ الفتاة أغنيتها، وشكرتِ الجمهور على تصفيقه الحار بإيماءة من رأسها، وهزَّت شعرها.

قفز دروهارد نحوهم بخفة، وكان مرتديًا ملابس احتفالية، وسار بهم نحو وسط المستودع: «مرحبًا يا معلم، مرحبًا. ومرحبا بكم أيضًا يا سيد جيرارد... المشرَّف... نعم... اسمحوا لي... السيدات المبجَّلات، السادة المبجَّلون! هذا هو ضيفنا المشرف الذي منحنا الشرف وشرَّفنا... المعلم ياسكير المغني الشهير والشويعـــ... الشاعر، أعني، شرَّفنا تشريفًا... فشُرِّفْنا...».

انطلقتْ هتافات وتصفيق في الوقت المناسب تمامًا، فلقد بدا الأمر أن دروهارد كان يشرِّف ويتأتئ حتى الموت. اعترتْ وجه ياسكير الذي احمرَّ، تعابير كِبَرٍ، وانحنى دون اعتناء، ثم لوَّح بيده للفتيات الجالسات على أريكة طويلة كدجاجات في الخم، ترافقهنَّ مُسنَّات وقورات. جلستِ الفتيات مشدوداتِ الجسد، ما ترك انطباعًا أنهنَّ كنَّ ملتصقات بالأريكة بغراء نجارة أو بأي مادة لاصقة فعَّالة أخرى. كلهنَّ، دون استثناء، ثبَّتن أيديهنَّ على ركبهن المضمومة بشدة وكانت أفواههنَّ نصف مفتوحة.

صاح دروهارد: «والآن، هيا إلى الجعة أيها الصحب، وإلى الطعام! تفضلوا، تفضلوا! الجود بالموجـ...».

دفعت الفتاة ذات الثوب الأزرق نفسها خلال الحشد الذي انهال على الطعام الموضوع على الموائد، كموجة بحر.

قالت: «مرحبًا يا ياسكير».

عدَّ جيرالت مصطلح «عيون كالنجوم» مبتذلًا ولا معنى له، خاصة عندما بدأ يسافر مع ياسكير، فقد اعتاد التروبادور أن يلقي بهذا الإطراء يمينًا ويسارًا، وفي العادة لا يكون مستحقًّا. لكنْ في ما يتعلق بإيسي دافين، فحتى الشخص الذي لا يتأثر بالشعر إلا قليلًا، كما هي حال الويتشر، كان لا بدَّ أن يقرَّ بصواب اختيار لقبها. ففي محياها الباشِّ والودود الذي مع ذلك كان لا يتسم بأي شيء يميزه، أضاءت عين كبيرة، زرقاء داكنة، جميلة ومتلألئة، لا سبيل للمرء أن يزيح نظره عنها. كانت عين إيسي دافين الأخرى في الجزء الأعظم من الوقت، مغطاة ومحجوبة بضفيرة ذهبية، متساقطة على خدها. من حين إلى آخر، كانت إيسي تزيح تلك الضفيرة جانبًا بدفعة من رأسها أو بنفخة من نفَسِها، وعندئذ يصير جليًّا أن مقلة **مقلة** الثانية لا تقل بأي شيء عن الأولى.

قال ياسكير عابسًا: «مرحبًا يا مقلة. قد غنيتِ بالادا جميلة منذ لحظة. لقد حسَّنتِ قائمة مؤلفاتك إلى درجة كبيرة. دائمًا ما كنت أقول، إذا كان شخص ما لا يستطيع كتابة الشعر فلا بدَّ له من استعارة أشعار شخص آخر. فهل استعرتِ الكثير منها؟».

ردت إيسي دافين على الفور بحزم، وابتسمت عارضة أسنانها البيض: «بضع قصائد. اثنتين أو ثلاثًا. أردتُ المزيد، لكنَّ ذلك لم يكن ممكنًا. رطانة فظيعة، ومع أن الألحان عذبة وعادية في بساطتها، ولا أريد القول بأنها ساذجة، فهي ليست ما ينتظره مستمعو أغانيَّ. لعلك كتبت شيئًا جديدًا يا ياسكير؟ لم أسمع شيئًا عن ذلك».

تنهَّد الشاعر المغني: «لا غرابة. إنني أغني قصائدي في أماكن لا يُدعى إليها سوى الموهوبين والمشاهير، وأنت لا تكونين هناك أصلًا».

احمرَّت إيسي قليلًا وأزاحت ضفيرتها جانبا بنفخة من نفَسِها.

قالت: «هذه حقيقة. أنا لا أتردد على المواخير، فأجواؤها تثير فيَّ الكمد. أنا أشعر بالأسف من أجلكَ لأن عليكَ أن تغني في مثل هذه الأماكن. لكنْ لا بأس، هكذا هي الحال. إذا انعدمتِ الموهبة عند شخص، فعليه ألا يلبس لباس الجمهور».

غدا ياسكير الآن محمرًّا على نحو مُلاحَظ. أما مقلة فراحتْ تضحك مبتهجةً، وألقت يديْها فجأة على عنقه، وقبَّلته على خده بصوت عالٍ. تعجب الويتشر، لكنْ ليس إلى حد كبير. زميلة ياسكير في الكار، لم يكنْ ممكنًا لها أن تختلف عنه كثيرًا من حيث إمكانية التنبؤ بأفعالها.

قالت إيسي، وكانت لا تزال حاضنة عنق الشاعر: «ياسكير، أيها الحسون الأخضر الهرِم. أنا سعيدة لرؤيتك من جديد، بصحة جيدة وبكامل قواك العقلية».

أمسك ياسكير بالفتاة من خصرها، ثم رفعها ودوَّرها حوله حتى إن ثوبها أحدث طقطقة متقطعة: «آخ، يا **دمية اليد**. لقد كنتِ رائعةً وحق الآلهة، لم أسمع مثل هذه المناكفات الجميلة منذ وقت طويل. وإنك تتشاجرين بطريقة أحلى مما تغنين! وببساطة، تبدين مذهلة!».

نفختْ إيسي على ضفيرتها وألقت نظرة على جيرالت: «لقد طلبتُ منكَ مراتٍ ومراتٍ أن لا تخاطبني باسم **دمية اليد** يا ياسكير. عدا ذلك، أظن أن الوقت قد حان كي تقدم لي رفيقك. وكما أرى، فإنه لا ينتمي إلى أُخوَّتنا».

ضحك التروبادور: «لا سمحتِ الآلهة. هو، يا دمية اليد، ليس لديه صوت ولا سمع، ولا يقدر إلا على تقفية «العب» و«اشرب». إنه ممثل نقابة الويتشريين، جيرالت من ريفيا. اقترب يا جيرالت، قبِّلْ يد مقلة».

اقترب الويتشر، ولم يكن يعرف تمامًا بماذا يبدأ. كان من المعتاد تقبيل السيدات، من مرتبة دوقة وأعلى فحسب، على اليد أو ربما على الخاتم، وكان ينبغي الركوع أمامهنَّ. في ما يتعلق بالنساء الأدنى مرتبة، تُعَدُّ هذه الحركة هنا في الجنوب إيماءة شبقية لها معنى واحد، وهي بهذا يُخَصُّ بها كل زوجين حميمين من الناس.

بيد أن مقلة بدَّدت شكوكه، وهي تمد يدها عاليًا وبحماسة، وأصابعها موجهة إلى أسفل. أخذها متحرجًا وطبع قبلة دون احتفاء. احمرَّت إيسي خجلًا، وكانت لا تزال فاتحة عينها الجميلة باتساع، محدِّقة إليه.

قالت: «جيرالت من ريفيا. إنك لا تكون إلا في صحبة ليست كأي صحبة يا ياسكير».

تمتم الويتشر، مدركًا أنه كان يضاهي دروهارد بلاغةً: «هذا شرف لي، يا سيدة...».

هدر ياسكير: «إلى الشيطان. لا تُحرِج مقلة بتلعثمك والتخاطب بالألقاب. اسمها إيسي، واسمه جيرالت. انتهى العرض. لندخل في الموضوع يا **دمية اليد**».

- إنْ خاطبتَني بدمية اليد مرة أخرى، فستتلقى ضربة على أذنك. ما ذلك الموضوع الذي علينا الدخول فيه؟
- يجب أن نحدد كيف سنغني. أقترح أن يغني كلٌّ منَّا بضع قصائد بالادا بالتناوب. من أجل التأثير الفعَّال. طبعًا، كل واحد منَّا سيغني قصائده الخاصة.
- ممكن.
- كم يدفع لكِ دروهارد؟
- هذا ليس من شأنكَ. من سيبدأ؟
- أنتِ.
- اتفقنا. أوه، ألا انظرا هناك، من جاء إلينا. صاحب السمو الأمير أجلوفال. ها هو يدخل الآن، انظرا.

ابتهج ياسكير: «واه، واه. الجمهور سيزداد جودة. مع أنه، من جهة ثانية، لا يمكن التعويل عليه بشيء. إنه بخيل. إن جيرالت يمكنه توكيد ذلك. هذا الأمير الذي هنا لا يحب دفع الأجر على نحو مقيت. يستأجر، أي نعم. ولكنَّ الشيء الأسوأ يتعلق بدفع الأجر».

أزاحتْ إيسي ضفيرتها عن خدها وهي تنظر إلى جيرالت: «سمعتُ كذا وكذا. دار الحديث عن ذلك في الميناء والمرسى. شئيناز الشهيرة، أليس كذلك؟».

رد أجلوفال بإيماءة قصيرة برأسه على الانحناءات الدانية من المصطفِّين على جانبي الباب، ومضى إلى دروهارد على الفور، أو نحو ذلك، وسار به إلى الركن، مُعطيًا إشارة إلى أنه لا ينتظر الاهتمام والتشريفات في صدر القاعة.

راقبهما يراقبهما بطرف عينه. كانت المحادثة غير مسموعة، لكنْ كان واضحًا أنَّ كليهما كانا مثارين. كان دروهارد بين الفينة والأخرى يمسح جبهته بكمه، ويدير رأسه، ويحك عنقه. وطرح أسئلة رد عليها الأمير الكئيب الكظيم بهز كتفيه.

همست إيسي، مقتربة من جيرالت: «السيد الأمير يبدو منشغلًا كليًّا. أهي يا ترى شؤون القلب مجددًا؟ سوء تفاهم بُدِئَ به صباح هذا اليوم مع حورية البحر الشهيرة. أليس كذلك يا ويتشر؟».

شزر جيرالت الشاعرة، وقد تفاجأ بسؤالها وغضب منه غضبًا غريبًا: «ممكن. حسنًا، كلُّ شخص لديه مشكلات شخصية معينة. لكنْ ليس جميع الناس يحبون أن يُغنَّى عن هذه المشكلات في الأسواق الموسمية».

شحبتْ مقلة قليلًا ونفخت على ضفيرتها ونظرت إليه نظرة مستفزة.

- هل قصدتَ بقولك هذا إغضابي أم مجرد إزعاجي؟

- لا هذا ولا ذاك. أردتُ فقط أن أستبقَ الأسئلة التالية التي تتعلق بمشكلات أجلوفال وحورية البحر. الأسئلة التي لا أشعر أنني مخوَّل للإجابة عنها.

ضاقت العين الجميلة بقدْر طفيف، عين إيسي دافين: «فهمتُ. لن أضعك أمام معضلة مماثلة بعد الآن. لن أطرح أيَّ أسئلة أخرى كنت أنوي طرحها، وقد عاملتها، إن كان عليَّ أن أكون صريحة، فقط كمقدمة ودعوة إلى محادثة ودودة. حسنًا، لن تتحقق تلك المحادثة بعد هذا، ولا ضرورة للخوف من أن محتواها سيُغنَّى في إحدى الأسواق الموسمية. لقد سُرِرْتُ بلقائك».

استدارتْ بسرعة ومضتْ نحو المناضد، حيث رُحِّبَ بها باحترام على الفور. بدا ياسكير فاقدًا صبره، وكان يتنحنح بقدْر بالغ.

- لن أقول إنك كنت كَيِّسًا معها على نحو مهذَّب يا جيرالت.

وافق الويتشر: «انتهى الموقف بحمق. في واقع الأمر، لقد أزعجتُها دون سبب البتة. ربما أذهب خلفها وأعتذر».

قال الشاعر: «دعنا من ذلك».

وأضاف بتعبيرات فلسفية: «لن تجد أبدًا فرصة ثانية لكي تترك انطباعًا أوليًّا. فتعالَ، من الأفضل أن نشرب الجعة».

ولقد فاتهما الوقت لشرب الجعة. اندفع دروهارد شاقًّا طريقه خلال مجموعة من أهل المدينة، كثيرة الثرثرة.

قال: «سيد جيرارد. لو سمحتُم. إن صاحب السمو يريد التكلم معكم».

- سأجيء حالًا.

أمسك به ياسكير من كمه: «جيرالت! لا تنسَ».

- أنسى ماذا؟

- أنك وعدتَ بقبول أي مهمة دون تأفُّف. أمسِكُ بك من كلمتك. كيف قلتَ عندئذٍ؟ قليلًا من التضحية؟

- حسنًا يا ياسكير. لكنْ من أين لكَ أن تعرف أكان أجلوفال...

- أستشعر رائحة الكتابة بأنفي. تذكر يا جيرالت.

- لا بأس يا ياسكير.

مضيا ودروهارد إلى ركن القاعة بعيدًا عن الأضياف.

جلس أجلوفال خلف منضدة وطئة. كان في رفقته رجل مُسْمَرٌّ، يرتدي ثيابًا ملوَّنة، وله لحية سوداء قصيرة، ولم يلاحظه جيرالت من قبل.

بدأ الأمير: «ها نحن نلتقي مجددًا أيها الويتشر. ومع أنني أقسمتُ صباح هذا اليوم أنني لا أريد أن أراك مرة أخرى. لكنْ ليس لديَّ في متناول اليد ويتشر آخر، وعليكَ أنت أن تكون كافيًا لي. تعرف بزيليست، مأموري في تحصيل الديون وناظر مصايد اللؤلؤ. تكلم يا زيليست».

قال الشخص المسمرُّ: «اليوم صباحًا، عزمتُ على توسيع المصايد إلى ما بعد المنطقة المعتادة. توغَّل أحد القوارب بعيدًا تجاه الغرب، إلى ما وراء الرأس البحري صوبَ **نابيِ التنين**».

تدخل أجلوفال: «**نابا التنين** هما شِعْبان بركانيان على طرف الرأس البحري. يمكن رؤيتهما من ساحلنا».

أكد زيليست: «هو كذلك. عادةً لا تُبحِر القوارب إلى ذلك المكان، فثمة دوامات هناك وأحجار، والغوص غير آمن. واللآلئ على الشاطئ في تناقص مُطَّرد. أجل، ذهب قارب واحد هناك. الطاقم سبع أرواح، بحَّاران وخمسة غواصين بينهم امرأة. عندما لم يعودوا في المساء بدأنا نقلق، مع أن البحر كان هادئًا كما لو أنه قد غُمِرَ بالزيت. أرسلنا بضعةَ زوارق صغيرة سريعة،

وسرعان ما اكتشفنا قاربًا طافيًا على ماء البحر. لم يكنْ أحد في القارب، ولا أي روح حية. كأنه حجر في الماء. لم يكن معلومًا ما حدث. لكنْ، لا بدَّ أن قتالًا قد حصل هناك، مذبحة حقيقية. كانت ثمة آثار...».

ضيَّق الويتشر عينيه: «ما هي؟».

- نعم، كان سطحُ القارب كله ملطخًا بالدماء.

هسهس دروهارد وتلفَّت حوله بقلق، وخفض زيليست صوته.

كرَّر مطبقًا فكَّيه: «كان الأمر كما قلت. كان القارب ملطخًا بالنجيع[1] طولاً وعرضًا. لم يكن الأمر غير ذلك، لقد حصلتْ مجزرة حقيقية لا غير، على متن القارب. شيء ما قتل هؤلاء الناس. يقولون وحش البحر. يقينًا، وحش البحر».

سأل جيرالت بصوت خافت: «أليس القراصنة؟ أليس المنافسون على اللؤلؤ؟ هل تستبعدون إمكانية اقتتال عادي بالسكاكين؟».

قال الأمير: «نستبعد ذلك. لا يوجد أي قراصنة أو منافسون هنا. والاقتتال بالسكاكين لا ينتهي باختفاء الجميع حتى آخر واحد منهم. لا يا جيرالت. زيليست محق. هو وحش البحر، لا شيءَ غيره. اسمع، لا أحد يجرؤ على الإبحار، ولا حتى إلى مناطق الصيد القريبة المفتَّشة. حلَّ الخوف الشاحب على الناس وشلَّ الميناء. حتى الفلائك والقوادس لا تبرح المرسى. أتفهم أيها الويتشر؟».

أومأ جيرالت برأسه: «أفهم. من سيُريني ذلك المكان؟».

وضع أجلوفال يده على المنضدة وراح يدق بأصابعه: «ها! هذا يعجبني. هذا فعلٌ على الطريقة الويتشرية الحقَّة. إلى صلب الموضوع مباشرة، دون كلام زائد. أجل، أنا أحب ذلك. أتَرى يا دروهارد، قلت لك إن الويتشر الرائع هو الويتشر الجائع. أليس كذلك يا جيرالت؟ فإنك لولا صديقك الموسيقي كنت ستنام اليوم مجددًا دون عشاء. لديَّ معلومات جيدة، أليس كذلك؟».

خفض دروهارد رأسه. وحدَّق زيليست إلى الأمام ساكنًا.

كرَّر جيرالت، ناظرًا إلى أجلوفال ببرود: «من سيريني ذلك المكان؟».

قال الأمير وقد كفَّ عن الابتسام: «زيليست. زيليست سيُريكَ **نابي التنين** والطريق إليهما. متى تريد الشروع في العمل؟».

---

(1) النجيع: دم الجوف.

- منذ أوَّل الصباح. كونوا في المرسى يا سيد زيليست.

- حسنٌ يا سيد ويتشر.

فرك الأمير يديْه مجددًا، وابتسم ابتسامة ساخرة: «رائع. جيرالت، آمل أن يتيسر لك الأمر مع هذا الوحش بأفضل مما كان في قضية شئيناز. حقًّا، أعوِّل على ذلك. أهاء ثمة شيء آخر. امنعْ أي ثرثرة عن هذا الحدث، ولا أرغب في حدوث ذعر أكبر من الذعر الذي قد وقع على كاهلي. أتفهم يا دروهارد؟ سآمر بقطع لسانك إن فتحت فمك ونطقت بكلمة».

- فهمتُ أيها الأمير.

نهض أجلوفال: «حسنًا. وإذن أنا ذاهب، لن أعطلكم عن اللهو والاحتفال، ولا أريد إثارة القيل والقال بوجودي هنا. إلى اللقاء يا دروهارد، بلِّغ عني العروسَ والعريسَ تمنياتي بالسعادة».

- شكرًا أيها الأمير.

كانت إيسي دافين، جالسة على كرسي خشبي، محاطة بطوق كثيف من المستمعين، تغني قصائد بالادا عذبة الألحان وفيها حنين، تتحدث عن المصير المؤسف للحبيبة التي خِينَت. غمغم ياسكير بشيء غير مسموع، متكئًا على عمود، وكان يحسب المازورات الموسيقية والمقاطع الهجائية على أصابعه.

سأل: «وإذن كيف الأمور؟ هل حصلتَ على عمل؟».

لم يخضِ الويتشر في التفاصيل التي في المحصلة لم تكن تهمُّ الشاعر المغني: «حصلتُ عليه».

- قد قلتُ لكَ إنني أستشعر رائحة الكتابة والمال بأنفي. هذا جيد، جيد جدًّا. أنا سأكسب وأنت ستكسب، وسيكون لدينا ما نمرح ونلهو به زمنًا. سنذهب إلى سيدارِس، ولن يفوتنا عيد قطاف العنب. والآن، أستميحك عذرًا لحظة. هناك على الأريكة لاحظتُ شيئًا مثيرًا للاهتمام.

تتبَّع جيرالت نظرات الشاعر، ولكنه لم يلاحظ شيئًا مثيرًا للاهتمام سوى بضع عشرة فتاة، مفتوحة أفواههن جزئيًّا. شدَّ ياسكير معطفه مُعدِّلًا إياه، وأمال قبعتَه نحو أذنه اليمنى، وانطلق تجاه الأريكة بقفزات رشيقة. بدأ طقوسه المعتادة كاشفًا عن ضواحكه، بعد أن تجاوز المُسنَّات اللاتي كنَّ يحرسن العذارى، بمناورة جانبية ماهرة.

أنهت إيسي دافين غناء البالادا، وحظيتْ بتشجيع وتصفيق، ومحفظة صغيرة، وطاقة كبيرة من أقحوانات جميلة، مع أنها كانت ذابلة قليلًا.

كان الويتشر يتنقَّل بين الأضياف باحثًا عن فرصة ينتهزها ليشغل في النهاية مكانًا حول مائدة ملأى بالطعام، وجَّه نظره بشوق إلى سمكات الرنجة المملحة، وهي تختفي بوتيرة سريعة، وإلى لفائف الملفوف، ورؤوس سمك القد المسلوقة، وقطع لحم الخروف المفروم، وأعقاب النقانق المقطعة إلى أجزاء والمقاطيش[1]، والسلمون المدخَّن والمقطَّع بالسكاكين، وشرائح من أفخاذ الخنزير. وتمثلتِ المشكلة في أن المقاعد التي كانت حول المائدة لم تكن شاغرة.

حاصرتِ العذارى والمسنات الموقرات المتنشطات نوعًا ما – ياسكير، مطالبات بصراخ عالٍ بأن يبدأ الأداء. ابتسم ياسكير ابتسامة غير صادقة، وتكلم متظاهرًا بالتواضع بطريقة فاشلة.

دفع جيرالت نفسه إلى المائدة دفعًا يكاد يكون عنيفًا، متغلبًا على الشعور بالحياء. فَسَحَ كهل، تفوح منه رائحة خل حادة، المكانَ بمودَّة مدهشة وبرغبة كبيرة، وكاد يُوقِع من على الأريكة عددًا من مجاوريه. همَّ جيرالت على الفور بالطعام، واستولى في لمح البصر على الصحن الوحيد الذي تمكَّن من بلوغه. قرَّب الرجل، الذي كانت تفوح منه رائحة الخل، صحنًا آخر إليه. بدافع الامتنان، استمع الويتشر بتركيز للخطبة الطويلة لحضرة الرجل المتعلقة بالزمن الراهن وشباب اليوم. وقد سمَّى حضرته، بكل عناد، الحرية الاجتماعية بـ «الإسهال»، لذا كان لدى جيرالت بعض الصعوبات في الحفاظ على الجدية.

كانت إيسي تقف وحدها بمحاذاة الحائط، تحت طاقات الهدال تدوزن العود. رأى الويتشر شابًّا يدنو منها، يرتدي قفطانًا مقصبًا، مُضيَّقًا عند الخصر، ويقول شيئًا ما للشاعرة مبتسمًا ابتسامة شاحبة. رمقتْ إيسي الشاب، وهي تعوج قليلًا ثغرها الجميل بتكشيرة، وقالت بضع كلمات بسرعة. انكمش الشاب وابتعد مستعجلًا، وقد استمرت أذناه، الحمراوان كياقوتتين، تتوهجان في الشفق طويلًا.

تابع حضرته ورائحة الخل تفوح منه: «... بشاعة، خزي وعار. ليس سوى إسهال كبير يا سيد».

---

(1) المقطوش: هو ديك سُلَّت حسيتاه، وتُسمى هذه العملية القَطْش أو خِصاء الفِراخ.

https://t.me/fantazynov

وافق جيرالت من غير يقين، وهو يمسح صحنه بالخبز: «صحيح».

صاح دروهارد مُقبِلًا إلى وسط الغرفة: «يُرجَى الصمت أيتها السيدات المبجَّلات.. أيها الأفاضل المبجلون. المعلم الشهير ياسكير على الرغم من أنه مريض قليلًا في جسده ومتعب، سيغني لنا الآن بالادا شهيرة عن الملكة مارين والغراب الأسود! وسيفعل ذلك تلبية لرجاء حار من الآنسة ابنة الطحان فيفرْكا، رجاء لا يمكن أن يرفضه، كما قال. الآنسة فيفرْكا، إحدى الفتيات الأقل جمالًا على الأريكة، صارت جميلة في غمضة عين. انفجر صخب وتصفيق، حجبا إسهالًا آخر من إسهالات الرجل الذي تفوح منه رائحة الخل. انتظر ياسكير أن يعمَّ الصمت التام، وعزف مقدمة مؤثرة على العود، ثم بدأ الغناء دون أن يزيح عينيْه عن الشابة فيفرْكا التي أخذتْ تزداد جمالًا من مقطع غنائي إلى آخر. حقًّا -فكَّرَ جيرالت- إن ابن الكلبة هذا يعمل بفعَّالية أكبر من فعَّالية الزيوت والمراهم السحرية التي تبيعها ينيفر في متجرها في فينجربيرج.

رأى كيف تنسلُّ إيسي من وراء ظهور المستمعين لغناء ياسكير، المتراصين في شبه دائرة، وكيف تختفي بحذر عند المخرج المؤدي إلى الشرفة. تَسلَّل، مدفوعًا بحافز غريب، من وراء المنضدة برشاقة، وخرج وراءها.

وقفت، منحنية، متكئة بمرفقيها على متكأ الجُسير البحري، مدَّت رأسها إلى ذراعيْها الصغيرتيْن المرفوعتيْن. رنَت إلى البحر المتموِّج، الملتمع من نور القمر والنيران المشتعلة في المرفأ. أصدر اللوح الخشبي تحت قدم جيرالت صريرًا. استقامت إيسي.

قال دون حماسة، باحثًا عن تلك التكشيرة المفاجئة، التي تكرمتْ بها على الشاب المقصَّب منذ لحظات: «معذرة، لم أقصد إزعاجكِ».

أجابت: «إنك لا تزعجني».

ابتسمتْ، وأزاحت ضفيرتها: «أنا لا أبحث عن العزلة هنا، بل عن هواء نقي. هل ضايقك أيضًا الدخان والاختناق؟».

- بعض الشيء. لكنَّ ما يضايقني أكثر هو إدراكي أنني أسأت إليكِ. جئتُ لأعتذر منكِ يا إيسي، ولأحاول استعادة الفرصة من أجل محادثة لطيفة.

قالت، ساندةً كفيها إلى المتكأ: «أنت مَن يجب أن يكون الاعتذار له. ردة فعلي كانت غاية في الحدة. أنا دائمًا أتصرف بحدَّة بالغة، ولا يمكنني التحكم في نفسي. سامحني وأعطني فرصة ثانية. من أجل المحادثة».

دنا واستند إلى المتكأ بجانبها تمامًا. أحسَّ بالدفء المنبعث منها، وبرائحة خفيفة من نبات رعي الحمام. كان يحب رائحة رعي الحمام، مع أنَّ رائحة رعي الحمام لم تكن رائحة ليلك وعنب ثعلب.

سألت فجأة: «بِمَ ترتبط تصوراتك عن البحر يا جيرالت؟».

أجاب دون كثير تفكير: «بالقلق».

- هذا مثير. ولكنكَ تبدو هادئًا جدًّا ومتماسكًا!

- لم أقل إنني أشعر بالقلق. أنتِ سألتِ عن تصوراتي.

- التصورات هي صورة الروح. أعرف شيئًا عنها، أنا شاعرة.

سأل بسرعة ليضع حدًّا لاستطراداته عن القلق الذي أحس به: «وأنتِ يا إيسي، بمَ ترتبط تصوراتكِ عن البحر؟».

لم تُجِبْ على الفور: «بالحركة الأبدية. بالتغير. وباللغز، بالسر، بشيء ما لا أستطيع استيعابه، ويمكن أن أصفه بألف طريقة، بألف قصيدة، لكنْ دون الوصول إلى اللب، إلى جوهر الأشياء. نعم، ربما بهذا».

قال، وقد أخذ يشعر بأن تأثير رعي الحمام فيه يزداد قوة: «ثم، إن هذا الذي تحسين به هو أيضًا قلق. ولكنكِ تبدين هادئة جدًّا ومتماسكة».

استدارت نحوه، وأزاحت ضفيرتها الذهبية، وركَّزَتْ عينيها الجميلتين عليه.

- أنا لست هادئة، ولا متماسكة.

حدث ذلك فجأةً وعلى نحو غير متوقع بتاتًا. الحركة التي فعلها، والتي كان لها أن تنتهي بلمسة، بلمسة خفيفة على كتفيها لا أكثر، تحولت إلى معانقة شديدة براحتيْ يديْه تُطوِّقان خصرَها النحيف وتجذبانها إليه بسرعة، لكنْ دون عنف، إلى أن فار الدم بغتة عند احتكاك الجسدين. جمدت إيسي فجأة، شدَّت نفسها وتصلَّبت، ثنت جسدها إلى الخلف بشدة، دسَّت راحتيْها في راحتيْه بقوة، كما لو أنها أرادت إزاحة يديْه عن خصرها وإبعادهما، لكنها،

بدلًا من ذلك، أمسكتْ بهما بقوة فحسب، وأمالت رأسها إلى الأمام، وفتحتْ ثغرها قليلًا، وترددتْ.

همستْ: «لماذا... لمَ هذا؟».

كانت عينها مفتوحةً باتساع، وقد تساقطتْ ضفيرتها الذهبية على خدها.

أمال رأسه بهدوء وبطء، قرَّبَ وجهه وفجأةً أطبقا الشفاه بسرعة في قبلة. بيد أن إيسي لم تتركْ، حتى لحظتئذٍ، كفيْه اللتيْن كانتا تُطوِّقان خصرها، واستمرت في ثني ظهرها بقوة، متحاشيةً احتكاك الجسدين. وراحا يدوران ببطء، وهما مستمران على هذه الحال، كما لو أنهما كانا يرقصان.

قبَّلته راغبةً، ببراعة، وطويلًا.

بعدئذٍ، حرَّرتْ نفسها من يديه برشاقة ودون جهد واستدارت، ثم استندتْ مجددًا إلى المتكأ، ومدَّت رأسها بين ذراعيها. فجأة، شعر جيرالت بالرعب وبحمق لا يوصف. أوقفه ذاك الشعور من الاقتراب منها، واحتضان ظهرها المتقوِّس.

سألتْ ببرود، دون أن تستدير: «لماذا؟ لماذا فعلت هذا؟».

لحِظَتْه، وفهم الويتشر فجأة أنه أخطأ. فجأة عرف أن الزيف والكذب والتظاهر والتفاخر بالشجاعة سيُودي به رأسا إلى المستنقع الذي لن تحول بعدئذٍ بينه وبين اللجَّة سوى أعشاب وحزازيات رخوة، متشكِّلة في قشرة نباتية رقيقة على سطح الماء، مهيَّأة في أي لحظة لتنزاح وتتقصف وتنفصم.

كررتْ: «لماذا؟».

لم يُجِبْ.

- تبحث عن امرأة لهذه الليلة؟

لم يُجِبْ. استدارتْ إيسي ببطء، ولمستْ ذراعيْه.

قالت بتلقائية: «لنعد إلى القاعة. لا تصنع مثل هذه التعابير على وجهك. لم يحدث شيء. وكوْني لا أبحث عن رجل لهذه الليلة، فليس هذا ذنبك أساسًا. أليس كذلك؟».

بيدَ أنه لم ينخدعْ بهذه التلقائية، فقد أحسَّ بشدة التوتر الذي بدتْ عليه.

- إيسي...

- لنعدْ يا جيرالت. لقد استجاب ياسكير لطلب إعادة الغناء ثلاث مراتٍ إلى الآن. الآن دوري. تعالَ، سأغني...

نظرتْ إليه نظرة غريبة، وأزاحتْ ضفيرتها عن عينها بنفخة منها.

- سأغني لك.

4

تظاهر الويتشر بالاستغراب: «أوه. أنت هنا إذن؟ ظننتُ أنك لن تعود هذه الليلة».

أغلق ياسكير البابَ بالرتاج، وعلَّق على المشجب عوده وقبعتَه ذات ريشة البلشون، وخلع معطفه، نفض الغبار عنه ووضعه على أكياس ملقاة في زاوية الحُجيْرة. وما عدا هذه الأكياس والدلو والمرتبة الضخمة المحشوة بدريس سوق البازلاء، لم يكن أثاث في علية الحجيرة – حتى الشمعة وُضِعَتْ على الأرضية في بركة متصلبة من الشمع. لقد أعجب دروهارد بياسكير، لكنَّ ذلك كما يبدو، لم يكن كافيًا لوضع غرفة صغيرة أو حجرة جانبية تحت تصرفه.

سأله ياسكير وهو يخلع حذاءه: «ولماذا ظننتَ أنني لن أعود الليلة؟».

نهض الويتشر مستندًا إلى مرفقِه، مخشخشًا بدريس البازلاء: «ظننتُ أنكَ ستمضي لتغني سِرينادة تحت نافذة الآنسة فيفِرْكا التي كنت طوال المساء تبرز لسانكَ لها، كسلوقي حين يلمح سلوقية».

راح الشاعر المغني يضحك: «ها، ها. يا لكَ من أحمق ساذج. إنك لم تفهم شيئًا. فيفِرْكا؟ فيفِرْكا ليستْ في بالي. أردتُ فقط إثارة وخزة غيرة في الآنسة أكريتا التي سأتوجه إليها غدًا. افْسَحِ الطريق».

تهاوى ياسكير على المرتبة وسحب البطانية من جيرالت. أدار جيرالت رأسه -وقد انتابه غيظ غريب- نحو النافذة الصغيرة التي لولا هذه العناكب العاملة باجتهاد، لكانت رؤية السماء المتلألئة بالنجوم من خلالها ممكنة.

سأل الشاعر: «لمَ اغتظتَ هكذا؟ هل تزعجكَ مغازلتي للفتيات؟ منذ متى؟ لعلكَ أصبحت كاهنًا من الدرويد، ونذرتَ نذرَ العفة؟ أو لعلك...».

- كُفَّ عن المباهاة. أنا متعب. ألمْ تلاحظْ أن هذه المرة الأولى، منذ أسبوعين، تكون لدينا مرتبة وسقف فوق رأسيْنا؟ ألا تفرحكَ فكرة أن أنفينا لن يكونا مبتلَّيْن من المطر في الصباح؟

بدا ياسكير حالمًا: «بالنسبة إليَّ، المرتبة دون فتاة ليست مرتبة. هي سعادة ناقصة، فما السعادة الناقصة؟».

تأوَّه جيرالت تأوهًا مكتومًا، كما كان يفعل دائمًا عندما تأخذ ياسكير الثرثرة الليلية.

تابع الشاعر مستمعًا بإمعان لصوته: «سعادة ناقصة، إنها مثل... مثل قبلة قُطِعَتْ... لمَ تجعل أسنانك تصطك، هل لي أن أعرف؟».

- أنت ممل إلى حد مروِّع يا ياسكير. لا شيء سوى مراتب القش، والفتيات، والأرداف، والنهود، والسعادة الناقصة، والقبلات التي قطعتْها الكلاب التي يحرِّشها عليكَ آباءُ المخطوبات وأمهاتُهنَّ. حسنًا، واضح أنكَ لا تستطيع أن تفعل غير ذلك. وواضح أن الرعونة الفضفاضة، كي لا أقول الخلاعة المنفلتة، هي فقط التي أتاحت لكم نظمَ مقطوعاتِ البالادا والشعر والغناء. إنه واضح، فلتدوِّنْه، جانب الموهبة المظلم.

تحدَّث كثيرًا جدًّا، ولم يبرد صوته بما يكفي. وفكَّ ياسكير خفايا كلامه بسهولة ومن دون خطأ.

قال بهدوء: «آها. إيسي دافين التي تُسمَّى مقلة. ثبتت مقلةُ مقلتَها الجميلة على الويتشر، وأثارت اضطرابًا في نفس الويتشر. تصرَّف الويتشر مع مقلة، كما يتصرف صبي في حضرة أميرة ملكية. وبدلًا من أن يلوم نفسه، راح يلقي اللوم عليها ويبحث عن الجوانب المظلمة فيها».

- هذا هراء يا ياسكير.

- لا يا عزيزي. لقد حازت إيسي إعجابكَ، لا يمكنكَ إخفاء ذلك. وعلى أيِّ حال، فأنا لا أرى في ذلك أيَّ شيء ينافي الأخلاق. لكنْ كنْ حذرًا، لا ترتكبْ خطأً. إنها ليست كما أنت تظن. إذا كان لموهبتها جانب مظلم، فهو على اليقين ليس كما تتخيله.

قال الويتشر متحكِّمًا في صوتِهِ: «أحسب أنك تعرفها جيدًا جدًّا».

- على نحو جيد بما يكفي. لكنْ ليس كما تظن أنت. ليس كذلك.

- على نحو حقيقي بما يكفي، كما يكون الأمر عندكَ، تعترف؟

تمدَّد الشاعر المغني، ووضع كفيْه تحت قفاه: «إنك أحمق. أعرف **دمية اليد** منذ أن كنتُ طفلًا أو ما يقارب ذلك. إنها بالنسبة إليَّ... حسنًا... مثل أخت صغيرة. أكرِّر، لا ترتكبْ خطأً أحمقَ معها. فتسبب بذلك لها أسًى كبيرًا، لأنك أنت أيضًا جعلتها مبهورةً بكَ. اعترف، هل تشتهيها؟».

قال جيرالت بحدة: «حتى لو كان ذلك، فأنا لم أعتدْ، خلافًا لما تفعل أنت، مناقشةَ هذا الأمر. ولا أنْ أنظمَ الأغانيَ عنه. أشكركَ على ما قلتَه عنها لأنك ربما تكون قد حميتَني فعلًا من خطأ أحمق. لكنْ بهذا ننهي الأمرَ. أنا أعُدُّ الموضوع منتهيًا».

استلقى ياسكير لحظة دون حَرَاك وصَمَتَ، لكنَّ جيرالت كان يعرفه جيدًا جدًّا.

أخيرًا، قال الشاعر: «أعرف. عرفتُ الآن كل شيء».

- أنت لا تعرف سوى البراز يا ياسكير.

- هل تعرف ما مشكلتكَ؟ يُخيَّل إليكَ أنكَ شخص مختلف. أنت تتباهى باختلافك، بما تراه غير طبيعي. وبهذا الذي هو غير طبيعي تفرض نفسك بإلحاح، دون أن تفهم أنكَ، بالنسبة إلى جُلِّ الناس الذين يفكرون بوعي، أكثر شخص طبيعي تحت الشمس، وليت الجميع يمكن أن يكونوا طبيعيين إلى هذا الحد. وماذا يفيد أن لديكَ ردة فعل أسرع، وحدقتيْن رأسيتيْن في الشمس؟ أنك ترى في الظلام مثل قطٍّ؟ أنك تفهم أمورَ الشعوذة؟ شيء عظيم لي. أنا ذات مرة يا عزيزي عرفت صاحب نُزُل كان في وسعه أن يستمرَّ في الضراط عشر دقائق دون توقف، وفضلًا عن ذلك كان الضراط يأتي على وقع لحن مزمور «حيِّنا، حيِّنا، يا بزوغ الصباح». كان صاحب النزل هذا أكثر شخص طبيعي بين الطبيعيين، بصرف النظر عن موهبته الاستثنائية أيًّا كانت، فقد كان لديه زوجة وأطفال وجدة مصابة بالشلل...

- ما علاقة هذا بإيسي دافين؟ هل يمكنكَ أن توضح؟

- طبعًا. لقد خُيِّل إليكَ من دون مسوِّغأن مقلة كانت مهتمة بك بفضول غير حميد، بل منحرف، وأنها تنظر إليك كما لو كنتَ صقر الراروج الناري، أو جسدًا برأسيْن، أو سمندلًا في حديقة حيوانات. وأظهرتَ امتعاضك فورًا، وعند أول فرصة لاحت وجهتَ توبيخًا فظًّا وغير مستحق، ورددتَ بضربة لم تسدِّدها هي إليك، وأنا كنتُ شاهدًا على ذلك. ولم أعدْ شاهدًا على سير الأحداث اللاحق، لكنني لاحظتُ هربك من القاعة، ورأيتُ وجنتيْها وقد صارتا ورديَّتي اللون عندما عدتَما. أجل يا جيرالت. أنا هنا أحذرك من أن ترتكب خطأً، وهأنت قد اقترفتَه. أردتَ الانتقام منها بسبب فضولها الذي كان في رأيك غير صحي. فقررتَ استغلال هذا الفضول.

- أكرر، أنت تهذي.

تابع الشاعر دون عاطفة: «هل جربتَ أكان ممكنًا الذهاب معها إلى مخزن التبن، أكانت ستشعر بالفضول بشأن طريقة ممارسة الحب مع شخص غريب الأطوار، مع ويتشر متحول. من حسن الحظ، تبيَّن أن إيسي أكثر حكمة منك وأشفقتْ بأريحية على حمقك، بعد أن فهمتْ سببه. أستنتج ذلك من حقيقة أنكَ لم تعدْ من الجسيْر البحري بفم متورم».

- هل انتهيتَ؟

- انتهيتُ.

- إذن، تُصبِح بخير.

- أعلم لماذا تغضب وتطبق أسنانك.

- بالتأكيد. أنت تعلم كل شيء.

- أعلم من شوَّهَك هكذا، وأعلم بسبب مَن لا تستطيع أن تفهم امرأة عادية. ألا كيف اندست ينيفر، صاحبتك هذه، تحت جلدك! فلتحلَّ اللعنة عليَّ إن كنتُ أعلم ماذا ترى فيها!

- دعكَ من هذا يا ياسكير.

- أحقًّا، أنت لا تفضِّل فتاة طبيعية على شاكلة إيسي؟ ما الذي تملكه الساحرات ولا تملكه إيسي؟ العمر، ربما؟ قد لا تكون مقلة أصغرهنَّ سنًّا، لكنَّ لها من العمر بقدر ما تبدو عليه. أتدري بماذا اعترفتْ لي

ينيفر ذات مرة، بعد بضع كؤوس؟ ها، ها... لقد حدَّثتني أنها حين فعلت ذلك مع رجل أول مرة، كان بعد اختراع المحراث ذي السكتين بعامٍ واحد بالضبط.

- أنت تكذب، ينيفر لا تطيقكَ كما لا تطيق الطاعون، ولن تبوح لكَ بأي سر أبدًا.

- كما تشاء، فقد كذبتُ، أعترف بذلك.

- لستَ مضطرًّا إلى ذلك. أنا أعرفكَ.

- يُخيَّل إليكَ فحسب أنكَ تعرفني. لا تنسَ، أنني طبيعة معقدة.

تنهَّد الويتشر، وقد أخذه النعاس حقًّا: «ياسكير. أنت مُجوني قذر عاهر وكذاب. ولا شيء، صدقني، لا شيءَ معقد في ذلك. تصبح بخير».

- تصبح بخير يا جيرالت.

5

- تستيقظين باكرًا يا إيسي.

ابتسمتِ الشاعرة ممسكةً بشعرها الذي كانت تجذبه الريح. سارتْ بحذر على الرصيف البحري، متجنبةً الثقوب والألواح الخشبية الفاسدة.

- لم أستطعْ تفويتَ الفرصةِ لرؤيةِ الويتشر في أثناء العمل. ستنظر إليَّ على أنني فضولية من جديد؟ حسنًا، أنا لا أخفي ذلك، إنني فضولية حقًّا. كيف يسير الأمر؟

- ماذا تعني كيف يسير الأمر؟

قالت: «أوه يا جيرالت. أنت لا تقدِّر فضولي خير تقدير، ولا موهبتي لجمع المعلومات وتفسيرها. صرتُ أعلم كلَّ شيء عن حادث الصيادين، أعرف تفاصيل اتفاقك مع أجلوفال. أعلم أنك تبحث عن نوتي راغب في الإبحار إلى هناك، تجاه **نابي التنين**. هل وجدتَه؟».

نظر إليها لحظة مُتفحِّصًا، ثم فجأة حزم أمره.

أجاب: «لا. لم أجدْ أحدًا».

- يخافون؟
- يخافون.
- إذن، كيف تنوي إجراءَ استطلاع دون أن تتمكن من ركوب البحر؟ كيف، وأنت، لا تستطيع الإبحار تريد أن تهشِّم رأس الوحش الذي قتل الصيادين؟

أخذها من يدها وقادها إلى خارج الجسير البحري. سارا ببطء على شفا البحر، على الشط الصخري، محاذاة قوارب الصيد المنتشرة على طول الشاطئ، بين صفَّين من شِباك معلَّقة على أوتاد، بين حواجز الأسماك المقطعة التي كانت تجفَّف، وتحركها الريح. وعلى نحو غير متوقَّع رأى جيرالت أن مصاحبة الشاعرة لا تزعجه بتاتًا، وليست مُرهِقةً ولا تضايقه. إلى جانب ذلك، كان يأمل أن الحديث الهادئ والموضوعي سيمحو آثار تلك القُبلة الحمقاء على الشُّرفة. حقيقة أن إيسي قد جاءت إلى الرصيف البحري، ملأتْه أملًا أنها لا تكنُّ له شعورَ العَتَب. وكان فرِحًا.

تمتم، مُكرِّرًا كلماتها: «تهشيم رأس الوحش. ليتني أعلم، كيف. لا أعلم إلا أقل القليل عن بعابع البحار».

- هذا مثير. حسب ما أعلم في البحر وحوش أكثر بكثير من تلك الموجودة على البر، سواء من حيث العدد أو من حيث تعدد الأنواع. لذا كان من المفترَض أن البحر ينبغي أن يكون ساحة ملائمة لمباهاة معشر الويتشر.
- هو ليس كذلك.
- لماذا؟

تنحنح وهو يدير وجهه عنها: «تمدُّد البشر في البحر مستمر منذ عهد قريب. كان الناس في الماضي يحتاجون إلى الويتشريين في البر، في مرحلة الاستعمار الأولى. نحن لا نصلح لمحاربة المخلوقات التي تعيش في البحر، مع أنه يغصُّ، فعلًا بكل القاذورات العدوانية. لكنَّ مهاراتنا الويتشرية ليستْ كافية لمواجهة وحوش البحر. فهذه المخلوقات إما أن تكون كبيرة جدًّا بالنسبة إلينا، وإما أن تكون مدرَّعة جيدًا جدًّا، أو أن تكون واثقة جدًّا بقوتها. أو يجتمع فيها كل ذلك مرة واحدة».

- والوحش الذي قتل الصيادين؟ ألا يمكنك تخمين ما كان؟
- ربما كراكن؟
- لا. فالكراكن كان يمكنه أن يحطم القارب، وقد كان القارب كاملًا. وكما يقال، كان الدم يجري في عروقه. (بلعتْ مقلة ريقها وشحب وجهها على نحو مُلاحَظ) لا تظنَّ أنني أتذاكى. لقد نشأتُ قربَ البحر ورأيتُ الغثَّ والسمين.
- فماذا يمكن أن يكون إذن؟ حبَّارا عظيمًا؟ استطاع أن يسحب هؤلاء الناس من سطح مركبهم...
- لو كان كذلك لما كان ثمة دم. إنه ليس حبَّارًا يا جيرالت، وليس أُركة[1]، وليس تنينًا سلحفيًّا، فهذا الشيء لم يحطم القارب ولم يقلبه. صعد هذا الشيء متنَ القارب وارتكب مجزرة هناك. ولعلكَ تخطئ إذْ تبحث عنه في البحر؟

فكر الويتشر.

قال: «بتُّ أُعجَب بك يا إيسي (احمرَّ وجه الشاعرة) أنتِ محقَّة. من الممكن أنه كان يهاجم من الجو. ومن الممكن أن يكون تنينَ الأورنيث، غريفين، أو علجومًا طائرًا، أو ويفرن، أو شوكي الذيل. أو حتى ربما روك...».

قالت إيسي: «اعذرني. انظر مَن يسير هنا».

كان أجلوفال يقترب ماشيًا وحده بمحاذاة الشاطئ، وملابسه مبتلَّة بشدة. كان مغتاظًا على نحو مُلاحَظ، وحين رآهما احمرَّ من سوْرة الغضب.

ثنتْ إيسي ركبتيْها قليلًا محييةً، وأحنى جيرالت رأسَه، واضعًا قبضته على صدره. وبصق أجلوفال.

هدر: «جلستُ على الصخور ثلاث ساعات منذ الفجر، أو نحو ذلك. وهي لم تظهر حتى. ثلاث ساعات، مثل أبلهَ، على الصخور التي كانت تغمرها الأمواج».

تمتم الويتشر: «أشعر بالأسف...».

انفجر الأمير: «تشعر بالأسف؟ تأسَفُ؟ إنه خطؤك. لقد عطَّلتَ الأمر. لقد أفسدتَ كل شيء».

---

(1) أركة، أو أوركا: حوت مسنن يسمى الحوت القاتل.

- ما الذي أفسدتُه؟ عملتُ مترجمًا فحسب...

قاطعه أجلوفال غاضبًا مشيحًا وجهه. وكان منظر محياه الجانبي ملكيًّا دون شك، ويستحق أن يُسكَّ على النقود: «فليذهب هذا العمل إلى الشيطان. والحقيقة كان الأمر سيكون أفضل لو لم أستأجرك. ويبدو ذلك أنه مفارقة، لكنْ حين لم يكنْ لدينا مترجم، فقد تفاهمنا أنا وشئيناز على نحو أفضل، إن كنتَ تعلم ما أعني. والآن... هل تدري ما يحكون في البلدة؟ يتهامسون في الزوايا أن الصيادين هلكوا، لأنني هيَّجتُ حورية البحر. وأن هذا هو انتقامها!».

علق الويتشر ببرود: «هراء».

هدر الأمير: «ومن أين لي أن أعرف أنه هراء؟ أو ما أدراني بماذا تفوهتَ لها حينئذٍ؟ أو ما أدراني ما مدى قدرتها على فعل ما تريد؟ وأي وحوش تصاحب هناك في الأعماق؟ فأرجو أن تتفضل وتثبت لي أن هذا هراء. أحضرْ لي رأس الوحش الذي قتل الصيادين. هيا، تحرك إلى العمل، بدلًا من اللهو بالمغازلات على الشط...».

توتر جيرالت: «إلى العمل؟ كيف؟ أعليَّ أن أركب البحر منفرج الساقيْن على برميل؟ تابعُك زيليست قد هدَّد البحارة بالتعذيب والمشنقة، وبالرغم من ذلك فلا أحد يريد. زيليست نفسُه ليس متحمسًا أيضًا. إن ذلك يشبه...».

صرخ أجلوفال مقاطعًا: «وماذا يهمني ما يشبه؟ هذا شغلك! ما الغرض من وجود الويتشريين إن لم يكونوا من أجل ألا يُضْطَّر كرام الناس إلى شغل فكرهم بكيفية التخلص من الوحوش؟ لقد استأجرتُكَ من أجل هذا العمل، وأطلب منكَ تنفيذه. وإذا لم تفعل فاغربْ عنا من هنا، وإلا سأطردكَ تحت ضربات السياط حتى حدود مجالي!».

قالت مقلة بصوت خفيض، لكنَّ شحوبها وارتجاف يديْها فضحا توترها: «اهدؤوا سمو الأمير. وأرجوكم بشدة ألا تهددوا جيرالت. وقد اتفق أن لدى ياسكير ولديَّ أنا بضعة أصدقاء. المِلك إيثاين سيدارس، على سبيل المثال لا الحصر، يحبنا كثيرًا ويحب أغانينا البالادا. الملك إيثاين حاكم متنور، ويقول دائمًا إن قصائد البالادا التي نغنيها ليست مجرد موسيقى سريعة وقوافٍ، بل هي وسيلة لإيصال المعلومات وإنها سجل البشرية. هل ترغبون يا سمو الأمير في أن تُكتَبوا في سجلات البشرية؟ يمكنني أن أرتب ذلك لكم».

نظر أجلوفال إليها لحظة نظرة استخفاف باردة.

وأخيرًا قال، بهدوء وخفوت أكبر: «الصيادون المفقودون لهم زوجات وأطفال. والبقية عندما يطلُّ الجوع من قدورهم سيُهرَعون إلى الإبحار من جديد. صيادو اللؤلؤ والإسفنج والمحار والكركند، صيادو السمك، جميعهم. الآن هم خائفون، لكنَّ الجوع سيهزم الخوف. سيُبحِرون. لكن هل يعودون؟ ما قولك يا جيرالت؟ آنسة دافين.. لديَّ فضول حول أغنيتكم البالادا التي ستتحدث عن ذلك. البالادا التي تحكي عن الويتشر الواقف على الشاطئ خاملًا والناظر إلى أسطح القوارب الملطَّخة بالدماء وإلى الأطفال الباكين».

شحب وجه إيسي أكثر، لكنها ألقتْ رأسها بثقة، ونفختْ على ضفيرتها، وقد باتت مستعدةً للإجابة، لكنَّ جيرالت أمسكها من يدها بسرعة، وضغطها مستبقًا الكلمات.

قال: «هذا يكفي. في هذا السيل كله من الكلمات ثمة كلمة واحدة لها أهمية حقيقية. لقد استأجرتَني يا أجلوفال وقبلتُ المهمة، وسأنجزها إذا كانت قابلة للتنفيذ».

قال الأمير باقتضاب: «هذا ما أعوِّل عليه. إذن، إلى اللقاء. احترامي يا آنسة دافين».

لم تثنِ إيسي ركبتيها محييةً، بل أومأت برأسها فحسب. شدَّ أجلوفال سرواله المبلل، ومضى نحو الميناء مترنحًا على الحجارة. الآن فقط لاحظ جيرالت أنه لا يزال يمسك بيد الشاعرة، والشاعرة لا تحاول تحريرها بتاتًا. أفلتها وأدارت إيسي وجهَها نحوه، وقد عادتْ ببطء إلى ألوانها الطبيعية.

تكلَّمت: «من السهل استثارتكَ لتخاطر. تكفيكَ بضع كلمات عن النساء والأطفال. وما أكثر ما يُقال عن أنكم، أنتم الويتشريين، على ما يبدو معدومو الشعور. أجلوفال يا جيرالت يلعب على وتر الاستخفاف بالنساء والأطفال وكبار السن. هو يريد استئناف صيد اللؤلؤ، لأنه يخسر كل يوم إن لم يأتوا باللآلئ إليه. هو يستغلُّ شعوركَ بالأطفال الجياع، وأنت على الفور تصير مستعدًّا للمخاطرة بحياتك...».

قاطعَها: «إيسي. أنا ويتشر. هذا هو عملي، أن أخاطر بحياتي. لا علاقة للأطفال بهذا».

- لن تضللني.

- مِن أين هذا الافتراض أنني أنتوي ذلك؟

- مِن حقيقة أنكَ لو كنتَ محترفًا باردًا، كما تريد أن يُنظَر إليك، لحاولتَ أن ترفع سعرك. ولكنكَ لم تذكر كلمة واحدة عن الأجرة. آه، لا بأس، يكفي الحديث عن ذلك. هل نعود؟

- فلنواصل السير.

- بكل سرور. جيرالت!

- أستمع لك.

- قلتُ إنني قد نشأتُ قرب البحر. أستطيع قيادة القارب و...

- أخرجي هذا من رأسك.

- لماذا؟

كرر بحدة: «أخرجي هذا من رأسك».

قالت: «يمكنكَ صياغة كلامك بتهذيب أكثر».

- يمكنني. لكنك... وحدها الشياطين تعلم، على أي محمل ستأخذين ذلك. وأنا ويتشر معدوم الإحساس ومحترف بارد. أخاطر بحياتي، لا بحياة الآخرين.

صمتَتْ إيسي. رأى كيف زمَّت شفتيْها، وكيف سحبتْ رأسها. عَقَف هبوبُ الريح شعرها مجددًا، فغطى وجهها لحظةً بخصيلات ذهبية متشابكة.

قالت: «أردتُ مساعدتكَ فقط».

- أعرف. أشكركِ.

- جيرالت؟

- أستمع لكِ.

- وإذا كان في الشائعات التي تحدَّث عنها أجلوفال ثمة معنى؟ إنك تعلم حقًّا أن حوريات البحر لسْنَ ودوداتٍ دائمًا وفي كل مكان. وقعتْ حوادث...

- لا أصدق.

تابعتْ مقلة شاردة الذهن: «الفوقسيات، والنيريدات[1]، والتريتونات[2]، وحوريات البحر. من يعلم ما يمكن أن يفعلن. أما شئيناز... فكان لديها الدافع...».

قاطعها: «لا أصدق».

- لا تصدق أم لا تريد أن تصدق؟

لم يجب.

سألتْ مبتسمةً ابتسامةً غريبةً: «وتريد أن يُنظَر إليك كمحترف بارد؟ كمن يفكر بحد السيف؟ إن شئتَ أخبرتُكَ ما تكون حقًّا».

- أعرف ما أكون حقًّا.

قالت بصوت خفيض: «أنت حسَّاس. في العمق روح ملأى بالقلق. لن يُضلِّلني وجهكَ الحجري وصوتكَ البارد. أنت حساس، وحساسيتك تحديدًا هي التي تدفعك إلى أن تخاف الآن، من أن الذي عليك أن تقف ضده وسيفك في يدك، قد يكون له أسبابه الوجيهة، وقد يكون متفوقًا أخلاقيًّا عليك...».

قال ببطء: «لا يا إيسي. لا تبحثي فيَّ عن موضوع لأغنية بالادا مؤثرة، بالادا عن الويتشر الممزَّق من داخله. ربما كنت أودُّ أن يكون الأمر هكذا، لكنه ليس كذلك. فمعضلاتي الأخلاقية يحلُّها، بدلًا مني، القانونُ والتربيةُ. الترويضُ».

امتعضتْ: «لا تقلْ ذلك. لا أفهم لماذا تسعى إلى...».

قاطعها من جديد: «إيسي. لا أريدكِ أن تكوِّني عني تصورات زائفة. أنا لستُ فارسًا ضالًّا».

- ولستَ قاتلًا باردًا وطائشًا أيضًا.

وافق بهدوء: «لا. لستُ كذلك، مع أن ثمة من يرى غير ذلك. لكنَّها ليست حساسيتي ومزايا شخصيتي هي التي تضعني في منزلة عُليا، بل الكبرياء المتعالية والمتعجرفة عند مهني مقتنع بقِيَمه. عند محترف غُرِسَ في ذهنه أن قانونَ مهنتِه ورتابته الباردة أصوب من العاطفة، وأن ذلك يحميه من ارتكاب خطأ، يمكن ارتكابه عندما يتشابك مع معضلات **الخير والشر، والنظام**

(1) النيريدات: في الميثولوجيا الإغريقية هنَّ حوريات بحر من بنات نيريوس ودوريس.

(2) التريتونات: في الميثولوجيا الإغريقية هنَّ مخلوقات نصفها العلوي على هيئة إنسان ونصفها السفلي على شكل سمكة.

والفوضى. لا يا إيسي. لستُ أنا الحساس، بل أنتِ. وفي واقع الأمر فإن مهنتكِ تتطلب ذلك، أليس كذلك؟ إنكِ أنتِ من قلقتِ من فكرة أن حورية البحر التي بدت ظاهريًّا لطيفة ومهانة، قد هاجمتْ صيادي اللؤلؤ في عمل انتقامي يائس. رحتِ على الفور تبحثين عن أعذار لحورية البحر الحلوة والظروف المخفَّفة، وتستندين إلى فكرة أن الويتشر الذي يتلقَّى أجرًا من الأمير سيقتل حورية البحر الوديعة، فقط لأنها تجرأت على الخضوع للعواطف. الويتشر يا إيسي خالٍ من مثل هذه المعضلات. ومن العواطف. حتى لو تبيَّن أن حورية البحر هي الفاعل، فإن الويتشر لن يقتل حوريات البحر، لأن القانون يمنعه. إن القانون يحلُّ المعضلة بدل الويتشر».

نظرتْ إليه مقلة، خاطفةً رأسها فجأة.

سألت بسرعة: «كل معضلة؟».

فكَّر: هي تعلم عن ينيفر. تعلم عنها. إيهٍ يا ياسكير! أيها الثرثار اللعين... نظر بعضهما إلى بعض.

- ماذا يختبئ في عينيْك الزرقاوين يا إيسي؟ فضول؟ انبهار بالآخر المختلف؟ ما الجوانب المظلمة من موهبتك يا مقلة؟

تحدثتْ: «آسفة. كان السؤال غبيًّا وساذجًا. يلمِّح أنني صدَّقتُ ما قد قلتَه. فلنعُدْ. هذه الريح تخترق نخاع العظام. انظر كيف يتكور البحر».

- أراه. تعلمين يا إيسي، هذا مثير...

- ما المثير؟

- فليُقطعْ رأسي إن لم تكنِ الصخرة التي يقابل أجلوفال عليها حورية البحر، كانت أقرب إلى الشاطئ، وكانت أكبر. والآن لم تعد تُرى.

قالت إيسي باقتضاب: «إنه المدُّ. قريبًا سيصل الماء حتى هناك، تحت الجرف».

- حتى هناك؟

- نعم. يرتفع مستوى الماء هنا وينحدر بشدة، أكثر من عشر أذرع كاملة، فهنا في مضيق النهر ومصبِّه يحدث ما يُسمَّى أصداء المد والجزر، أو شيء من هذا القبيل مما يُطلِقه البحارة عليه.

نظر جيرالت نحو الرأس البحري، إلى **نابيِ التنين** المتغلغلين في الأمواج المتكسِّرة الصاخبة المزبدة.

سأل: «إيسي، ومتى يبدأ الجَزْر؟».

- وماذا؟

- إلى أي مدى سينحسر البحر؟

- وماذا... آه، فهمتُ. نعم، أنت محق. سينحسر حتى خط الرف القاري.

- خط ماذا؟

- حسنًا، هو بمنزلة رفوف يُشكِّلها القاع، مسطحات ضحلة تنقطع عند الحافة على حدود العمق.

- **ونابا التنين**...

- إنهما على الحافة تمامًا.

- وسيكون ممكنًا بلوغهما دون أن تبتلَّ القدمان. كم سيكون لديَّ من الوقت؟

عبستْ مقلة: «لا أعرف. يجب سؤال أهل المنطقة. لكنني لا أتصوَّر يا جيرالت أن هذه الفكرة ستكون الفضلى. انظرْ ما بين البر و**النابيْن** ثمة صخور، والشاطئ كله مُقطَّع بالخلجان والأودية الخلالية. عندما يبدأ الجَزْر، ستتكاثر الأخاديد والوهاد المملوءة بالماء هناك. لا أعلم هل...».

من جهة البحر، من الصخور التي تكاد لا تُرى، انبعث صوتُ بقبقتهما. وهتاف غنائي صاخب.

نادت حورية البحر، متقافزةً برشاقة على متن الموج، ولاطمة الماء لطمات قصيرة أنيقة بذيلها: «يا أبيض الشعر!».

رد صائحًا وملوحًا بيده: «شئيناز!».

سبحتْ حورية البحر حتى الصخور وتدلَّت عموديًّا في اللُّجة الخضراء المزبدة، وقذفت شعرها إلى الوراء بكلتا يديها، عارضة في الوقت ذاته صدرها بكامل مفاتنه. رمق جيرالت إيسي. احمرَّت البنت قليلًا، وبتعابير أسف وإحراج بدت على وجهها، نظرتْ خلال لحظةٍ متحققةً من مفاتنها الخاصة التي لاحت بما لا يكاد يُرى تحت ثوبها.

غنَّت شئيناز وهي تقترب أكثر سابحةً: «أين هذا الذي لي؟ كان من المفترض أن يكون هنا».

- كان. انتظر ثلاث ساعات وذهب.

استغربتْ حورية البحر بصولة غنائية عالية النبرة: «ذهب؟ لم ينتظرْ؟ لم يحتملْ ثلاث ساعات تافهة؟ هكذا كنت أظن. لا تضحية مُطْلَقًا! مطلقًا! مقزز، مقزز، مقزز! وماذا تفعل هنا يا أبيض الشعر؟ جئتَ تتمشى مع محبوبتكَ؟ أنتما زوجان جميلان، بيد أن أرجلكما فقط تجعل مظهركما سيئًا».

- إنها ليست محبوبتي. نكاد لا نعرف بعضنا بعضًا.

استغربتْ شئيناز: «نعم؟! يا للخسارة. أنتما يليق أحدكما بالآخر، تبدوان جميلين معًا. من تكون هي؟».

راحت مقلة تغني بنبرة ولحن بدا صوت الويتشر على وقعه كنعيق غراب: «أنا إيسي دافين، شاعرة. سررتُ بتعرُّفكِ يا شئيناز».

ربَّتت حورية البحر الماء براحتيها، وراحتْ تضحك بصوت رنان.

صرخت: «يا للروعة! تعرفين كلامنا! أقسم، لقد فاجأتموني أنتم البشر. حقًّا، لا يفرق بيننا الكثير إطلاقًا، كما يقال».

تفاجأ الويتشر بمقدار ليس أقل من مدى تفاجؤ حورية البحر، مع أنه كان يمكنه الافتراض أن إيسي المتعلمة والواسعة المعرفة تعرف أفضل منه **كلام القدماء**، لغة الإلفيين التي كانت تستخدمها بشكلها الغنائي حوريات البحر، والفوقسيات، والنيريدات. وينبغي أيضًا أن يكون واضحًا له أن الغنائية والنغمية المعقَّدة للغة الحوريات التي شكَّلت عائقًا أمامه، كانت تسهيلًا لمقلة.

نادى: «شئيناز! لكنَّ ثمة ما يفرقنا بعض الشيء، وما يفرقنا أحيانًا هو الدم المراق! من... من قتل صيادي اللؤلؤ هناك عند الصخرتين؟ أخبريني!».

غاصتْ حورية البحر محركةً المياه، وطَفَتْ بعد لحظة على السطح مجددًا. انكمش وجهها الجميل، وتقلَّص إذ كشَّرت بقبح.

صرخت بصوت خارق: «لا تتجرؤوا! لا تتجرؤوا على الاقتراب من الدرَج! هذا ليس لكم! لا تعبثوا معهم! هذا ليس لكم!».

- ماذا؟ ما الذي ليس لنا؟

صرختْ شئيناز، ملقيةً نفسها في الأمواج ساقطة على ظهرها: «ليس لكم!».

حلَّق رذاذ الماء المتطاير عاليًا. وخلال لحظة أخرى شاهدًا ذيلها، وزعنفتها المتفرِّعة والضيقة وهي تصفق خلال الأمواج، ثم اختفت في الأعماق.

رتَّبتْ مقلة شعرها المضطربَ في هبات الريح. وقفت ساكنة حانيةً رأسها.

تنحنح جيرالت: «لم أكن أعلم أنكِ تعرفين لغة القدماء جيدًا لهذه الدرجة يا إيسي».

قالت بمرارة واضحة في صوتها: «ما كان بإمكانك أن تعلم. أصلًا... أصلًا أنت تكاد لا تعرفني».

6

قال ياسكير، ناظرًا حوله، ومتشممًا مثل كلب تقصِّي الأثر: «جيرالت. رائحة فظيعة هنا، ألا تعتقد ذلك؟».

تشمم الويتشر: «وما أدراني؟ لقد كنتُ في أماكن كانت فيها روائح أسوأ. هذه ليست إلا رائحة البحر».

أدار الشاعر رأسه وبصق بين الصخور. بقبق الماء في الشقوق الصخرية مزبدًا وهادرًا، كاشفًا عن أخاديد حصوية مغسولة بالأمواج.

- انظرْ كيف جفَّتْ جيدًا يا جيرالت. أين ذهبت تلك المياه؟ ما أمر هذا المد والجزر بحق الجحيم؟ من أين يأتيان؟ ألم تفكر في هذا من قبل؟

- كلا. كانت لديَّ هموم أخرى.

ارتجف ياسكير قليلًا: «أظن أن في الأعماق، هناك في قاع هذا المحيط اللعين، يجثم وحش ضخم، مسخ بدين محرشف، علجوم ذو قرون على رأسه القميء. وبين حين وآخر يسحب الماء إلى جوفه الضخم، ومع الماء يبتلع كل ما هو حي ويمكن أن يؤكل: الأسماك والفقمات والسلاحف وكل شيء. ومن ثَمَّ، بعد أن يلتهم غنائمه، يتقيأ الماء فيتكوَّن لدينا المد. ما رأيك في ذلك؟».

- أعتقد أنك أحمق. لقد قالت ينيفر لي ذات مرة إن القمر هو الذي يسبب المد والجزر.

قهقه ياسكير.

- يا له من هراء بئيس! ما علاقة القمر بالبحر؟! ليس سوى الكلاب على القمر تعوي. لقد خدعتْكَ تلك الكذابة، صاحبتك يا جيرالت، وسخرتْ منكَ. ومما أعرفه، لم تكن تلك المرة الأولى.

لم يعلِّق الويتشر. نظر إلى الصخور التي كانت تلمع من جراء الرطوبة في الأخاديد التي كشفها الجَزْر. كانت المياه لا تزال تنبثق فيها وتزبد، لكنْ بدا لهما أنهما سيمران.

قال، وهو ينهض ويعدِّل وضع السيف على ظهره: «إلى العمل إذن. لا يمكننا الانتظار أكثر من ذلك، فلن نلحق قبل حدوث المد. هل ما زلتَ تصر على القدوم معي؟».

- أجل. إن موضوعات البالادا ليست أكوازَ صنوبر، لا توجد تحت شجرة التنوب. وما عدا ذلك، غدًا سيكون عيد ميلاد **دمية اليد**.

- لا أرى رابطًا بين كلماتك.

- يا للأسف. تسود بيننا، نحن الناس الطبيعيين، عادة أن نتبادل الهدايا في ذكرى مولد أحدنا. ليس في مقدوري شراء أي شيء لها. سأعثر على شيء لها في قاع البحر.

- سمكة رنجة؟ حبَّار؟

- أحمق أنت. سأجد كهرمانًا، أو ربما فرس بحر، أو صَدَفة بديعة. المقصود هنا الرمز، وتقديم الدليل على الذكرى والتعاطف. مقلة تريد أن تشعر بالفرح. ألا تفهم؟ هكذا ظننتُ. لننطلقْ. أنت في المقدمة، فقد يوجد وحش جاثم هناك.

انزلق الويتشر من الجرف على حجارة زلقة مغطاة بالطحالب: «لا بأس. سأمضي في المقدمة، لأحميك في حال حدوث شيء ما. دليل على التذكر والتعاطف. فقط تذكَّر، عندما أصرخ أطلقْ ساقيكَ للريح، وإياك أن تتجول تحت سيفي. لسنا ذاهبين إلى هناك لجمع أفراس البحر. إنا ذاهبون لحسم الأمر مع الوحش الذي يقتل الناس».

تحركا إلى الأسفل في شقوق القاع المكشوف، وفي بعض الأماكن كانا ينزلقان في المياه التي ما برحت تَمورُ في الصدوع الصخرية. وكانا يغوصان في مُقعَّرات مفروشة بالرمال والفوقس. ما زاد الطين بلة، أن المطر بدأ في الهطول، لذا سرعان ما تبللا من أعلاهما إلى أسفلهما.

كان ياسكير يتوقف بين لحظة وأخرى، ويفتش بعود رفيع بين الحصى وعُقد الأعشاب المائية.

- أوه، جيرالت انظر! سمكة حمراء بأكملها، لتأخذني الشياطين. وهنا، أوه، أنقليس صغير. وهذا؟ ما يكون؟ يبدو كأنه برغوث شفاف كبير. وهذا... أمَّاه! جيرالت!

استدار الويتشر بسرعة، ويده على سيفه.

كان هذا الشيء جمجمة بشرية، بيضاء، منزلقة على الحجارة، عالقة في أحد الشقوق الصخرية، وملأى بالرمل، وليس به فقط. ارتعد ياسكير، وهو يرى دودة من كثيرات الشعر تتلوى في محجر العين، وأطلق صوتًا غير لطيف. هزَّ الويتشر كتفيه واتجه نحو السهل الصخري الذي كشفته الأمواج، ثم نحو شِعبين مسننتين، يُسمَّيان **نابي التنين**، وهما الآن يبدوان كجبلين. سار بحذر. كان القاع غاصًّا بخيار البحر والأصداف وأكوام الفوقس. وفي البرك والمقعرات ماجت قناديل البحر الكبيرة، وحامت نجوم البحر الثعبانية. وأخذت السرطانات الصغيرة، الملوَّنة كالطيور الطنانة، تهرب من أمامهما، فتسير جانبيًّا، منقِّلةً أرجلها المتحركة بسرعة.

لاحظ جيرالت، من مسافة بعيدة، جثة عالقة بين الحجارة. كان الغريق يُحرِّك قفصه الصدري الذي كان يُرى من تحت الأعشاب المائية، مع أنه من حيث المبدأ لم يتبقَّ منه شيء يحركه. كان يتحرك بسبب سرطانات البحر من الداخل والخارج. لا يمكن له أن يكون قد قضى في الماء أكثر من يوم واحد، لكنَّ السرطانات قد قشَّرته لدرجة أن معاينته لم يكن لها معنى. غيَّر الويتشر اتجاه مسيره، دون أن ينطق بكلمة، منعطفًا عن الجثة جانبًا. لم يلاحظ ياسكير شيئًا.

أطلقْ شتيمة لاحقًا بجيرالت، وبصق ثم نفض الماء عن قبعته: «يا لها من عفونة نتنة هنا. والمطر ينهمر بشدة، والجو بارد. سأُصاب بالبرد، وأفقد صوتي، تبًّا للكلاب...».

- لا تتأوه. إن كنت تريد الرجوع، فأنت تعرف الطريق.

امتدَّ خلف قاعدة **نابي التنين** تمامًا، رف صخريٌّ مسطَّح، وتلاه منخفض بحر مائج بهدوء، حد الجَزْر.

تلفَّت ياسكير حوله: «ها يا ويتشر! يبدو أن وحشك هذا كان لديه ما يكفي من الفهم لينسحب إلى لجة البحر مع المياه المنحسرة. وأنت ربما ظننتَ أنه سيكون مستلقيًا هنا في مكان ما، وبطنه إلى الأعلى، منتظرًا حتى تمزقه؟».

- كن صامتًا.

اقترب الويتشر من حافة الرف الصخري، جثا وأسند يديه بحذر إلى الأصداف الحادة التي غطَّتِ الصخرة. لم يرَ شيئا، فقد كان الماء معتمًا، والسطح رذاذًا عكرًا وكامدَ اللون.

فتَّش ياسكير زوايا الشِّعبين، وطرد بركلاته السرطانات الأوقح بعيدًا عن رجليْه، وشاهد صخورًا مغمورة بالماء ولمسها، بدت ملتحية بطحالب متدلية، ومرقطة بمستعمرات خشنة من القشريات والمحار.

- هيه جيرالت!

- ماذا؟

- انظر إلى هذه الأصداف. إنها محارات لؤلؤ، أليس كذلك؟

- لا.

- هل لك معرفة بذلك؟

- لا ليس لديَّ.

- إذن، توقف عن إبداء الرأي إلى اللحظة التي تبدأ فيها تعرف. هذه محارات لؤلؤ، أنا متيقن. سأجمع اللآلئ في الحال، على الأقل سيكون بعض الربح من هذه الحملة، وليس الزكام وحده فقط. جيرالت، أنجمعها؟

- اجمعها. الوحش يهاجم الصيادين. وجامعو اللآلئ يدخلون من ضمن هذه الفئة.

- أسأكون الطُّعم؟!

- اجمعها، اجمع. خذْ كل محارة كبرى، إذا لم تكن ثمة لآلئ، فسنغلي عليها الحساء.

- وماذا أيضًا؟ سآخذ اللآلئ وحدها، ولتُدَسَّ الأصداف في مؤخرة الكلب! اللعنة... ابن الفاجرة... كيف تُفتَح هذه...؟! تبًّا لدم الكلاب... ألديك سكين يا جيرالت؟
- لم تحضرْ معكَ ولو حتى سكينًا؟
- أنا شاعر ولست حامل سكاكين. آه، فلتحل اللعنة، سأكدِّسها في الحقيبة وسنستخرج اللآلئ لاحقًا. آخ، أنت! فلتغرب عني!

حلَّق فوق رأس جيرالت السلطعون الذي رُكِلَ، ثم بقبق في الموج. سار الويتشر ببطء على طول حافة الجرف مُحدِّقًا إلى المياه السوداء التي لا يخترقها النظر. سمع دقًّا إيقاعيًّا من الحجر الذي كان ياسكير يفصل به المحارة عن الصخرة.

- ياسكير! تعالَ هنا، انظر!

كان الرف البحري المتصدع المتشقق ينتهي فجأةً بحافة مستوية حادة، وينحدر إلى الأسفل بزاوية رأسية. تحت سطح الماء، كانت تُرَى بوضوح كتلٌ ضخمة من الرخام الأبيض، منتظمةً وذات زوايا، ومتخمة بالطحالب والرخويات وشقائق البحر، تتمايل في الماء كما الزهور في الريح.

- ما هذا؟ يبدو مثل... مثل سُلَّم.

همس ياسكير بإعجاب: «لأنه سُلَّم. أووه، هذا السُّلَّم الذي يؤدي إلى المدينة التي تحت الماء. إلى **إيس** الأسطوري الذي ابتلعتْه الأمواج. هل سمعتَ الأسطورة عن مدينة الهاوية، عن **إيس** الذي **تحت المياه**؟ أووه، سأكتب عن ذلك بالادا، بالادا تبيَضُّ لها عيون المنافسين. يجب أن أراه من قرب... انظر هناك، ثمة شيء من الفسيفساء، هناك شيء محفور أو منقوش... شيء مكتوب؟ افسَح المجال».

- ياسكير! هناك منخفض عميق! ستنزلق...
- دعك من هذا. أنا مبلل على أي حال. انظرْ، هنا الماء ضحل، لا يكاد يبلغ الخصر، على هذه الدركة الأولى. وثمة متسع في المكان كما في قاعة الرقص. أوه. تبًّا لدم الكلاب...

قفز جيرالت بسرعة البرق إلى الماء وأمسك الشاعر الذي انزلق هابطًا حتى رقبته.

انتفض ياسكير ملتقطًا الهواء، ورافعًا بكلتا يديه محارة مسطحة كبيرة كان يتسرب منها الماء، ذات قشرة زرقاء داكنة، متخمة بلُبَد الطحالب: «لقد تعثرتُ في هذا البراز. إن السُّلَّم مملوء به. لهذه المحارة لون جميل، ألا تعتقد ذلك؟ أعطني حقيبتكَ أضع المحارة فيها، حقيبتي قد امتلأت.

هدر الويتشر مغضبًا: «اخرجْ من هنا. اصعد فورًا على الرف البحري يا ياسكير. هذه ليست لعبة!».

- اهدأ. هل سمعت؟ ماذا كان ذلك؟

سمع جيرالت. انبعث الصوت من الأسفل من تحت المياه. مكتومًا وعميقًا، مع أنه في الوقت ذاته خافت وخفيض وقصير ومتقطع. صوت جرس.

همس ياسكير، وهو يتسلَّق الرف متثاقلًا: «الجرس، تبًّا. كنتُ على حق يا جيرالت. إنه جرس إيس الغريق، جرس الأشباح مكتوم بثقل الأعماق. إن الآثمين هم من يذكِّروننا...».

- هلَّا صمتَّ أخيرًا؟

عاد الصوت مجددًا. أقرب كثيرًا مما كان.

تابع الشاعر وهو يدعك أذيال معطفه المبتل: «...يذكِّروننا بمصيرهم الرهيب. هذا الجرس هو تنبيه...».

كفَّ الويتشر عن الانتباه إلى صوت ياسكير، وانتقل إلى الحواس الأخرى. أحس. أحس بشيء ما!

أخرج ياسكير لسانه قليلًا كما اعتاد أن يفعل عندما يركِّز: «هو تنبيه. لكنه تنبيه... هممم... لئلا ننسى... هممم... هممم... لقد جاءتني!

«يرن قلب الجرس أجوفَ، يغني أنشودة عن الموت

عن الموت الذي يمكن تحمله أسهل من

تحمل النسيان...»».

انفجر الماء بجانب الويتشر تمامًا. صرخ ياسكير. كان وحش جاحظ العينين يُهْدِف من بين الزبد إلى جيرالت بحربة عريضة مسننة شبيهة

https://t.me/fantazynov

بالمهبال[1]. كان السيف في يد جيرالت منذ اللحظة التي بدأ فيها الماء يتحدب، لذلك، الآن فقط دار بوَركيْه بثقة وضرب الوحش على أسفل حلقه المتحرشف المتهدل. واستدار على الفور إلى الجانب الآخر، حيث عكَّر صفو الماء وحش آخر، يرتدي خوذة غريبة الشكل، وشيئًا يشبه درعًا من زنجار النحاس. صدَّ الويتشر، بحركة مديدة من سيفه، سنَّ الرمح القصير الذي كان سيطعنه، ومع الزخم الذي أعطاه إياه هذا الصد، هوى على خطم الزاحف السمكي المسنن. وارتد قافزًا إلى حافة الرف البحري، مبعثرًا الماء حوله.

- اهربْ يا ياسكير!

- أعطني يدكَ!

- اهربْ، اللعنة!

برز المخلوق التالي من بين الأمواج، مُلوِّحًا بسيفه المعوج الذي أحدث صفيرًا، وقد أمسكتْ به يد خضراء خشنة. ارتدَّ الويتشر وظهره إلى حافة الصخرة الغاصَّة بالأصداف ووصل إلى موضعه، لكنَّ المخلوق السمكي العينين لم يقترب. كان طوله يساوي طولَ جيرالت، والماء يصل أيضًا إلى خصره، لكنَّ العُرف المنتصب على رأسه بطريقة باهرة، وخيشوميه المنتفخين جعلاه يبدو أكبر حجمًا. بدتِ الكشرة التي عوَّجت فمه العريض، المسلح بالأسنان، شبيهة إلى حد الوهم بابتسامة فظيعة.

رفع المخلوق سيفه، ممسكًا بكلتا يديْه بمقبضه الطويل الذي خلا من واقية اليد، دون أن يُولي انتباهًا للجسدين المرتجفين الطافيين في الماء الأحمر. وأدار النصل في الهواء برشاقة وقد انتصب عُرفُه وخيشوماه أشد مما كانت الحال عليه. سمع جيرالت كيف يصِلُّ النصل ويَؤُزُّ.

خطا المخلوق خطوة إلى الأمام، مرسلًا موجة تجاه الويتشر. لوَّح جيرالت بحركة طاحونية ورفرف بسيفه كجواب. وخطا أيضًا خطوة قابلًا التحدي.

طوَّق سمكي العينين أصابعه الطويلة حول المقبض بخفة، ونكس ببطء ذراعيْه المصفَّحتيْن بالدرقات والنحاس، وغاص بهما حتى مرفقيْه، مُخفِيًا سلاحه تحت الماء. تناول الويتشر السيف بكلتا يديه -كفه اليمنى تحت واقية اليد تمامًا، واليسرى المقبض- شَهَر السلاح إلى الأعلى، وقليلًا إلى الجانب،

---

(1) المهبال: أداة يدوية زراعية أو حربية ذات عصا غليظة طويلة في رأسها سنان من الحديد.

فوق كتفه اليمنى. حدَّق إلى عيني الوحش، وقد كانتا عينيْ سمكة قزحيتي اللون لهما حدقتان لامعتان لمعانًا باردًا ومعدنيًّا، ولهما شكل قطرة الماء. كانتا عينين لا تعبِّران عن شيء، ولا تبوحان بشيء. بأيِّ شيء يمكن أن ينذر بهجوم.

انبثقتْ من الأعماق، من أسفل السلَّم المتلاشي في الهوَّة السوداء، أصوات الجرس. أخذت تزداد قربًا ووضوحًا.

انقضَّ سمكيُّ العينين إلى الأمام، مقتلعًا نصله من تحت الماء، وهاجم بطعنة جانبية سفلية سريعة سرعة بزوغ الفكرة. كان جيرالت، ببساطة، محظوظًا -افترض أن الضربة ستُوجَّه من الجهة اليمنى. تصدى لها بالنصل الذي وجَّهه إلى الأسفل، لاويًا جسده بقوة، وأدار سيفه على الفور، شابكًا إياه على نحو مستوٍ مع شفرة الوحش. الآن بات كل شيء يتوقف على من يكون الأسرع في إدارة أصابعه على المقبض، من ينتقل أولًا من احتكاك الشفرتين الثابت المستوي إلى الضربة، الضربة التي نمَّى قوَّتها كلاهما بنقل ثقل وزن الجسد إلى الساق المناسبة. لقد عَرَفَ جيرالت الآن أنهما، كليْهما، سريعان بالقدر نفسه.

لكنَّ سمكي العينين كانت أصابعه أطول.

طعنه الويتشر في جنبِهِ، أعلى الوَرك، ودار نصف دورة وانهال ضربًا ضاغطًا على النصل، وأفلت بسهولة من ضربة مديدة وعشوائية ويائسة ومنعدمة الرشاقة. اختفى الوحش، وقد فتح فمه السمكي دون صوت، تحت الماء الذي كانت تنبض فيه كُبَبٌ حمر داكنات.

صرخ ياسكير: «أعطني يدك! بسرعة! إنهم يسبحون، كومة كاملة! إني أراهم!».

أمسك الويتشر بيمنى الشاعر، وانسلَّ من الماء إلى الرف الحجري. انهالتْ خلفه موجة على مدى واسع.

وبدأ المد.

فرَّا دونما إبطاء، تطاردهما المياه التي أخذ منسوبها في الارتفاع. تلفَّت جيرالت ورأى كيف يتناثر عدد كبير تالٍ من الوحوش السمكية، كيف تندفع في مطاردته، وتقفز برشاقة على سيقانها مفتولة العضلات. أسرع في جريه، دون أن ينبسَّ ببنت شفة.

لهث ياسكير، راكضًا بمشقة وناثرًا الماء الذي بات يبلغ ركبتيه. فجأة تعثَّر، وقع متخبطًا بين الفوقس، ومتكئًا على يديه الراجفتين. أمسكه جيرالت من حزامه وسحبه من الزبد الفائر حولهما من كل الجهات.

صرخ: «اجرِ! سوف أوقفهم».

- جيرالت...

- اجرِ يا ياسكير! ستملأ المياهُ الصدعَ في الحال، وعندئذ لن يكون لنا مخرج من هنا! أسرع بكل ما أوتيت من قوة!

تأوَّه ياسكير وأسرع في ركضه. جرى الويتشر وراءه آملًا أن تتباعد الوحوش في المطاردة. علم أنه لا فرص لديه بتاتًا مقابل المجموعة بأكملها.

أدركته الوحوش عند الصدع تمامًا، لأن المياه قد أصبحت عميقة بما يكفي لكي يمكنها أن تسبح، في حين تسلق هو إلى أعلى بعسر، خلال الحجارة الزلقة، غائصًا في الزبد. لكنَّ الصدع كان ضيقًا جدًّا لدرجة أنهم لن يتمكَّنوا من تطويقه من كل الجهات. توقَّف في الطية المقعَّرة، تلك التي عثر فيها ياسكير على الجمجمة.

توقف، ثم استدار. وهدأ.

وصل إلى الوحش الأول بنهاية حدِّ سيفه، حيث يجب أن يكون الصدغ. وشقَّ بطن الثاني المسلَّح بشيء على شكل البلطة القصيرة. وفرَّ الثالث.

اندفع الويتشر إلى أعلى الأخدود، لكنَّ الموجة المتصاعدة هدرتْ في اللحظة ذاتها، وانفجرتْ زبدًا، فأثارتْ دُوَّامة في الصدع، اقتلعتْه من الصخور وسحبتْه إلى الأسفل في موجة ارتطامية. اصطدم بمخلوق سمكي كان يتخبط في الدُّوامة، فأبعده بركلة. أمسك به أحدهم من رجليه وسحبه إلى الأسفل، إلى القاع. وخبط ظهره بالصخرة، فتح عينيْه في الوقت المناسب ليرى أشكالَ هؤلاء المظلمة، ووميضيْن سريعتيْن. تصدى للوميض الأول بسيفِه، ووقى نفسه من الثاني بيده اليسرى غريزيًّا. شعرَ بضربة وألم، تلتهما قرصة ملح حادة. ارتدَّ برجليْه من القاع، وانطلق إلى الأعلى، نحو السطح، طوى أصابعه وألقى **علامة**. كان الانفجار أجوفَ، وقد خرق أذنيْه بنوبة ألم قصيرة. فكَّر وهو يصفق الماء بيديْه وقدميْه: إن خرجتُ من هذا، إن خرجتُ منه، سأذهب إلى يِن في فينجربيرج، سأحاول مرة أخرى... إن خرجتُ من هذا ...

خُيِّلَ إليه أنه سمع طنين بوق أو صُور.

رفعتْه الموجةُ، وقد انفجرتْ مجددًا في الصَّدع، إلى الأعلى وألقتْه على بطنِه على صخرة كبيرة. صار يسمع الآن طنينَ الصور بوضوح، وصرخات ياسكير التي بدت كأنها تنبعث من جميع الجهات في وقت واحد. نفثَ الماء المالح من أنفه، ونظر حوله، مُبعِدًا شعره المبلل عن وجهه.

أصبح على الشاطئ، تمامًا عند المكان الذي انطلقا منه. استلقى على بطنه على الحجارة، وكانت الموجة المتكسِّرة من حوله تفور بالزبد الأبيض.

من خلفه، في الأخدود الذي صار خليجًا ضيقًا الآن، تراقص على الأمواج دُخَس[1] رمادي عظيم. كانت حورية البحر جالسة على ظهره، تهز شعرها الأخضر الباهت المبتل. كان نهداها جميلين.

غنَّت ملوِّحةً بيدها التي أمسكت بها قوقعة كبيرة، مخروطيَّة الشكل، ملتفَّة على نحو لولبي: «يا أبيض الشعر! أأنت حي؟».

- حي.

استغرب الويتشر. تحوَّل لون الزبد من حوله إلى وردي. كانت ذراعه اليسرى متصلبة، وكان الملح يلذعها. بدا كُمُّ السترة ممزقًا على نحو مستوٍ ومستقيم، وكان الدم ينزُّ من الجرح. فكَّرَ: لقد خرجتُ من هذا، نجحتُ من جديد. لكنْ كلا، لن أذهب إلى أي مكان.

شاهد ياسكيرَ يجري نحوه، متعثرًا في الحصى المبلَّل.

غنَّت حورية البحر، ونفخت في القوقعة مجددًا: «لقد أوقفتُهم! لكنْ لن يدوم ذلك طويلًا! فاهرب ولا تعدْ إلى هنا، يا أبيض الشعر! البحر... ليس لكم!».

رد صائحًا: «أعلم! أعلم! شكرًا يا شئيناز!».

(1) الدخس: الدلفين.

7

نطقتْ مقلة وهي تمزِّق بأسنانها طرف الضمادة وتعقد العقدة على معصم جيرالت: «ياسكير. اشرحْ لي من أين أتت تلك الكومة من القواقع الحلزونية تحت الدَّرَج؟ زوجة دروهارد تشن حملة تنظيف الآن، ولا تخفي خلال ذلك ما تظن بكما».

استغرب ياسكير: «قواقع؟ أيُّ قواقع؟ ليست لديَّ فكرة عنها. ربما رمتْها البطات بعد أن حطَّت من طيرانها؟».

ابتسم جيرالت، محوِّلًا وجهه إلى الظل. وابتسم متذكرًا تجديفات ياسكير الذي قضى وقت ما بعد الظهر بأكمله في فتح أصداف المحار والتفتيش في اللحم الزلق، فجرح أصابعه ولوث قميصه، لكنه لم يجد حتى لؤلؤة واحدة. ولا غرابة، ربما لأن أي واحدة منها لم تكن من محار اللؤلؤ، بل كانت بلحَ بحرٍ عاديًّا أو بلحَ بحر أزرق. وقد تخلَّيا عن فكرة صنع الحساء على بلح البحر، عندما فتح ياسكير الصَّدَفة الأولى – بدا الكائن الرخوي ليس شهيًّا، ورائحته كريهة لدرجة أن الدموع تساقطت من عينيه.

انتهت مقلة من التضميد وجلست على سطل مقلوب.

شكرها الويتشر متفحصًا يده المضمدة بعناية.

كان الجرح عميقًا وطويلًا إلى حد كبير، وشمل أيضًا المرفق الذي آلمه بفظاعة عند تحريكه. وقد ضمدوه على نحو مؤقت عندما كان لا يزال على شاطئ البحر، ولكنه بدأ ينزف مجددًا، قبل الوصول إلى البيت. قُبيل حضور الفتاة بقليل، سكب جيرالت إكسيرًا مخثِّرًا للدم على ساعده الممزق، وأتبعه إكسيرًا مخدرًا، أما إيسي فقد أمسكتْ بهما في اللحظة التي كانا فيها، هو وياسكير، يحاولان تخييط الجرح باستخدام خيط كان مربوطًا بخطاف لصيد السمك.

شتمتهما مقلة واعتنت بنفسها بأمر الضمادة، في حين كان ياسكير يشبعها بِقصة براقة عن القتال، منبهًا عدة مرات خلال ذلك بأنه يحتفظ لنفسه بالحقوق الحصرية في ملكية البالادا عن الواقعة بأكملها. إيسي، طبعًا، أغرقتْ جيرالت بسيل من الأسئلة التي لم يستطع الإجابة عنها. أخذتِ

الأمر على محمل السوء، وتولَّد لديها انطباع أنه كان يخفي شيئًا عنها. أبدتِ انزعاجها وتوقفتْ عن الاستجواب.

قالت: «أصبح أجلوفال يعلم. لقد شوهدتُما وأنتما تؤوبان، أما زوجة دروهارد، فحينما رأتِ الدم على الدرج انطلقتْ لتثرثر. فحثَّ القوم الخطى إلى الصخور، آملين أن تقذف الأمواج شيئًا ما، وظلوا إلى الآن يدورون هناك، لكنْ على حد علمي، لم يعثروا على شيء».

قال الويتشر: «ولن يعثروا على شيء. غدًا سأمضي إلى أجلوفال، لكنْ نبِّهيه، إذا استطعتِ، ليمنع الناس من أن يحوموا حول **نابي التنين**. لكنْ أرجو عدم التفوُّه حتى بكلمة عن ذلك السُّلَّم أو عن تخيُّلات ياسكِير عن مدينة إيس. فسرعان ما سيظهر باحثون عن الكنوز والإثارة، وستسقط جثث جديدة...».

عبست إيسي، وأزاحت ضفيرتها عن جبهتها بسرعة: «أنا لست ثرثارة. إذا سألتكَ شيئًا فليس من أجل أن أهبَّ في الحال وأجري إلى حيث البئر، وفي جَعبتي ما تقول، فأفشيه للنساء اللواتي يغسلن سراويلهن هناك».

- اعذريني.

أعلن ياسكير فجأةً: «يجب أن أخرج. لقد ضربتُ موعدًا مع أكريتا. جيرالت، سآخذ معطفك، لأن ردائي متسخ بطريقة غير إنسانية، ولا يزال مبتلًّا».

قالت مقلة متهكمة، وهي تدفع بمقدم الحذاء، باشمئزاز، أجزاءً من الملابس المرميَّة: «كل شيء مبلل هنا. كيف يعقل ذلك؟ يجب تعليق هذه الأشياء وتجفيفها بطريقة صحيحة... أنتما فظيعان».

سحب ياسكير معطف الويتشر الرطب، وتفحَّص الأزرار الفضية على الكُمَّين بمتعة: «سيجف وحده».

- لا تهذِ. وهذا، ما يكون؟ أوه لا، هذه الحقيبة لا تزال ملأى بالطين والأعشاب المائية! وهذه... ما تكون؟ أف!

حدَّق جيرالت وياسكير صامتين إلى القوقعة ذات اللون الأزرق الباهت التي تمسكها إيسي بإصبعين. لقد نسيا. كانت المحارة مفتوحة قليلًا ونتنة الرائحة.

قال التروبادور، وهو ينسحب نحو الباب: «إنها هدية. غدًا يوم ميلادك، أليس كذلك يا دمية اليد؟ إذن هذه.. هذه هدية لك».

- هذه؟

تشمم ياسكير، وأضاف بسرعة: «جميلة، حقًّا؟ إنها من جيرالت. هو من اختارها لك. أوه، لقد تأخرتُ. كونا بخير...».

بعد خروجه، بقيت مقلة صامتةً لحظة. نظر الويتشر إلى المحارة النتنة وشعر بالخجل. من نفسه ومن ياسكير.

سألت إيسي ببطء، ماسكة الصَّدَفة بعيدًا عنها: «هل تذكرت يوم ميلادي؟ حقًّا؟».

قال بحدة: «أعطِني إياها. (نهض مخليًا حشية القش وهو يحمي يده المضمَّدة). أعتذر منك عما قاله ذلك الأبله...».

احتجَّتْ، واستلَّتْ سكينًا صغيرة من غمد على الحزام: «كلا. إنها حقًّا صَدَفة جميلة، سأحتفظ بها تذكارًا. أحتاج إلى أن أغسلها فحسب، وقبل ذلك لا بدَّ من التخلص من... محتوياتها. سأرميها من خلال النافذة، فلتأكلها القطط».

شيء ما اصطدم بالأرضية، تدحرج. وسَّع جيرالت حدقتيْه وأبصر ذاك الشيء أبكر من إيسي بكثير.

لقد كانت لؤلؤة. لؤلؤة قزحية ومتلألئة على نحو بديع باللون الأزرق الشاحب، كبيرة كحبة بازلاء منتفخة.

قد لاحظَتْها مقلة أيضًا: «أيتها الآلهة! جيرالت... لؤلؤة!».

ضحك: «لؤلؤة. إذن، فقد تلقيتِ الهدية يا إيسي. سررتُ بذلك».

- جيرالت، لا يمكنني قبولها. هذه اللؤلؤة قيمتها...

قاطعها: «إنها لكِ. مع أن ياسكير يتظاهر بالحمق، فإنه حقًّا تذكر يوم ميلادك. وأراد حقًّا أن يفرحك. قد تحدث عن ذلك، تحدث بصوت عالٍ. وإذن، فقد سمع القدر وحقَّق ما ينبغي أن يكون».

- وأنت يا جيرالت؟

- أنا؟

- وأنت... هل أردتَ أن تفرحني أيضًا؟ هذه اللؤلؤة غاية في الجمال... لا بدَّ أن تكون ذات قيمة عظيمة... لستَ نادمًا؟

- أشعر بالسرور أنها تروق لك. وإن كان لي أن أندم، فعلى أنها كانت واحدة فقط. وعلى أن...

- حقًّا؟
- إنني لم أعرفكِ منذ مدة طويلة كما عرفكِ ياسكير، حتى أتمكن من معرفة يوم ميلادك وتذكُّره. حتى أتمكن من تقديم الهدايا لك وإسعادك. حتى أتمكن... من مناداتك دمية اليد.

دنتْ، وألقتْ فجأة يديها حول عنقه. فاستبقَ حركتها بحُنكة وسرعة، وأفلت من شفتيها، وقبَّلها على خدها ببرود، حاضنًا إياها بيده السليمة، بحرج احتياطي، ولطف. أحس، كيف تصلبت الفتاة وتراجعت ببطء، لكنْ فقط بطول يديْها اللتين كانتا لا تزالان تستريحان على كتفيه. علم ماذا تنتظر، لكنه لم يفعله. لم يشدها إليه.

تركتْه إيسي واستدارت نحو النافذة المتسخة المواربة.

قالت فجأة: «طبعًا. تكاد لا تعرفني. نسيتُ أنكَ تكاد لا تعرفني...».

نطق بعد لحظة صمت: «إيسي. أنا...».

انفجرت مقاطعة: «أنا أيضًا أكاد لا أعرفك. وماذا في ذلك؟ أحبكَ. ولا يسعني فعل شيء إزاء ذلك. لا شيء».

- إيسي!
- أجل. أحبكَ يا جيرالت. لا يهمني ما يمكن أن تظن بي. أحبك من اللحظة التي رأيتكَ فيها هناك في حفلة الخِطبة...

صمتت، وخفضت رأسها.

وقفتْ أمامه، أما جيرالت فأسف أن تكون هي أمامه، وليس سمكي العينين مع سيفه المخفي تحت الماء. فقد كانت له حظوظ أمام سمكي العينين. لكن، لا حظوظ له أمامها.

أكدت حقيقة: «أنت لا تقول شيئًا. لا شيء، ولا حتى كلمة».

فكَّرَ: إنني متعب، وضعيف حتى الثمالة. لا بدَّ لي من الجلوس، عيناي غائمتان، لقد فقدتُ بعضًا من دمي، ولم آكل... لا بدَّ لي من الجلوس.

فكَّر: ملعونة هذه الحُجيرة، ليتها تحترق في أقرب عاصفة قادمة، وتصيبها الصاعقة. ملعون انعدام الأثاث، وكرسيين غبيين، ومنضدة يتقاسمها الجالسان، ويمكنهما التحدث من فوقها في كثير من الأمان واليسر، بل يمكن لأحدهما أن يمسك يد الآخر عليها أيضا. وأنا لا بدَّ لي أن أجلس على

حشية القش، وأن أطلب منها الجلوس قربي. والحشية المعبأة بدريس البازلاء خطيرة، ففي بعض الأحيان لا يمكن الإفلات منها، والتهرب...

- اجلسي قربي يا إيسي.

جلستْ. بإبطاء. بلباقة. بعيدًا. قريبًا جدًّا.

همست، قاطعةً الصمت الطويل: «عندما علمتُ بعد سماعي أن ياسكير قد جرَّك، وأنت تدمى، هُرِعْتُ من المنزل مثل مجنونة، ركضتُ كعمياء، ولم أعرِ انتباهًا لشيء. وعندئذٍ... أتعرف، فيمَ فكرتُ حينئذٍ؟ أن ذلك سِحر، أنك ألقيتَ عليَّ تعويذة سرًّا، وسحرتني غدرًا، وخلبت لُبِّي **بالعلامة**، بميدالية الذئب، بالعين الشريرة. هكذا اعتقدتُ، لكنني لم أتوقف، واصلتُ الجري، لأنني أدركت أنني أتوق... أتوق إلى أن أكون في جبروت قوتك. بيْد أن الواقع كان أفظع. لم تلقِ عليَّ سحرًا، ولم تستخدم أيَّ تعويذات. لماذا يا جيرالت؟ لماذا لم تسحرني؟».

التزم الصمت.

استأنفت: «لو كان الأمر سحرًا، لكان كل شيء بسيطًا وسهلًا لهذه الدرجة. لخضعتُ لقوتكَ وكنتُ سعيدة. وهكذا... عليَّ أن... لا أعرف ما يحدث لي...».

فكَّر: إلى الشيطان، إذا كانت ينيفر تشعر عندما تكون معي، كما أشعرُ الآن، فسأتعاطف معها. ولن أستغرب بعد الآن أبدًا. لن أكرهها بعد الآن... أبدًا.

فقد تشعر ينيفر بما أشعر به الآن، قد تشعر بيقين عميق أنني ينبغي لي هنا أن أحقق ما هو مستحيل تحقيقه، بل ما هو أكثر استحالة من ارتباط أجلوفال بشئيناز. بيقين أن قليلًا من التضحية لن يكون كافيًا، وأنه لا بدَّ من التضحية بكل شيء، وليس معلومًا أسيكون ذلك أيضًا كافيًا. لا، لن أكره ينيفر بعد الآن، بسبب أنها لا تستطيع ولا تريد إعطائي أكثر من قليل من التضحية، الآن أعلم أن القليل من التضحية أمر عظيم القدر.

تأوَّهت مقلة، جاذبةً رأسها بين كتفيها: «جيرالت، أشعر بالخجل الشديد. أخجل مما أشعر به، ذاك الذي يكون بما يشبه العجز الملعون، ما يشبه البرودة، ما يشبه النفَس القصير...».

ظل صامتًا.

- اعتقدتُ دائمًا أن هذا الوضع حالة جميلة وسامية للروح، نبيلة ومتميزة، حتى لو كانت لا تُسعِد. وما أكثر قصائد البالادا التي نظمتُها في أشياء من هذا القبيل. وهذا أمر عضوي يا جيرالت، أمر عضوي حقير على نحو مؤثر. هكذا يمكن أن يشعر شخص مريض، شخص قد تجرَّع السم، لأن مثل هذا الشخص الذي تجرع السم مستعد لفعل أي شيء مقابل الترياق. أي شيء، حتى لتقبل المَذَلَّة.

- إيسي. أرجوك...

- نعم. أشعر أنني مُذَلَّة، مُذَلَّة لأنني اعترفتُ لك، ناسيةً الكرامة التي تتطلب من المرء أن يعاني في صمت. لأنني باعترافي قد أربكتكَ. أشعر أنني مُهانة لأنك مُرتبِك. لكنني لم أستطعْ أن أتصرف بطريقة مختلفة. إنني عاجزة، محكومة بالعطف، كشخص أقعده المرض. دائمًا ما كنتُ أخاف من المرض، اللحظة التي سأكون فيها ضعيفة، دون قوة، عاجزة ووحيدة. دائمًا ما كنت أخاف من المرض، واعتقدتُ دائمًا أن المرض سيكون أسوأ ما يمكن أن يعترضني...

ظل صامتًا.

تأوَّهتْ من جديد: «أنا أعلم. أعلم أنني ينبغي لي أن أكون ممتنةً لكَ، لأن... لأنك لا تستغل الموقف. لكنني لستُ ممتنةً لكَ. وإنني أخجل من ذلك أيضًا. فأنا أكره صمتكَ هذا، عينيْك هاتيْن المذعورتيْن. أكرهكَ. لأنك تلتزم الصمتَ. لأنك لا تكذب، وأنك لا... وأنا أكرهها أيضًا، ساحرتكَ تلك، وسيكون من دواعي سروري أن أطعنها بسكين لأنها... أكرهها. مُرْني أن أخرج يا جيرالت. مُرْني أن أخرج من هنا. لأنني لا أستطيع ذلك وحدي وبملء إرادتي، وأريد الانصراف من هنا، والذهاب إلى المدينة، إلى النُّزُل... أريد الانتقام منك لخزيي، لمذلتي، أريد أن أجد أول من أصادف...».

تبًّا لدم الكلاب -فكَّرَ وهو يسمع صوتها ينحدر ككرة من خرق بالية تتدحرج على الدَّرَج- سوف تبكي حتمًا، سوف تبكي. ما العمل، تبًّا، ما العمل؟

ارتجفتْ كتفا إيسي المنكمشتان بشدة. أدارت الفتاة رأسَها وبدأت تبكي بكاءً خافتًا وهادئًا على نحو مخيف لا يتوقف.

أقرَّ برعب: لا أشعر بشيء، ولا بأي عاطفة. وأنا أحضن الآن ظهرها، وهذه لفتة مدروسة ومتوازنة وليست عفوية. سأحضنها لأنني أشعر أن هذا ما يجب أن يكون، وليس لأنني راغب في ذلك. لا أشعر بشيء.

عندما عانقها، توقفت على الفور عن البكاء، وكفكفتْ دموعَها، هازَّةً رأسها بقوة، واستدارت بطريقة لا يمكنه فيها رؤية وجهها. ثم تشبثت به بشدة، ضاغطة رأسها على صدره.

فكَّر: قليلًا من التضحية، قليلًا من التضحية، فحسب. وإن هذا ما سيهدئها، عناق، قبلة، مداعبات هادئة... هي لا تبغي المزيد. وحتى لو أرادت، فماذا؟ قليلًا من التضحية، تضحية صغيرة جدًّا، فهي أصلًا جميلة وتستحق... لو أرادت المزيد... هذا سيهدئها. ممارسة كتومة للحب، هادئة ورقيقة ودون صخب. وأنا... الأمر أساسًا سيَّان بالنسبة إليَّ، فإن إيسي يفوح منها أريج رعي الحمام، لا فوح الليلك وعنب الثعلب، لا توجد بشرة كهربيَّة باردة، شعر إيسي ليس إعصارًا أسود من ضفائر لامعة، وعينا إيسي جميلتان ناعمتان دافئتان زرقاوان، لا تتوهجان بلون بنفسجي عميق بارد معدوم العاطفة. ستنام إيسي، ثم تدير رأسها، وتفتح فمها قليلًا، لن تبتسم إيسي منتصرة. لأن إيسي ...

إيسي ليست ينيفر.

ولذلك فإنني لا أستطيع. لا أستطيع أن أتحصَّل على هذا القليل من التضحية.

- أرجوكِ يا إيسي، لا تبكي.

ابتعدتْ عنه ببطء شديد: «لن أفعل. لن أفعل. فهمتُ. لا يمكن للأمر أن يكون خلاف ذلك».

التزما الصمت، جالسيْن جنبًا إلى جنب على حشية دريس البازلاء. واقترب المساء.

قالت فجأةً، وكان صوتها يرتجف: «جيرالت. أو ربما... ربما سيكون الأمر كما هي حال هذه المحارة... وحال هذه الهدية الغريبة؟ لكننا ربما سنجد لؤلؤة.. لاحقًا... بعد حين!».

قال بمشقة: «أرى تلك اللؤلؤة. مؤطَّرة بالفضة، بزهرة فضية لها تيجان بديعة الصنع. أراها حول رقبتك، على سلسال فضي، يُرتدَى كما أرتدي ميداليتي. هذه ستكون تميمتكِ يا إيسي. تميمة تحميكِ من كل شر».

كررتْ منكسة رأسها: «تميمتي. لؤلؤتي التي سأجعل لها إطارًا من فضة، ولن تفارقني أبدًا. جوهرتي التي حصلتُ عليها بدلًا. هل لمثل هذه التميمة يمكن أن تجلب السعد؟».

- أجل يا إيسي. كوني على يقين.
- هل يمكنني الجلوس هنا أكثر؟ معك؟
- يمكنك ذلك.

اقترب الغسق وحلَّ الظلام، وهما جالسان على حشية دريس بالبازلاء، في حُجيرة فوق عليَّة المنزل لا أثاث فيها ولم تحتوِ إلا على سطل وشمعة غير مضاءة على الأرض، في بركة من الشمع الجامد.

كانا جالسيْن في صمت تام، في سكون طويل جدًّا، ثم جاء ياسكير. سمعاه قادمًا يدقُّ على العود ويغني. دخل ياسكير، رآهما ولم يقلْ شيئًا، ولا حتى كلمة واحدة. نهضتْ إيسي، صامتةً أيضًا، وخرجتْ دون أن تنظر إليهما.

لم ينبسْ ياسكير ببنت شفة. لكنَّ الويتشر رأى في عينيه كلمات لم تخرج.

8

كرَّر أجلوفال بتفكر، مسندًا مرفقه إلى متكأ الكرسي، وأسفل ذقنه على قبضته: «عِرق عاقل، حضارة تحت الماء. البشر السمكيون الذين يعيشون في قاع البحر. السُّلَّم المؤدي إلى الأعماق. جيرالت، أنت ترى فيَّ أميرًا غاية في السذاجة».

شخرتْ مقلة بغضب، وكانت تقف بجانب ياسكير. أدار ياسكير رأسه غير مصدق. وجيرالت لم يكترث بتاتًا.

قال بخفوت: «الأمر عندي سيَّان، سواء صدقتني، أم لم تصدقني. لكنْ من واجبي أن أحذرك. إن القارب الذي يقترب من **نابِي التنين**، أو البشر الذين يظهرون هناك في أثناء الجَزْر معرضون للمخاطرة، للمخاطرة المميتة. إن كنت تريد التحقق أكان ذلك حقيقة، وتريد المخاطرة، فالأمر متروك لك. وإنني ببساطة أحذرك».

نطق فجأةً الآمر زيليست، وكان جالسًا خلف أجلوفال في مشكاة النافذة: «ها. إذا كانوا وحوشًا كالإلفيين أو غيرهم من مسوخ الجوبلين، فنحن لا نخشاهم. ما نخشاه أن يكونوا شيئًا آخر أسوأ، شيئًا مسحورًا، لا سمحتِ الآلهة. مما يرويه الويتشر أن هؤلاء يبدون كأنهم أعمدة ملح أو أجسام بحرية سابحة أخرى. ثمة وسائل للتصدي لأعمدة الملح. وقد نما إلى مسمعي أن أحد السحرة قد تمكَّن من تلك الأعمدة في لمح البصر في بحيرة موكفا. وقد صبَّ برميلًا من المُرشِّح السحري في الماء، وكانت نهاية تلك الأعمدة النتنة. لم يتبقَّ لها أثر».

تكلم دروهارد، الذي كان صامتًا حتى الآن: «هذا صحيح. لم يتبقَّ لها أثر، ولا للأبراميس أيضًا والكراكي والسلطعونات وذوات الصدفتين. حتى إن نباتات الأيلود قد تعفَّنت في القاع، ويبست أشجار الغت على الشواطئ».

قال أجلوفال ساخرًا: «ممتاز. شكرًا على الاقتراح العظيم يا زيليست. ربما لديك المزيد؟».

احمرَّ الآمر بشدة: «حسنًا، هذا صحيح كما يبدو. ثنى الساحر عصاه قليلًا، ولوَّح قليلًا جدًّا. لكننا يمكننا تدبر أمرنا حتى من دون السحرة أيها الأمير. يقول الويتشر إن مقاتلة تلك الوحوش ممكنة، وقتلها أيضًا ممكن. إذن هي الحرب يا سيدي. كما في قديم الزمان، هذا ليس جديدًا علينا، أليس كذلك؟ لقد عاش غيلان البوبولاك في الجبال، فأين هم الآن؟ لا يزال الإلفيون الوحشيون وجنيات المستنقعات يحومون خلال الغابات، ولكنَّ نهاية هؤلاء ستكون قريبة. سنأخذ ما لنا. كما فعل أجدادنا...».

عبس الأمير: «ولن يُرى اللؤلؤ إلا في عهد أحفادي، وليس قبل ذلك! هذا وقت سيطول انتظاره كثيرًا يا زيليست».

- حسنًا، لن يكون الأمر بهذا السوء. يتراءى لي... سأقول هكذا: مع كل قارب من الصيادين زورقان من الرماة. وقريبًا سنعلِّم هذه الوحِوش الفهم. سنعلِّمهم الخوف. أليس كذلك يا سيد ويتشر؟

نظر إليه جيرالت نظرة باردة، ولم يردَّ.

أدار أجلوفال رأسه، عارضًا جانب وجهه النبيل، وزامًّا شفتيه. ثم نظر إلى الويتشر، مُضيِّقًا عينيه ومُقطِّبًا جبينه.

قال: «لم تكمل المهمة يا جيرالت. لقد أفسدتَ الأمر مجددًا. أنا لا أنكر أنكَ أظهرت نية حسنة، لكنني لا أدفع المال مقابل النوايا الحسنة. أدفع مقابل النتيجة. مقابل الفِعَّالية. وفعَّالية عملك، اعذرني على التعبير، بقيمة البراز. لذلك كسبتَ البراز».

سخر ياسكير: «رائع يا حضرة الأمير. يا للخسارة، لأنكم لم تكونوا معنا هناك عند **نابِي التنين**. لكنَّا ربما منحناكم فرصةً للقاء واحدٍ من هؤلاء الذين من البحر وبيده سيف. ربما كنتم عندئذٍ ستفهمون ما القضية، وتكفُّون عن المجادلة في دفع الأجر...».

تدخلتْ مقلة: «مثل بائعة سليطة اللسان».

قال أجلوفال بهدوء: «ليس من عادتي المجادلة أو المساومة أو المناقشة. قلتُ لن أدفع لك قرشًا واحدًا يا جيرالت. نصَّ الاتفاق على: القضاء على الخطر، القضاء على التهديد، وإتاحة صيد اللؤلؤ دون أن يخاطر الناس. وأنت؟ تأتي وتحكي لي عن العرق العاقل من قاع البحر. تنصحني أن أبقى بعيدًا عن المكان الذي يأتيني بالدخل المالي. ماذا فعلتَ؟ لعلك قتلتَ أحدًا... كم واحدًا؟».

شحب جيرالت قليلًا: «لا يهم كم عددهم، على الأقل بالنسبة إليكَ يا أجلوفال».

- بالضبط. وخاصة أن الأدلة معدومة. لو كنتَ أحضرتَ أكفَّ تلك الضفادع السمكية اليمنى، فمن يدري! ربما كنتُ تكرمت بالثمن المعتاد نفسه الذي يتقاضاه عاملي، حارس الغاب، مقابل أذنيْ ذئب.

قال الويتشر ببرود: «إذن، لا بأس. لم يبقَ لي إلا أن أقول الوداع».

تكلم الأمير: «أنت مخطئ. بقيَ لديك شيء آخر. وظيفة ثابتة مقابل مال مجزٍ وبدل نفقات العيش، ومنصب ورخصة قبطان على حرسي المسلح الذي سيرافق الصيادين من الآن فصاعدًا. ليس ضروريًّا أن يكون ذلك دائمًا، سيكفي إلى حين أن يكتسب ذلك العرق العاقل، كما يزعم، ما يكفي من العقل ليبتعد عن قواربي، ويتجنبها كما يتجنب النار. فما رأيك في هذا؟».

تجهم الويتشر: «أشكركم، لن أدخل في ذلك. لا تعجبني مثل هذه الوظيفة. أرى أن شنَّ الحروب على الأجناس الأخرى بلاهة. ربما قد تكون تسلية رائعة للأمراء الذين يعانون المللَ والسأمَ. لكنْ ليس لي».

ابتسم أجلوفال: «أوه، يا للاعتزاز! يا للكبرياء! في الحقيقة، أنت ترفض العرض بطريقة من شأنها ألا تُخجِل ملكًا أو عدة ملوك. تتنزل عن مال وفير بتعابير وجه رجل ثري بعد عشاء متخم. جيرالت! هل تناولتَ الغداء اليوم؟ لا؟ وغدًا؟ وبعد غدٍ؟ أرى فرصك ضئيلة أيها الويتشر، ضئيلة جدًّا. صعب حتى في وضعك الطبيعي أن تكسب، فما بالك الآن، ويدك مسنودة بحمالة...».

صرختْ مقلة بصوت رقيق حاد: «كيف تجرؤ! كيف تجرؤ على التحدث معه هكذا يا أجلوفال! اليد التي ترفعها الحمالة، تهشَّمت في أثناء أدائه مهمتك التي عهدتَ إليه بها! كيف يمكنك أن تكون نذلًا بهذا القدر...».

قال جيرالت: «توقفي. توقفي يا إيسي. لا فائدة من ذلك».

ألقتْ كلماتها بغضب: «هذا ليس صحيحًا. توجد فائدة. يجب أن يقول له شخص ما الحقيقة أخيرًا، في وجهه، لهذا الأمير الذي نصَّب نفسه أميرًا مستغلًّا أن أحدًا لم ينافسه على اللقب لحكم هذه القطعة من الشاطئ الصخري، ويعتقد الآن أن من المسموح له أن يحطَّ من شأن الآخرين».

احمرَّ أجلوفال وزمَّ شفتيْه، لكنه لم ينطقْ بكلمة واحدة، ولم يتحرك.

تابعت إيسي: «نعم يا أجلوفال. إن إمكانية إهانة الآخرين تُسلِّيك وتُفرِحك، فتبتهج بالازدراء الذي يمكنك أن تبديه للويتشر المستعد أن يقدم عنقه مقابل أموالك. لكنِ اعلم أن الويتشر يستهزئ بازدرائكَ وإهاناتكَ، وأنها لا تترك فيه أدنى انطباع، ولا حتى يلاحظها. لا، الويتشر لا يشعر حتى بذلك الذي يشعر به خدمك ورعاياك، كمثل زيليست ودروهارد، وهما يشعران بالخزي، الخزي العميق واللاذع. الويتشر لا يشعر بما نشعر به، أنا وياسكير، ونحن نشعر

https://t.me/fantazynov

بالاشمئزاز. هل تعلم، يا أجلوفال، لماذا هو الأمر كذلك؟ سأخبركَ. إن الويتشر يعلم أنه أفضل. إن قيمته أكبر من قيمتك. وهذا ما يمنحه القوة التي يمتلكها».

سكتت إيسي، ثم خفضتْ رأسها بسرعة غير كافية كي لا يتمكن جيرالت من رؤية الدموع التي التمعت في طرف عينها الجميلة. لمستِ الفتاة بكفها الزهرة الصغيرة ذات البتلات الفضية، المعلَّقة على جيدها، الزهرة التي توسطتها لؤلؤة كبيرة زرقاء. كانت للزهرة بتلات مضفَّرة بديعة الصنع، ومشغولة بإتقان. فكَّر الويتشر: لقد أثبتَ دروهارد أنه كان على قدر المهمة. فهو من أوصى بالحرفي الذي أدى عملًا جيدًا، ولم يأخذْ منهما قرشًا واحدًا. لقد دفع دروهارد ثمن كل شيء.

استأنفتْ مقلة رافعةً رأسها: «لذا يا حضرة الأمير، لا تجعل من نفسك موضع سخرية بعرضكَ على الويتشر دورَ المرتزِق في الجيش الذي تريد أن تدفع به ضد المحيط. لا تعرِّض نفسك للسخرية، لأن عرضك لا يمكنه إلا أن يثير الضحك. ألم تفهم ذلك بعد؟ يمكنكَ أن تدفع للويتشر الأجر مقابل أداء المهمة، يمكنك استئجاره لحماية الناس من الشر، ليتفادوا الخطر الذي يهددهم. لكنكَ لا تستطيع شراء الويتشر، ولا يمكنكَ استخدامه لمآربك الخاصة. لأن الويتشر، حتى عندما يكون جريحًا أو جائعًا، أفضل منكَ. أكثر قيمة منكَ. لذا تراه يسخر من عرضكَ البائس. هل فهمتَ؟».

تكلَّم أجلوفال ببرود: «كلا يا آنسة دافين. ما فهمتُ. بل العكس تمامًا، صرتُ أفهم أقل فأقل. أما الشيء الأساس الذي حقًّا لا أفهمه، فهو أنني لم آمر بعد بشنقكم، ثلاثتكم، بعد أن أسوطكم أولًا بسوط ثخين وبحديد محمر محمى. أنتم يا آنسة دافين تحاولون إعطاء انطباع أنكم تعرفون كل شيء. لذا، قولوا لي لمَ لا أفعل ذلك».

صاحت الشاعرة دون تفكير: «تفضَّل، يا مرحبًا. أنت لا تفعل ذلك يا أجلوفال لأن في أعماق داخلك بصيص من اللياقة يكاد تخبو، وبقية شرف، وغرور تُوَيْجر وحديث نعمة، لم يُخمَد بعد. في الصميم منك يا أجلوفال. وفي قاع قلبك، قلبك القادر مع ذلك على حب حورية البحر».

شحب أجلوفال كقطعة قماش خام، وضغط بيديْه على متكأي الكرسي. فكَّر الويتشر: أحسنتِ، أحسنتِ يا إيسي، عظيم. كان فخورًا بها. لكنه في الوقت ذاته شعر بالأسف، بالأسف الرهيب.

نطق أجلوفال بصوت خفيض: «غادروا. انصرفوا. أنى تشاؤون. دعوني وشأني».

قالت إيسي: «وداعًا أيها الأمير. وتقبَّل نصيحة الوداع الطيبة. النصيحة التي يودُّ الويتشر أن يسديها إليك، لكنني لا أريد أن يسديها الويتشر إليك. أن يحطَّ من قدره لتقديم النصيحة لكَ. سأفعل ذلك نيابة عنه».

- أستمع لك.

- المحيط عظيم يا أجلوفال. لم يبحثْ أحد بعد عمَّا يوجد هناك وراء الأفق، إن كان ثمة شيء أساسًا. المحيط أكبر من أي غابة دفعتم بالإلفيين إلى أعماقها. الوصول إليه أصعب من بلوغ أي جبل كان، وأي خوانق ذبحتم فيها غيلان البوبولاك. وهناك، في قاع المحيط، يعيش جنس يرتدي أبناؤه الدروع، ويعرفون أسرار تحويل المعادن. احترس يا أجلوفال. إن أخذَ الرماة يبحرون مع الصيادين، فستبدأ حربًا بشيء لا تعرفه. إن ما تريد تحريكه قد يتبين أنه عش دبابير. أنصحكم بترك البحر لهم، فالبحر ليس لكم. أنتم لا تعلمون، ولن تعلموا أبدًا إلى أين يُفضِي هذا السُّلَّم الذي ينحدر إلى قعر **نابيِ التنين**.

قال أجلوفال بهدوء: «أنتم مخطئون يا آنسة إيسي. سنعلم إلى أين يفضي هذا السُّلَّم. وأكثر من ذلك، سننزل خلال هذا السُّلَّم. سوف نتحقق مما يوجد وراء ذلك الجانب من المحيط، إن كان ثمة شيء أساسًا. وسنستخرج من هذا المحيط كل ما في وسعنا استخراجه. وإن لم نفعل ذلك، فأحفادنا أو أحفاد أحفادنا سيفعلونه. إنها مسألة وقت فحسب. أجل، سنفعل ذلك حتى لو أصبح لون هذا المحيط أحمر من الدماء. وأنت تعلمين ذلك يا إيسي، إيسي الحكيمة التي تكتبين تاريخ البشرية بقصائدك الغنائية. الحياة ليست أغنية بالادا، أيتها الشاعرة الصغيرة، الفقيرة، جميلة المقلتين، التائهة بين كلماتك البديعة. الحياة قتال. والقتال علمنا إياه، تحديدًا، هؤلاء الويتشريون الأعظم قيمة منَّا. هم مَن أرونا الطريق، هم مَن مهدوها لنا، وفرشوها بجثث أولئك الذين وقفوا حجر عثرة وعقبة أمامنا، نحن البشر، وبجثث أولئك الذين منعوا عنَّا هذا العالم. نحن يا إيسي نواصل هذه المعركة فحسب. نحن، وليستْ قصائدك الغنائية، من يصنع تاريخ البشرية. ولم نعدْ نحتاج إلى الويتشريين، وفي كل الأحوال، لا شيءَ يمكن أن يوقفنا الآن. لا شيء».

شحب وجه إيسي، ونفختْ في ضفيرتها ثم سحبت رأسها.

- لا شيء يا أجلوفال؟

- لا شيء يا إيسي.

ابتسمت الشاعرة.

فجأة انبعث ضجيج قادم من الممرات، صرخات وخبط أقدام. هُرِعَ الخدام من أصل نبيل والحراس إلى القاعة، وركعوا أمام الباب تمامًا، أو انحنوا بالتحيات مُشكِّلين صفيْن على الجانبيْن.

في مدخل الباب وقفت شئيناز.

شعرها الأخضر الباهت، المجدول ببراعة، مُثبَّت بإكليل بديع من الخرز واللؤلؤ. كانت ترفل بثوب بلون المياه البحرية له كشكشة بيضاء كالزبد. كان ثوبها ذا فتحة صدر واسعة جدًّا، بحيث إن مفاتن الحورية، وإن كانت مخفية جزئيًّا ومزينة بعقد من الحجر الأخضر واللازورد، بدت أنها لا تزال تستحق أعلى درجات الإعجاب.

تأوَّه أجلوفال، ساقطًا على ركبتيْه: «شئيناز. آه... شئينازي...».

اقتربتْ حورية البحر ببطء، وكانت مشيتها ناعمة منعمة بالرشاقة، منسابة كموجة مُقبِلة بخفة.

توقفتْ أمام الأمير، وشعَّت في ابتسامة من ضواحكها البيض، ثم لملمت ثوبها بسرعة، ورفعتْه براحتيْها الصغيرتيْن عاليًا بما يكفي لأن يتمكن الجميع من الحكم على جودة شغل الساحرة البحرية، الفوقسية. ابتلع جيرالت ريقه. لم يكنْ ثمة شك: لقد عرفتِ الفوقسية ما تكون السيقان الجميلة وكيف تُصنع.

صاح ياسكير: «ها! قصيدتي البالادا... إنها تمامًا كما في قصيدتي البالادا... اكتسبتْ ساقين نحيلتيْن من أجله، لكنها فقدت صوتها!».

نطقتْ شئيناز بغنائية، بأنقى لسان مشترك: «لم أفقد شيئًا. في الوقت الراهن، أصبحتُ كأنني الجديدة بعد تلك العملية».

- تتكلمين بلغتنا؟

- وماذا في الأمر؟ أهذا ممنوع؟ كيف حالكَ يا أبيض الشعر؟ أوه، وكذلك محبوبتكَ هنا، إيسي دافين، على ما أذكر. أصرتَ تعرفها أفضل، أم إنك لا تزال لا تعرفها إلا قليلًا، أو تكاد؟

تأوَّه أجلوفال بحرقة دانيًا منها على ركبتيه: «شئيناز... يا حبي! يا حبيبتي... الوحيدة... وأخيرًا بالرغم من كل شيء. بالرغم من كل شيء يا شئيناز!».

مدَّت حورية البحر إليه يدها بحركة متأنقة ليقبِّلها.

- نعم، أجل. فأنا أحبكَ أيضًا يا أحيمق. وأي حب هذا يمكن أن يكون، إن لم يكن في وسع الحبيب أن يقدم قليلًا من التضحية.

9

غادروا بريميرفورد في صباح مبكر وبارد، وسط ضباب يلتقط سطوع كرة الشمس الحمراء التي كانت تطلع من وراء الأفق.

غادروا، وكانوا ثلاثةً. تمامًا كما قرروا. لم يتحدثوا عن ذلك، لم يضعوا خططًا. ببساطة، أرادوا أن يكونوا معًا مدة ما.

تركوا الرأس البحري الحجري، ودَّعوا الجروف المتصدعة المنحدرة بشدة فوق الشواطئ، وتشكيلات الصخور الجيرية التي نحتتها الأمواج والرياح. لكنْ عندما نزلوا إلى وادي **دول أدالات** الأخضر والمُشرق بالزهور، كانت رائحة البحر لا تزال في مناخيرهم، وفي آذانهم دوي الموج المتكسِّر، وصياح النوارس المتوحش المرعب.

كان ياسكير يجود بالحديث دون توقف، دون انقطاع، قافزًا من موضوع إلى آخر، وعمليًّا لم يُنْهِ أيًّا من موضوعاته. حكى عن بلاد بارسا، حيث يُملي عُرف غبي على الفتيات أن يحافظن على عفتهن حتى يتزوجن، وحكى عن الطيور الحديدية من جزيرة إينيس بورهويت، وعن الماء الحي والماء الميت، وعن الطعم والخصائص الغريبة للنبيذ الياقوتي الذي يُسمَّى «تسيل»، وعن التوائم الأربعة الملكيين من إبينج، الأطفال الفظيعين المزعجين الذين يُسمَّون بوتزي، وجريتزي، وميتزي، ويوان بابلو فاسيرميلر.

تحدث عن الاتجاهات الجديدة في الموسيقى والشعر التي يروج لها المنافسون، وما هي، حسب ياسكير، سوى أشباح تحاكي الحركات الحية.

التزم جيرالت الصمت. وصمتت إيسي أيضًا، وربما كانت تجيب بأنصاف كلمات. شعر جيرالت بنظرها مصوبًا عليه، ذاك النظر الذي كان يتحاشاه.

عبروا نهر أدالات بالعبَّارة، وكان عليهم خلال ذلك أن يشدوا الحبال، هم أنفسهم، لأن الناقل الذي كان في حالة سُكْر احتفالية وشحوبٍ أبيض جنائزي مرتجف بصلابة، ومحدق إلى الهاوية، لم يكن بإمكانه أن يترك العمود القائم عند الظلة الذي كان يمسك به بكلتا يديه، وكان يجيب عن جميع الأسئلة التي طرحوها عليه بكلمة، بكلمة واحدة، لفظها هكذا «فُورق».

أُعجِب الويتشر بالبلد الواقع على الشاطئ الآخر لأدالات؛ كانت معظم القرى الكائنة على طول النهر محاطة بسياج دفاعي، وهذا ما وشي بسنوح فرص لإيجاد عمل.

بينما كانوا يسقون الخيل، في وقت باكر من بعد الظهر، جاءت مقلة إليه، مستغلة ابتعاد ياسكير، ولم يتمكنِ الويتشر من أن يبتعد بعد.. فاجأته.

قالت بخفوت: «جيرالت. أنا... لم أعد أحتمل هذا. إنه يفوق طاقتي».

حاول تجنب الاضطرار إلى النظر إلى عينيها. لم تسمحْ بذلك. وقفتْ قبالته تعبث باللؤلؤة الزرقاء المؤطَّرة بزهرة صغيرة من فضة، معلَّقة على جيدها. وقفت هكذا، أما هو، فَأَسِفَ لأنَّ سمكيَّ العينين مع سيفه المخفي تحت الماء، لم يكنْ محلها.

- جيرالت... علينا أن نفعل شيئًا حيال ذلك، أليس كذلك؟

انتظرتْ إجابتَه.. كلماتِه.. قليلًا من التضحية. لكنَّ الويتشر لم يكنْ لديه شيء يمكن أن يضحي به من أجلها. علم ذلك. لم يشأْ أن يكذب. وفي الحقيقة، لم يكن في وسعه ذلك، لأنه لم يملك الشجاعة ليسبب لها الألم.

لقد أنقذ ياسكير، ياسكير الموثوق، الموقفَ بظهوره فجأة. ياسكير ببراعته الموثوقة.

صرخ ودسَّ بقوة في الماء عصا أزاح بها جانبًا القصبَ وقراصَ ضفة النهر الضخم: «نعم، يقينًا! ويقينًا عليكم أن تفعلوا شيئًا حيال ذلك، لقد آن الأوان! لا رغبة لديَّ في التفرُّج مدة أطول على ما يجري بينكما! وماذا تتوقعين منه يا دمية اليد؟ المستحيل؟ وأنت يا جيرالت، ماذا تأمل؟ أن تقرأ مقلة أفكارك كمثل... كمثل تلك؟ وأنها بهذا سترضيك، وستصمت أنت بطريقة مريحة، ولستَ مضطرًّا إلى أن تشرح شيئًا ولا أن تصرِّح بشيء، أن لا ترفض

شيئًا؟ لستَ مُضطَّرًّا إلى الكشف عن نفسك؟ كم من الوقت، وكم من الحقائق يلزمكما كي تفهما؟ ومتى تريدان أن تفهما، بعد عدة سنوات، في الذكريات؟ فإننا أزمعنا على أن نفترق غدًا، إلى الشيطان! أوه، ضاق صدري بحق الآلهة، ضاق صدري منكما كليكما، ضاق إلى أقصى حد، أوه! حسنًا، اسمعا، الآن سأكسر عود البندق وأذهب لصيد السمك، وستحصلان على هنيهة تكونان فيها وحدكما، ويمكنكما أن تتحدثا بكل شيء. ليَبُحْ أحدكما إلى الآخر بكل شيء، وتفاهما معًا. هذا ليس صعبًا كما يبدو لكما. وبعدئذٍ، بحق الآلهة، افعلا ذلك. افعليه معه يا دمية اليد. افعلْه معها يا جيرالت، وكنْ طيبًا معها. وحينئذٍ، تبًّا، إما أن يسير الأمر، وإما...».

استدار ياسكير بسرعة ومضى، مكسرًا القصبة وشاتمًا. لقد صنع صنارة من عود البندق ووبر الخيل واستمر في الصيد حتى حلول الظلام.

عندما غادر، وقف جيرالت وإيسي طويلًا، متكئيْن على صفصافة معوجة مائلة على المجرى. وقفا يمسك أحدهما يديِ الآخر. ثم تكلم الويتشر، تكلم بخفوت هنيهة طويلة، أما مقلةُ مقلةَ فامتلأت بالدموع.

وبعد ذلك، بحق الآلهة، فعلا ذلك. هو وهي.

وسار كل شيء على ما يرام.

10

في اليوم التالي، أقاموا ما يشبه عشاءً احتفاليًّا. اشترى جيرالت وإيسي لحمَ حمل مطبوخًا في إحدى القرى التي مرَّا بها. بينما كانا يساومان، أخذ ياسكير خلسة الثوم والبصل والجزر من حانوتي الخضراوات خلف المنزل. وعندما غادروا، سرقوا أيضًا قِدْرًا من عند السياج خلف المِحْدَدة. كانت القِدر مثقوبة قليلًا، لكنَّ الويتشر لَحَمَها **بعلامة إجني**.

أقيم العشاء في فسحة في عمق الغابة.

فرقعتِ النار بمرح، وقرقرت القِدر. وفيها راح جيرالت يُحرِّك بعناية مستخدمًا قضيبًا مُعدًّا من رأس شجرة تنوب منزوع قشره. قشَّر ياسكير

البصل وبرش الجزر. أما مقلة التي لم تكن لديها دراية بالطهي، فجعلت وقتهم ماتعًا بعزفها على العود وغنائها مقاطع غير لائقة.

كان عشاءً احتفاليًّا. لأنهم أزمعوا على الفراق في الصباح، كل واحد منهم عليه أن يسلك طريقه الخاصة، للبحث عن شيء كان في حوزتهم أصلًا. لكنهم لم يكونوا يعلمون أنهم يمتلكونه، حتى إنهم لم يُخمِّنوا ذلك. ولم يخمنوا إلى أين ستؤدي بهم الطرق، التي كان عليهم الانطلاق فيها صباحًا.. كلٌّ على حدة!

بعد أن شبعوا، وشربوا الجعة التي قُدِّمَتْ هدية من دروهارد، راحوا يثرثرون ويضحكون، ياسكير وإيسي نظَّما مسابقات غنائية. استلقى جيرالت ويداه تحت رأسه على مفرش من أغصان التنوب، واعتقد أنه لم يسمع مثل هذه الأصوات الجميلة قطُّ، ومثل قصائد البالادا هذه، الجميلة بالقدر نفسه. فكر في ينيفر. وفكر أيضًا في إيسي. كان لديه إحساس بأن...

وفي الختام، ردَّدتْ مقلة مع ياسكير أغنية الثنائي سينثيا وفيرتفيرن الشهيرة، وهي نشيد رائع عن الحب، يبدأ بالكلمات: «أكثر من دمعة واحدة قد ذُرِفَتْ...». خُيِّلَ لجيرالت أنه حتى الأشجار انحنت، وهي تستمع لهذين الاثنين.

بعدئذٍ استلقتْ مقلة بجانبه، وقد فاحت برائحة رعي الحمام، ودسَّت نفسها تحت ذراعه، ثم أدارتْ رأسها على صدره، وتنهَّدت، ربما مرتيْن، وغفت بهدوء. وأخذ النوم الويتشرَ بعد ذلك بوقت أطول، أطول بكثير.

جلس ياسكير الذي كان يحدق إلى النار التي أوشكت أن تخبو، وحيدًا هنيهة أطول، مدندنًا بخفوت.

لقد بدأ الأمر ببضع دقات تشكَّل منها اللحن الهادئ الرشيق. كانت القصيدة المناسبة للحن تنشأ معه في وقت واحد، واندمجت الكلمات في الموسيقى، وبقيت فيها كما الحشرات في قطع الكهرمان الذهبية الشفافة.

كانت البالادا تتحدث عن أحد الويتشريين وعن إحدى الشاعرات. وكيف التقى الويتشر والشاعرة على شاطئ البحر، وسط صراخ النوارس، وكيف أحب أحدهما الآخر من النظرة الأولى. وكم كان حبهما رائعًا وقويًّا. وأكدت أن لا شيء، ولا حتى الموت، قدر على سحق هذا الحب وتفريقهما.

علم ياسكير أن أحدًا، إلا ما نَدُرَ، لن يصدق القصة التي ترويها البالادا. لكنه لم يكترث بذلك. عرف أن البالادا لا تُكتَب لكي يصدقها الناس، بل لتهزَّهم.

بعد بضع سنوات، كان بإمكان ياسكير تغيير مضمون ما يؤلِّف من قصائد البالادا، والكتابة عما قد حدث حقيقةً. لم يفعل ذلك، فالقصة الحقيقية ما كانت لتحرِّك أحدًا. فمن سيرغب في أن يسمع بأن الويتشر ومقلة افترقا ولم يرَ أحدهما الآخر بعدئذٍ، ولو مرة واحدة؟ وعن أن مقلة قد ماتت بعد أربع سنوات بسبب الجدري خلال تفشي الوباء في فيزيما؟ وعن كيف أن ياسكير، هو بالذات، مَن حملها على يديه من بين أكوام الجثث المحترقة ودفنها بعيدًا عن المدينة في الغابة، وحيدة وهادئة، ومعها شيئان، كما طلبت، عودها ولؤلؤتها الزرقاء. اللؤلؤة، التي لم تفترقْ عنها قطُّ.

لا، ياسكير بقيَ مع الشكل الأول من البالادا. بيْدَ أنه لم يغنِّها قطُّ. لم يغنِّها لأحد قطُّ.

عند الصباح، ولا يزال الظلام قائمًا، تسلل إلى مكان التخييم مستذئب جائع وهائج، لكنه رأى أن من أمامه هو ياسكير، لذا استمع للحظات ثم مضى في سبيله.

سيف القدر

1

وجد الجثة الأولى عند الظهيرة.

نادرًا ما هز مشهد القتلى الويتشر، وحدث في أحيان أكثر بكثير أن ينظر إلى الجثث دون مبالاة البتة. هذه المرة لم يكن غيرَ مبالٍ.

كان للولد من العمر ما يقرب من خمسة عشر عامًا. كان مستلقيًا على ظهره، ورجلاه مرميتان باتساع، وعلى فمه جَمُدَ شيء ما يشبه كشرة ذعر. مع ذلك، علم جيرالت أن الصبي مات على الفور، ولم يتألم، ومن المحتمل أنه لم يدرِ حتى أنه كان يحتضر. أصاب السهم عينه، وعلق عميقًا في الجمجمة، في العظم القذالي. كان السهم مُغطًّى بأرياش أنثى التدرُج المقلَّمة، الملوَّنة بالأصفر. برز مؤخر السهم من فوق رؤوس الأعشاب.

تلفَّت جيرالت من حوله بسرعة، ووجد بسهولة ما كان يبحث عنه. السهمَ الثاني المطابقَ عالقًا بجذع صنوبرة، بما يقارب ست خطوات خلفًا. لقد عَرَفَ ما حدث. لم يفهمِ الصبي التحذير، وارتعب إذ سمع صفير السهم وقعقعته، وراح يجري في الاتجاه الخاطئ. الاتجاه الذي أمره بالتوقف والتراجع حالًا. صفير الريش السام المهسهس، ونقْر النصل الذي خرق الشجرة. لا تخطُ أي خطوة بعد، أيها الإنسان. (يقول هذا الصفير وذلك النقر). اغرب، أيها الإنسان،

انقلعْ فورًا من بروكِلون. استوليتَ على كل العالم، أيها الإنسان، كل مكان مملوء بك، تحضر معكَ في كل مكان ما تسمِّيه الحداثة، وعصر التغييرات، وما تسمِّيه بالتقدم. لكننا هنا لا نريدك، لا أنت ولا تقدمك. لا نرغب في التغييرات التي تجلبها. لا نرغب في أي شيء تجلبه. (صفير ونقر). اغرب عن بروكلون!

فكرَّ جيرالت: اغرب من بروكِلون أيها الإنسان! لا يهم أكنت في الخامسة عشرة من عمرك وأنت تقطع الغابة فاقدًا صوابك من الخوف، وغير قادر على إيجاد الطريق إلى بيتكَ. لا يهم أنك في السبعين من عمرك، وعليك أن تذهب لتحتطب لأنك سوف تُطرَد من الكوخ كونكَ معدومَ الفائدة، ولن تُعطَى شيئًا تلتهمه. لا يهم أن لك من العمر ست سنوات وجذبتكَ الزهور المزرقة في فسحة الغابة المغمورة بالشمس. اغرب عن بروكلون! (صفير ونقر).

فكَّر جيرالت: قديمًا، كانوا قبل أن يطلقوا السهام ليقتلوا، يحذرون مرتيْن. وحتى ثلاثًا.

فكَّر وهو ينطلق لمواصلة الطريق: قديمًا. قديمًا.

أما الآن، فحلَّ التقدُّم.

لم تبدُ الغابة تستحق السمعة الرهيبة التي تمتعت بها. صحيح أنها كانت وحشية على نحو مرعب والمسير فيها يقترن بالعناء، لكنه كان عناءً عاديًّا يمليه التوغل في عرين الديسة الذي كل فتحة فيه وكل بقعة شمس تتسرب خلالَ الأغصان وفروع الأشجار الكبيرة المورقة، كانت تستغلها على الفور عشرات من صغار البتولا والغت والشِّرْدِ، وكذلك التوت البري والعرعر والسراخس التي تغطي بكثافة فروعها المستنقع الهش للخشب المتعفن والأغصان اليابسة وجذوع الأشجار المتفسخة الأكبر عمرًا التي خسرت المعركة، وتلك التي عاشت حياتها إلى أجلها. بيْدَ أن الغابة لم تصمتْ صمتًا ثقيلًا ينذر بالسوء، الذي كان يمكن أن يلائم هذا المكان أكثر. لا، لقد عاشت بروكلون. كانت الحشرات تطنُّ، وتحفُّ تحت أرجل السحالي، والجُعلان القزحية الراكضة تحوم، وآلاف من العناكب اللامعة شدَّت شبكاتها اللامعة من جراء القَطْر، وكانت نقارات الخشب تنقر الجذوع بسلسلة من نقرات حادة، وطيور القيق تصيح زاعقة.

وعاشت بروكلون.

بيد أن الويتشر لم ينخدع. عرف أين يكون. تذكر الصبي والسهم في عينه. رأى وسط الطحالب وإبر الصنوبر، بين الحين والآخر، عظامًا بيضًا تراكض عليها نملٌ أحمر.

تابع سيره بحذر، لكنْ بسرعة. كانت الآثار جديدة. لقد عوَّل على أنه سيلحق، وأن يتمكن من إيقاف وإرجاع الناس السائرين أمامه. وقد منَّى نفسه أن الوقت لم يفتْ بعد.

بل فات.

لم يكن ليلاحظ الجثة الثانية لولا انعكاس الشمس على نصل السيف القصير، الذي كان مضغوطًا بيد القتيل. كان هذا رجلًا بالغًا. كان زيه البسيط ذو اللون الرمادي القاتم، المخصص للاستخدام اليومي، يشي بمنشئه الوضيع. كان الزي، إذا لم نحتسب بقع الدم حول السهمين المغروسين في صدره، نظيفًا وجديدًا، لذلك لا يمكنه أن يكون خادمًا عاديًّا.

نظر جيرالت حوله ورأى الجثة الثالثة مرتدية سترة جلدية ومعطفًا أخضر قصيرًا. كانت الأرض حول رجليِ القتيل ممرَّغة، والطحالب وإبر الصنوبر مجروفة حتى مستوى الرمل. لم يكنْ ثمة شك – هذا الرجل احتضر مدةً طويلةً.

سمع أنينًا.

أزاح أغصان العرعر جانبًا، فلاحظ حفرةً عميقةً لشجرة مقتلعة، كانوا قد موَّهوا مكانها. في الحفرة وعلى جذور الصنوبرة المكشوفة يرقد رجل ضخم البنية، ذو شعر أسود ملتف ولحية على الشاكلة نفسها، تتناقض مع شحوب وجهه المرعب، لا بل الموحي بالموت. كان القفطان الناصع المصنوع من جلد الإيَّل أحمر اللون من الدماء التي عليه.

قفز الويتشر إلى الحفرة. فتح الجريح عينيه.

تأوه: «جيرالت... يا أيتها الآلهة... علَّني أحلم...».

ذُهِلَ الويتشر: « فرايكسينِت؟ أنت هنا؟».

- أنا... أوووااه...

جثا جيرالت على ركبتيْه بجانبه: «لا تتحرك. أين أُصِبْتَ؟ لا أرى السهم...».

- لقد مرَّ... جانبًا. كسرتُ رأسَه وأخرجتُه... اسمع يا جيرالت...

- ابقَ صامتًا يا فرايكسينت، وإلا اختنقتَ بدمكَ. رئتكَ مثقوبة. يا للوباء، يجب أن أخرجك من هنا. ماذا كنتم تفعلون في بروكلون، تبًّا للشيطان؟ هذه هي أراضي حوريات الغاب، بيتهنَّ المقدس، لا يخرج أحد من هنا حيًّا. ألم تكنْ تعلم ذلك؟

توجَّع فرايكسينت وبصق دمًا: «لاحقًا... سأخبرك لاحقًا... أخرجني الآن... أوه، يا للوباء! انتبه أكثر... أوووه...».

استقام جيرالت وتلفَّت: «لا أستطيع. أنت ثقيل جدًّا».

تأوَّه الجريح: «اتركني. اتركني، لا داعي... لكن أنقذها... بحق الآلهة، أنقذها...».

- من هي؟

- أميرة... أوه... جِدْها، جيرالت...

- استلقِ بهدوء، تبًّا للشيطان! سأركِّب شيئًا وأنتشلك.

سعل فرايكسينت بمشقة، وبصق مجددًا خيطَ دم كثيفًا يمتط متدليًا على ذقنه. أطلق الويتشر شتيمة، وقفز خارجًا من الحفرة، ونظر حوله. كان في حاجة إلى شجرتين صغيرتي العمر. انطلق بسرعة تجاه طرف فسحة الغابة، حيث كان قد رأى فيما سبق أجمة النغت.

(صفير ونقر).

جمد جيرالت في مكانه. كان على مؤخر السهم، المنغرس في جذع الشجرة، بارتفاعِ رأسه، ريش باز. نظر إلى الاتجاه الذي حدده عود المران؛ عَرَفَ من أين أُطلِقت السهام. بما يقارب خمسين خطوة ثمة حفرة أخرى، وشجرة ساقطة، جذورها المتشابكة بارزة إلى الأعلى، ولا تزال حاضنةً كتلة ضخمة من الأرض الرملية. تكاثف الخوخ الشوكي والظلام المقلَّم بخطوط من جذوع القَضْبان الأكثر بياضًا. لم يلمح أحدًا. كان يعلم أنه لن يرى أحدًا.

رفع كلتا يديه ببطء شديد.

– Cea´dmil! Va´ an Eithn´e mea´th e Du´en Canell! Esse Gwynbleidd!

هذه المرة، سمع صوت طنطنة وتر القوس، ورأى السهم، فهو قد أُطْلِقَ بهذه الطريقة كي يراه. إلى الأعلى على نحو شديد. نظر إليه، كيف يحلق،

وكيف ينثني، وكيف يسقط مائلًا. لم يتحرك. انغرس السهم في الطحلب عموديًا على وجه التقريب، على بعد خطوتين منه. على الفور، أو نحو ذلك، سقط سهم آخر بجانبه، بزاوية مماثلة تمامًا. خشي أنه قد لا يرى التالي.

صاح مجددًا: *Mea´th Eithn´e! Esse Gwynbleidd –!*

– Gla´eddyv vort –!

صوت مثل نسمة ريح. صوت، لا سهم. لم يمت. فكَّ مشبكَ حزامه ببطء، واستلَّ سيفه بعيدًا عنه، وألقى به. طلعتْ حورية الغاب الثانية، دون حس، من خلف جذع تنوب مطوَّق بالعرعر، بما لا يزيد على عشر خطوات منه. مع أنها كانت صغيرة ونحيفة جدًّا، بدا الجذع أرفع. لم يكن في وسعه أن يفهم كيف لم يتمكن من أن يلاحظها عندما اقترب. ربما يكون الزي قد أخفاها – لم يجعل جسدَها الرشيقَ قبيحًا، ذاك الخليط المكوَّن من أجزاء القماش المخيطة على نحو غريب في خليط من تدرجات عدَّة من اللونين الأخضر والبني، والمغطاة بأوراق الشجر وبقطع من لحائه. كان شعرها، المربوط على جبينها بمنديل أسود، زيتوني اللون، وكان وجهها مُحزَّزًا بخطوط ملوَّنة بقشور الجوز.

وطبعًا، كان قوسُها مشدودًا ومصوَّبًا إليه.

بدأ: «إيثني...».

– Tha´ess aep!

سكت مطيعًا، واقفًا دون حَراك، مبعدًا يديْه عن جذعه. لم تُنْزِلْ حورية الغاب قوسَها.

صرختْ: *– Dunca!.Braenn! Caemm vort!*

تلك التي أطلقتِ السهمَ قبل ذلك، انبثقتْ من بين الخوخ الشوكي، انزلقتْ بخفة فوق جذع ساقط، ووثبتْ ببراعة فوق الحفرة. مع أن ثمة كومة من الأغصان الجافة كانت ملقاة هناك، لم يسمع أيَّ طقطقة لأي شيء تحت قدميْها. من خلفه، قريبًا منه، سمع صوتًا خفيفًا، كأنه حفيف الأوراق في الريح. كان يعلم أن الثالثة وراءه.

الثالثة تحديدًا، هي تلك التي انزلقتْ بسرعة البرق من جانبه، والتقطتْ سيفه. وكان شعرها بلون العسل، مشدودًا بشريطة من نبات الديس. جَعبتها ملآنة بالسهام التي تتمايل على ظهرها.

اقتربتْ تلك الأبعد، القادمة من الحفرة، بسرعة. لم يكن زيُّها مختلفًا عن ملابس رفيقتيها. ارتدت على شعرها الأحمر الآجري الكامد إكليلًا مجدولًا من النَّفَل والخلنج. أمسكتْ قوسًا غير مشدودة، لكنَّ السهم كان على الوتر.

سألت وهي تقترب. كان صوتها موسيقيًّا على نحو فريد، وكانت العينان ضخمتين وسوداوين:

– *T'en thesse in mea´th aep Eithn´e llev? Ess' Gwynbleidd?*

بدأ، لكنَّ كلمات اللهجة البروكلونية التي رنَّتْ كغناء في ثغر حورية الغاب، ربطتْ حُنجرته وهيَّجت شفتيْه: «*A´e... aessea*...

ألا تتكلم إحداكنَّ اللغة المشتركة؟ لا أعرف جيدًا...».

قاطعتْه: – *An' va´ill. Vort llinge*

– أنا جوينبليد، الذئب الأبيض. السيدة إيثني تعرفني. جئتُ إليها برسالة. لقد كنتُ في بروكلون من قبل. في دوئين كانيل.

ضيَّقت الآجرية عينيْها: «جوينبليد. فاتجهيرن؟».

أكد الويتشر: «نعم».

نفختِ الزيتونية بغضب، لكنها أنزلتْ قوسها. رمقته الآجرية بعينيْها المفتوحتيْن على وسعهما، وكان وجهها، المخطط بخطوط خضر، جامدًا تمامًا، ميتًا، مثل وجه تمثال. وذاك الجمود لم يسمحْ بتصنيف هذا الوجه أجميلٍ هو أم قبيح! وبدلًا من هذا التصنيف خطرت فكرة عن عدم المبالاة وفقدان الإحساس، إن لم تكن عن القسوة. أنَّب جيرالت نفسه، شارد الفكر، على هذا الحكم، مدركًا أن أنسنة حورية الغاب تُفضِي إلى مسار خاطئ. لكنه كان عليه أن يعرف أصلًا أنها ببساطة كانت أكبر سنًّا من تيْنك الأخرييْن. وعلى الرغم من كل ما يتراءى، كانت أكبر منهما بكثير، بكثير.

وقفوا وسط صمت حائر. سمع جيرالت فرايكسينت يئنُّ، ويتأوَّه، ويسعل. ولا بدَّ أن الآجرية قد سمعتْ ذلك أيضًا، لكنَّ وجهها لم يرتعشْ حتى.

أسند الويتشر يديه إلى وَركيْه.

قال بهدوء: «هناك في الحفرة، رجل جريح ملقى. إن لم يحصل على مساعدة سيموت».

شدَّت الزيتونية قوسها، مصوبة رأس السهم إلى وجهه مباشرة:

– Tha´ess aep!

لم يرفع صوته: «تدعْنه ينفق؟ هل تسمحن له، هكذا ببساطة، بأن يختنق ببطء بدمه؟ فإذن، من الأفضل أن تُجهِزن عليه».

نبحت حورية الغاب، متحولة إلى اللغة المشتركة. لكنها أنزلتْ قوسها وأرخت الوتر: «أغلق فمك!».

نظرتْ إلى تلك الأخرى بتساؤل. أومأتِ الآجرية برأسها، وأشارتْ إلى الحفرة. جرتِ الزيتونية بسرعة ودون حس.

كرَّر جيرالت: «أريد أن أرى السيدة إيثني. أحمل رسالة...».

أشارتِ الآجرية إلى العسلية: «هي ستقودك إلى دوئين كانيل. اذهب».

- فراي... وذاك الجريح؟

رمقتْه حوية الغاب، مضيقةً عينيها، وكانت لا تزال تعبث بسهم مثبت على الوتر.

قالت: «لا تقلق. اذهب. هي ستقودك».

- لكن...

قاطعته وهي تضغط شفتيها:

– Va'en vort!

هز كتفيْه واستدار إلى تلك التي شعرها بلون العسل. وبدت أنها الصغرى بين الحوريات الثلاث، لكنه قد يكون مخطئًا. لاحظ أن عينيها زرقاوان.

- فلنذهب إذن.

قالت العسلية بخفوت: «أها».

وبعد هنيهة من التردد ردَّت إليه السيف: «لنذهب».

سأل: «ما اسمك؟».

- أغلقْ فمك.

عَبَرَتْ أرض العرين بسرعة فائقة، دون أن تتلفت حولها. كان على جيرالت بذل جهد شديد كي لا يقصر في مواكبتها. علم أن حورية الغاب تفعل ذلك عن قصد، وعلم أنها تريد أن يَعْلَقَ الإنسان الذي يتبعها متأوِّهًا في الغيضة، كي يسقط على الأرض منهكًا وعاجزًا عن مواصلة المسير. طبعًا، لم تدرِ أنها تتعامل مع ويتشر، وليس مع بشر. كانت لا تزال صغيرة جدًّا كي تعرف من يكون الويتشر.

فجأة توقفت الفتاة -بات جيرالت يعلم أنها لم تكن حورية غاب نقية الدم- واستدارت. رأى أن نهديها يتمايلان بحدة تحت ردائها المرقَّط، وأنها تكبح نفسها بصعوبة كي لا تتنفس من فمها.

اقترح بابتسامة: «هَلْ نُبطِئُ؟».

رمقته غير راغبة:

- *Yea´. Ae´en essea´th Sidh?*

- لا، أنا لست إلفيًّا. ما اسمك؟

أجابت: «برائين».

واستأنفتْ مسيرها، لكنْ بخطو أبطأ الآن، دون أن تحاول تجاوزه. سارا جنبًا إلى جنب، متقاربيْن. أحس برائحة عرقها، العرق العادي لفتاة صغيرة. كان لعرق حوريات الغاب رائحة وريقات الصفصاف المفروكة في راحتي اليدين.

- وماذا كان اسمك قبل ذلك؟

نظرتْ إليه، واعوجَّ فمها فجأةً، وظن أنها ستهتاج أو تأمره بالصمت. لم تفعل ذلك.

تكلمت على مضض: «لا أتذكر».

لم يعتقد أنها تقول الحقيقة.

لم تكن تبدو أن عمرها أكبر من ستة عشر عامًا، ولا يمكن لها أن تكون في بروكلون أطول من ستة أعوام أو سبعة، لو كانت قد أتت إلى هنا في وقت أبكر، طفلةً صغيرةً أو حتى رضيعًا، لما كان قد تعرَّف الإنسانَ القابع فيها.

لقد حدث أن كان لحوريات الغاب أيضًا عيون زرق وشعر أشقر طبيعي. إن أطفال الحوريات، الذين كانوا ثمرة علاقات في الشعائر الاحتفالية مع

الإلفيين أو مع البشر، أخذوا الخصائص العضوية عن أمهاتهم حصرًا وكانوا بناتًا حصرًا. من النادر جدًّا، وفي العادة في بعض الأجيال اللاحقة، ما كان يولد أحيانًا مع ذلك طفل له عينا الجد الأول أو شعره؛ جد النسب الذكوري المجهول. لكنَّ جيرالت كان متيقنًا من أن برائين لم تكن في عروقها حتى قطرة واحدة من دم حوريات الغاب. وفي المحصلة، لم تكن لهذا الأمر أهمية كبيرة. دم أم غير ذلك، هي الآن حورية غاب.

شزرته: «وأنت، كيف تُسمَّى؟».

- جوينبليد.

هزَّت رأسها.

- فلنسر إذن... جوينبليد.

مشيا أبطأ من ذي قبل، لكنَّ سيرهما لا يزال سريعًا.

طبعًا، كانت برائين تعرف بروكلون. لو كان جيرالت بمفرده، لما تمكن من المحافظة، لا على سرعة السير، ولا على الاتجاه الصحيح. انسلَّت برائين من خلال حاجز عرين الديسة متتبعة مسارات متعرِّجة مموَّهة، وتغلبت على الخوانق، جارية بخفة على جذوع الأشجار الساقطة، كما لو كانت جسورًا، وبقبق الماء تحت قدميها وهي تعبُر بإقدام أجزاءً لامعةً من المستنقعات المخضرَّة من عدس الماء التي لم يكن الويتشر ليجرؤ على تخطيها، ولخَسِر ساعات، إن لم يكن أيامًا، للالتفاف حولها وتجاوزها.

لم يحمِه وجود برائين من وحشية الغابة فحسب، فقد كانت ثمة أماكن أبطأت فيها الحورية خطوها، وسارت بحذر شديد، متلمسةً الدرب بقدمها، وممسكة بيده. وكان يعلم لأي سبب شاعت أساطير عن فخاخ بروكلون – وقيل عن الحفر الملأى بالعيدان المسنونة، وعن الأقواس المستعرضة، وعن الأشجار المتساقطة، وعن «القنفذ» المخيف - الكرة الشائكة على الحبل، التي تسقط فجأة، كانسة الدرب. ثمة أماكن أيضًا كانت فيها برائين تتوقف وتصفر صفيرًا موسيقيًّا، والنجوم تجيبها من الأيكة. وكانت أيضًا أماكن حدث فيها أن ألصقت يدها على السهم في غمده، آمرة إياه بالسكوت، وراحت تنتظر في توتر حتى يبتعد الشيء الذي دبَّ في الديسة.

على الرغم من مسيرهما السريع، كان عليهما التوقف في الليل. اختارت برائين المكان اختيارًا سليمًا – على تل، كانت فروق درجات الحرارة فيه

تحملها هبَّات الهواء الدافئ. ناما على السرخس اليابس، متقاربيْن جدًّا، على عادة الحوريات. في منتصف الليل، احتضنته برائين، حضنته بشدة، ولا شيء أكثر من ذلك. وكان القصد من ذلك هو الدفء. في وقت باكر، وقد أوشك الظلام أن ينقضي، انطلقا لمواصلة الطريق.

2

اجتازا شريطًا من مرتفعات ذات غطاء غابيٍّ أقل، ملتفين حول منخفضات حوضية ملأى بالضباب، وسائرين خلال فسحات عشبية شاسعة، وخلال أشجار كسرتها الرياح.

توقفتْ برائين مجددًا، وتلفتت حولها. تركت انطباعًا بأنها ضلت الطريق، لكنَّ جيرالت كان يعلم أن ذلك مستحيل. لكنه استغلَّ توقفهما عن السير، فجلس على جذع شجرة ساقط.

وعندئذ سمع صرخة رقيقة عالية يائسة.

ركعت برائين بسرعة البرق، وأخرجت من جَعبتها سهميْن مرة واحدة. التقطتْ واحدًا بأسنانها، وثبتتِ الآخر على الوتر، وشدَّتِ القوس، مصوبة كيفما اتفق، إلى مصدر الصوت من خلال الشجيرات.

صرخ: «لا تطلق!».

قفز فوق الجذع، ونفذ من خلال الأيكة.

في فسحة صغيرة عند سفح جرف صخري، وقف كائن صغير لابسًا رداءً رماديًّا، وضاغطًا ظهره على جذع شجرة شرْد يابس. أمامه، على بعد خمس خطوات، تحرك شيء ما ببطء، مزيحًا العشب جانبًا. كان طول هذا الشيء ما يقارب قامتيْن وكان بُنِّيًّا داكنًا. لأول وهلة، ظنَّ جيرالت أنه ثعبان. لكنه لاحظ الأرجل الصُّفر المعقوفة المتحركة، وأجزاء جذعه الطويل المسطحة، فأدرك أنه ليس ثعبانًا. وأنه شيء أسوأ بكثير. رفع الدخداخ العملاق قرني الاستشعار الطويليْن المرتعشيْن فوق العشب، وراح يلتقط بهما الرائحة والدفء.

صرخ الويتشر: «لا تتحرك!».

وخبط بقدميْه ليجذب إليه انتباه الحريش الكثير الأرجل. لكنَّ الدخداخ العملاق لم يرد، فقرناه قد التقطا رائحة ضحية كانت أقرب. حرَّك الوحش أرجله، وانطوى على شكل حرف «S» ومضى قُدُمًا. بَرِقَتْ يداه الصفراوان الفاقعتان وسط الأعشاب، تمامًا مثل مجدافيْ قارب.

صرخت برائين: «يغيرن!».

بلغ جيرالت فسحة الغابة بقفزتيْن طويلتيْن، منتزعًا خلال قفزه السيف من الغمد الذي كان على ظهره، وضرب مندفعًا بوَركه الكائن المتحجِّر تحت الشجرة، مُلقِيًا به جانبًا بين شجيرات التوت البري. دبَّ الحريش كثير الأرجل، وخطا خطوات قصيرة بأرجله وانقضَّ عليه، رافعًا أجزاءَ جذعه الأمامية، ومقرقعًا بالملاقط التي كانت تقطر سمًا. هز جيرالت نفسه وقفز فوق الجسد المسطح، ومن نصف دورة هوى بسيفه مُصوِّبًا في مكان أطرى بين طبقات الجذع المدرعة. لكنَّ الوحش كان فائق السرعة، فوقعتْ ضربة السيف على القشرة الكيتينية دون أن تقطعها، وقد امتصَّ زخمَ الضربة بساطُ الطحلب السميك. ارتدَّ جيرالت قافزًا، لكنْ بخفة غير كافية. لفَّ الدخداخ العملاق الجزء الخلفي من جسده حول أرجله، بقوة فظيعة. سقط الويتشر وانقلب، حاول الإفلات، لكنْ دون جدوى.

انثنى الحريش العملاق واستدار ليصل إليه بملاقطه، وكان في أثناء ذلك يخدش الشجرة بمخالبه بعنف، ولفَّ نفسه عليها. وفي هذه اللحظة صفر سهم فوق رأس جيرالت مخترقًا درع المخلوق ومسمِّرا إياه على جذع الشجرة. تكوَّر الحريش، وكسر السهم وحرَّر نفسه، لكنَّ مقذوفين تاليين نفذا فيه على الفور. أزاح الويتشر مؤخر الوحش المرفرف عن نفسه بعيدًا، فتدحرج إلى الجانب. كانت برائين ترشق بوتيرة خارقة من القوس، وهي جاثية، وتُلقِّم الدخداخ سهمًا بعد سهم. كسر الحريش أعقاب السهام وتحرر، ولكنَّ سهمًا آخر سمَّره على جذع الشجرة من جديد. كان رأس المخلوق اللامع، الأحمر الداكن، يطبق ويقرقع بملاقطه في الأماكن التي أصابتْها النصال، جاهدًا دون تفكير للوصول إلى العدو الذي كان يؤذيه.

وثب جيرالت من الجانب، وهوى بسيفه بحركة متسعة، منهيًا القتال بضربة واحدة. وكان فعل الشجرة كفعل قاطع الرؤوس.

اقتربتْ برائين ببطء، ومعها قوسها المشدودة، ركلتِ الجذع الذي كان يتلوَّى وسط العشب، محركًا أرجله، وبصقت عليه.

قال الويتشر، وهو يسحق رأس الحريش المقطوع بضربات من عقب حذائه: «شكرًا».

- أيْش؟

- لقد أنقذتِ حياتي.

رمقتْه حورية الغاب. لم يكنْ في نظراتها أي تفهُّم ولا أي عاطفة.

قالت، وهي تلكز بحذائها الجسد الضخم المتلوي: «يغيرن. لقد كسر سهامي».

كرر جيرالت: «أنقذتِ حياتي وحياة هذه الحورية الصغيرة، تبًّا لدم الكلاب، أين هي؟».

دفعتْ برائين شجيرات التوت البري جانبا ودسَّت كتفها وسط فروعها الشائكة.

قالت، وهي تُخرِج الكائن الصغير، ذا الرداء الرمادي، من الغيضة: «هكذا اعتقدتُ. انظر أنت نفسك يا جوينبليد».

لم يكن هذا الشيء حورية غاب. ولم يكن أيضًا إلفيًّا ولا سِلفيدًا ولا بوكَ ولا هوبيتيًّا. بل كان فتاة إنسية عادية إلى أقصى حد في العالم. وفي وسط بروكلون، المكان الأكثر غرابة للفتيات الإنسيات.

كان شعرها بنيًا ناصعًا ذا مسحة رمادية، وكانت عيناها خضراوين كبيرتين عدوانيتين. لا يمكن أن يكون لها من العمر أكثر من عشرة أعوام.

سأل: «من أنتِ؟ من أين أتيتِ إلى هنا؟».

لم تجب. فكَّر: أين أنا رأيتُها من قبل. لقد رأيتُها في مكان ما من قبل. رأيتُها هي، أو شخصًا آخر يشبهها كثيرًا.

قال مترددًا: «لا تخافي».

نبرت بكلمات غير واضحة. وعلى ما يبدو فإنها مزكومة: «لستُ خائفة».

تكلمت برائين فجأة، متلفتة من حولها: «فلنخرج بسرعة من هنا. أينما وُجِدَ يغيرن واحد، فسترى معه الثاني. ولم يعدْ لديَّ إلا القليل من السهام».

نظرتِ الفتاة الصغيرة إليها، فتحت فمها، ثم مسحتْ بظاهر يدها وجهها ماسحةً الغبار.

كرَّر جيرالت، منحنيًا: «من أنت بحق الشيطان؟ ماذا تفعلين في... في هذه الغابة؟ كيف وصلتِ إلى هنا؟».

نكستِ البُنَيَّةُ رأسَها، وتنشَّقت بأنفها المزكوم.

- هل أصابك الصمم؟ أسالك من أنت؟ ما اسمك؟

تمخَّطت: «سيري».

استدار جيرالت. رمقته برائين بنظرة وهي تعاين القوس.

- اسمعي يا برائين...

- ماذا؟

- هل هذا ممكن... أمِن الممكن أن تكون... هربتْ منكم من دوئين كانيل؟

- أيش؟

توتَّرَ: «لا تتظاهري بالغباء. أعلم أنكم تختطفون الفتيات الصغيرات. وأنتِ نفسكِ، ماذا، هل سقطتِ من السماء في بروكلون؟ أسألكِ، هل هذا ممكن...؟».

قاطعتْه الحورية: «لا. لم ترَها عيناي قطُّ».

حدَّق جيرالت إلى البُنَيَّة. كان شعرها البني الرمادي متناثرًا، مملوءًا بإبر الصنوبر والأوراق، لكنه فاح بالنظافة، لا بالدخان ولا برائحة البقر ولا الدهن.

ومع أن يديها كانتا متسختين على نحو لا يمكن تخيله، كانتا صغيرتين وناعمتين، لا ندوب عليهما ولا بثور. ملابسها الولادية ورداؤها ذو القبعة الحمراء التي ارتدتها، لم تكن تشي بشيء، لكنَّ حذاءها العالي كان مصنوعًا من جلد عجل طري وناعم وغالي الثمن. لا، يقينًا إنها لم تكن طفلة قروية. فجأة فكَّرَ الويتشر: فرايكسينت. هي من كان فرايكسينت يبحث عنها. لقد تبعها إلى بروكلون.

- إني أسألك، من أين أنتِ يا ذات المخاط؟

رفعتِ البُنَيَّة رأسَها بكبرياء وخبطتْ بقدمها. لكنَّ الطحلب الناعم أفسد تأثير هذا الخبط تمامًا: «كيف تخاطبني هكذا؟!».

قال الويتشر، وابتسم: «ها. تمامًا، أميرة. على الأقل في الكلام، فالمظهر بائس. أنتِ من فيردِن، أليس كذلك؟ هل تعلمين أنهم يبحثون عنك؟ لا تقلقي، سأوصلكِ إلى منزلكِ. اسمعي، يا برئين...».

عندما أدار رأسه عنها، استدارت الصغيرة على عقبها بسرعة البرق، وولتْ راكضةً خلال الغابة على سفح تل خفيف الانحدار.

زعقتْ حورية الغاب مادةً يدها إلى جَعبتها:

!Bloede turd! Caemm 'ere

جرت الفتاة الصغيرة، متعثرة، مندفعة اندفاعًا أعمى خلال الغابة، تخبط وسط الأغصان اليابسة.

صاح جيرالت: «قفي! إلى أين أيتها الطاعون!».

شدَّت برائين قوسَها بسرعة البرق. صفَّر السهم مسمومًا، مارقًا خلال قطع مستوٍ، وانغرز النصل في جذع شجرة محدثًا طقطقة، وكاد يمسُّ شعر البنت الصغيرة، فانكمشت وتهاوتْ على الأرض.

صاح الويتشر مقتربًا من الحورية: «أيتها المعتوهة خارقة العَتَه. كان يمكن أن تقتليها!».

أخرجتْ برائين من الجَعبة سهمًا آخر بخفة. قالت باعتداد: «هنا بروكلون».

- وهذه طفلة!

- وماذا يعني؟!

نظر إلى عقب السهم. كان عليه أرياش كبيرة مُقلَّمة من أنثى التدرُج مصبوغة باللون الأصفر في الماء المغلي باللحاء. لم يتفوَّه بكلمة. استدار واتجه بسرعة إلى الغابة.

كانت البنت الصغيرة مستلقية تحت شجرة، منكمشة، ورافعة رأسها بحذر، وناظرة إلى السهم المغروز في جذع الشجرة.

سمِعَتْ خُطاه فهبَّت واقفةً، لكنه عاجلها بقفزة قصيرة، وأمسك بها من قبعة ردائها الأحمر. أدارتْ رأسَها ونظرتْ إليه، ثم إلى اليد التي كانت تمسك بالقبعة. أفلتها.

- لماذا هربتِ؟

تمخَّطَتْ: «لا دخلَ لك في هذا. دعني وشأني، أنت... أنت...».

زمجر باهتياج: «أيتها العجيَّة الحمقاء. هنا بروكلون. ألم تكتفي بالحريش؟ لن تتمكني من البقاء حية حتى الصباح وحدكِ في هذه الغابة. ألم تستوعبي ذلك بعد؟».

زعقت: «لا تلمسني! أيها الخادم يا أنت! أنا أميرة، لا تفكر!».

- أنت صغيرة حمقاء.

- أنا أميرة!

- الأميرات لا يتسكَّعنَ وحدهنَّ في الغابة. أنوف الأميرات نظيفة.

فركتِ البنت أنفها براحة يدها ونظرت إلى حورية الغاب المقتربة منهما: «سآمر أن يُقطَع رأسكَ! ورأسها أيضًا!».

انفجرت برائين ضاحكة.

قاطعها الويتشر: «لا بأس إذن، يكفي هذا الصراخ. لماذا هربتِ يا أميرة؟ وإلى أين؟ وما الذي أخافك؟».

التزمت الصمت، متنشقة بأنفها.

- حسنًا. كما تشائين (غمز الحوريةَ بعينه)، نحن ذاهبان. تريدين أن تبقي وحيدة في الغابة، هذه مشيئتك. لكنْ في المرة القادمة، إن اعترضكِ يغيرن، فلا تصرخي. فهذا لا يليق بالأميرات. الأميرات يمُتن دون أنين حتى، بعد أن يمسحنَ أنوفهنَّ أولًا حتى تنظف. لنذهب يا برائين. وداعًا يا سمو الأميرة.

- انــ... تظر.

- ها؟

- سأذهب معكما.

- لنا عظيم الشرف. أليس كذلك يا برائين؟

- لكنكَ لن تقودني إلى كيسترين من جديد؟ هل تعد بذلك؟

بدأ: «من هو... آه، تبًّا لدم الكلاب. كيسترين. الأمير كيسترين؟ ابن الملك إيرفيل من فيردن؟».

نفختِ البنت شفتيْها الصغيرتين، وتمخطتْ، ثم أدارتْ رأسَها.

نطقت برائين بكآبة: «يكفي هذا العبث. أنا ذاهبة».

استقام الويتشر، ورمق حورية الغاب من أعلى: «لحظة، لحظة. لقد تغيرت الخطط بعض الشيء يا جميلتنا رامية السهام».

رفعت برائين حاجبيها: «إيش؟».

- السيدة إيثن ستنتظر. لا بدَّ لي من أن أوصل هذه الصغيرة إلى بيتها. إلى فيردن.

ضيَّقت الحورية عينيها ومدَّت يدها إلى جَعبتها.

- لن تذهبَ إلى أي مكان. ولا هي.

ابتسم الويتشر ابتسامة قميئة.

قال: «انتبهي، يا برائين. أنا لستُ الجرو الذي ألقمتِه أمسَ السهمَ في عينه من كمين. أنا قادر على حماية نفسي».

زعقتْ، رافعةً قوسها: – *Bloede arss!*

وتابعتْ: «أنت تذهب إلى دوئين كانيل، كذلك هي! لا إلى فيردن!».

ارتمتِ البنت الصغيرة ذات الشعر الرمادي الناصع على الحورية، والتصقت بفخذها النحيل: «لا! ليس إلى فيردن! أنا ذاهبة معكِ! وليذهب هو وحده إلى فيردن، إلى كيسترين الأحمق، إن أراد ذلك!».

لم تنظرْ برائين إليها حتى لو نظرة، ولم ترفعْ عينيها عن جيرالت. لكنها أنزلت القوس.

بصقت عند قدميْه: – *Ess turd!*

وتابعت: «إذن! فاذهب إلى حيث تقودك عيناك! سنرى إن كنت ستستطيع. ستنفَق قبل أن تخرج من بروكلون».

فكَّرَ جيرالت: هي محقة. ليست لدي أي فرصة. من دونها لن أخرج من بروكلون، ولن أصل إلى دوئين كانيل. لا يهم، سنرى. ربما ننجح في إقناع إيثني...

قال بنبرة تصالحية، وابتسم: «حسنًا يا برائين. لا تحنقي أيتها الحلوة. لا بأس، فليكن كما تشائين. سنذهب جميعًا إلى دوئين كانيل. إلى السيدة إيثني».

نبرت الحورية بشيء، خافضةً صوتها، وفكَّت السهم من وتر القوس.

قالت مُعدِّلة العصابة على شعرها: «لنَسِرْ إذن. لقد ضاع من الوقت ما يكفي».

أصدرت البنت الصغيرة أنينًا وهي تبدأ الخطو: «أوووه».

- ماذا هناك؟

- شيء ما حدث لي... في رجلي.

- برائين، انتظري! تعالي يا صغيرة، سأحملك على ظهري.

كانت دافئة، وفاحت منها رائحة كرائحة عصفور مبتل.

- ما اسمكِ يا أميرة؟ فقد نسيتُ.

- سيري.

- وأملاكِكِ، أين هي، إذا جاز لي السؤال؟

نبرت: «لن أقول لكَ. لن أقول لكَ وكفى».

- سأحتمل ذلك. لا تدوري، ولا تمخطي فوق أذني. ماذا كنتِ تفعلين في بروكلون؟ كنت ضائعة؟ تهتِ؟

- ما حزرتَ! أنا لا أتوه أبدًا.

- لا تدوري. هربتِ من كيسترين؟ من قلعة ناستروج؟ قبل الزفاف أم بعده؟

تمخطتْ بحماسة: «كيف علمتَ بذلك؟».

- أنا ذكي على نحو خارق. لماذا هربتِ إلى بروكلون تحديدًا؟ ألم تكن ثمة اتجاهات أكثر أمانًا؟

- حملني حصان أحمق.

- أنتِ تكذبين يا أميرة. بجسمك هذا، يمكنك أن تمتطي قطًّا على الأكثر. وبالأحرى، قطًّا وديعًا.

- مارك من قاد الحصان. هو يتعلم الفروسية خادمًا عند الفارس فويمير. وفي الغابة كبا الحصان وكُسِرَتْ رجله، وضعنا.

- قلتِ إن ذلك لا يحدث لك.

- هو من تاه، لا أنا. كان الضباب شديدًا، وضِعنا.

فكَّرَ جيرالت: ضعتُما. مسكين خادم الفارس فويمير الذي كان حظه سيئًا أن لقي برائين ورفيقاتها مصادفة. الجرو الذي لا يعرف، على الأرجح، ما تكون المرأة، يساعد الصغيرة ذات العينين الخضراوين على الهروب، لأنه شبع من الاستماع لحكايات الفرسان عن العذارى اللاتي يُجبَرن على الزواج. يساعدها على الهروب، من أجل أن يسقط بسهم حورية غاب مصبوغة الشعر، لا تعرف على الأرجح، ما يكون الرجل. لكنها باتت تجيد القتل الآن.

- قد سألتُ، هل فررتِ من قلعة ناستروج قبل الزفاف أم بعده؟

بربر: «لقد فررتُ وانتهى الأمر، وما دخلكَ في هذا؟! جدتي قالت إن عليَّ الذهاب إلى هناك وتعرُّفه، إلى كيسترين هذا، التعرف إليه فحسب، ووالده ذاك، الملك ذو البطن الضخم...».

- إيرفيل.

- ...الزواج والزواج فورًا. وأنا لا أريده كيسترين هذا. قالت الجدة...

- ألهذا الحد يثير الأمير كيسترين اشمئزازك؟

صرَّحت سيري باعتداد، متنشقةً بأنفها الذي عبثت به حتى الابتهاج: «لا أريده. إنه سمين وأحمق ورائحة فمه كريهة. قبل أن أذهب إلى هناك أروني صورة، ولم يكن في الصورة سمينًا. لا أريد زوجًا مثل هذا. ولا أريد زوجًا على الإطلاق».

قال الويتشر مترددًا: «سيري. كيسترين لا يزال طفلًا، مثلك تمامًا. بعد بضعة أعوام قد يصبح شابًّا وسيمًا كاملًا».

نفختْ وقالتْ: «فليرسلوا إليَّ صورة أخرى بعد بضعة سنوات، وإليه أيضًا. لأنه قال لي إنني كنت، في الصورة التي أروها له، أجمل بكثير. واعترف بأنه يحب ألفين سيدة البلاط، ويريد أن يكون فارسها. أترى؟ هو لا يريدني وأنا لا أريده. فلِمَ إذن الزواج؟».

تمتم الويتشر: «سيري! إنه أمير وأنت أميرة. الأمراء والأميرات هكذا تحديدًا يتزوجون، وليس بطريقة أخرى. هذا هو العرف».

- أنت تتحدث كالجميع. تعتقد أنني إذا كنت صغيرة، فيمكن الكذب عليَّ.

- أنا لا أكذب.

- تكذب.

سكت جيرالت. أجالت برائين النظرَ وهي تسير أمامهما، وربما تفاجأت بالصمت. واستأنفت المسير هازة كتفيها.

نطقتْ سيري بكآبة: «إلى أين نسير؟ أريد أن أعرف!».

التزم جيرالت الصمت.

قالت بنبرة تهديد داعمةً أمرها بتمخيط مرتفع الصوت: «أجب عندما تُسأل! أتعلم من... من الجالس عليك؟».

- لم يرد.

زمجرت: «لسوف أعضُّك في أذنِكَ!».

لم يستطعِ الويتشر التحمل أكثر من ذلك. سحب الفتاة عن رقبته ووضعها على الأرض.

قال بحدة، مثبتًا إبزيم حزامه: «اسمعي يا صغيرة. الآن حالًا سألقي بك على ركبتي، وأخلع سروالك وأنهال بالحزام على مؤخرتك. لا يمكن لأحد أن يمنعني من فعل ذلك، فهنا ليس بلاطًا ملكيًّا، وأنا لست تابعًا من حاشيتك، ولستُ خادمكَ. بعد قليل ستندمين على أنك لم تبقي في ناستروج. بعد قليل سترين أن الأفضل لكِ أن تكوني أميرة، من أن تكوني طفلة تائهة مع مخاطها في الغابة. لأن الأميرة، نعم، يُسمح لها بالتصرف على نحو لا يحتمل. والأميرة، حتى عند حدوث ذلك، فلا أحد يسوطها بالحزام على مؤخرتها، وفي أسوأ الاحتمالات لا يفعل ذلك إلا الأمير، السيد، شخصيًّا».

انكمشتْ سيري وتنشقت بأنفها عدة مرات. كانت برائين متكئة على شجرة، وهي تراقب دون شغف. سأل الويتشر وهو يلف الحزام حول معصمه: «وكيف إذن؟ هل نتصرف بلباقة وتفكُّر؟ إن لم يكن كذلك، فسنشرع في إلهاب ردفي سموها ضربًا. وإذن؟ نعم أم لا؟».

بدأت الفتاة الصغيرة تبكي وراحت تتنشق بأنفها، ثم أومأت برأسها موافقة.

- أستكونين مهذبة يا أميرة؟

نبرت: «سأفعل».

نطقت حورية الغاب: «سيحلُّ الظلام قريبًا. فلنمضِ سريعًا يا جوينبليد».

صارت الغابة أقل كثافة. ساروا خلال أحراج فتيَّة رملية، وبراحات، ومروج حجبها الضباب، كانت ترعى فيها قطعان الأيائل. صار الجو أبرد مما كان عليه.

تكلمت سيري بعد صمت طويل، طويل: «السيد النبيل...».

- اسمي جيرالت. ما الأمر؟

- أنا جائعة إلى حد فظيع.

- سنتوقف بعد قليل. سيحل الغسق قريبًا.

شهقت باكية: «لا أستطيع التحمل. لم آكل شيئًا منذ...».

مد يده إلى الحقيبة، وأخرج قطعة من الشحم وإصبعًا صغيرة من الجبن وتفاحتين: «لا تنتحبي.. هاكِ».

- ما يكون هذا الأصفر؟

- شحم.

نبرت: «لن آكل هذا».

قال على نحو غير واضح وهو يحشو فمه بالشحم: «هذا يناسب تمامًا. كلي الجبن. وتفاحة. واحدة».

- لمَ واحدة؟

- لا تدوري. كُلي كليهما.

- جيرالت؟

- هممم؟

- شكرًا.

- العفو. كلي، صحة وعافية.

- أنا لا... ليس على ذلك أشكرك. على ذلك أيضًا، لكنْ... لقد أنقذتَني من أمام الحريش... أوووف... كدتُ أموت من الخوف...

أكد بجدية: «كدتِ تموتين. (فكر: كدتِ تموتين بطريقة مؤلمة وفظيعة على نحو استثنائي). وعليكِ أن تشكري برائين».

- ومن تكون؟

- حورية غاب.

- جيفوجونا؟
- نعم.
- إنها هي من... إنهنَّ يخطفن الأطفال! هي من خطفتْنا؟ أيش، إنكَ لست صغيرًا. ولمَ هي تتحدث بمثل هذه الطريقة الغريبة؟
- تتحدث كما تتحدث، هذا لا يهم. ما يهم هو كيف تطلق السهام. لا تنسي أن تشكريها عند توقفنا عن السير.

تمخطتْ: «لن أنسى».

- لا تدوري يا ابنة الأمير، يا أميرة فيردن المستقبلية.

نبرت: «لن أفعل، لست أميرة بتاتًا».

- حسنًا، حسنًا. لن تكوني أميرة. ستصبحين قدادًا[1] وستعيشين في جحر.
- غير صحيح! أنت لا تعرف شيئًا!
- لا تصرخي في أذني. ولا تنسي الحزام!
- لن أكون أميرة. بل سأكون...
- إذن ماذا؟
- هذا سر.

رفع رأسه: «أها، هكذا إذن، سر.. رائع. ماذا حدث يا برائين؟».

هزت حورية الغاب كتفيْها بعد أن توقفتْ، ورنتْ إلى السماء.

قالت بنعومة: «لقد أُنهِكْتُ. ولعلكَ أنت أيضًا أنهكتَ وأنت تحملها يا جوينبليد. هنا نتوقف. الظلام في الوقت المناسب».

---

(1) القداد: حيوان الهمستر.

3

- سيري؟

تنشَّقت البنت الصغيرة بأنفها وهي تحف بالأغصان التي استلقت عليها: «ممم؟».

- ألا تشعرين بالبرد؟

تنهدت: «لا. الجو اليوم دافئ. البارحة... البارحة جمدت من البرد جمودًا فظيعًا، أواه».

نطقتْ برائين، وهي تحل رباطي الحذاء الطويل الناعم: «عجبٌ. طفلة ضئيلة، وقطعت كل هذه المسافة في الغابة. مرَّت خلال وحدة وحدات الاستطلاع، وخلال المستنقعات، وخلال الديسة. قوية وسليمة وشجاعة. إنَّها مفيدة... مفيدة لنا».

نظر جيرالت إلى الحورية بسرعة، إلى عينيها اللامعتين في الظلام. أسندتْ برائين ظهرها إلى شجرة، وخلعت العصابة عن شعرها، ونثرته بهزة من رأسها.

تمتمت، مستبقةً أي تعليق: «لقد دخلتْ إلى بروكلون. إنها لنا يا جوينبليد. أنا ذاهبة إلى دوئين كانيل».

رد بلؤم، لكنه كان يعلم أن برائين كانت محقة: «السيدة إيثني ستقرر..».

فكَّر ناظرًا إلى البنت الصغيرة التي تتقلب على المُلاءة الخضراء: يا للخسارة طفلة صغيرة جريئة إلى هذا الحد. أين رأيتُها من قبل؟ ليس مهمًّا. يا للخسارة! العالم كبير جدًّا وجميل جدًّا، وستكون بروكلون عالمها حتى آخر أيامها. وقد تكون أيامها قليلة. ربما فقط حتى اليوم الذي ستسقط فيه بين السرخس، وسط الصراخ وصفير السهام، وهي تقاتل في هذه الحرب التي لا معنى لها في سبيل الغابة، إلى جانب أولئك الذين لا بدَّ لهم أن يخسروا. لا بدَّ. عاجلًا أم آجلًا.

- سيري؟

- أها؟

- أين يسكن والداكِ؟

تنشقت بأنفها: «لا والدين لي. غرقا في البحر عندما كنت صغيرة».

فكَّرَ: أي نعم، هذا يوضِّح الكثير. الأميرة طفلة لزوجيْن أميريِيْن ليسا حيَّين. من يدري، أهي الابنة الثالثة بعد أربعة أبناء! وكان اللقب في الواقع العملي أقل أهمية من لقب حاجب الملك أو سائس خيله. هذا الشيء ذو الشعر الرمادي الناصع والعينين الخضراوين الذي كان يتسكع عند البلاط، يجب نبذه في أسرع وقت وتزويجه في أسرع وقت، قبل أن ينضج ويصير امرأة صغيرة، أو تهديدًا بفضيحة، أو زواجًا غير مناسب، أو سِفاحَ قربى ليس صعب المنال داخل غرف النوم المشتركة في القصر.

لم يستغربِ الويتشر هروبها. فقد تسنَّى له أن التقى مرات عدَّة بناتَ أمراء، وحتى بنات ملوك كن يَجُلنَ مع فرق ممثلين متجولين، وتمكنَّ من الفرار بسلام من ملك هرم متهالك ولكنه لا يزال متعطشًا إلى امتلاك ذرية من صلبه. كان يرى أبناء الملوك، الذين يضعون المصير غير المضمون لمأجور فوق بنت ملك عرجاء أو مجدورة يختارها الأب، ويفترض أن تكون عذريتها الذابلة أو المشكوك فيها ثمنًا للتحالف وتصاهر السلالات.

استلقى بجانب البُنَيَّةِ، وغطَّاها بسترته.

قال: «نامي. نامي أيتها اليتيمة الصغيرة».

نبرت: «حقًّا! أنا أميرة ولستُ يتيمة. ولديَّ جدة. جدتي ملكة، صدق ما أقول. إذا أخبرتها أنكَ أردتَ ضربي بالحزام، فستأمرهم جدتي بقطع رأسك، سترى ذلك».

- هذا فظيع! سيري، فلتشفقي!

- حقًّا!

- أنتِ أصلًا بنت طيبة. قطعُ الرأس يؤلم ألمًا فظيعًا. لن تقولي لها شيئًا، أليس كذلك؟

- سأقول.

- سيري.

- سأقول، سأقول، سأقول! أنت تخاف، أليس كذلك؟

- كثيرًا. تعلمين يا سيري، حين يُقطَع رأس الإنسان، يمكنه أن يموت من جراء ذلك.

- أنت تسخر؟

- مطلقًا وكيف أجرؤ!

- وستنكمش ملامح وجهك، سترى. لا مزاح مع جدتي، إذا ما خبطتِ الأرض بقدمها، ركع أعظم المحاربين والفرسان أمامها، رأيتُ ذلك بنفسي. وإذا ما عصاها أحد، طاااخ، وطار رأسه.

- هذا فظيع. سيري؟

- أها؟

- قد يقطعون رأسكِ.

- رأسي أنا؟

- طبعًا. إن جدتكِ هي من رتَّبت أمر زواجكِ من كيسترين وأرسلتكِ إلى فيردن، إلى ناستروجا. كنتِ غير مطيعة. وحال عودتكِ... طاااخ! وطار رأسكِ.

سكتت البُنَيَّةُ، حتى إنها توقفت عن الدوران. سمع كيف كانت تتلمظ وهي تعض شفتها السفلى بأسنانها الصغيرة، وكيف تتنشَّق بأنفها المزكوم.

نطقت: «ليس صحيحًا. الجدة لن تسمح بقطع رأسي، لأن... لأنها جدتي، أليس كذلك؟ أها، على أقصى تقدير سأتلقى...».

ضحك جيرالت: «أها. لا مزاح مع الجدة؟ كانت العصيُّ تعمل عملها من قبل، ها؟».

هدرت سيري بغضب.

قال: «أتدرين؟ لنخبر جدتك أنني ضربتكِ، ولا تجوز معاقبتكِ على الذنب نفسه مرتيْن. اتفقنا؟».

نهضتْ سيري على مرفقيها، محدثةً حفيفًا بين الأغصان: «أظنُّ أنكَ لستَ متعقِّلًا! لو ما سمعتِ الجدة أنك ضربتني، لقطعتْ رأسك دون تفكير!».

- إذن، ومع ذلك كله، تتأسفين على رأسي؟

سكتت البُنَيَّةُ، وتنشقت بأنفها مجددًا.

- جيرالت...
- ماذا يا سيري؟
- الجدة تعلم أنني يجب أن أعود. لا يمكنني أن أكون أميرة من أي نوع، ولا زوجة لكيسترين الأحمق. يجب أن أعود، وكفى.

فكَّر: عليكِ ذلك. ويا للأسف، هذا الأمر لا يخضع لكِ، ولا لجدتكِ. بل يخضع لمزاج العجوز إيثني، ولمهاراتي في الإقناع.

تابعت سيري: «الجدة تعرف ذلك. لأنني... جيرالت، احلفْ أنكَ لن تخبر أحدًا. إنه سر رهيب. فظيع، أؤكد لكَ. هيا أقْسِمْ».

- أُقسِمُ.
- حسنًا، سأقول لك. كانت والدتي ساحرة، صدِّق ما أقول. وكان أبي أيضًا مسحورًا. أخبرتْني ذلك كله إحدى المربيات، وحين علمتْ جدتي بالأمر، حدثت مشاجرة رهيبة. فأنا منذورة، أتعلم؟
- لأي شيء؟

تكلمتْ سيري مهمومة: «لا أدري. لكنني منذورة. هذا ما قالتْه المربية. وصرَّحت الجدة أنها لن تسمح بذلك، حتى لو انهار القصر المئبو... المموبوء قبل ذلك. أتفهم؟ وقد قالت المربية إن القدر، مهما كان الأمر، لا شيء يردُّه. ها! ثم بكتِ المربية، وزمجرتِ الجدة. أترى؟ إنني منذورة. لن أكون زوجة لكيسترين الأحمق. جيرالت؟».

تثاءب، حتى طقطق فكه الأسفل: «نامي. نامي يا سيري».

- احكِ لي حكاية.
- ماذا؟

نفختْ قائلة: «قصَّ عليَّ حكاية. كيف سأنام دون حكاية؟ أنت هيا!».

- حكايات خرافية؟ يا لدم الكلاب، أنا لا أعرف أيَّ حكاية. نامي.
- لا تكذب. فأنت تعرف. ألم يقصِّ الحكايات عليكَ أحد، عندما كنت صغيرًا؟ علامَ تضحك؟
- لا شيء. لقد تذكرتُ شيئًا.
- أهًا! ترى. إذن، احكِ لي.

- ماذا؟

- حكاية.

ضحكَ مجددًا، ووضع يديه تحت رأسه، رانيًا إلى النجوم المتلألئة من خلف الأغصان فوق رأسيهما.

بدأ: «في قديم الزمان، كان... قطٌّ. صياد فئران عادي تمامًا ومخطط الجسم. وذات مرة، مضى هذا القط وحده في رحلة طويلة إلى غابة مظلمة مخيفة. سار... سار... سار...».

تمتمت سيري، وهي تحتضنه: «صدِّقني، إنني سأغفو قبل أن يصل».

- اسكتي، يا صغيرة. نعم... سار، سار حتى لقي ثعلبًا. ثعلبًا أحمر.

تنهَّدت برائين واستلقتْ بجانب الويتشر، من الجهة الثانية، وأيضًا معانقة إياه قليلًا.

تنشَّقت سيري بأنفها: «إذن... احكِ ماذا كان لاحقًا».

- نظر الثعلب إلى القطِّ. سأل: من أنت؟ أجاب القطُّ: أنا القطُّ. قال الثعلب: ها ولا تخاف أيها القطُّ من التجول وحدكَ في الغابة؟ وإن أتى الملك إلى الصيد، فماذا؟ ومعه الكلاب ومطاردو الحيوانات على الخيول؟ أقول لكَ يا قطُّ، يجب أن تفعل شيئًا، (واصل الثعلب)، الصيد مصيبة رهيبة لمن هم مثلك ومثلي. لديك فروة ولديَّ فروة، ولن يترك الصيادون من هم مثلنا أبدًا، فللصيادين خطيبات وعشيقات، وكلما جمدت أيديهم ورقابهم من البرد، جعلوا منا ياقات وكُمِّيَّات لملابس الغواني.

سأل سيري: «وما الكُمِّيات؟».

- لا تقاطعي. وأضاف الثعلب: أنا أيها القطُّ أقدِر على أن أمكر بهم، ولديَّ ألف ومئتان وست ثمانون طريقة ضد الصيادين، أنا ماكر إلى هذا الحد. وأنت أيها القط، كم طريقة لديك ضد الصيادين؟

قالت سيري وهي تحضن الويتشر بقوة أشد: «أوه، يا لها من حكاية جميلة. احكِ، والقطُّ؟».

همست برائين من الجهة الثانية: «أها. والقطُّ؟».

أدار الويتشر رأسه. لمعت عينا حورية الغاب، كان فمها نصف مفتوح وكانت تُحَرِّك لسانها عليه. فكر: طبعًا، الحوريات الصغيرات متعطشات إلى

الحكايات. تمامًا مثل الويتشريين الصغار. فأبناء هذيْن الجنسين نادرًا ما قصَّ أحد عليهم الحكايات قبل النوم. تغفو الحوريات الصغيرات على حفيف الأشجار. ويغفو الويتشريون الصغار وهم يُصغون إلى آلام عضلاتهم. ونحن أيضًا كانت أعيننا تلتمع، مثل عينيْ برائين، حينما كنا نستمع لحكايات فيسمير، هناك في كاير مورهن. لكن ذلك كان منذ زمن بعيد... بعيد جدًّا...

نفد صبر سيري: «حسنًا، ماذا بعد؟».

- وردَّ القط: أنا يا ثعلب ليست لدي أيُّ طريقة. لستُ قادرًا إلا على شيء واحد: الوثوب على الشجرة. ويفترض أن يكفي هذا، حقًّا؟ ضحك الثعلب وقال: آخ، يا لكَ من أحمق. اقلب ذيلكَ المخططَ واهربْ من هنا، فستهلك هنا، إذا بدأ الصيادون في تطويق المكان. فجأة ودون أيِّ مقدمات، انبثقتْ أصوات الأبواق! ووثب من بين الشجيرات الصيادون، ورأوا القطَّ والثعلب، فكَرُّوا عليهما!

تمخطتْ سيري، وتحركت الحورية فجأة: «أوه!».

- اهدئي. وكَرُّوا عليهما صارخين: هيا، اسلخوا عنهما جلديْهما! إلى الكُمِّيات، إلى الكُمِّيات! وحرَّشوا الكلاب على الثعلب والقط. ونطَّ القطُّ على الشجرة، على الطريقة القطية. حتى بلغ رأس الشجرة. أما الكلاب فصاحت: تعالَ يا ثعلب! قبل أن يتمكن أحمر الفروة من استخدام أي طريقة من طرقه الماكرة، كان قد صار ياقة. أما القطُّ فكان يموء من أعلى الشجرة ويهسهس على الصيادين، وهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئًا به، إذ إن الشجرة كانت بالغة الطول. وقفوا أسفلها، وكالوا الشتائم بكل ما جادت به قرائحهم، لكنْ كان عليهم أن يعودوا بخُفَّيْ حُنَيْن. عندئذٍ نزل القط من الشجرة وعاد بهدوء إلى المنزل.

- وماذا بعد؟

- لا شيء. هذه هي النهاية.

سألت سيري: «وما المغزى؟ للحكايات مغازٍ أخلاقية، أليس كذلك؟».

تكلمت برائين، وهي تحضن جيرالت بقوة أشد: «ها؟ وما يكون المغزى؟».

قالت سيري بقناعة وهي تتنشق بأنفها: «للحكاية الجيدة مغزى أخلاقي، وليس للحكاية السيئة أي مغزى».

تثاءبت الحورية: «هذه كانت جيدة. لذا، لديها ما يجب أن يكون لديها. كان ينبغي، يا صغيرتي، قبل انقضاض يغيرن القفز على الشجرة، مثل ذلك الهر الفهيم. وليس التفكُّر، بل إلى الشجرة في الوقت المناسب. هذه هي الحكمة كاملة. النجاة. لا تمكِّنيهم منكِ».

ضحك جيرالت بصوت خفيض.

- ألم تكنْ ثمة أشجار في حديقة القصر يا سيري؟ في ناستروج؟ بدلًا من بروكلون هذه، كان بإمكانكِ تسلق شجرة والجلوس هناك، على رأس الشجرة نفسه، إلى أن تنطفئ رغبة كيسترين في التزوج.

- هل تسخر؟

- أها.

- أتعلم؟ أنا لا أطيقك.

- هذا مروِّع. سيري، لقد طعنتِني في صميم قلبي.

وافقتْه بجدية، متنشقةً بأنفها، ثم حضنتْه بقوة: «أعلم».

تمتم مستنشقًا رائحتها الطيبة – رائحة العصفور: «نامي جيدًا يا سيري. نامي جيدا. ليلة طيبة يا برائين».

– Dea´rme, Gwynbleidd.

كانت بروكلون تهدر فوق رؤوسهم بمليار من الغصون ومئات المليارات من الأوراق.

4

في اليوم التالي، وصلوا إلى **الأشجار**. ركعتْ برائين، وأحنت رأسها. شعر جيرالت أن عليه أن يفعل الشيء ذاته. تنهَّدت سيري من شدة الإعجاب. كانت الأشجار -وأولها البلوط والطقسوس والكارية- يصل محيطها حتى العشرين قامة. لم تكن ثمة وسيلة لتقدير الارتفاع الذي تبلغه تيجانها. بدت النقاط، التي كانت الجذور الملتوية التواءً هائلًا تتحول فيها إلى جذع مستقيم، بدتْ

عالية فوق رؤوسهم. كان يمكنهم أن يسيروا بسرعة أكبر، إذ لم يكن أمامهم إلا بساط الأوراق المتعفنة، فقد نما الشجر العملاق في تباعد وندرة، ولم يصمد في ظلاله أي نبات آخر.

كان يمكنهم السير بسرعة أكبر. لكنهم مشوا ببطء، حانيي الرؤوس. كانوا هنا، بين **الأشجار**، صغارًا غير مهمين ولا قيمة لهم، ولا يُحسَب لهم حساب. حتى سيري التزمتِ الصمت؛ لم تنطق خلال ما يقارب نصف ساعة.

وبعد ساعة من المسير، تجاوزوا حزامَ **الأشجار**، وتوغلوا مجددًا في الأخاديد، في غابات الزان الرطبة.

أرهق الزكام سيري أكثر فأكثر. لم يكن في حوزة جيرالت منديل، وبعد أن ضاق من تنشقها المتواصل لأنفها، علَّمها كيف تتمخط بأصابعها. أعجب ذلك البنية كثيرًا. كان الويتشر، وهو يرقب بسمتها الصغيرة وعينيها اللامعتين، مقتنعًا اقتناعًا عميقًا أنها تستمتع بفكرة أنها ستتمكن قريبًا من التباهي بحيلة جديدة في القصر، في أثناء وليمة احتفالية أو خلال جلسة استماع لسفير ما وراء البحار.

توقفتْ برائين فجأة واستدارت.

قالت، وهي تحلُّ المنديل الأخضر الملفوف حول المرفق: «جوينبليد. تعالَ. سأعصب عينيْك. هذا لازم».

- أعلم.

- سأقودكَ. هاتِ يدك.

عارضتْ سيري: «لا. أنا سأقوده. حسنًا، يا برائين؟».

- حسنا، يا صغيرتي.

- جيرالت؟

- أها؟

- ماذا تعني جوين... بليد؟

- تعني الذئب الأبيض. هكذا تسميني حوريات الغاب.

- انتبهْ، ثمة جذر. لا تتعثر به! يسمينك هكذا لأن شعرك أبيض؟

- نعم... تبًّا لدم الكلاب!

- قد قلتُ لكَ، ثمة جذر.

ساروا ببطء. كانت الأرض زلقة تحت أقدامهم جراء الأوراق الساقطة. شعر بالدفء على وجهه، نفذ بريق الشمس خلال العصابة التي غطَّى عينيه بها.

سمع صوت سيري: «أوه، جيرالت. ما أجمل المكان هنا... يا لها من خسارة أنك لا تستطيع أن ترى. ما أكثر الزهور هنا. والطيور، هل تسمع كيف تشدو؟ أوه، ما أكثرها هنا. كثيرة جدًّا. أوه، والسناجب أيضًا. انتبه، سوف نعبر جُسيْرًا حجريًّا على نُهَيْر صغير. احذر أن تسقط في الماء. أوه، ما أكثر السمك هنا! يملأ الماء. يسبح فيه، أوَ تعلم؟ ما أكثر الحيوانات الصغيرة هنا، ياه. ربما لا وجودَ لمثل هذا العدد الضخم في أي مكان. ربما لا مثيل له...».

تمتم: «ولا في أي مكان. ولا في أي مكان. هنا بروكلون».

- ماذا؟

- بروكلون. المكان الأخير.

- لا أفهم...

- لا أحد يفهم. لا أحد يريد أن يفهم.

5

- انزعْ عصابتك يا جوينبليد. الآن يمكنك ذلك. لقد وصلنا إلى المكان المطلوب.

وقفتْ برائين في طبقة كثيفة من الضباب غطتها حتى ركبتيها.

أشارت بيدها: «دوئين كانيل».

دوئين كانيل، مكان البلوط. قلب بروكلون.

لقد كان جيرالت هنا من قبل. مرتيْن. لكنه لم يخبر أحدًا بذلك. فما كان أحد سيصدقه.

المنخفض الحوضي المغلَق بتيجان أشجار عظيمة خضراء. المغمور بالضباب والأبخرة المنبعثة من الأرض، ومن الصخور، ومن الينابيع الساخنة. المنخفض الحوضي... ارتجفتِ الميدالية حول رقبته قليلًا.

المنخفض الحوضي المغمور بالسحر. دوئين كانيل. قلب بروكلون.

رفعتْ برائين رأسَها، وعدَّلت الجعبة على ظهرها.

- سنذهب. هاتي يدكِ يا صغيرتي.

في البداية، بدا المنخفض ميتًا ومهجورًا. ولم يدمْ ذلك طويلًا. انبعث صفيرٌ عالٍ متغيرُ النغمات، فانزلقتْ بخفة على دركاتٍ تكاد لا تُلاحَظ من الفطر الشجري الذي أحاط بأقرب جذع على نحو لولبي، انزلقت حورية غاب نحيلة، ذات شعر داكن ترتدي، كما الأخريات، زيًّا تمويهيًّا مرقَّطًا.

– *Cea´d, Braenn.*

– *Cea´d, Sirssa. Va'n vort mea´th Eithn´e a´?*

ردَّت ذات الشعر الداكن، وهي تقيس الويتشر بنظرة طويلة موحية:

– *Ne´en, efder. Ess' ae'n Sidh?*

ابتسمت، والتمعت بأسنانها البيض. كانت فاتنة على نحو فائق، حتى وفقًا للمعايير البشرية. أحسَّ جيرالت بعدم الاطمئنان والحمق، مدركًا أن حورية الغاب تُقيِّمه بنظراتها دون حرج.

أدارت برائين رأسها:

– *Ne´en. Ess' vatt'ghern, Gwynbleidd, a´ va´en mea´th Eithn´e va, a'ss.*

عوجت الحورية الفاتنة شفتيها:

– *Gwynbleidd? Bloede ca´erme! Aen'ne caen n'wedd vort! T'ess foile!*

ضحكت برائين ضحكة خافتة.

سأل الويتشر وقد بدأ يغضب: «ما الأمر؟».

ضحكتْ برائين ضحكة خافتة مجددًا: «لا شيء. لا شيء. لنذهب».

انبهرتْ سيري: «أوه. انظر يا جيرالت، يا لها من بيوت صغيرة مضحكة!».

في عمق المنخفض الحوضي، بدأت فعلًا دوئين كانيل، وهي «منازل صغيرة مضحكة»، تشبه بشكلها كرات الهدال[1] العملاقة، تلاصقتْ بالجذوع وفروع الأشجار بأطوال مختلفة، من القصيرة فوق الأرض مباشرة وحتى العالية، بل العالية جدًّا – تحت تيجان الأشجار تمامًا. لاحظ جيرالت أيضًا عددًا من هياكل أكبر فوق الأرض، وأكواخًا من فروع متشابكة لا تزال مغطاة بالأوراق. رأى حركة في ثقوب المقار، لكنْ لم يكد يظهر للحوريات أنفسهنَّ أي أثر. كان عددهن أقل بكثير مما كان عليه عندما جاء إلى هنا في المرة السابقة.

همست سيري: «جيرالت. هذه المنازل تنمو. إن لها أوراقًا!».

أومأ الويتشر برأسه: «إنها مصنوعة من الشجر الحي. هكذا تحديدًا تعيش حوريات الغاب، هكذا يبنين منازلهنَّ. الحورية، أيُّ حورية غاب، لا تؤذي الشجر أبدًا، لا تقطعه ولا تنشره بالمنشار. إنهنَّ يعشقن الأشجار، ومع ذلك يمكنهنَّ جعل الفروع تنمو على نحو يسمح بإنشاء منازل صغيرة!».

- رائع. أتمنى لو كان لديَّ منزل مثل هذا في حديقتنا.

توقفتْ برائين أمام أحد أكبر الأكواخ.

قالت: «ادخلْ يا جوينبليد. ستنتظر هنا السيدة إيثني. ***Va´ fa´ill*** يا صغيرتي».

- ماذا؟

- هذه كانت كلمة وداع يا سيري. قالت: إلى اللقاء.

- آه. إلى اللقاء يا برائين.

دخلا. كان «المنزل الصغير» يومض في داخله كمشكال[2]، من جراء البقع الشمسية المضغوطة والمغربَلة من خلال هيكل السقف.

- جيرالت!

- فرايكسينت!

(1) الهدال: نبات طفيلي يعيش على أغصان الشجر على شكل كرة، يسمى أيضًا الدبق.

(2) المِشْكال (Kaleidoscope): هو أنبوب مرايا، ينظر المشاهد فيه من طرف ويدخل الضوء من الطرف الآخر، منعكسًا من على المرايا.

لمعت أسنانُ الجريح الذي حاول النهوض من على تخت من خشب التنوب. رأى سيري المتشبِّثة بفخذ الويتشر فاتسعت عيناه، واعترتْ وجهه حمرة الخدين: «أنتِ حيَّة، فلتأخذني الشياطين!».

زعق: «أيتها اللعنة الصغيرة! بسببكِ كدتُ أفقد حياتي! أوه، أنتِ محظوظة لأنني لا أستطيع النهوض، لو استطعتُ القيام لسلختُ جلدك ودبغته!».

نفختْ سيري شفتيها الصغيرتين.

قالت، مُجعِّدةً أنفها بطريقة مضحكة: «هذا شخص آخر يريد أن يضربني. أنا فتاة صغيرة، وضرب الفتيات ممنوع!».

راح فرايكسينت يسعل: «كنت سأريكِ... ما المسموح، أيتها الوباء! إيرفيل هناك يفقد صوابه... يرسل دعوات إلى الفرسان، وهو يرتعد خوفًا، من أن جدتك ستنطلق إليه بجيشها. من سيصدق قوله إنكِ هربت وحدكِ؟ يعلم الجميع من هو إيرفيل وماذا يحب. يعتقد الجميع أنه... فعل بكِ شيئًا وهو ثمل، وبعد ذلك أمر بأن يُغرقوكِ في البركة! الحرب مع نيلفجارد على وشك الانفجار، وبسببكِ صار الاتفاق والتحالف مع جدتكِ في قبضة الشياطين! أترين ماذا فعلتِ؟!».

حذَّره الويتشر: «لا تُثِرْ نفسكَ، فقد يصيبك النزيف. كيف وصلتَ إلى هنا بهذه السرعة؟».

- الربُّ وحده يعلم، كنتُ جُلَّ الوقت فاقد الوعي. سكبن في حلقي شيئًا مثيرًا للاشمئزاز. بالقوة. سددن منخاريَّ و... يا للعار، أمَّ الكلاب...

- إنك تعيش بفضل ما سكبوا في حلقك. حملوك إلى هنا؟

- جرجرنني على زلاجة. سألتُ عنكَ ولم يقلن شيئًا. كنتُ على يقين من أنكَ أُصِبْتَ بسهم. فجأة عندئذٍ اختفيتَ... وهأنت سليم معافى، ودون قيد حتى، وإضافة إلى ذلك، تفضَّلْ! لقد أنقذتَ الأميرة سيريلا. فليأخذني الطاعون، أنت تتدبَّر أموركَ في كل مكان يا جيرالت، ودائمًا ما تحطُّ كالقط على أربع.

ابتسم الويتشر ولم يُجِبْ. سعل فرايكسينت بمشقة، أدار رأسه وبصق لعابًا ورديًّا.

أضاف: «نعم. وحقيقة أنهنَّ لم يجْهزن عليَّ، كان أيضًا بفضلك دون أدنى شك. إن المامونات اللعينات يعرفنَك. هذه المرة الثانية التي تنقذني فيها من المتاعب».

- دعك مني يا بارون.

حاول فرايكسينت الجلوس متأوهًا، لكنَّه عَدِلَ عن ذلك.

شخر: «لا شيء من بارونيتي إلا البراز. كنتُ بارونًا في هام. والآن أنا أشبه بمحافظ عند إيرفيل في فيردن. أعني أنني كنتُ. حتى إذا خرجت من هذه الغابة بطريقة ما، فلن يكون مكان لي في فيردن، إلا منصة المقصلة. لقد فرَّت هذه الفأرة الصغيرة، سيريلا، من بين يديَّ وأيدي الحرس. فماذا تظن؟ أنني بدافع من الخيال سرتُ ومعي اثنان إلى بروكلون! لا يا جيرالت، أنا كذلك هربتُ، وكان ممكنًا أن أعوِّل على رحمة إيرفيل، فقط إذا ما تسنَّت لي إعادتها. ومن ثَمَّ لقينا المامونات الملعونات... لولاكَ، لهلكتُ هناك في الحفرة. لقد أنقذتَني مرة أخرى. إنه القدر، هذا واضح كالشَّمس».

- أنت تبالغ.

هزَّ فرايكسينت رأسه.

كرَّر: «إنه القدر. قدر محتوم، مكتوب سلفًا أننا سنلتقي مرة أخرى أيها الويتشر. أنكَ أنتَ الذي ستنقذني مرة أخرى. أتذكَّر أن ذلك ذُكِرَ في **هام** بعد أن فككتَ عني سحر الطير ذلك».

قال جيرالت ببرود: «مصادفة. مصادفة يا فرايكسينت».

- أيُّ مصادفة هذه، تبًّا لدم الكلاب، أصلًا لولاكَ لكنتُ على الأرجح حتى يومنا هذا غرابَ بحر...

صاحتْ سيري مستثارةً: «أنتَ كنتَ غراب بحر؟ غرابَ بحر حقيقيًّا؟ طيرًا؟».

كشَّر البارون عن أسنانه: «كنتُ. سحرتْني واحدة من ذلك النوع... عاهرة... لتأخذها الكلاب... سحرتْني بدافع الانتقام».

قالت سيري مُجعِّدة أنفها: «لعلكَ لم تعطِها فروة. من أجل هذه، هذي... الكُمِّية».

احمرَّ فرايكسينت قليلًا، ثم حدج الفتاة الصغيرة بنظرة تهديد: «كان يوجد سبب آخر. لكنْ في أي شيء يهمكِ هذا أنتِ يا خنيفساء!».

أبدتْ سيري تعابير غاضبة، وأشاحت وجهها عنه.

سعلَ فرايكسينت وتنخَّم: «نعم. أينَ أنا توقفتُ... أها، توقفتُ عند كيف فككتَ السحر عني في هام. لولاك يا جيرالت لبقيتُ غرابَ بحر حتى نهاية عمري، ولظللتُ أحوم طائرًا حول البحيرة وألطِّخ الأغصان بالبراز، متوهمًا أن ما سينقذني هو قميص من لحاء القراص تنسجه أخيَّتي بعناد جدير بقضية أفضل. تبًّا لدم الكلاب، كلما تذكرتُ قميصها هذا، نازعتْني رغبة عارمة في أن أركل أحدًا ما. تلك البَلهاء...!».

ابتسم الويتشر: «لا تقلْ هكذا. لقد كانت نيتها حسنة على أفضل وجه. ما بُلِّغَتْ به كان غير صائب، هذا كل ما في الأمر. تدور حول فك الأسحار كثير من الأساطير الخرافية التافهة. لقد كنتَ محظوظًا يا فرايكسينت على أي حال. كان يمكنها أن تأمركَ بالغطس في الحليب المغلي. لقد سمعتُ بمثل هذا الحادث. التغطية بقميص من نبات القراص، كيفما نظرت إلى الأمر، ضررها قليل على الصحة، حتى إن كانت فائدتها قليلة».

- ها، قد يكون هذا صحيحًا. ربما أتطلب منها الكثير. إليزا كانت حمقاء دائمًا، منذ طفولتها كانت حمقاء، وحلوة كما ينبغي، ومادة رائعة لتكون زوجة للملك.

سألتْ سيري: «ما المادة الرائعة هذه؟ ولماذا تكون زوجة؟».

- قلت لكِ لا تتدخلي يا خنيفساء. نعم يا جيرالت، كنتُ محظوظًا لأنكَ ظهرتَ في **هام** حينئذٍ. وأن صهر الملك كان مستعدًّا لدفع تلك الذهبات البندقية القليلة التي طالبتَ بها لفك السحر.

قال جيرالت مبتسمًا ابتسامة أوسع: «أتعلم يا فرايكسينت أن الخبر عن هذا الحدث قد انتشر انتشارًا واسعًا؟».

- روايته الحقيقية؟

- ليس تمامًا. أولًا، أُضيفَ إليك عشرة إخوة.

أسند البارون نفسه إلى مرفقه، وسعل: «أوه، لا. وإذن، وإذا حسبنا إليزا، كان يفترض أن نكون اثنيْ عشر فردًا؟ يا له من غباء مروِّع! أميمتي لم تكن أرنبة!».

- هذا ليس كل شيء. من المعروف أن غراب البحر قليل الرومانسية.

تجهَّم البارون، وهو يلمس صدره الملفوف بالنسيج اللحائي وقطعٍ من قِلف البتولا: «لأنه كذلك! لا شيء رومانسي فيه! فإلى أي شيء حُوِّلْتُ بالسحر إذن، حسب الرواية؟».

- إلى بجع. أقصد إلى بجعة. كنتم أحد عشر فردًا، لا تنسَ ذلك.

- وبأي شيء، بحق الطاعون الفاضح، يكون البجع أكثر رومانسية من غراب البحر؟

- لا أعلم.

- وأنا كذلك. لكنني أراهن أن إليزا، وفْق الرواية، هي من فكَّتِ السحر عني بمساعدة قميصها الرهيب المنسوج من القراص؟

- لقد فزتَ. وما أحوال إليزا؟

- مصابة بالسل، مسكينة. لن تصمد طويلًا.

- هذا محزن.

أكد فرايكسينت دون حماسة، وهو ينظر جانبًا: «محزن».

أسند جيرالت ظهره إلى حائط الأغصان اللولبية المتشابكة: «عودة إلى السحر... ليست لديكَ ارتدادات؟ لا تنمو لك أرياش؟».

تنهَّد البارون: «لا، والحمد للآلهة. كل شيء على ما يرام. الشيء الوحيد الذي تبقَّى لي من تلك الأزمان هو اشتهاء السمك. ما من طعام بالنسبة إليَّ يا جيرالت أفضل من السمك. أحيانًا، أذهب في الصباح الباكر إلى الصيادين، عند المرسى، وقبل أن يبحثوا لي عن شيء أفخر نوعًا، آخذُ حفنة أو حفنتين من السمك الأبيض من حاوية السمك الحي أو بعض أسماك اللوش أو السمك النهري أو السكواليوس السيفالوس... إنه متعة وليس طعامًا».

قالت سيري ببطء، ناظرة إلى جيرالت: «هو كان غرابَ بحر. وأنت فككتَه عن السحر. يمكنكَ استخدام السحر!».

قال فرايكسينت: «من الطبيعي، كما يبدو، أنه يجيد ذلك. إن كل ويتشر يتقن ذلك».

- ويتشــ... ويتشر؟

- ألم تعلمي أنه ويتشر؟ جيرالت الريفاوي الشهير؟ حقًّا، مِن أين لخنيفساء مثلكِ أن تعلم من هو الويتشر. لم تعد الأمور الآن كما كانت عليه قديمًا. قلة هم الويتشريون الآن، تكادين لا تلقينهم. ولعلكِ لم تري قطُّ أيَّ ويتشر طوال حياتك؟

هزَّت سيري رأسها ببطء، دون أن ترفع عينيها عن جيرالت.

- الويتشر يا خنيفساء، هو ها... (توقف فرايكسينت وشحب وجهه، وهو يرى برائين تدخل الكوخ) لا، لا أريد! لن أسمح بأن يُسكَب أيُّ شيء في فمي، أبدًا، أبدًا بعد الآن! جيرالت! قل لها...

- اهدأ.

لم تُشرِّف برائينُ فرايكسينتَ إلا بنظرة عابرة، ولا شيء غيرها.

ذهبتْ فورًا إلى سيري التي كانت تجلس القرفصاء بجوار الويتشر.

قالت: «تعالي. تعالي يا صغيرة».

عبستْ سيري: «إلى أين؟ لن أذهب. أريد أن أكون مع جيرالت».

ابتسم الويتشر مُكرهًا: «اذهبي. سوف تلعبين مع برائين والحوريات الشابات. سوف يُرينك دوئين كانيل...».

قالت سيري ببطء شديد: «إنها لم تعصِّبْ عينيَّ. لم تعصِّبْ عينيَّ عندما سرنا إلى هنا، ولكنها عصَّبتك. حتى لا تستطيع أن تصل إلى هنا عندما ترحل. هذا يعني...».

نظر جيرالت إلى برائين. هزَّت حورية الغاب كتفيْها، ثم عانقتِ الفتاة الصغيرة واحتضنتها.

- هذا يعني... -انقطع صوت سيري فجأة- هذا يعني أنني لن أذهب من هنا. أليس كذلك؟

- لا أحدَ يهرب من مصيره.

أدارَ الجميع رؤوسهم عند سماع هذا الصوت. الخفيض، لكنْ حاد النبرة ومتين وحازم. الصوت الذي يجبر السامع على الإنصات، ولا يقيم وزنًا للاعتراض.

انحنت برائين. ركع جيرالت على ركبة واحدة.

- سيدة إيثني...

ارتدَتْ حاكمة بروكلون رداءً ذا لون أخضر نضر، ورقيقًا وخفيفًا وطويلًا يلامس الأرض. كانتْ قصيرةً ونحيفةً كمثل معظم حوريات الغاب، ولكنَّ رأسها كان مرفوعًا بكبرياء، وملامح وجهها جادة وحادة، وفمها الحازم جعلها تبدو أطول وأضخم. وكان شعرها وعيناها بلون الفضة المصهورة.

دخلت الكوخَ رفقةَ حوريتيْ غاب أفتى منها ومسلحتيْن بقوسيْن. أومأت برأسها إلى برائين دون كلمة، وعلى الفور أمسكتْ بيد سيري وشدَّتها تجاه المخرج، خافضةً رأسها بشدة. خطتْ سيري بتثاقل ودون مرونة، شاحبةً وغير قادرة على الكلام. وإذ مرتْ بجانب إيثني، أخذتْها الحورية ذات الشعر الفضي إلى تحت ذقنها بحركة سريعة ورفعتها، وحملقتْ إلى عينيِ الفتاة الصغيرة طويلًا. رأى جيرالت أن سيري كانت ترتجف.

أخيرًا قالت إيثني: «اذهبي. اذهبي أيتها الطفلة. لا تخشي شيئًا. لا شيء في وسعه أن يغيِّر بعد الآن مصيركِ. أنتِ في بروكلون».

مضتْ سيري قُدُمًا خلف برائين طائعةً. عند المخرج التفتتْ إلى الوراء. لاحظ الويتشر أن شفتيْها كانتا ترتجفان، وأن عينيْها الخضراوين تلمعان من الدمع. لم يقلْ كلمة واحدة. كان لا يزال راكعًا وحانيًّا رأسه.

- انهضْ يا جوينبليد. أهلًا بك.

- مرحبًا إيثني، سيدة بروكلون.

- يسرُّني مجددًا أنني أستضيفك في غابتي. ومع ذلك، تجيء إلى هنا دون علمي وموافقتي. إن دخولَ بروكلون أيها الذئب الأبيض دون علمي وموافقتي محفوف بالأخطار. حتى بالنسبة إليك.

- جئتُ حاملًا رسالة.

ابتسمتْ حورية الغاب ابتسامةً خفيفة: «آخ... إذن من هنا أتتْ جرأتُك التي لم أشأْ أن أصِفُها بكلمة أخرى أكثر قوة. إن حرمة المبعوثين يا جيرالت عرفٌ سائد بين الناس. أنا لا أقبله. ولا أعترف بأي شيء بشري. هنا بروكلون».

- إيثني...

قاطعتْه دون أن ترفع صوتها: «اصمتْ. أمرتُ بالسماح لكَ بالنجاة. ستخرج من بروكلون حيًّا. ليس لأنكَ مبعوث، بل لأسباب أخرى».

- ألا يهمكِ من الذي أرسلني إليكِ مبعوثًا؟ من أين أجيء؟ وباسم من؟

- سأصدُقكَ القول، لا. هنا بروكلون. أنت تأتي من الخارج، من عالم لا يهمني. لماذا عليَّ أن أضيعَ وقتي في الاستماع للرسائل المبعوثة؟ وما يمكن أن تكونه بعض العروض بالنسبة إليَّ، أو بعض المُهَل التي اختلقَها شخص ما، يفكر ويشعر بطريقة مختلفة عما أفكر وأشعر؟ وبماذا يمكن أن يهمني ما يفكر فيه الملك فينزلاف؟

هز جيرالت رأسه في دهشة.

- ما الذي يدريكِ أنني قادم من عند فينزلاف؟

قالت حورية الغاب مبتسمة: «إن الأمر واضح. إكيهارد أحمق جدًّا. إيرفيل وفيراكساس يكرهانني كثيرًا. أملاك الآخرين لا تحدُّ بروكلون».

- أنتِ تعرفين الكثير عما يجري خارج بروكلون يا إيثني.

- أعرف الكثير أيها الذئب الأبيض. إنه امتيازٌ لسنِّي. الآن، إذا كنتَ لا تمانع، أودُّ تسوية قضية ما. هل هذا الرجل الذي مظهره كالدب -كفَّت الحورية عن الابتسام ونظرتْ إلى فرايكسينت- صديقكَ؟

- نعرف بعضنا بعضًا. لقد فككتُ عنه السحر ذات مرة.

قالت إيثني ببرود: «المشكلة تتمثَّل في أنني لا أعرف ماذا أفعل به. فأنا لا أستطيع أن آمر بالإجهاز عليه الآن. كنتُ سأتيح له أن يُشفَى، لكنه يمثِّل تهديدًا. لا يبدو أنه متعصِّب، أي إنه صياد فراء الرؤوس. أعلم أن إيرفيل يدفع مقابل كل فروة رأس تُسلَخ. لا أتذكر، كم يدفع. وفي المحصلة، الثمن يرتفع بانخفاض قيمة المال».

- أنتِ على خطأ. هو ليس صياد فراء الرؤوس.

- إذن، لِمَ تسلل إلى بروكلون؟

- ليبحث عن الفتاة الصغيرة الموكّلة إليه رعايتها. لقد خاطر بحياته كي يجدها.

قالت إيثني ببرود: «إنه حُمق بالغ. تصعُب حتى تسمية ذلك مخاطرة. لقد سار إلى موت مؤكد. وأمرُ أنه بقيَ حيًّا، هو مدين به حصرًا لصحته القوية قوة الحصان وقدرته على التحمل. أما ما يخصُّ أمر هذه الطفلة، فهي نجت أيضًا بطريق المصادفة. بُنيَّاتي لم يطلقنَ السهام لأنهنَّ ظننَّ أنه بوك أو قزم ليبريكاني».

رمقتْ مرة أخرى فرايكسينت، ورأى جيرالت أن شفتيْها فقدتا صلابتهما غير اللطيفة.

- حسنًا، إذن. لنحتفِل بهذا اليوم بطريقة أو بأخرى.

دنت من تخت الأغصان. واقتربتْ كلتا الحوريتين المرافقتين إليه أيضًا. شحب فرايكسينت وانكمش دون أن يصير أصغر حجمًا إطلاقًا.

نظرتْ إيثني إليه لحظة، مضيِّقة عينيها قليلًا.

وسألت أخيرًا: «هل لديكَ أطفال؟ أخاطبكَ أيها العُتُلُّ».

- ها؟

- أظن أن كلامي واضح.

تنحنح فرايكسينت وسعل: «أنا لست... لست متزوجًا».

- أنا لا أهتم كثيرًا بحياتك الأسرية. ما يهمني، هل أنت قادر على أن تقدح شيئًا من صلبك المتخم بالدهون. بحق **الشجرة العظيمة**! هل هل حدث أن أحبلتَ امرأةً؟

- هاه... نعم... نعم سيدتي، لكنْ...

لوَّحت إيثني بيدها دون مبالاة، واستدارت نحو جيرالت.

وقالت: «سيبقى في بروكلون حتى يُشفَى تمامًا، وسيمكث وقتًا آخر تاليًا. بعدئذٍ... فليذهب أنى يشاء».

- شكرًا لك يا إيثني -انحنى الويتشر- و... البنت الصغيرة؟ ماذا عنها؟

رمقتْه حورية الغاب بنظرة باردة من عينيها الفضيتين: «لماذا تسأل؟ إنكَ تعلم».

- إنها ليست طفلة ريفية عادية. إنها أميرة.
- هذا لا يترك لديَّ أيَّ انطباع. ولا يُحدِث أيَّ فرق.
- اسمعي...
- ولا كلمة أخرى يا جوينبليد.

سكت وعضَّ على شفتيه.

- وماذا عن رسالتي؟

تنهَّدت الحورية: «سأستمع لها. لا، ليس من باب الفضول. سأفعل ذلك من أجلكَ، لتتمكن من إثبات قدراتك أمام فينزلاف، وتسلُّم الأجر الذي على الأرجح قد وعد بأنكَ ستتلقاه مقابل الوصول إليَّ. لكنْ ليس الآن، الآن سأكون مشغولة. تعالَ إلى **شجرتي** في المساء».

عندما خرجتْ، رفع فرايكسينت نفسه متكئًا على مرفقه وتأوَّه وسعل، وبصق على كفه.

- ماذا يعني ما يجري هنا يا جيرالت؟ لماذا عليَّ أن أبقى هنا؟ وماذا حدث لهؤلاء الأطفال؟ وبأي ورطة وضعتني، ها؟

جلس الويتشر.

قال بصوت متعب: «ستُنقِذ رأسَك، يا فرايكسينت. ستصبح واحدًا من قلائل خرجوا من هنا أحياء، على الأقل في الآونة الأخيرة. وستصبح أبًا لحورية صغيرة. وربما لعدة حوريات».

- كيف؟ سأكون... فحلًا للإنجاب؟
- سمِّ ذلك ما شئتَ. خياركَ محدود.

تمتم البارون، وابتسم ابتسامةً مقززةً: «أستوعب ذلك. حسنًا إذن، لقد رأيتُ أسرى يعملون في المناجم ويحفرون القنوات. وأختار أحد الشرَّين... فقط لو تكفيني قواي. هنَّ كثيرات نوعًا ما هنا...».

تجهَّم جيرالت: «كُفَّ عن الابتسام بغباء، واحلم، ولا تدعْ أي زهوِ إجلال يغمركَ، والموسيقى والنبيذ وسرب الحوريات اللواتي شُغفْن بكَ. فستكون واحدة، وربما اثنتان، ولن تكون ثمة عبادة. سيعاملن الأمربأكمله بموضوعية شديدة. وسيعاملنك أنت بموضوعية أكثر من تلك».

- ألا يمنحهنَّ ذلك المتعة؟ وربما لا يمنحهنَّ التأسف؟

- لا تكنْ طفلًا. إنهنَّ من خلال هذا المنظور لا يختلفن عن النساء بشيء. على الأقل جسديًّا.
- والمعنى؟
- يعتمد عليكَ أسيكون ذلك ممتعًا للحورية أم مؤسفًا. لكنَّ هذا لا يغير حقيقة أن مقصدها سيكون قوة التأثير حصرًا، ولشخصيتكَ أهمية ثانوية فلا تنتظر الامتنان. أها، ولا تحاول بأي حال عمل أي شيء بمبادرة منك.
- بماذا؟

أوضَحَ الويتشر بصبر: «إذا قابلتَها في الصباح، انحنِ. لكنْ، تبًّا للشيطان، دون ابتساماتٍ أو غمزاتِ عين. بالنسبة إلى حورية الغاب هذا أمر خطِر خطَر الموت. إن هي ابتسمتْ أو أتتْ إليكَ، فيمكنكَ التحدث إليها. والأفضل عن الأشجار. وإن كنتَ لا تعرف عن الأشجار شيئًا، فحدِّثها عن حالة الجو. لكنْ إن تظاهرتْ أنها لا تراكَ، فابقَ بعيدًا عنها. وابتعد عن حوريات الغاب الأخريات وانتبه إلى يديكَ. بالنسبة إلى الحورية التي لم تعُدْ جاهزةً، فلا وجود لمثل هذه الأمور. إن لمستَها طعنتْك بسكين، لأنها لن تفهم مقصدكَ».

ابتسم فرايكسينت: «أنت تعرف عرفَ التزاوج عندهنَّ جيدًا. هل حدث ذلك لك؟».

لم يُجِبِ الويتشر. شخصتْ أمام عينيه حورية غاب فاتنة نحيلة، بابتسامتْها الوقحة. *Vatt'ghern, bloede cae´rme* . الويتشر، المصير اللعين. ماذا جلبتِ لنا يا برائين؟ ما حاجتنا إليه؟ لا فائدة تُرتجى من الويتشر...

- جيرالت؟
- ماذا؟
- والأميرة سيريلا؟
- انسَها. ستصير حورية غاب. بعد سنتيْن أو ثلاث، ستغرز سهمًا في عين أخيها إذا حاول دخول بروكلون.

شتم فرايكسينت عابسًا: «تبًّا لدم الكلاب. إيرفيل سيكون غاضبًا. جيرالت؟ ألن يكون ممكنًا...».

قاطعه الويتشر: «لا. لا تحاول حتى. لن تتمكن من الخروج حيًّا من دوئين كانيل».

- هذا يعني أن الفتاة قد فُقِدَتْ.

- بالنسبة إليكم، نعم.

6

كانت إيثني شجرة، بطبيعة الحال، هي سنديانة أو بالأحرى ثلاث سنديانات ملتصقات معًا، لا تزال خُضرًا ولا تُظهِر أي علامات يباس، مع أن جيرالت حسب أن لها من العمر ثلاثمئة عام على الأقل. كانت السنديانات فارغة من الداخل، وبدتِ الثغرة بحجم حجرة كبيرة ذات سقف مرتفع يضيق على شكل مخروط. وما في داخلها مُضَاء بمصباح زيتي لا ينبعث منه دخان، الثغرة متواضعة ولكنها ليست بُدائية، وقد تحوَّلت إلى مقرٍّ مريح.

ركعتْ إيثني في المنتصف على ما يشبه حصيرًا من الألياف. أمامها، جلستْ سيري على ساقيها المطويتين متمددةً دون حَراك، كما لو أنها كانت متحجرة ومغتسلة، وقد شُفِيَتْ من الزكام، وكانت فاتحةً عينيها الزمرديتين الكبيرتين على وسعيهما. لاحظ الويتشر أن وجهها الصغير، وقد اختفى الآن منه الوسخ والعبوس الشيطاني المناكف، أصبح كاملَ الجمال.

كانت إيثني تمشط شعر البنية الطويل، مداعبةً ببطء.

- ادخل يا جوينبليد. اجلسْ.

جلس، راكعًا بطريقة احتفالية، على ركبة واحدة أولًا.

سألتْ حورية الغاب، دون أن تنظر إليه، ودون أن تتوقف عن التمشيط: «استرحتَ؟ متى يمكنكَ أن تنطلق إلى طريق العودة؟ ما رأيكَ غدًا صباحًا؟».

قال ببرود: «ما إن تأمرين يا سيدة بروكلون. كلمة واحدة منكِ تكفي لأكفَّ عن إزعاجكِ بوجودي في دوئين كانيل».

أدارتْ إيثني رأسها ببطء: «جيرالت، لا تسئْ فهمي. أنا أعرفكَ وأحترمكَ. أعلم أنكَ لم تؤذِ حورية غاب قطُّ، أو أيَّ روسالكا أو سيلفيدا أو حورية ماء. أعلم أنكَ، عكس ذلك، كان لك أن دافعتَ عنهنَّ وأنقذتَ حياتهنَّ. لكنَّ هذا لا يُغيِّر من الأمر شيئًا. ثمة أشياء كثيرة تفرقنا. نحن ننتمي إلى عوالم مختلفة. لا أريد ولا أستطيع إجراء استثناءات لأي شخص كان. لن أسألكَ أكنت تفهم ذلك، لأنني أعلم أنك تفهمه. بل أسألك، هل تتقبل ذلك؟».

- وما الذي سيتغير من جراء ذلك؟

- لا شيءَ. لكنني أريد أن أعلم.

أكد: «أتقبَّله. وماذا عنها؟ عن سيري؟ هي أيضًا تنتمي إلى عالم مختلف».

رمقتْه سيري بعدم اطمئنان، ثم ألقتْ نظرة نحو الأعلى إلى حورية الغاب. ابتسمتْ إيثني.

قالت: «لم يبقَ إلا القليل».

- إيثني، أرجوكِ. فكِّري.

- فيمَ؟

- أعطِني إياها. دعيها تعود معي إلى العالم الذي تنتمي إليه.

من جديد، دسَّت الحورية المشط عميقًا في شعر البُنَيَّة الرمادي الأشهب: «لا أيها الذئب الأبيض. لن أعطيكَ إياها. ولكنكَ أنت تحديدًا، من بين الجميع، ينبغي لك أن تفهم ذلك».

- أنا؟

- أنت. ثمة أخبار من العالم تصل حتى إلى بروكلون. أخبار عن أحد الويتشريين الذي يفرض أحيانًا، لقاءَ الخدمات المقدَّمة، قسمًا غريبًا. «ستعطيني ما لا تتوقع أن تجده في المنزل». «ستعطيني ما صارَ لديكَ ولا تعرفه». هذا يبدو معروفًا لديكَ؟ أصلًا، كنتم منذ مدة من الزمن تحاولون توجيه القَدَر بهذه الطريقة، تبحثون عن أولاد انتقاهم المصير ليكونوا خلفاءَ لكم، تريدون حماية أنفسكم من الانقراض والنسيان. من الفناء. لماذا إذن تستغرب مني؟ أنا أحرص على مصير حوريات الغاب. أظنُّ أن ذلك أمرًا عادلًا؟ مقابل كل حورية يقتلها البشر فتاة بشرية واحدة.

- باحتجازكِ إياها يا إيثني توقظين العداوة والرغبة في الانتقام. ستوقظين البغضاء الجهنمية.

- كراهية البشر ليست أمرًا جديدًا في شيء عليَّ. لا يا جيرالت. لن أتخلى عنها. وخاصة أنها بصحة جيدة. وهذا نادر الحدوث في الآونة الأخيرة.

- نادر الحدوث؟

ثبَّتت الحورية عينيها الفضيتين الكبيرتين عليه.

- يلقون إليَّ بفتيات صغيرات مريضات. بالخناق والحمى القرمزية والخانوق، وحتى بالجدري في الآونة الأخيرة. يعتقدون أننا نفتقد إلى المناعة، وأن الوباء سيدمرنا، أو على الأقل سيُبيدون عددًا كبيرًا منا. خُيِّبَ ظنهم يا جيرالت. لدينا ما هو أكثر من المناعة.. بروكلون تعتني بأطفالها.

سكتتْ وانحنتْ، ومشطتْ بحذر خصلة من شعر سيري المتشابك، وساعدت نفسها بيدها الأخرى.

تنحنح الويتشر: «هل لي أن أقدِّم الرسالة التي حمَّلني إياها الملك فينزلاف إليكِ هنا؟».

رفعت إيثني رأسها: «أليس ذلك مضيعةً للوقت؟ لماذا عليكَ أن تجهدَ نفسكَ؟ أساسًا أنا أعلم جيدًا ما يريده الملك فينزلاف. من أجل ذلك، لا حاجةَ إلى قدرات تنبؤية على الإطلاق. يريد مني أن أعطيه بروكلون، على الأرجح حتى نهر إفدي، وهو يرى فيها أو يرغب أن يرى فيها، كما هو معلوم لديَّ، حدودًا طبيعية بين بروجي وفيردن. مقابل ذلك، كما أفترض، يعرض عليَّ جيبًا، زاوية من الغابة صغيرة ومُوحِشة. وعلى الأرجح يضمن بكلمة مَلَكية وبرعاية مَلَكية أن هذه الزاوية الصغيرة والموحشة، هذه القطعة من الغابة، سوف تكون تابعةً لي أبد الدهر، وأن أحدًا لن يجرؤ على إزعاج حوريات الغاب هناك. وأن الحوريات سيمكنهنَّ العيش بسلام هناك. ماذا يا جيرالت؟ ويرغب فينزلاف في إنهاء الحرب التي لا تزال مستمرةً منذ قرنيْن في سبيل بروكلون. ولإنهائها، سيتعيَّن على الحوريات أن يتخلَّين عمَّا كنَّ يمتنَ من أجله منذ مئتيْ عام؟ هكذا بكل بساطة: يتخلَّين؟ يتخلَّين عن بروكلون؟!».

التزم جيرالت الصمت. لم يكنْ لديه ما يُضيفه. ابتسمتْ حورية الغاب.

- ألم يكن هذا هو مضمون العرض الملكي يا جوينبليد؟ أم كان أكثر صدقًا، وهو يقول: «لا ترفعي رأسكِ يا بعبع الغابة، يا وحش الديسة، يا بقية من فلول الماضي، بل اسمعي ما نريد، نحن الملك فينزلاف. ونحن نريد شجر الأرْز والسنديان والكارية، نريد الإسويتينيا والبتولا الذهبية، والطقسوس من أجل الأقواس، والصواري من خشب الصنوبر، لأن بروكلون بين ظهرانينا، ولكننا نُضطَّرُّ إلى جلب الخشب من وراء الجبال. نريد الحديد والنحاس الكائنين في باطن الأرض. نحن نريد الذهب الموجود على كرآج آن. نريد أن نقطع الشجر وننشره ونحفر الأرض دون أن نُضطَّرَّ إلى سماع صفير السهام. والأهم من ذلك: نحن في النهاية نريد أن نصبح ملكًا، يخضع له كل شيء في المملكة. نحن لا نرغب في أن يكون في مملكتنا شيء مثل بروكلون، أو غابة لا نستطيع الدخول إليها. غابة مثل هذه تضايقنا، تُغضِبنا وتُذهِب النعاس عن جفوننا، فنحن بشر، ونحن نسود العالم. نستطيع إن شئنا أن نقبل في هذا العالم بضعة من الإلفيين، وبضع حوريات غاب أو حوريات روسالكا. إذا لم يكونوا متهوِّرين جدًّا. اخضعي لمشيئتنا يا ساحرة بروكلون، أو فاهلكي».

- إيثني، قد اعترفتِ أنت نفسك بأن فينزلاف ليس أحمقَ ولا متعصبًا. تعلمين بالتأكيد أن الملك عادل ومحب للسلم. يؤلمه ويقلقه الدم المسفوح هنا...

- إذا بقيَ بعيدًا عن بروكلون، فلن تسيل قطرة دم واحدة.

رفع جيرالت رأسه: «تعلمين جيدًا... تعملين جيدًا أن الأمر ليس هكذا. يُقتَل الناس في فيبلانكي، وفي **الميل الثامن**، وعلى **المرتفعات الخاصة**. يُقتَل الناس في **بروجي**، على ضفة **الشريط** اليسرى. هذا ما عدا بروكلون».

ردَّت حورية الغاب بهدوء: «الأماكن التي عددتَها هي بروكلون. أنا لا أعترف بخرائط البشر ولا بحدودهم».

- لكنَّ الغابة كانت تُقطَع هناك منذ مئة عام!

- وماذا تعني المئة عام لبروكلون؟ والمئة شتاء!

سكت جيرالت.

ألقتِ الحورية المشطَ جانبًا، ومسَّدت شعر سيري الرمادي الأشهب.

- اقبلي عرض فينزلاف يا إيثني.

رمقتْه الحورية ببرود.

- ماذا سيقدم لنا ذلك؟ لنا نحن أطفال بروكلون؟

- إمكانية البقاء. لا يا إيثني، لا تقاطعي. أنا أعلم ما تريدين أن تقولي. أتفهَّم فخرك باستقلال بروكلون. لكنَّ العالم يتغير. شيء ما ينتهي. سواء أردتِ ذلك أم لا، هيمنةُ الإنسان على العالم حقيقة. سيبقى أولئك الذين سينصهرون بالناس، وسيفنى الآخرون. ثمة غابات يا إثيني تعيش فيها حوريات الغاب وحوريات روسالكا والإلفيون بهدوء، في وفاق مع الناس. إننا قريبون جدًّا بعضنا من بعض. وإن الناس يمكنهم أن يكونوا آباء لأطفالكم. ماذا تمنحكِ الحرب التي تشنينها؟ الآباء المحتملون لأطفالكم يسقطون تحت سهامكم. وما النتيجة؟ كم عدد الأَصيلات بين حوريات بروكلون؟ كم عدد الفتيات البشريات بينهنَّ، المخطوفات والمعدَّلات؟! حتى إنكِ تُضطَّرِّين إلى أن تستخدمي فرايكسينت، فليس لديكِ من خيار. أرى هنا القليل، كما يبدو، من الحوريات الصغيرات يا إيثني. لا أرى أحدًا سواها: فتاة صغيرة بشرية، مرعوبة ومتبلِّدة من المخدِّرات، ومشلولة من الخوف...

صرختْ سيري فجأة، مبديةً على وجهها العادي شيطانًا صغيرًا، خلال لحظة: «أنا لستُ خائفةً بتاتًا! ولستُ متلبدةً[1]! لا تظنَّ ذلك! لا يمكن أن يحدث لي شيء هنا. بالضبط! أنا لستُ خائفةً! جدتي تقول إن حوريات الغاب لسنَ شريرات، وجدتي هي الأكثر حكمة في العالم! جدتي... جدتي تقول إن الغابات، التي تشبه هذه الغابة، ينبغي أن تكون أكثر بكثير...».

سكتتْ وخفضتْ رأسها. ضحكتْ إيثني.

قالت: «**طفلة الدم الأقدم**. نعم يا جيرالت. **أطفال الدم الأقدم**، الذين تتحدث عنهم النبوءات، لا يزالون يولدون في العالم. وأنت تقول إن شيئًا ما ينتهي... هل أنتَ قلق بشأن أكنا سنصمد...».

---

(1) تخطئ سيري، فتلفظ كلمة «متبلدة» على أنها «متلبدة».

قاطعها جيرالت: «كان على الصغيرة أن تتزوج من كيسترين من فيردن. خسارة أنها لن تفعل. يومًا ما سيتسلَّم كيسترين الحكم بعد إيرفيل، وتحت تأثير زوجته التي لها مثل هذه الآراء، قد تتوقف الغارات على بروكلون؟».

صرخت البُنَيَّةُ بصوت رقيق، وفي عينيها الخضراوين ومض شيء ما: «لا أريد كيسترين هذا! فليجدْ كيسترين لنفسه مادةً حمقاءَ وبديعةً! أنا لستُ مادةً من أي نوع! لن أكون أميرة من أي نوع!».

احتضنتِ الحورية سيري: «اهدئي يا **طفلة الدم الأقدم**. لا تصرخي. طبعًا لن تكوني أميرة».

تدخَّل الويتشر بغضب: «طبعًا. وأنتِ يا إيثني وأنا نعلم جيدًا ماذا ستكون. أرى أن ذلك قد أصبح مُقرَّرًا. لا يهم. ما الجواب الذي عليَّ أن أحمله إلى الملك فينزلاف يا سيدة بروكلون؟».

- لا جواب البتة.
- كيف، لا جواب؟
- البتة. هو سيتفهم ذلك. منذ زمن، زمن بعيد جدًّا، عندما لم يكن فينزلاف قد جاء إلى هذا العالم بعد، قَدِمَ المنذرون إلى نواحي بروكلون، وزأرتِ الأبواق والأصوار ولمعت الدروع ورفرفت الرايات والبيارق. وعلا صراخ: «تواضعي يا بروكلون! الملك سن المعزة، حاكم التل الأقرع والمروج الرطبة يطلب منك أن تتواضعي يا بروكلون!». وجواب بروكلون كان هو نفسه دائمًا. ما إن تغادر غابتي يا جوينبليد، استدرْ واستمعْ. سوف تسمع في حفيف الأوراق، جوابَ بروكلون. بلِّغه لفينزلاف وأضفْ إلى ذلك أنه لن يسمع غيره أبدًا، ما دام السنديان منتصبًا في دوئين كانيل. وما دامت تنمو هنا ولو شجرة واحدة، وما دامت تعيش ولو حورية غاب واحدة.

التزمَ جيرالت الصمت.

تابعتْ إيثني ببطء: «أنت تقول إن شيئًا ما ينتهي. هذا غير صحيح. ثمة أشياء لا تنتهي أبدًا. تُحدِّثني عن البقاء؟ أنا أحارب من أجل البقاء. فبروكلون ستبقى حية بفضل قتالي، لأن الأشجار تُعمِّر أكثر من البشر، ولا تحتاج إلا إلى الحماية من فؤوسكم. تُحدِّثني عن الملوك والأمراء. من هم هؤلاء؟ أولئك الذين أعرفهم هم هياكل عظمية بيضاء ترقد في مدن الموتى في كرآج آن،

هناك في أعماق الغابة. في الأضرحة الرخامية، على أكوام من المعدن الأصفر والحصى اللامع. لكنَّ بروكلون لا تزال صامدة، والأشجار تُصدِر حفيفًا على أطلال القصور، وجذورها تُحطِّم الرخام. هل يتذكر صاحبك فينزلاف من كان هؤلاء الملوك؟ هل تتذكر أنت ذلك يا جوينبليد؟ وإن لم يكن الأمر كذلك، فكيف يمكنك أن تصرِّح أن شيئًا ما ينتهي؟ من أين لك أن تعلم على من مُقدَّر الهلاك، وعلى من مُقدَّر الخلود؟ ما الذي يُفوِّضك للحديث عن القدر؟ وهل أنت تعلم، على الأقل، ما القدر؟».

وافق: «لا. لا أعلم. لكنْ...».

قاطعته: «إنْ كنتَ لا تعلم، فلم يعدْ لأي «لكن» مكان. لا تعلم. هي ببساطة لا تعلم».

سكتت، ولمستْ جبينها بيدها، ثم أشاحت بوجهها.

تابعتْ: «عندما أتيتَ إلى هنا أول مرة، قبل أعوام عدَّة، لم تكن تعلم أيضًا. ومورئين... ابنتي... يا جيرالت، مورئين ماتت. لقيتْ مصرعها عند **الشريط**، وهي تدافع عن بروكلون. لم أعرفها عندما أحضروها. كان وجهها مُهشَّمًا بحوافر خيولكم. القدَر؟ واليوم أنت، الويتشر، من لم تستطع أن تعطي مورئين طفلًا، تأتي بها إليَّ، **طفلة الدم الأقدم**. فتاة صغيرة تعلم ما القدر. لا، ليست هذه هي المعرفة التي يمكن أن تناسبك، والتي يمكن أن تقبل بها. هي ببساطة تؤمن. كرِّري يا سيري، كرِّري ما قلتِهِ لي قبل أن يدخل إلى هنا هذا الويتشر، جيرالت من ريفيا، الذئب الأبيض. الويتشر الذي لا يعلم. كرِّري يا **طفلة الدم الأقدم**».

قالت سيري بصوت متهدِّج: «حضرة الـ... السيدة النبيلة. لا تُبقيني هنا. أنا لا أستطيع... أنا أريد... إلى المنزل. أريد العودة إلى منزلي مع جيرالت. يجب أن... معه».

- ولماذا معه؟

- لأنه... لأنه قدري.

أدارتْ إيثني وجهها جانبًا. كانت شاحبة جدًّا.

- وما قولكَ في هذا يا جيرالت؟

لم يُجِبْ. صفَّقتْ إيثني براحتيها. دخلتْ برائين إلى جوف السنديانة، بازغةً كشبح من الليل الجاثم في الخارج، حاملة بكلتا يديْها كأسا فضية كبيرة. أخذتِ الميدالية حول رقبة الويتشر ترتجف بسرعة، على نحو إيقاعي.

كررتْ حورية الغاب ذات الشعر الفضي، وهي تنهض: «وما قولكَ في هذا. إنها لا تريد البقاء في بروكلون! هي لا ترغب في أن تكون حورية! هي لا تريد أن تكون لي عوضًا عن مورئين، تريد أن تغادر، تغادر مع قدرها! حقًّا يا **طفلة الدم الأقدم**؟ أهذا ما تريدينه تحديدًا؟».

أومأت سيري برأسها المنحني. كانت كتفاها ترتجفان. لم يعدِ الويتشر يطيق ما يجري.

- لماذا تُعذِّبين هذه الطفلة يا إيثني؟ بعد لحظة، ستعطينها **ماء بروكلون**، ولن يكون لذاك الذي تريده أي أهمية. فلمَ تفعلين هذا؟ لمَ تفعلين هذا في حضوري؟
- أريد أن أبيِّن لكَ ما القدر. أريد أن أثبت لك أنه لا شيء ينتهي. وأن كل شيء يبدأ منذ الآن.

قال وهو ينهض: «لا يا إيثني. أنا آسف، سأُفسِد عليك استعراضك هذا، لكنْ ليست لديَّ النية أن أشاهد ذلك. لقد ذهبتِ بعيدًا نوعًا ما يا سيدة بروكلون، وأنتِ تريدين تأكيدَ وجود الهوة التي تفرقنا. أنتم، الشعب الأقدم، تحبون أن تكرروا مقولة أن الكراهية غريبة عليكم، وأنها شعور لا يعرفه إلا البشر. لكنَّ ذلك غير صحيح. تعلمون ما الكراهية وتكون لكم القدرة على أن تكرهوا، بيْد أنكم تُظهِرون الأمر بطريقة مختلفة قليلًا، على نحو أذكى وأقل تهوُّرًا. لكنْ ربما سيكون أقسى بسبب ذلك. أقبلُ كراهيتك، يا إيثني، باسم البشر أجمعين. أنا أستحقها. أنا آسف من أجل مورئين».

لم تجبْ حورية الغاب.

- وهذا تحديدًا هو جواب بروكلون الذي عليَّ أن أُبلِّغه فينزلاف من **بروجي**، أليس كذلك؟ تحذير وتحدٍّ؟ دليلٌ عينيٌّ على الكراهية النائمة بين هذه الأشجار وعلى **القوة** اللتيْن بمشيئتهما سيشرب طفل بشري بعد لحظة سمًّا مدمرًا للذاكرة، يأخذ من يديْ طفل بشري آخر قد دُمِّرَتْ نفسيته وذاكرته؟ وهذا الجواب سيحمله الويتشر الذي عَرَفَ كلا الطفليْن وأحبهما إلى فينزلاف؟ الويتشر الذي يتحمَّل ذنب موت ابنتك؟

حسنًا يا إيثني، سيكون الأمر كما تشائين. سيسمع فينزلاف جوابكِ، سيسمع صوتي، سيرى عينيَّ، وسيستشف كلَّ شيء منهما. لكنني لستُ مضطرًّا إلى النظر إلى ما سيحدث هنا، ولا أريد ذلك.

ظلَّت إيثني صامتة.

- وداعًا سيري. (ركع جيرالت واحتضن الفتاة الصغيرة. ارتجفتْ كتفا سيري بقوة). لا تبكي. إنك تعلمين أن السوء لن يمسسكِ هنا.

تنشقت سيري بأنفها، وانتصب الويتشر واقفًا.

قال للحورية الصغرى: «وداعًا، برائين. كوني بخير واعتني بنفسك. ابقي صامدةً يا برائين، عيشي عمرًا مديدًا كعمر شجرتكِ. مثل بروكلون. وثمة شيء آخر...».

رفعت برائين رأسها، وفي عينيها لمع شيء قد تبلل: «نعم يا جوينبليد؟».

- القتل بالقوس سهل، يا فتاة. ما أسهل إرخاء الوتر والتفكير، هذا ليس أنا، ليس أنا، إنه السهم. يداي ليستا ملطختيْن بدم هذا الصبي. إن السهم هو من قتل، وليس أنا. لكنَّ السهم لا يحلم في الليل بشيء. فليكن أيضًا ألا تحلمي بشيء في الليل، يا حورية الغاب ذات العينين الزرقاوين. وداعًا يا برائين.

قالت برائين بطريقة غير واضحة: «منى...».

اهتزتِ الكأس التي كانت تحملها بيديها، وأخذ السائل الشفاف المترعة به يتماوج: «منى...».

- ماذا؟

تأوهت: «منى! أنا منى! سيدة إيثني! أنا...».

قالت إيثني بحدة: «كفى. كفى. تماسكي يا برائين».

ضحك جيرالت بجفاف.

- لديكِ قَدرُكِ يا سيدة الغاب. أحترم عنادكِ ونضالكِ. لكنني أعلم أنكِ قريبًا ستحاربين وحدكِ. آخر حورية من بروكلون ترسل إلى الموت الفتياتِ اللواتي لا يزلنْ يتذكرن أسماءهنَّ الحقيقيةَ. وعلى أي حال، أتمنى لكِ السعادة يا إيثني. الوداع.

همستْ سيري، وهي لا تزال تجلس ساكنةً، وخافضةً رأسها: «جيرالت... لا تتركني... وحدي...».

قالت إيثني، وهي تحتضن ظهرَ البُنَيَّةِ المحنيَّ: «أيها الذئب الأبيض. أكان عليك الانتظار حتى تطلب منكَ؟ ألا تتركها؟ أن تبقى معها حتى النهاية؟ لماذا تريد تركًها في مثل هذه اللحظة؟ تتركها وحدها؟ إلى أين تريد الهرب، يا جوينبليد؟ وممَ؟».

أحنتْ سيري رأسها أكثر مما كان عليه. لكنها لم تبكِ.

أومأ الويتشر برأسه: «حتى النهاية، حسنًا يا سيري. لن تكوني وحيدةً. سأكون إلى جانبك. لا تخشي شيئًا».

أخذتْ إيثني الكأس من يديْ برائين المرتجفتين، ورفعتها.

- هل تستطيع قراءة الأحرف الرونية القديمة أيها الذئب الأبيض؟
- أستطيع.
- اقرأ ما هو منقوش على الكأس. إنها كأس من كرآج آن. شرب منها ملوك لا يتذكرهم الآن أحد.

– ***Duettaea´nn aef cirra´n Ca´erme Gla´eddyv. Yn a´ essea´th.***

- هل تعلم ماذا يعني هذا؟
- سيف القدر ذو حدين... أحدهما أنت.

رنَّ في صوت حورية الغاب رنين فولاذي بأمر لا يمكن رفضه، وإرادة لا يمكن عدم الخضوع لها: «انهضي يا **طفلة الدم الأقدم**. اشربي. إنه ماء بروكلون».

عضَّ جيرالت شفتيه، محدقًا إلى عيني إيثني الفضيتين. لم ينظر إلى سيري التي كانت تُقرِّب شفتيْها من حافة الكأس ببطء. لقد رأى ذلك ذات مرة، قديمًا. تشنجات ورعشات وصرخة مرعبة لا مثيل لها، تنطفئ ببطء. وفراغ، وخدر، وعدم مبالاة في عينين تنفتحان ببطء. لقد رأى هذا من قبل.

شربتْ سيري. تدحرجت ببطء دمعة على وجه برائين الجامد.

أخذتْ إيثني الكأس منها، ووضعتْها على الأرض، ومسَّدت بكلتا يديها شعر البُنَيَّةِ المتساقط على الكتفين في موجات رمادية فاتحة: «يكفي».

قالت: «يا **طفلة الدم الأقدم**. اختاري. هل تريدين البقاء في بروكلون أم ستتبعين قدركِ؟».

هز الويتشر رأسه غير مصدق. تنفَّست سيري أسرع قليلًا، واحمرَّت وجنتاها، ولا شيء أكثر. لا شيء.

تكلمتْ بوقع مرتفع، ناظرة إلى عينيْ حورية الغاب: «أريد أن أتبع قدري».

نطقتْ إيثني ببرود واقتضاب: «فليكن إذن كذلك».

تنهَّدت برائين بصوت عالٍ.

قالت إيثني، وهي تدير ظهرها إليهم: «أريد أن أكون وحدي. اذهبوا من فضلكم».

أمسكت برائين سيري، ولمست ذراعيْ جيرالت، لكنَّ الويتشر أزاح يدها.

تكلم: «شكرًا لكِ يا إيثني».

استدارت الحورية ببطء.

- علامَ تشكرني؟

ابتسم: «على القدر. على قراركِ. فهذا الماء لم يكنْ ماء بروكلون، أليس كذلك؟ قدر سيري كان أن تعود إلى المنزل. وهأنتِ إيثني، أديتِ دور القدر. وإني أشكركِ على ذلك».

قالت الحورية بمرارة: «ما أقل معرفتكَ عن القدر. ما أقل ما تعرف أيها الويتشر! ما أقل ما ترى! ما أقل ما تفهم! تشكرني؟ تشكرني على الدور الذي أديتُه؟ على الاستعراض معدوم الذوق؟ على الخدعة، على الاحتيال، على التضليل؟ على حقيقة أن سيف القدر كان، حسب ظنك، من خشب مطلي بذهب مقلَّد؟ هيا إذن، لا تشكرني، لكنْ عرِّني. تمسَّك بمطلبكَ. أثبتْ أن الحق معكَ. ارمِ حقيقتَكَ في وجهي، أظهرْ كيف تنتصر الحقيقة الإنسانية الرصينة، والحصافة السليمة التي بفضلها، حسب رأيك، تهيمنون على العالم. ها هو ماء بروكلون، بقي القليل منه. هل تجرؤ؟ يا فاتح العالم؟».

تردَّد جيرالت، مع أنه شعر بالتوتر من جراء كلماتها، لكنَّ تردده لم يدمْ إلا لحظة. ماء بروكلون، حتى الأصلي منه، لم يكن له تأثير فيه، لقد كان محصنًا تمامًا ضد السموم ومادة العفص المهلوسة التي يحتوي عليها ذلك الماء، لكنْ

أصلًا لا يمكن أن يكون ذلك ماء بروكلون، فقد شربتْه سيري ولم يحدث شيء لها. مدَّ كلتا يديْه إلى الكأس، ونظر إلى عينيِ الحورية الفضيتيْن.

انزلقتِ الأرض من تحت قدميْه في لحظة، وهوى على ظهره. دارت السنديانة الضخمة واهتزَّت. فتح عينيْه وهو يتحسَّس بمشقة بيديه الخدرتين من كل جانب، وكان كما لو أنه راح يزحزح لوحَ ضريحٍ رخاميًّا. رأى فوقه وجه برائين الصغير، وخلفها عينيْ إيثني اللامعتيْن كالزئبق، وعينيْن أخريين خضراوين كالزمرد. لا، بل أنضر. كالعشب في الربيع. كانت الميدالية حول رقبته ترتجف وتهتز.

سمع: «جوينبليد. انظرْ بانتباه! لا، لن يفيدكَ إغلاق عينيك. انظر، انظر إلى قدركَ».

- هل تذكر؟

انفجرَ بياض مفاجئ يُمزِّق ستار الدخان، وشمعدانات كبيرة مثقلة بالشموع تسيل أكاليلَ من الشمع، وجدران حجرية وسلالم شديدة الانحدار، وفتاة ذات عينيْن خضراويْن وشعر رمادي أشهب ترتدي إكليلًا عليه جوهرة منقوشة على نحو بديع، وثوبًا أزرق فضيًّا ينتهي بذيل يمسكه خادم نبيل يرتدي سترة قرمزية.

- هل تذكر؟

صوته يتكلم... يتكلم...

سأعود إلى هنا بعد ست سنوات...

سقيفة، دفء، رائحة زهور، طنين نحل رتيب ثقيل. هو نفسه، على ركبتيْه، يقدم وردة لامرأة ذات شعر رمادي أشهب متناثر بضفائر من تحت طوق ذهبي ضيق. وعلى أصابع اليد التي أخذتِ الوردة من يده، خواتم مرصَّعة بالزمرد وأحجار كابوشون خُضر كبيرة.

تقول المرأة: «عُد إلى هنا. عُد إلى هنا، إن غيرتَ رأيك. قدركَ سينتظرك».

فكَّر: لم أعدْ قطُّ. لم أعد إلى هناك قطُّ. لم أعد قطُّ إلى...

إلى أين؟

شعر رمادي أشهب. عينان خضراوان.

صوته من جديد، في الظلام، في العتمة التي يضيع فيها كل شيء. لا شيء سوى النيران، نيران حتى الأفق.

عجاج من الشرر في دخان أرجواني. **بيليتين**! ليلة من مايو! تطلُّ من دوائر الدخان عيون داكنة بنفسجية، لاهبة في وجه شاحب مثلثي الشكل تحجبها عاصفة من ضفائر سوداء متموجة.

- ينيفر!

فمُ الطيف الضيق اعوجَّ فجأةً، تدحرجتْ دمعة على الخد الشاحب أسرع فأسرع، مثل قطرة شمع من شمعة: «قليل جدًّا».

- قليل جدًّا. ثمة حاجة إلى ما هو أكثر.

- ينيفر!

يقول الطيف بصوت إيثني: «العدم مقابل العدم. العدم والفراغ الذي في داخلك يا فاتحَ العالم، يا من لا تستطيع حتى أن تحوز المرأة التي تحبها. يا من تهجر وتهرب، وفي متناول يدك القدر. سيف القدر ذو حدين: أحدهما أنت. وما يكون الآخر، أيها الذئب الأبيض؟».

صوته نفسه: ليس ثمة قدر. لا. لا. لا وجودَ له. الشيء الوحيد الذي هو قدر للجميع هو الموت.

تقول المرأة ذات الشعر الرمادي الأشهب والابتسامة الغامضة: «هذا صحيح. هذا صحيح يا جيرالت.»

المرأة متدرعة بدرع فضية، ملطَّخة بالدم ومعوجة، ومثقوبة بنصال الحِراب أو المطارد. يتسرب الدم بخط ضيق من زاوية فمها المبتسم بطريقة غامضة وبشعة.

تقول دون أن تتوقف عن الابتسام: «أنت تسخر من القدر، تسخر منه وتعبث به. سيف القدر ذو حدين: أحدهما أنت. والآخر... هو الموت؟ لكننا نموت، نموت بسببك. الموت لا يستطيع أن يدركَكَ، لذا يكتفي بنا. الموت يتبعكَ خطوةً خطوةً أيها الذئب الأبيض. لكنَّ الآخرين هم من يموتون. بسببك. هل تتذكرني؟».

- كا... كالانثي!

صوت إيثني من خلف ستار الدخان: «يمكنكَ إنقاذه. يمكنكَ إنقاذه، **طفل الدم الأقدم**. قبل أن يغرق في العدم الذي أحَبَّه. في الغابة السوداء التي لا نهاية لها».

عينان خضراوان كالعشب في الربيع. لمسة. أصوات تصرخ جوقةً غير مفهومة. وجوه.

لم يعد يرى شيئًا، كان يطير في هاوية، في فراغ، في ظلام. آخر ما سمع كان صوت إيثني.

- فليكن إذن كذلك.

7

- جيرالت! استيقظ! استيقظ أرجوك!

فتح عينيْه، رأى الشمس وقطعة من الذهب البندقي لها حافات واضحة، في الأعلى، فوق رؤوس الأشجار، خلف حجاب غَبِش من ضباب الصباح. كان مستلقيًا على طحلب إسفنجي مبتل، جذر صلب حكَّ ظهره.

كانت سيري راكعة بجانبه، وهي تشد طرف سترته.

تنخَّم وتلفَّت حوله: «تبًّا... أين أنا؟ كيف وصلتُ إلى هنا؟».

قالت: «لا أعلم. لقد استيقظتُ قبل لحظة، هنا بجانبك، متجمدةً من البرد الفظيع. لا أتذكر كيف... أتعلم؟ هذا من فِعل السحر!».

جلس وهو يسحب إبرَ الصنوبر من خلف ياقته: «لعلكِ محقةٌ. لعلكِ محقةٌ يا سيري. ماء بروكلون، اللعنة... يبدو أن حوريات الغاب قد تسلَّين بنا».

نهض والتقط سيفه الملقى بجانبه، وألقى بالحزام على طول ظهره.

- سيري؟

- ها؟

- أنتِ أيضًا تسليتِ بي.

- أنا؟

- أنتِ ابنة بافيتا، حفيدة كالانثي من سينترا. لقد عرفتِ منذ البداية من أنا!

احمرَّت: «لا. ليس من البداية. أنتَ أبطلتَ السحر الذي رُمِيَ به والدي، أليس كذلك؟».

هز رأسه: «ليس صحيحًا. أمكِ من فعلت ذلك وجدَّتكِ. أنا فقط ساعدت في ذلك».

- لكنَّ مربيتي قالت... قالت مصيري مُقدَّر. لأنني مفاجأة. الطفل المفاجأة. جيرالت!

نظرَ إليها، وهو يهز رأسه ويبتسم: «سيري. صدقيني أنتِ أكبر مفاجأة كان لها أن تحدث لي».

أشرق وجه البنية: «ها! هذا صحيح! أنا مصيري مُقدَّر. قالت مُربِّيتي سيأتي ويتشر ذو شعر أبيض ويأخذني. أما الجدة فصرختْ غاضبة... آه، ماذا هناك! إلى أين ستأخذني أخبرني؟».

- إلى المنزل. إلى سينترا.

- آه... وأنا فكَّرت أن...

- ستفكرين في الطريق. هيا لنذهب يا سيري، علينا أن نخرج من بروكلون. هذا المكان ليس آمنًا.

- أنا لستُ خائفة!

- ولكنني خائف.

- قالتِ الجدة إن الويتشريين لا يخافون شيئًا.

- لقد بالغتِ الجدة كثيرًا. إلى الطريق يا سيري. لو أنني أعلم أين نحن...

تطلَّع إلى الشمس.

- حسنًا، سنخاطر... سنسير من هنا.

جعَّدت سيري أنفها، وأشارت إلى الاتجاه المعاكس: «لا! من هنا.. هناك».

- وأنتِ أساسًا ما أدراكِ؟

هزت كتفيها، ونظرت إليه نظرة زمردية مدهوشة عزلاء: «أدري. بطريقة ما... شيء ما، هناك... لا أدري».

فكر: ابنة بافيتا. طفلة... طفلة الدم الأقدم؟ من الممكن أنها ورثت شيئًا من والدتها.

فكَّ أزرار قميصه وأخرج الميدالية: «سيري... المسيها».

فتحت فمها: «أوه! يا له من ذئب رهيب. ويا لأنيابه...».

- المسيها.

- أوي!!!

ابتسم الويتشر. لقد شعر أيضًا بارتجاف الميدالية المفاجئ، والموجة الحادة التي سرتْ خلال السلسال الفضي.

تنهَّدت سيري: «لقد تحركَ! تحركَ!».

- أعلم. لنمضِ يا سيري. هيا قودينا.

- هذا سحر، أليس كذلك؟

- طبعًا.

كان الأمر كما توقع. التقطتِ البُنَيَّة الاتجاه الصحيح. لم يدرِ كيف تسنى لها ذلك. بيد أنهما وبسرعة، بأسرع مما توقع، خرجا إلى الطريق عند مفترق طرق ثلاثي متشعب. كان هذا الموقع حدودَ بروكلون -على الأقل وفقًا للبشر. وكما يُذكَر، فإن إيثني لم تكنْ تعترف بذلك.

عضتْ سيري شفتها، وجعَّدت أنفها، ترددتْ ناظرة إلى مفترق الطرق الرملية الوعرة، المحفورة بالحوافر وعجلات العربات. لكنَّ جيرالت صار يعلم الآن أين هو، ولم يعدْ مضطَّرًا إلى الاعتماد على قدراتها غير المؤكدة. انطلق على الطريق المُفضِية إلى الشرق باتجاه بروجي. تلفتت سيري، وكانت لا تزال عابسةً، معاينةً الطريق الغربية.

تهكَّمَ: «من هناك يمكن الذهاب إلى قلعة ناستروج. اشتقتِ إلى كيسترين؟».

نبرتِ البُنَيَّة، وتبعته مطيعة، لكنها نظرت إلى الوراء عدة مرات.

- ما الأمر يا سيري؟

همستْ: «لا أدري. لكنَّ هذا المسار خاطئ يا جيرالت».

- لماذا؟ نحن سائرون إلى بروجي، إلى الملك فينزلاف الذي يعيش في قصر منيف. سوف نستحم في الحمام، سننام على فراش من ريش...

كررتْ: «هذا المسار خاطئ.. خاطئ».

- حقًّا، لقد رأيتُ أفضلَ منه. كُفِّي عن تحريك أنفك يا سيري. لنذهب بهمَّة.

تجاوزا منعطفًا مكتظًّا بالشجيرات، واتضح أن سيري كانت على حق.

فجأة أحاطوا بهما، بسرعة ومن جميع الجهات. أناس ذوو خوذ مخروطية ودروع مزرودة وغلائل زرق داكنة، ومعها على الصدر رقعة شطرنج فيردن باللونين الذهبي والأسود. طوقوهما، لكنَّ أيًّا منهم لم يقترب، ولم يلمس السلاح.

نبح فرد ممتلئ الجسم في زيٍّ رثٍّ أخضر، وقد وقف أمام جيرالت على رجليْن مُقوَّستيْن، مُنفرِجتيْن انفراجًا واسعًا: «من أين؟ وإلى أين أنتما؟».

كان وجهه قاتمَ اللون ومتجعدًا كثمرة برقوق مُجفَّفة. من خلف ظهره، وعاليًا فوق رأسه، برزت قوس وسهام ذات ريش أبيض.

- من القُرمة المُحرَّقة. (كذب الويتشر بسلاسة، ضاغطًا بشدة يد سيري) عائدٌ إلى منزلي في بروجي. وماذا؟

قال الرجل ذو الوجه القاتم بأدب أكثر، كما لو أنه رأى توًّا السيف على ظهر جيرالت: «خدام الملك، نحن...».

صاح شخص يقف أبعد على الطريق: «هيا هاتِه إلى هنا».

تفرَّق الجنود المأجورون جانبًا.

قال جيرالت بسرعة: «سيري، لا تنظري. أديري وجهكِ ولا تنظري».

كانت على الطريق شجرة ساقطة تسد المرور خلال شبكة الفروع المتشابكة. لاح جزء من الجذع المتقصِّف والمقطوع جزئيًّا، مبيضًّا بلمعان يشع من الشظايا الطويلة في الأجمة على جانب الطريق. وقفتْ أمام الشجرة عربة مغطاة بمشمَّع يحجب حمولتها. خيول صغيرة مشعرة ملقاة على الأرض مشبوكة بقضبان الجر والأربطة، ومغمورة بالسهام، ومبرزة أسنانها الصفر. أحدها كان لا يزال حيًّا، ويشخر بمشقَّة ويرفس.

وثمة أناس كانوا مرميين أيضًا هناك في بقع داكنة من الدماء التي امتصَّها الرمل، ومتدلين على جانب العربة، منكمشين عند العجلات.

من بين المسلحين المتجمعين حول العربة، خرج شخصان ببطء، ثم انضمَّ ثالث إليهما. أما الآخرون، وكانوا ما يقرب العشرة، فقد وقفوا ساكنين ممسكين بالخيول.

سأل الويتشر، وهو يقف بطريقة تحجب مشهد المجزرة عن نظر سيري: «ماذا حدث هنا؟».

نظر الرجل الأحول الذي كان يرتدي درعًا مزرودة قصيرة وينتعل حذاءً طويلًا، إليه مُتفحِّصًا، وفرك طرف ذقنه فأحدث الشعر عليها حفيفًا. كانت على ساعده الأيسر كفة كم جلدية مهترئة ولماعة، كتلك التي يستخدمها الرماة.

قال باقتضاب: «حدث اعتداء. المامونات قتلنَ التجار. نحن هنا نُجري تحقيقًا».

- المامونات؟ هاجمن التجار؟

أشار الأحول بيده: «كما ترى... ها هم مغروزون بالسهام كأنهم قنافذ، على الطريق العريضة! أصبحت ساحرات الغاب يزددن وقاحة. لم يعدْ فقط دخول الغابة ممكنًا، بل حتى السير على الطريق بمحاذاة الغابة ما عاد ممكنًا».

ضيق الويتشر عينيه: «وأنتم، من أنتم؟».

- فريق إيرفيل. من وحدات ناستروج العشرية. كنا نخدم تحت قيادة البارون فرايكسينت. لكنَّ البارون سقط في بروكلون.

فتحتْ سيري فمها، لكنَّ جيرالت ضغط يدها بقوة، آمرًا إياها بالصمت.

رعدَ رفيق الأحول، وهو عملاق يرتدي قفطانًا مزررًا بالنحاس الأصفر: «الدم مقابل الدم، أقول! الدم مقابل الدم! من غير المسموح أن يمر هذا الأمر هكذا. أولًا فرايكسينت والأميرة المختطَفة من سينترا، والآن التجار. وحق الآلهة، أعلن الانتقام، الانتقام! وإلا سترون غدًا، أو بعد غد، كيف سيبدؤون بقتل الناس على أعتاب بيوتهم!».

تكلم الأحول: «بريك يقول الصواب. أليس كذلك؟».

- وأنت يا أخي، إن أمكن السؤال، من أين؟

كذب الويتشر: «من بروجي».

- وهذه الصغيرة، ابنتكَ؟

ضغط جيرالت راحة سيري مجددًا: «ابنتي».

عبس بريك: «من بروجي. وسأقول لكَ، يا أخي، إن ملككَ فينزلاف يشجع الوحشيات تحديدًا. إنه لا يريد أن يتحدَ مع إيرفيل قائدنا ومع فيراكساس من كيراك. ولو ذهبنا من ثلاث جهات إلى بروكلون، لسحقنا هذه القذارة في النهاية...».

سأل جيرالت ببطء: «كيف حدثت هذه المذبحة؟ هل يعلم أحد؟ هل نجا أحد من التجار؟».

قال الأحول: «لا شهودَ. لكننا نعلم ما حدث. جونغانس، ناظر الغاب، يقرأ الأثر كما يقرأ الكتاب. أخبره يا جونغانس».

قال ذو الوجه المتجعد: «نعم. كان الأمر هكذا: كان التجار يسيرون على الطريق العريضة. صدموا عائقًا شائكًا، ترون أيها السيد، صنوبرة مقطوعة حديثًا منقلبة بعرض الدرب. ثمة آثار في الدغل، تريدون رؤيتها؟ حسنًا، عندما توقف التجار لإزاحة الشجرة، رُشِقُوا بالسهام في لمح البصر. من هناك، من بين الشجيرات الكثيفة، حيث تلك البتولا المعوجة. وثمَّة آثار أيضًا. والسهام، انتبهوا، هذا كله من فعل المامونات، الريش ملتصق بالصمغ، وأعقاب السهام ملفوفة بالنسيج اللحائي...».

قاطعه الويتشر ناظرًا إلى القتلى: «أرى ذلك. يبدو لي أن بضعة منهم نجوا من الرشق، هؤلاء ضُرِبَتْ حلوقهم. بالسكاكين».

خرج من وراء ظهر العسكر الواقفين أمامه شخص آخر - نحيف وقصير يرتدي قفطانًا من جلد الموظ. كان شعره أسود ومقصوصًا قصًّا قصيرًا جدًّا، شعره أسود ومقصوص قصًّا قصيرًا جدًّا، وخداه مزرقان من جراء حلاقة الشعر الأسود بنعومة. كانت تكفي الويتشر نظرة واحدة إلى الكفين الصغيرتين الضيقتين المدسوستين في قفازين لا أصابع لهما، وإلى العينين السمكيتين الشاحبتين، وإلى السيف، ومقابض الخناجر البارزة من خلف الحزام، ومن رقبة الحذاء في قدمه اليسرى. لقد رأى جيرالت الكثير والكثير

من القتلة، حتى أصبح من المستحيل عليه أن يعجز عن تمييز واحد آخر منهم على الفور.

تكلم الأسود ببطء شديد: «لديك عين ثاقبة. في الحقيقة، أنت ترى الكثير».

قال الأحول: «وهذا أمر حسن. وليخبرْ ملكه بما رأى، وإن فينزلاف أصلًا يرى باستمرار أنه ليس من الضروري قتل المامونات، لأنهنَّ لطيفات وطيبات. وعلى اليقين يمضي إليهنَّ في شهر مايو ويضاجعهنَّ. وهنَّ ربما لهذا الغرض طيبات أيضًا. وهذا ما سنتحقق منه أنفسنا إذا أخذنا واحدة منهنَّ حية».

قهقه بريك: «حتى لو كانت نصف حية. أوه، تبًّا للطاعون، أين ذلك الكاهن الدرويد؟ سيدركنا الظهر قريبًا ولا أثر له. حان وقت الانطلاق».

سأل جيرالت دون أن يترك يد سيري: «ماذا تنوون؟».

هسهس الأسود: «وما شأنكَ وهذا؟!».

ابتسم الأحول ابتسامة قميئة: «حسنًا، لماذا هذه الحدة مباشرة يا ليفيك؟ نحن البشر الشرفاء، لا أسرار لدينا. يرسل إيرفيل إلينا كاهنًا من الدرويد، وهو ساحر عظيم، يمكنه التحدث حتى إلى الشجر. وذاك نفسه سيقودنا إلى الغابة ليثأر لفرايكسينت، ومحاولة استعادة الأميرة. إنها ليست نزهة يا أخي، بل إرسا... إرسا...».

لقَّنه هذا الأسود، ليفيك: «إرسالية».

- هي ذي. لقد أخرجتَها من فمي. إذن، امضِ في طريقك يا أخي، فقد يكون الوضع ساخنًا هنا قريبًا.

قال ليفيك بإبطاء شديد، ناظرًا إلى سيري: «نعععم. المكان غير آمن هنا، خاصة مع وجود البُنَيَّة. مامونات الغاب ينتظرن بشوق مثل هؤلاء الصبايا. ماذا يا صغيرة؟ أميمتكِ تنتظر في المنزل؟».

هزت سيري رأسها وهي ترتجف.

تابع الأسود دون أن يرفع عينه عنها: «سيكون الأمر مروِّعًا إن لن تتمكن من الانتظار حتى النهاية. لعلها كانت ستُهرَع إلى الملك فينزلاف وتقول: لقد تهاونتَ مع حوريات الغاب أيها الملك، والآن تفضل، ها هما ابنتي وزوجي في ذمتكَ. من يدري، ربما عندئذٍ سيُعيد فينزلاف النظر في أمر تحالفه مع إيرفيل؟».

هدر جونغانس وقد تجعَّد وجهه المتجهِّم على نحو أشد: «اتركوهما يا سيد ليفيك. دعوهما يذهبان».

- مع السلامة، يا صغيرة. (مد ليفيك يده ومسح على رأس سيري التي ارتجفت وتراجعت) ما هذا؟ تخافين؟

قال الويتشر بصوت خفيض: «يدكَ ملطخة بالدم».

رفع ليفيك كفه: «آه! حقًّا. إنه دمهم.. دم التجار. لقد تحريتُ أكان أحد منهم قد نجا. لكنْ يا للأسف، المامونات يُصِبْنَ الهدف بدقة».

نطقتْ سيري بصوت مرتعد، غير مستجيبة لضغطة راحة الويتشر: «المامونات؟ أوه، أيها الفرسان النبلاء، أنتم مخطئون. لا يمكن أن تكون هؤلاء حوريات غاب!».

ضاقتْ عينا الأسود الشاحبتان: «بماذا تتمتمين يا صغيرة؟».

ألقى جيرالت نظرة إلى اليمين وإلى اليسار، وقدَّر المسافات.

كررت سيري: «لم يكنَّ حوريات غاب يا سيدي الفارس. إن هذا واضح!».

- هاه؟

- إن هذه الشجرة.:. هذه الشجرة مقطوعة! بالفأس! وحوريات الغاب لا يمكن أن يقطعنَ شجرة أبدًا، أليس صحيحًا؟

تكلم ليفيك، ونظر إلى الأحول: «صحيح. أوه، يا لكِ من فتاة ذكية. ذكية أكثر من اللازم».

كان الويتشر قد لاحظ في الحال يده الضيقة المغطاة بالقفاز وهي تزحف كعنكبوت أسود نحو مقبض الخنجر. ومع أن ليفيك لم يزحزح عينيْه عن سيري، عرف جيرالت أن الضربة ستكون موجهة إليه. انتظر إلى أن لمس ليفيك سلاحه، وحبس الأحول أنفاسه.

ثلاث حركات. ثلاث فقط. خبط الساعد المدرَّع بدبابيس فضية رأس الأسود من جانبه. وقبل أن يسقط، كان الويتشر قد وقف بين جونغانس والأحول، وانطلق السيف، قافزًا بصليل من غمده وهو يعوي في الهواء، مهشمًا صدغ بريك، العملاق المرتدي قفطانًا مزررًا بالنحاس الأصفر.

- اهربي يا سيري!

وثب الأحول وهو يُشهِر سيفه، لكنه لم يلحق. طعنه الويتشر شاقًّا صدره على نحو قُطري من الأعلى إلى الأسفل، وعلى الفور، مستغلًّا طاقة الضربة، من الأسفل إلى الأعلى، راكعًا، وباترًا العسكري بعلامة X الدامية.

صرخ جونغانس على بقية العسكر الذين جمدوا من هول المفاجأة: «يا رِجال! إليَّ!».

بلغتْ سيري شجرة الزان المعوجة، واندفعت إلى الأعلى خلال الفروع كسنجاب، متواريةً بين الأوراق. أطلق ناظر الغابة خلفها سهمًا، لكنه أخطأها. ركض الآخرون، وانشطروا في نصف دائرة، وسحبوا الأقواس والسهام من جعبهم. ثنى جيرالت أصابعه، وكان لا يزال راكعًا، وضرب بعلامة آراد، لكنْ ليس الرماة، فهم كانوا بعيدين جدًّا، بل ضرب الدرب الرملي أمامهم، مُغطِّيًا إياهم بالغبار.

سحب جونغانس من جَعبته السهم الثاني بخفة، وهو يرتدُّ قافزًا.

صرخ ليفيك، وهو يهبُّ من الأرض واقفًا، وسيفه في يمناه وخنجره في يسراه: «لا! اتركْه يا جونغانس!».

دار الويتشر بانسيابٍ، متوجهًا نحوه.

قال ليفيك، وهو يهز رأسه ويمسح بساعده على خده وفمه: «هو لي! لي فقط».

تحرَّك جيرالت منثنيًا نصف دورة، لكنَّ ليفيك لم يلتف، وهاجم في الحال، هابطًا في قفزتيْن. لا بأسَ به، فكَّر الويتشر، وهو يشتبك بمشقة مع شفرة القاتل بحركة طاحونية قصيرة، متفاديًا بنصف دورة طعنات الخنجر. لم يضربْ بعد أن احتمى متعمِّدًا، وارتدَّ قافزًا، منتظرًا أن يحاول ليفيك أن يصل إليه بضربة طويلة مديدة، وأن يفقد توازنه. لكنَّ القاتل لم يكن مبتدئًا. انحنى وانطلق أيضًا بنصف دورة وخطوٍ لين كخطوِ القط. قفز بغتة ولوَّح بسيفه بحركة طاحونية، والتفَّ مختصرًا المسافة. لم يخرجِ الويتشر لملاقاته، فقد اقتصر فعله على حركة عالية مخادعة وسريعة أجبرت القاتل على القفز مرتدًّا. انحنى ليفيك، طاويًا نفسه في وضعية دفاعية، ومخفيًا يده والخنجر خلف ظهره. لم يهجم الويتشر هذه المرة أيضًا، ولم يقصرِ المسافة، وانطلق مجددًا بنصف دورة، محيطًا به.

نطق ليفيك بنفور، وهو يعتدل: «أها. أنمدد اللعبة المسلية؟ ولم لا. لا يُمَلُّ من التسلية الجيدة أبدًا!».

قفز ودار ملتفًّا، ثم ضرب مرة، مرتيْن، ثلاثًا، بإيقاع سريع (طعنة من أعلى بالسيف، وعلى الفور، من اليسار ضربة خنجر منجلية مسطَّحة. لم يُخِلِّ الويتشر بالإيقاع) صدَّ الضربة، ارتدَّ بسرعة وانطلق مجددًا بنصف دورة، مُجبِرًا القاتل على الالتفاف. تراجع ليفيك فجأةً، وتحرَّك نصف دائرة في الاتجاه المعاكس.

هسهس من خلال أسنانه المطبقة: «كل تسلية يجب أن تكون لها نهاية. ماذا ستقول عن ضربة واحدة يا ماكر؟ ضربة واحدة ثم نُردِي لقيطتَك من فوق الشجرة. فما رأيكَ؟».

لاحظ جيرالت أن ليفيك كان يراقب ظله، وأنه ينتظر حتى يصلَ الظل إلى الخصم، فيُعطي إشارة إلى أن الشمس في عينيه. فتوقف عن الدوران ليسهِّل مهمة القاتل.

وضيَّق حدقتيْه لتصيرا شقين رأسييْن، خطيْن ضيقيْن.

ولكي يظهر أنه قد تأثر فعلًا، عبس قليلًا متظاهرًا بأن الشمس أعمت عينيْه.

قفز ليفيك وراح يدور محافظًا على توازنه، وبيده الممسكة بالخنجر، والممدودة إلى الجانب، ضرب من ثنية مستحيلة عمليًّا لمعصمه من الأسفل، مستهدفًا منطقة العِجان. انطلق جيرالت إلى الأمام، استدار وصدَّ الضربة، ثانيًا ذراعه ومعصمه ثنيًا مستحيلًا كذلك، ودفع القاتل بزخم قوة واندفاع، وحزَّه بطرف نصله على طول خده الأيسر. ترنَّح ليفيك ممسكًا بوجهه. انعطف الويتشر بنصف دورة، ونقل ثقل جسده إلى ساقه اليسرى، وبضربة قصيرة قطع شريانه السباتي. انكمش ليفيك وهو يقطر دمًا، هوى على ركبتيْه وانثنى دافنًا وجهه في الرمال.

استدار جيرالت ببطء نحو جونغانس. صوَّب هذا الشخص قوسه، مقطبًا وجهه المتجعِّد في عبوس حانق. انحنى الويتشر آخذًا السيف بكلتا يديْه. رفع الجنود الآخرون أقواسَهم أيضًا في صمت مطبق.

زأر ناظر الغابة: «ماذا تنتظرون! ارشقوا! ارشقوها...».

تعثَّر وترنح وتمايل إلى الأمام وسقط على وجهه، وبرز من قفا عنقه سهم. كان على مؤخرة السهم أرياش مخططة كبيرة من أنثى التدرُج، المصبوغة بالأصفر في مغلي اللحاء.

طارت السهام بصفير وهسهسة خلال قطوع مكافئة طويلة ومُسطَّحة من جهة جدار الغابة الأسود. طارتْ ظاهريًّا ببطء وهدوء، تحفٌّ بالأرياش، وبدا أنها لا تكتسب الزخم والقوة إلا عندما تضرب أهدافها. وكانت تصيب دون أن تخطئ، حاصدةً مرتزقةَ ناستروج، وملقيةً بهم في رمال الدرب عاجزين ومبتورين كأنهم نبات عباد الشمس ضُرِبَ بعصا.

هُرِعَ أولئك الذين نجوا نحو الخيول، متدافعين. لم تتوقف السهام عن الصفير، وصلت إليهم وهم يجرون، وانهالت على السروج. ثلاثة تمكنوا فقط من جعل الخيول تعدو وتنطلق، صارخين وهم يُدمون بالمهاميز خواصر الجياد. لكنَّ هؤلاء أيضًا لم يتمكنوا من السير بعيدًا.

أغلقت الغابة الدرب وسدَّته. فجأةً لم تعد ثمة طريق رملية مغمورة بالشمس. بل كان جدارًا متماسكًا من جذوع سودٍ لا يمكن اختراقه.

كبح المرتزقة خيولهم، مذعورين ومذهولين، وحاولوا الرجوع، لكنَّ السهام كانت تمطرهم دون انقطاع. وكانت تبلغهم وتُسقِطهم عن سروجهم وسط خبط الخيول وصهيلها، ووسط الصخب.

وبعد ذلك ساد الصمت.

ومض جدار الغابة الذي أغلق الطريق وانمحى، ثم أشرق في قوس قزح واختفى. وكان من الممكن رؤية الدرب من جديد، وعلى الدرب وقف حصان أشهب، وعلى الحصان الأشهب جلس خيَّال ضخم، ولحيته رمادية مصفرَّة، تشبه المكنسة، يرتدي سترة من جلد الفقمة، محزمة قطريًّا بوشاح من الصوف المقلم.

تقدَّم الحصان الأشهب إلى الأمام، وهو يدير رأسه ويعضُّ الشكيمة، رافعًا حوافره الأمامية عاليًا، شاخرًا ونافرًا من الجثث ومن رائحة الدم. استقام الخيَّال على السرج، ورفع يده، لكنَّ هبة ريح مفاجئة ضربتْ أغصان الأشجار.

بزغتْ من الأجمة، عند الحافة البعيدة للغابة، أطياف أجسام صغيرة في ملابس ضيقة مركَّبة من اللونين الأخضر والبني، لها وجوه مخططة بشرائط ملوَّنة بقشر الجوز.

صاح الخيَّال:

– *Cea´dmil, Wedd Brokilo´ene! Fa´ill, Ana´ Woedwedd!*

صوت من الغابة كأنه هبة ريح: *Fa´ill!* –

أخذتِ الأطياف ذات اللون الأخضر البني تختفي جسمًا تلو الآخر، ذائبة في ديسة الصنوبر. بقي جسم واحد فقط، ذو شعر عسلي منساب. إنه جسم بنت خطتْ بضع خطوات، واقتربت.

صاحت، دانية أكثر:

– *Va fa´ill, Gwynbleidd!*

قال الويتشر: «الوداع يا منى. لن أنساكِ».

أجابت بحزم وهي تعدل الجعبة على ظهرها: «انسَ. لا وجودَ لمنى. منى كانت حلمًا. أنا برائين. برائين من بروكلون».

ولوَّحت له بيدها مرة أخرى. واختفت.

أدار الويتشر رأسه.

قال، وهو ينظر إلى الخيَّال الممتطي حصانه الأشهب: «جُوال الفأر».

أومأ الخيَّال برأسه، وهو يقيسه بنظرات باردة: «جيرالت. لقاء مثير. لكنْ لنبدأ بأهم الأشياء. أين سيري؟».

صرختِ البنية، وكانت مخفية تمامًا بين أوراق الشجر: «هنا! هل صار يمكنني النزول الآن؟».

قال الويتشر: «يمكنكِ ذلك».

– لكني لا أعرف كيف!

– تمامًا مثلما تسلقتِ، لكنْ عكس الاتجاه.

– أنا خائفة! أنا على القمة نفسها من الشجرة!

– انزلي، أقول لكِ! لدينا ما نتحدث به يا آنستي!

– عمَّ سنتحدث؟

– لماذا، بحق الجحيم، تسللتِ إلى هناك بدلًا من الفرار إلى الغابة؟ كنتُ سأفرُّ خلفكِ، وما كنتُ سأضطَّرُّ... آخ، تبًّا. انزلي!

- لقد فعلتُ ذلك كما القطِّ في الحكاية! كلما فعلتُ شيئًا، وُصِفَ في الحال أنه سيئ! لماذا؟! أود أن أعرف.

قال الكاهن الدرويد، وهو ينزل عن حصانه: «وأنا أيضًا. أودُّ أن أعرف ذلك. وجدتكِ، الملكة كالانثي، أيضًا تودُّ أن تعرف. هيا، انزلي يا أميرة».

تساقطتْ أوراق وغصينات يابسة من الشجرة. بعدئذٍ انبعث صوت حاد لقماش يتمزق، وظهرت سيري أخيرًا منزلقة على جذع الشجرة وهي تحضنه مباعدة ساقيها. وبدلًا من القبعة على سترتها، كانت مزقة قماش بديعة المنظر.

- العم جُوال الفأر!

احتضنَ الكاهن الدرويد البُنَيَّة: «بشحمه ولحمه».

- الجدة أرسلتكَ؟ يا عم.. هي قلقة كثيرًا عليَّ؟

ابتسم جُوال الفأر: «ليس كثيرًا. إنها مشغولة جدًّا بتحضير العصيِّ[1]. الطريق إلى سينترا يا سيري تستغرق بعض الوقت. فخصصيه لاختلاق تفسير لأفعالك. وينبغي أن يكون تفسيرًا، إن أردتِ الأخذ بنصيحتي، قصيرًا جدًّا وفي صلب الموضوع. من النوع الذي يمكن قوله بسرعة فائقة. فائقة جدًّا. ومع ذلك، أعتقد أنه سيكون عليك أن تصرخي في نهايته أيتها الأميرة. بصوت عالٍ جدًّا جدًّا».

عبستْ سيري بألم، مجعَّدة أنفها، ونبرتْ بخفوت، وانطلقتْ راحتاها لا إراديًّا باتجاه المكان المهدد.

قال جيرالت متلفتًا حوله: «فلنذهب من هنا. فلذهب من هنا يا جُوال الفأر».

(1) في الأصل: يستخدم المؤلِّف «بنقع العصيِّ»، وهي عادة يُراد منها أن لا تتفسخ العصيُّ بسبب جفافها، فتُنقع كي لا تؤذي الشخص المضروب بها.

8

قال الكاهن الدرويد: «لا. لقد غيَّرت كالانثي خططَها، لم تعدْ ترغب في أن تتزوج سيري بكيسترين، ولديها أسبابها الخاصة. بالإضافة إلى ذلك، لا أظن أنني مُضطَّرٌّ إلى أن أشرح لكَ أنه بعد هذه الفضيحة البشعة المرتبطة بالاعتداء الظاهري على التجار، سقط الملك إيرفيل من عيني سقوطًا ذريعًا، وعيناي يُحسب لهما في المملكة حساب كبير. لا، لن نعرِّج حتى على ناستروج. سنأخذ الصغيرة مباشرة إلى سينترا. فلتذهب معنا يا جيرالت».

ألقى الويتشر نظرة على سيري، الغافية تحت شجرة، ملفوفة بسترة جُوال الفأر الجلدية: «لأي غرض؟».

- أنت تعلم تمامًا، لأي غرض. هذه الطفلة يا جيرالت، هي مقدَّرة عليكَ. مرة ثالثة، نعم، مرة ثالثة تتقاطع دروبكما. مجازيًّا طبعًا، وخاصة في ما يتعلق بالمرتيْن الفائتتين. لعلكَ لن تسمي ذلك مصادفة؟!

ابتسم الويتشر ابتسامةً معوجَّةً: «وما الفرق كيف يمكن أن أسمي ذلك. ليس الأمر في التسمية يا جُوال الفأر. لأي غرض عليَّ الذهاب إلى سينترا؟ لقد كنتُ فعلًا في سينترا، وقد قاطعتُ، حسب تعبيركَ، الدروبَ. وما فائدة ذلك؟».

- جيرالت، لقد طلبتَ حينئذٍ من كالانثي ومن بافيتا وزوجها أن يقسموا اليمين. واليمين محفوظة. وسيري هي المفاجأة. والقدر يطلب...

- أن آخذ هذه الطفلة وأصيِّرها ويتشرًا؟ هذه البنية؟ أنعِم النظر فيَّ يا جُوال الفأر. هل يمكنك أن تتخيَّلني صبية حسناء؟

هاج الكاهن الدرويد: «إلى الشيطان كل ما هو ويتشري. عمَّ تتحدث أنت؟ ما الجامع بين هذا وذاك؟ لا يا جيرالت، أرى أنكَ لا تفهم شيئًا، لا بدَّ لي من استخدام كلمات بسيطة. اسمع، إن أي أحمق، من بين ذلك أنت، يمكنه أن يطلب القسم، ويمكنه أن يرغم على الوعد، ولن يصبح جراء ذلك غير عادي. الطفل هو غير العادي. وغير عادي هو الرابطة التي ستتشكل عندما يولد الطفل. هل أوضح أكثر؟ تفضل يا جيرالت، منذ لحظة ولادة سيري لم يعد يهم ماذا تريد أنت، وما تخطط له، وأيضًا لا أهمية البتة لما لا تريده، ولما تتخلى عنه. اللعنة، إنك لا تأخذ في الحسبان أي شيء. ألا تفهم؟».

- لا تصرخ، ستُوقِظها. مفاجأتنا نائمة. وعندما تستيقظ... يا جُوال الفأر، حتى الأشياء غير العادية يمكن... يجب في بعض الأحيان التخلي عنها.

نظر الدرويد إليه ببرود: «إنك تعلم أنه لن يكون لك طفل من صلبك أبدًا».

- أعلم.

- وتتخلى عنها؟

- أتخلى. أظن أن ذلك مسموح لي؟

قال جُوال الفأر: «مسموح. وكيف لا! لكنَّ ذلك محفوف بالأخطار. ثمة نبوءة قديمة تقول، إن سيف القدر...».

أكمل جيرالت: «ذو حدين. لقد سمعتُ».

- إذن، افعلْ كما يحلو لك. (أدار الكاهن رأسَه وبصق)، وأنا الذي كنت أفكر أنني على استعداد للمخاطرة برقبتي من أجلك...

- أنت؟

- أنا. فأنا على النقيض منكَ، أومن بالقدر. وأعلم أن العبث بسيف ذي حدين أمر خطر. لا تعبثْ يا جيرالت. استغلِّ الفرصة إن لاحت. اجعلْ ما يربطك بسيري رابطةً طبيعيةً وصحيةً بين طفل وراعٍ له. وإلا... فإن هذا الارتباط قد يظهر على نحو مغاير. أفظع. وبطريقةٍ سلبية وهدامة. أريد أن أحميك وأحميها من ذلك. لو أردتَ أخذها ما كنتُ سأعترض. سأتحمل مسؤولية المخاطرة في توضيح الأسباب أمام كالانثي.

- من أين لك معرفة أن سيري سترغب في الذهاب معي؟ من النبوءات القديمة؟

قال جُوال الفأر بجدية. «لا. من واقع أنها لم تنمْ إلا عندما احتضنتْها. وأنها تتمتم في نومها باسمك وتبحث بيدها الصغيرة عن يدك».

نهض جيرالت: «هذا يكفي، لأنني على وشك أن يأخذني الانفعال. رافقتكَ السلامة أيها الملتحي. وتحية احترام لكالانثي. ولفائدة سيري... اختلقْ شيئًا ما».

- لن تتمكنَ من الهروب يا جيرالت.

مدَّ الويتشر يده إلى حزام سرج الحصان الغنيمة: «مِن القدَر؟».

قال الدرويد ناظرًا إلى البُنَيَّة النائمة: «لا. منها».

هز الويتشر رأسه، وقفز على السرج.

جلس جُوال الفأر ساكنًا، منقِّبًا بعود في موضع النار الخامدة.

مضى سائرًا ببطء، خلال الخلنج الذي يبلغ بطوله ركابيِ الحصان، على طول المنحدر المؤدي إلى الوادي، تجاه الغابة السوداء.

- جيراااالت!

تلفَّت. كانت سيري واقفةً على قمة التل، شكل صغير، بشعر رمادي أشهب منساب.

- لا تذهب!

لوَّح بيده.

صرختْ بصوتٍ رقيق: «لا تذهب! لا تذهبببببب!».

فكَّرَ: لا بدَّ من ذلك. لا بدَّ لي، يا سيري. لأنني... أغادر دائمًا.

صرخت: «لن تتمكن من ذلك، على أي حال! لا تظن ذلك! لن تهرب! أنا قدرك، هل تسمع؟».

فكَّرَ: لا قدَرَ. لا وجودَ للقدر. الشيء الوحيد المقدَّر على الجميع هو الموت. إن الموت هو الحد الثاني للسيف ذي الحدين. وأنا أحدهما. وثانيهما الموت يتبعني خطوة خطوة. لا أستطيع، من غير المسموح أن أعرضك للخطر، يا سيري.

تناهى صوت من قمة التل إليه، أخفض، وأكثر يأسًا: «أنا قدركَ!».

لكزَ الحصان بعقبه وانطلق قُدُمًا، متوغلًا، كأنه في هاوية عميقة، في غابة سوداء وباردة ومبتلة، في ظلٍّ ودودٍ ومألوفٍ، في الظلام الذي بدا أنه لا نهاية له.

شيء ما أكثر

1

عندما قرقعتِ الحوافر على دعائم الجسر فجأةً، لم يرفعْ يورجا رأسه ولو قليلًا، بل عوى بهدوء فحسب، وترك حافة العجلة التي تثبَّتَ بها، وزحف تحت العربة بأقصى سرعة ممكنة. راح ينتحب بصوت متقطع ويرتعد من الخوف، مادًّا جسده مستويًا، وحاكًّا ظهره بقشرة من سماد وطين خشنة، كانت تغطي الجانب السفلي من المركبة. اقترب الحصان من العربة متمهلًا. رأى يورجا كيف يضع حوافره بنعومة وحذر على جذوع الشجر الخمجة المطحلبة.

قال الخيَّال الذي لم يكن يُرى: «اخرجْ».

رنَّت أسنان يورجا، ودسَّ رأسه بين ذراعيه. شخرتِ الفرس وخبطتِ الأرض.

قال الخيال: «اهدئي، يا روش (يورجا سمع كيف تُصفَع الدابة على عنقها)، اخرج من هناك، يا رجل. لن أسبب لك الأذى».

لم يصدقِ التاجر تصريحَ الغريب بتاتًا. لكنَّ شيئًا ما كان في الصوت قد طمأنه. وفي الوقت ذاته، كان مثيرًا، مع أنه لم يكن مطلقًا صوتًا يمكن لنبراته أن تعد لطيفة. أبرز يورجا رأسه بحذر من تحت العربة، متمتمًا بصلوات لأكثر من عشرة آلهة دفعة واحدة.

كان شعر الخيَّال أبيض كالحليب، مشدودًا إلى الجبين بعصابة جلدية، وكان معطفه أسودَ ومصنوعًا من الصوف متدليًا على مؤخرة الفرس الكستنائية. لم ينظرْ إلى يورجا. تفحَّص عجلة العربة، حتى بلغ صرتها، منحنيًا على السرج المتدلي من بين ألواح الجسر المتكسرة. فجأة رفع رأسه ورمق التاجر بنظرة، وراح يراقب الأيكة الممتدة فوق كتفيِ الخانق.

بزغ يورجا بصعوبة، رمش بعينيْه ومسح أنفه بكفه، وهو يدهن وجهه بقطران من صرة العجلة. ثبت الخيَّال عليه عينيه الداكنتين المضيَّقتين النافذتين، الحادتين كوتدٍ مستدقٍّ. التزم يورجا الصمت.

وأخيرًا نطق الغريب، وهو يشير إلى العجلة العالقة: «لا يمكننا، ونحن اثنان فقط، أن نسحبها. هل كنت تسير وحدك؟».

تلعثم يورجا: «رفقة شخصيْن آخريْن – خادمين، أيها السيد. لكنهما هربا، ذانك الأفَّاقان...».

قال الخيَّال ناظرًا إلى قاع الخانق، تحت الجسر: «لا أستغرب ذلك. لا أستغرب منهما ذلك إطلاقًا. وأرى أن عليك أن تفعل ما فعلاه تمامًا. ولقد حان وقت ذلك».

لم يتتبعْ يورجا ببصره أنظار الغريب. لم يكنْ يريد النظر إلى أكوام الجماجم والضلوع وقصبات السيقان المتناثرة بين الحجارة، والمطلَّة من تحت نباتات الأرقطيون والقرَّاص التي تنمو مالئةً قاع النُّهير الجاف. كان يخشى أن نظرة واحدة أخربإلى المنظر المكرر لمحاجر العيون السود، والأسنان المكشوفة البارزة، والعظام المهشمة، ستكفي كي ينفجر كل شيء فيه، وكي تفرَّ منه بقايا الشجاعة اليائسة كالهواء يخرج من مثانة السمكة. وكي يحث الخطى في الطريق العريضة صعودًا وإيابًا، مختنقًا بالصراخ، تمامًا كما حدث للحوذي والخادم قبل أقل من ساعة.

سأل الخيَّال بصوت خفيض، وهو يدير فرسه: «ماذا تنتظر؟ حلول الغسق؟ سيكون قد فات الأوان عندئذ. ما إن يحل الظلام، حتى تراهم يجيئونك. وربما قبل ذلك. هيا اركب، اقفزْ إلى ظهر الفرس، من الخلف ورائي. فلننطلق من هنا في أسرع وقت ممكن».

عوى يورجا بكل صوته، غير عارف تمامًا أكان ذلك بسبب الخوف أم اليأس أم الغضب: «والعربة، أيها السيد؟ والبضاعة؟ سنة كاملة من العمل؟ أفضِّلُ الموتَ نافقًا! لن أتركهااااا!».

قال الغريب بهدوء، مادًّا يده تجاه المقبرة المروِّعة تحت الجسر: «يبدو لي أنكَ لا تزال لا تدري أين أنت، وإلى أي مهلكة قذف بك الشيطان، أيها الصديق. تتحدث عن أنك لن تترك العربة؟ وأنا أقول لكَ، عندما يحل الظلام، فلن تستطيع إنقاذكَ حتى كنوز الملك ديزمود، فما بالك بعربتك البائسة هذه. ما الذي، بحق الشيطان، انتابكَ حتى تختصر الطريق خلال هذه البرية الوعرة؟ ألا تعلم ماذا اعتمل هنا منذ الحرب؟».

أومأ يورجا برأسه إشارة إلى أنه لا يعلم.

هزَّ الغريب رأسه: «أنت لا تعلم. لكنكَ رأيتَ ما هو مُلقى في الأسفل؟ من الصعب عدم ملاحظة ذلك. أولئك هم الذين اختصروا الطريق مارِّين من هنا. وأنت تقول إنك لن تترك العربة. وماذا لديكَ، من أجل الفضول فقط، في تلك العربة؟».

لم يُجِبْ يورجا، ناظرًا إلى الخيَّال من تحت الرأس، وحاول الاختيار بين رواية «نُسالة الكتان» ورواية «الأسمال القديمة».

لم يبدُ على الخيَّال أنه مهتم كثيرًا بالإجابة. راح يهدئ الفرس الكستنائية التي كانت تعض الشكيمة هازةً رأسها.

وأخيرًا تمتم التاجر: «أيها السيد... ساعدوني. أنقذوني. سأكون ممتنًّا مدى الحياة... لا تتركوني... سأعطيكم ما تريدون، كل ما تطلبون... أنقذوني، أيها السيد!».

أدار الغريب رأسَه نحوه فجأة، متكئًا بكلتا يديه على قربوس السرج.

- ماذا قلت؟

صمت يورجا فاغرًا فمه.

- ستعطيني كل ما أطلب؟ أعِدْ ما قلتَ.

تمطَّق يورجا وأغلق فمه، وشعر بالندم لأنه لم تكنْ لديه لحية، يمكنه أن يبصق فيها. دارتْ في رأسه افتراضاتٌ خياليةٌ بشأن المكافأة التي يمكن أن يطلبها الوافد الغريب. لكنَّ معظمها، من بين ذلك أيضًا الامتياز الأسبوعي

لاستخدام زوجته الشابة، **ذهبية الخديْن**، لم يبدُ فظيعًا كالفظاعة المحتملة التي سيجلبها فقدان عربته، وعلى اليقين لم يبدُ رهيبًا كإمكانية الرقود في قاع الإفجيج كهيكل عظمي آخر رمادي أشهب. أرغمته رتابة العمل التجاري على إجراء حسابات فورية. ومع أن الخيَّال لم يكن مظهره مظهرَ رجل عادي، رث الثياب، أو ما يشبهمتسكعًا أو شريدًا متلكئًا، وأمثالهم ممن ملأوا الطرق بعد انتهاء الحرب، لم يكن بإمكانه أيضًا، وتحت أي شكل، أن يكون نبيلًا مشرَّفًا أو مسؤولًا إداريًّا رفيعًا، أو واحدًا من هؤلاء الفرسان المعتزِّين بأنفسهم، المقدرين عاليًا، والذين يجدون المتعة في سلخ جلد أبناء جلدتهم. قدَّر يورجا ثمنه بما لا يزيد على عشرين قطعة ذهبية. لكنَّ طبيعته التجارية منعتْه من ذكر السعر. لذا اقتصرَ الأمر على الثرثرة عن «الامتنان مدى الحياة».

ذكَّر الغريبُ التاجرَ بهدوء، بعد أن انتظر إلى أن يسكت: «لقد سألتكَ. أستعطيني ما سأطلب؟».

لم يكن ثمة مخرج. ابتلع يورجا لعابه وأحنى رأسه وأومأ به مؤكِدًا. لم يضحكِ الغريب ضحكةً تنذر بالشر، عكس ما توقع، بل عكس ذلك تمامًا، لم يبدُ بتاتًا كحال المبتهج بنشوة الانتصار في المفاوضات. بصق على الإفجيج بعد أن انحنى على السرج.

قال بكآبة: «ما الذي أفعله؟ ماذا أفعل حقًّا...؟ لا بأس، إذن. سأحاول أن أخرجك من ذلك، مع أنني لا أعرف أكان سينتهي الأمر على نحو مأساوي لكلينا. وإذا نجح، فأنت مقابل ذلك...».

انكمشَ يورجا، وأوشك أن يبكي.

فجأة نطق الخيَّال بسرعة، وكان مرتديًا معطفًا أسود: «ستعطيني ما تجد في منزلك بعد عودتك، وأنت لا تتوقع وجوده. هل تقسم؟».

تأوَّه يورجا، وأومأ برأسه بسرعة.

عبس الغريب: «حسنًا. والآن تنحَّ جانبًا. ومن الأفضل أن تنزل إلى ما تحت العربة من جديد. الشمس ستغرب عما قريب».

قفز نازلًا عن الحصان، وسحب معطفه عن كتفيه. رأى يورجا أن الغريبَ كان يحمل سيفًا على ظهره، معلقًا على حزام مُلقى على طول صدره قطريًّا. انتابته أحاسيس غامضة بأنه قد سمع من قبل عن أناس يرتدون السلاح بطريقة مشابهة. السترة الجلدية السوداء التي كانت تبلغ ردفيه، ولها كفَّتان

للكُمَّيْن طويلتان تبرقان بأزرار فضية، قد تشي بأن الغريب ينحدر من نوفيجراد أو أرباضها، ولكنَّ فورة الإقبال على هذا النوع من الألبسة انتشرتْ على نطاق واسع في الآونة الأخيرة، وخاصة بين الشباب. بيد أن الغريب لم يكن شابًّا.

استدار الخيَّال بعد أن سحب الخُرج من على متن الدابة. تأرجحت على صدره ميدالية مستديرة مُعلَّقة على سلسال فضي. كان يمسك تحت إبطه محفظة صغيرة مزينة، وحزمة مستطيلة مغلفة بقطع جلدية ورباط.

سأل مقتربًا أكثر: «إلى الآن، لستَ تحت العربة؟».

رأى يورجا أن على الميدالية صورة رأس ذئب له فم مفتوح مسلَّح بالأنياب. وفجأة تذكر.

- أنتم... ويتشر أيها السيد؟

هز الغريب كتفيه.

- لقد حزرتَ. أنا ويتشر، والآن ابتعدْ. إلى الجانب الآخر من العربة. لا تخرجْ من هناك، والتزمِ الصمت. يجب أن أكون وحدي بعض الوقت.

أطاعه يورجا. جثا عند العجلة، ملتفًّا بجلباب لا أكمام له. لم يرغب في النظر إلى ما كان يفعله الغريب من الجانب الآخر للعربة، ولا سيَّما إلى العظام في قاع الإفجيج. لذا راح ينظر إلى حذائه وإلى رواشم الطحالب الخضر النجمية الشكل النابتة على جذوع الجسر الخمجة.

الويتشر.

غربتِ الشمس.

سَمِعَ خطى.

خرج الغريب ببطء، ببطء شديد من خلف العربة، إلى منتصف الجسر. كان ظهره في الاتجاه المعاكس –رأى يورجا أن السيف الذي على ظهره ليس هو السيف نفسه الذي شاهده من قبل. غدا الآن سلاحًا جميلًا– وقد تلألأت مسكة السيف وغمده وواقية اليد كالنجوم، وحتى في الظلام المخيم كان الضوء ينعكس، مع أن الضوء كاد ينعدم، وحتى الشفق الأرجواني الذهبي قد انطفأ، وقد كان مُعلَّقًا فوق الغابة قبل وقت قريب.

- أيها السيد...

أدار الغريب رأسه. يورجا كبح صراخه بمشقة.

كان وجه الغريب أبيض، وذا فجوات كالجُبن المصفَّى الذي نُزِعَ عنه ما لُفَّ به من قماش. والعينان... أيتها الآلهة... عوى شيء ما في يورجا. العينان...

تكلَّم الغريب بصوت مبحوح: «هيا، خلف العربة. فورًا».

لم يكن هذا الصوت هو نفسه الذي سمعه يورجا من قبل. أحسَّ التاجر فجأة بالألم الفظيع المتأتي من مثانته الملأى. استدار الغريب وواصل السير نحو الجسر.

الويتشر.

شخر الحصان المربوط بسلم العربة، صهل، وخبط بقوة بحوافره على الجذوع المقطوعة.

طنَّت بعوضة فوق أذن يورجا. لم يفعل التاجر شيئًا، حتى إنه لم يحرِّك يده ليطردها. طنَّت بعوضة أخرى. وراحت أسراب كاملة من البعوض تطنُّ في الأجمات على الجهة المقابلة من الإفجيج. واصلت الطنين.

وأخذت تعوي.

أدرك يورجا، وهو يُطبِق أسنانه إلى حد الألم، أن هذا الشيء ليس بعوضًا.

من بين الظلام المتكاثف على منحدر الأخدود المغطى بالشجيرات، بزغتْ أطياف صغيرة وغريبة الشكل، ليست أكبر من أربع أذرع، رفيعة على نحو مخيف كأنها هياكل عظمية. دخلتِ الجسرَ الغريبَ بِمشية مالك الحزين، عاليًا، بحركات سريعة حادة، رافعة ركبها ذات العُقَد.

كانت عيونها، تحت الجباه المسطَّحة والمجعَّدة، تبرق صُفرًا، وكانت أنيابها الصغيرة الحادة تلمع بِيضًا في أفواهها الضفدعية العريضة. اقتربتْ وهي تهسهس.

رفع الغريب الذي وقف جامدًا كتمثال وسط الجسر، كفَّه اليمنى فجأة، وطوى أصابعه على نحو غريب. تراجعت الأقزام الوحشية وراحت تهسهس بصوت أعلى، ولكنها تحركت على الفور إلى الأمام من جديد، بسرعة تزداد باطِّراد، رافعةً أيديها الرفيعة، الطويلة، ذات المخالب.

صرَّت المخالب على طول الألواح، من الجهة اليسرى، وقفز فجأة وحش صغير آخر من تحت الجسر، وتساقطَ الآخرون إلى الأمام بوثبات مذهلة.

دار الغريب في مكانه، وبرق سيف لم يُعْلَم متى استُلَّ من غمده. طار رأس المخلوق الذي كان يتسلق الجسر مقدار قامة إلى الأعلى، جارًّا خلفه جديلة من الدم. اقتحم ذو الشعر الأبيض تجمُّعَ الآخرين بقفزة، ودار ضاربًا ضربًا سريعًا يمينًا ويسارًا.

انقضَّتِ الوحوش عليه من كل جانب، وهي تلوح بمخالبها وتعوي، غير مُولِية اهتمامًا للنصل اللامع القاطع كموسيِّ الحلاقة. انكمش يورجا متشبثًا بالعربة.

سقط شيء ما عند قدميْه مباشرة، ملطخًا إياه بالدم. لقد كان هذا الشيء يدًا طويلة بارزة العظام، لها أربعة مخالب، وكانت مُتقشِّرة كرجل دجاجة.

صرخ التاجر.

أحسَّ بشيء يندفع بجانبه. تقلَّص، وفي اللحظة ذاتها حين راودته الرغبة في الغوص تحت العربة، حطَّ شيء آخر على عنقه، ويد ذات مخالب التقطتْ صدغَه وخدَّه. غطَّى عينيْه مزمجرًا وهازًّا رأسَه، وهبَّ مجرجرًا نفسَه بخطوٍ مترنحٍ إلى منتصف الجسر، ومتعثرًا حول الجثث الملقاة على ألواح الخشب. كان القتالُ مُحتدِمًا على الجسر، ولم يرَ يورجا شيئًا سوى الاحتشاد الهائج، والاشتباك الذي كان يبرقُ من وسطه لمعانُ الشفرة الفضية.

عوى، وهو يشعر بالأنياب الحادة تخترق لبدة القبعة الصوفية، وتنغرز في قذاله: «النجدةةةةة!».

- أسفل رأسي!

ضغط طرف ذقنه على صدره، ملتقطًا بعينه بريق النصل. صفَّر النصل في الهواء ولامس القبعة. سمع يورجا طقطقةً كريهةً ورطبةً، ثم تدفَّق سائل ساخن على ظهره، كأنه انسكب من دلو. سقط على ركبتيْه، مجذوبًا إلى الأسفل، بثقل مُسيَّب، معلَّق عند مؤخرة العنق.

ثلاثة وحوش أخرى تناثرت من تحت الجسر قبالة عينيه. تشبثتْ متقافزة كجنادب غريبة، بفخذي الغريب. دبَّ أحدُها، وكان مشقوقًا شقًّا صغيرًا خلال فمه الضفدعي، مشدودَ الجسد، وتهاوى على لوح خشبي. أما الثاني الذي أصيب بطرفِ السيف، فسقط متدحرجًا في نوبات تشنج. طوَّقت البقية ذا الشعر الأبيض كما النمل، ودفعتْه إلى حافة الجسر. وطار التالي من الجمهرة المتشابكة، منحنيًا إلى الخلف، ناثرًا دمه مرتعدًا وعاويًا. في هذه اللحظة،

تدحرجت الكتلة المتعثرة خلال الحافة بأكملها، وتهاوتْ في الأخدود. وقع يورجا مغطيًا رأسه بيديه.

انبعثت من تحت الجسر صيحاتُ الوحوش الحافلة بنشوة الانتصار، لكنها تحوَّلت فجأةً إلى زعيق من الألم وصراخ، قاطعَها صفيرُ شفرة السيف. ثم سُمِعَتْ من الظلام قرقعةُ الحجارةِ وفرقعةُ الهياكلِ العظميةِ المدوسةِ المسحوقةِ، ثم انبعث من جديد صليل سيف ساقط وأنين مفاجئ متقطِّع ويائس يجعل الدم يجمد في العروق.

وبعد ذلك، لم يتبقَّ سوى الصمت الذي قطعتْه فجأة صرخة طائر مذعور، في أعماق الغابة، بين الأشجار الضخمة. ثم سكتَ الطائر أيضًا.

ابتلع يورجا لعابَه ورفع رأسه ونهض بصعوبة. كان لا يزال السكون مُخيِّمًا، حتى إن الأوراق لم تكن تصدر حفيفًا، والغابة أجمعها بدت عاجزة عن الكلام من شدة الرعب. وقد سوَّدت الغيوم المتعرجة السماءَ.

- هيه...

استدار، حاجبًا وجهه تلقائيًّا بيديْه المرفوعتيْن. وقف الويتشر أمامه ساكنًا، أسود، وفي راحة يده المنكَّسة على نحو منخفض سيف لامع. لاحظ يورجا أنه وقف باعوجاج نوعا ما، وأنه مال إلى الجانب.

- أيها السيد، ما بكم؟

لم يُجِبِ الويتشر. خطا خطوة متثاقلة، وفيها مشقة، مميلًا ردفه الأيسر. مد يده وأمسك بالعربة. لاحظ يورجا الدم، لامعًا وأسود، يقطر على الألواح الخشبية.

- أنتم جريح، أيها السيد!

لم يجبِ الويتشر. عَلِقَ فجأة بمؤخرة العربة، وكان ينظر مباشرة إلى عينيِ التاجر، وتهاوى ببطء على الجسر.

2

- انتبهوا، تمهلوا... تحت الرأس... فليمسك أحدكم رأسَه!
- هنا، هنا، إلى العربة!
- أيتها الآلهة، سينزف دمه كله... يا سيد يورجا، الدم يقطر من خلال الضمادة...
- لا تتحدث! انطلق بنا، اجرِ بهمة يا بوكفيت! غطِّه بسترة جلد الغنم، ألا ترى يا فيل كيف يرتجف؟
- يمكن أن نسكب في فيه بعض الحُميَّا؟
- وهو مغمى عليه؟ حقًّا، لقد جُنِنْتَ يا فيل. لكنْ هاتِ الحُميَّا هيا، يجب أن أشرب... أيها الكلاب، أيها الأوباش، الأنذال، الجبناء! كيف تفرون هكذا، كيف تتركوني وحدي!
- يا سيد يورجا! إنه يقول شيئًا!
- ماذا؟ ماذا يقول؟
- هاه، شيئًا غير واضح... كأنه اسم شخص ما...
- ما هو؟
- ينيفر...

3

- أين... أنا؟
- استلقوا أيها السيد، لا تتحركوا وإلا سيتمزق كل شيء هناك ويتفتق من جديد. لقد نهشتكم تلك المخلوقات الكريهة حتى العظم، فقدتم

كمية دم كبيرة... ألم تعرفوني؟ أنا يورجا! أنتم أنقذتموني على الجسر، أتذكرون؟

- أها...
- هل أنتم عطشان؟
- كعطش الجحيم...
- اشربوا أيها السيد، اشربوا. الحمى تلتهمكم.
- يورجا... أين نحن؟
- نسير راكبين العربة. لا تتكلموا بشيء أيها السيد، لا تتحركوا. يجب علينا أن نخرج من الغابات نحو المستوطنات البشرية. يجب أن نجد شخصًا على معرفة بأمور العلاج. هذا الذي وضعناه على ساقكم قد يكون غير كاف. والدم لا يتوقف عن النزف...
- يورجا...
- نعم أيها السيد؟
- في حقيبتي.. قنينة صغيرة... مختومة بالشمع الأخضر. انزع الختم وأعطني إياها... في أحد الأكواب. اغسل الكوبَ جيدًا، ولا تدع أحدًا يلمس القناني... لو تكرمتم... بسرعة يا يورجا. تبًّا لدم الكلاب، يا لهذه العربة، كيف تهتز بشدة... القنينة، يورجا...
- حالًا... فلتشربوا.
- شكرًا... الآن انتبه. سأنام بعد لحظات. سأتخبط وأهذي بالكلام، ثم أستلقي كالميت. لا شيء خطِر، لا تخافوا...
- اضطجع، أيها السيد، وإلا سينفتح الجرح ويسيل الدم منكم.

سقط على قطع الجلد وهز رأسه، أحسَّ بالتاجر يغطيه بسترة من جلد الغنم وبطانية يفوح منها رائحة عرق الخيل. اهتزَّت العربة، وكل هزة كانت تُحدِث ألمًا هائجًا في الفخذ والوَرك. شد جيرالت على أسنانه. رأى مليارات من النجوم فوقه. قريبة جدًّا، قربًا كافيًا لكي يمد يده إليها. فوق رأسه تمامًا، فوق رؤوس الأشجار تمامًا.

اختار الطريق، وهو يسير، بحيث يكون في منأى عن الضوء، وعن وهج النيران، ويكون دائمًا في رحاب الظلال المتحركة برتابة. لم يكن الأمر سهلًا،

فأكوام جذوع التنوب كانت تحترق في كل الجهات، وتضرب السماء بضوء خافت أحمر تتخلَّله ومضات من الشرر، وتعلِّم الظلام بنفثات من الدخان أنصع لونًا، وتطقطق، وتنفجر بريقًا وسط الأطياف الراقصة من حوله.

توقَّف جيرالت ليفسح المجالَ لمرور موكب هائج يتهادى تجاهه، سادًّا الطريق، صاخبًا ووحشيًّا. أحدهم شدَّه من ذراعه، محاولًا أن يدسَّ في راحة يده كيلة خشبية تندلق منها الرغوة. رفض في لين، ولكنه أزاح بحزم عن نفسه الرجل الذي كان يترنَّح راشًّا الجعة في كل اتجاه من دنٍّ صغير كان يمسكه تحت إبطه. لم يردْ أن يشرب.

ليس في ليلة كهذه.

في مكان قريب، على سقالة مصنوعة من جذوع البتولا، المرتفعة عاليًا فوق نار ضخمة، كان ملك مايو الأشقر، المرتدي إكليلًا من الزهور وسروالًا صوفيًّا، يقبِّل الملكة مايو ذات الشعر الأحمر، متلمِّسًا نهديْها من خلال قميصها الرقيق المتعرق. كان الملك ثملًا إلى حد أكثر من قليل، ترنَّح، وحافظ على توازنه، مُطوِّقًا ظهر الملكة وضاغطًا إياه بقبضته المشدودة على قدح الجعة. الملكة أيضًا ليست صاحية تمامًا، وترتدي إكليلًا انزاح على عينيْها، طوَّقت رقبتَه وراحتْ تحكُّ ساقَها بالأخرى. رقص حشد الناس تحت السقالة، وغنوا، وتصايحوا، وهُزَّتْ قضبان متشابكة بأطواق من أوراق خضر وزهور.

صرختْ فتاة شابة ليستْ طويلة في أذن جيرالت مباشرة: «بيليتين!».

أجبرتْه وهي تشد كمَّه على الالتفاف وسط الموكب الذي كان يحيط بهما. تراقصتْ بجانبه مرفرفةً بتنورتها، ومُطيِّرة شعرها المملوء بالأزهار. أتاح لها الدوران به في الرقص، فراح يدور، مبتعدًا بخفة من خلال كل زوجيْن آخريْن من حوله.

- بيليتين! **ليلة مايو!**

بجانبهما مشادة وزعيق وضحك متوتر لفتاة أخرى تتظاهر بالقتال والمقاومة، يحملها شاب في الظلام، خارج دائرة الضوء. تلوَّى الموكب، في خضم صخبه، كثعبان بين الأكوام المحترقة. تعثر أحدهم وسقط قاطعًا سلسلة الأيادي، وقاسمًا الموكب إلى مجموعات صغرى.

اقتربتِ الفتاة ناظرةً إلى جيرالت من تحت أوراق الشجر التي تزيِّن جبينها، والتصقتْ به بشدة، مطوقةً إياه بذراعيْها ولاهثة. أمسكَ بها بوحشية أكبر مما

كان ينوي، وعلى يديْه الضاغطتيْن على ظهرها شعر برطوبة جسدها الساخنة التي أحسَّ بها خلال الكتان الرقيق. رفعتْ رأسها، وكانت عيناها مُغلقتيْن، وأسنانها التمعتْ من تحت شفتها العليا المرفوعة والمعوجة. وفاحتْ منها رائحة عرق، وقصب ذريرة، ودخان، وشهوة.

لِمَ لا؟! فكَّر، وهو يمسد ثوبها وظهرها براحة يده، مبتهجًا بالدفء الرطب النافث بالبخار على أصابعه. لم تكنِ الفتاة تناسب ذوقه -كانت صغيرة الجسد جدًّا وسمينة جدًّا- أحس تحت يده بالحيز الذي عنده تعمَّقت في جسدها فتحة الثوب التي كانت ضيقة قليلًا عند الخصر، وقسَّمت ظهرها إلى دائرتيْن يمكن ملاحظتهما بوضوح، في مكان لا ينبغي ملاحظتهما فيه. لِمَ لا؟! فكَّرَ، في ليلة كهذه... هذا لا يهم.

بيليتين... نيران خلال الأفق. بيليتين، **ليلة مايو**.

التهم أقربُ الأكوام جذوعَ الصنوبر الجافة التي ألقيتُ إليه، مُحدِثًا فرقعة، وانفجر بسطوع ذهبي، وضوء يغمر كل شيء. فتحتِ الفتاة عينيْها وهي تنظر نحو الأعلى إلى وجهه. سمع كيف تستنشق الهواء بصوت عالٍ، وأحسَّ بها كيف تتصلب، وتتكئ بيديْها على صدره بشدة. أطلقها على الفور. تردَّدتُ. لم تُزِحْ رِدفها عن فخذه، وهي تميل بجذعها على طول ذراعيْها الممدودتيْن بعض الشيء. خفضتْ رأسها ثم سحبتْ راحتيْها وابتعدتْ ناظرةً جانبًا.

وقفا ساكنيْن بعض الوقت، إلى أن دهمهما الموكب الذي التفَّ عائدًا من جديد، وصدمهما وأوقعهما. استدارتِ الفتاة بسرعة وهربتْ، محاولة بخشونة الانضمام إلى الراقصين. التفتت إلى الخلف. مرة واحدة فقط.

بيليتين...

ماذا أفعل أنا هنا؟

أشرق نجم في الظلام، التمع بالشرر وشدَّ النظر. ارتجفتِ الميدالية على عنق الويتشر. وسَّع جيرالت حدقتيْه تلقائيًّا، ونفذ نظره خلال العتمة دون مشقَّة.

لم تكنِ المرأة قروية. ما كانت القرويات يرتدين معاطفَ مخملية سوداء. القرويات اللواتي يحملهنَ أو يجرهنَّ الرجال إلى الأدغال، كنَّ يصرخنَ، ويضحكنَ، ويتخبطنَ، ويصلِّبن أجسادهنَ مثل سلمون مرقط يُنتشَل من

الماء. لم تكن أيُّ واحدة منهنَّ تترك انطباعًا، أنها هي من تقود في الظلام الفتى الطويل ذا الشعر الأشقر المرتدي قميصًا مفتوحًا دون اعتناء.

لم تكنِ القرويات يُلبِسْنَ أعناقَهنَّ الشرائطَ المخملية، والنجوم المرصعة بالألماس والسبج.

- ينيفر.

عينان بنفسجيتان، توسعتا فجأة، تشتعلان في وجه مثلث شاحب.

- جيرالت...

تركتْ يد الصبي الناعم ذي الشعر الأشقر الذي كان صدره يلمع من العرق مثل صفيحة نحاسية. ترنَّح الفتى وتدحرج وسقط على ركبتيْه، وجَّه رأسَه متلفتًا حوله، ورَمَشَ. نهض ببطء، ألقى عليهما نظرة محرجة وغير متفهمة، وبعد ذلك خرج نحو النيران بخطو غير متوازن.

لم ترمقْه الساحرة، بل حتى لم تلتفت إليه. كانت تنظر بانتباه إلى الويتشر، ويدها تشدُّ طرفَ المعطف بقوة.

قال دون تحفظ: «تبهجني رؤيتك من جديد».

شعر في الحال كيف راحتْ حدة التوتر الصلب تخفُت بينهما.

ابتسمت: «نعم».

بدا له أن شيئًا مفتعلًا في هذه الابتسامة، لكنه لم يكن متيقنًا.

قالت: «إنها مفاجأة سارة تمامًا، لا أنكر ذلك. ماذا تفعل هنا، جيرالت؟ آه... أنا آسفة، سامحْني على الإحراج. طبعًا، أنت تفعل هنا الشيء ذاته الذي أفعله أنا. إنها بيليتين. بيدَ أنكَ أمسكتَ بي، كما يقال، متلبسةً بالجرم المشهود».

- أعقتُكِ؟

ضحكتْ: «سأنجو. الليلة مستمرة. سأسحر شخصًا آخر، إن قُيِّض لي».

قال بصعوبة بالغة متظاهرًا بعدم المبالاة: «يا للخسارة كوْني لا أستطيع فعل ذلك. واحدة فقط شاهدتْ عيْني في الضوء فهربتْ».

قالت، مُظهِرةً ابتسامة تزداد تصنعًا: «عند الصباح، حين يبلغ جنونهم أشده، لن ينتبهوا. ستجد واحدة أخرى، سترى...».

- ين...

انحبستِ الكلمات التالية في حلقه.

نظر أحدهما إلى الآخر طويلًا، طويلًا جدًّا، وكان انعكاس وميض النار الأحمر يعبث بوجهيهما. تنهَّدت ينيفر فجأة، وغطَّتْ عينيْها برموشها.

- جيرالت، لا. لا تدعنا نبدأ...

قاطعَها: «إنها بيليتين. هل نسيتِ؟».

اقتربتْ منه متمهلةً، ووضعتْ راحتيْها على كتفيْه، عانقتْه ببطء وحذر ولمستْ صدره بجبهتها. مسح على شعرها الأسود الفاحم، المتناثر خصلًا ملتفَّة كالثعابين.

همستْ، رافعةً رأسها: «صدِّقني. لم أكن لأفكر ولا لحظة واحدة، لو تضمنتِ اللعبة فقط... لكنَّ هذا الأمر لا معنى له. كل شيء سيبدأ من جديد، وسينتهي كما في السابق. هذا الأمر لا معنى له، لكي...».

- أيجب أن يكون لكل شيء معنى؟ إنها بيليتين.

أدارت رأسها: «بيليتين... وماذا يعني هذا؟ شيء ما جذبنا إلى هذه النيران، إلى هؤلاء الناس اللاهين. كانت نيتنا أن نرقص، أن نُجن، ونفقد الوعي قليلًا، وأن نفيد من حرية العادات السائدة هنا سنويًّا، والمرتبطة ارتباطًا لا ينفصم بعيد دورة الطبيعة المتكررة. وها نحن، انظر، يقع أحدنا على الآخر مباشرة... كم مضى من الوقت منذ أن... سنة؟».

- سنة وشهران وثمانية عشر يومًا.

- أنت تهز شعوري. عن قصد؟

- عن قصد. يا ين...

قاطعتْه، مبتعدةً فجأة، وهي تهز رأسها: «جيرالت. فليكنِ الأمر واضحًا، لا أريد».

أومأ برأسه كعلامة أن الأمر قد اتضح على نحوٍ كافٍ.

ألقتْ ينيفر معطفها على كتفها. تحت المعطف كان قميصٌ أبيض رقيقٌ جدًّا وتنورةٌ سوداء مشدودة بحزام من حلقات فضية.

كررتْ: «لا أريد أن أبدأ من جديد. وفكرة أن أفعل معك... ما كنت أنتوي فعله مع ذلك الأشيقر... وفقًا لتلك القواعد ذاتها... هذه الفكرة يا جيرالت تبدو لي قبيحة بعض الشيء. إنها مهينة لك ولي. هل تفهم؟».

أومأ برأسه مجددًا. رمقتْه من تحت رموشِها المسدلة.

- لن ترحل؟

- لا.

صمتتْ لحظة، هازةً كتفيها بقلق.

- هل أنت غاضب؟

- لا.

- لا بأسَ، تعالَ إذن، لنجلسْ في مكان ما، بعيدًا عن هذه الضوضاء، ولنتحدثْ بعض الوقت. فأنا، كما ترى، مسرورة بهذا اللقاء. حقًّا. لنجلس معًا هنيهة. حسنًا؟

- حسنًا يا ين.

مضيا في الظلام، قُدُمًا إلى البراح، نحو جدار الغابة الأسود، متجنبيْن الأزواج المتشابكين كل في حِضن الآخر. وكان عليهما أن يذهبا بعيدًا ليجدا مكانًا لهما وحدهما. عُلِّمتِ التبَّة الجافة بشجيرة عرعر، رفيعة كمثل سروة.

فكَّتِ الساحرة دبوسَ الزينة ونفضتِ المعطف، وفرشتْه على الأرض. جلس بجانبها. كانتْ لديه رغبة شديدة لمعانقتها، لكنه لم يفعلْ ذلك مكابرة. عدَّلتْ ينيفر قميصَها المفكوكَ عميقًا، نظرتْ إليه نظرةً فاحصةً، وتنهَّدتْ ثم احتضنته. كان بإمكانه توقُّع ذلك. ولتتمكنْ من قراءة أفكاره، كان لا بدَّ لها من بذل جهد كبير، بيدَ أنها كانتْ تستشعر نواياه تلقائيًّا.

ظلَّا صامتيْن.

قالت فجأة، وهي تنزاح قليلًا: «آخ، اللعنة».

رفعتْ يدها وصرختْ مُطلِقة تعويذة. طارتْ فوق رأسيْهما كرات حمر وخضر، منقسمة عاليًا في الهواء، مشكِّلة زهورًا ريشية ملونة. وانسابت من جهة النيران ضحكات وهتافات مبتهجة.

قالت بمرارة: «بيليتين. ليلة مايو... الدورة تتكرر. فليمرحوا... إن كانوا يستطيعون».

كان في المنطقة سحرة آخرون. انطلقتْ من بعيد نحو السماء ثلاثة بروق برتقالية، ومن الجهة الأخرى، من تحت الغابة، انفجرتْ فوارة شهب حقيقية دوارة بلون قوس قزح. شهق الناس عند النيران بصوت عالٍ من شدة الانبهار،

وأخذوا يتصايحون. مسح جيرالت، متوترًا، خصلات شعر ينيفر واستنشق رائحة الليلك وعنب الثعلب المنبعثة منها. فكَّر: إذا رغبتَ فيها رغبة شديدة زائدة عن حدها، فسوف تستشعر ذلك وتنفر. سوف تحنق وتغتاظ، وتدفعني عنها. سأسألها بهدوء، ما أخبارها...

قالت، وقد ارتجف في صوتها شيء ما: «لا شيء جديدًا لديَّ... لا شيءَ يستحق الحديث عنه».

- لا تفعلي هذا بي يا ين. لا تقرئيني. هذا يُفقِدني الثقة بنفسي.

- اعذرْني. إنه فعل تلقائي. وما الجديد لديك يا جيرالت؟

- لا شيءَ. لا شيءَ يستحق الحديث عنه.

صمتا.

هدرتْ فجأة: «بيليتين!».

أحسَّ بها كيف تتصلب وتشد جسدها، وذراعها ضاغطة على صدره.

- إنهم يمرحون. يحتفلون بالدورة الأزلية لتوالد الطبيعة المتجدد. ونحن؟ ماذا نفعل هنا؟ نحن، فلول الماضي، محكوم علينا بالانقراض والفناء والنسيان؟ الطبيعة تتوالد، وتتكرر الدورة. وليس نحن يا جيرالت. نحن لا يمكننا أن نكرر أنفسنا. لقد حُرِمْنَا من هذه الإمكانية. لقد مُنِحْنا القدرة على فعل أشياء غير عادية ضمن الطبيعة، بل أحيانًا أشياء متناقضة معها. وفي الوقت نفسه، انتُزِع منا أبسط وأكثر ما يكون طبيعيًّا في الطبيعة. وما النفع من أننا نعيش عمرًا أطول مما يعيشون؟ بعد شتائنا لن يكون الربيع، ولن نولد من جديد، وما ينتهي سينتهي معنا. لكننا، أنت وأنا، تجذبنا هذه النيران، مع أن حضورنا هنا استهزاء خبيث وتجديفي بهذا العيد.

التزم الصمت. لم يُعجِبْه ما تقول، حين يعتريها مثل هذا المزاج، الذي كان يعرف مصدره جيدًا، جيدًا أكثر مما ينبغي. فكَّر: من جديد، من جديد بدأ يضايقها هذا الأمر. لقد بدا في وقت من الأوقات أنها نسيتْ، وأنها تصالحتْ مع الأمر مثل الآخرين. عانقها، احتضنها وهدهدها بِدَعَةٍ كطفلة. سمحتْ له ولم يستغرب. كان يعلم أنها في حاجة إلى ذلك.

قالت فجأة، وقد أصبحتْ هادئة: «أتعلم يا جيرالت. أكثر ما افتقدتُ هو صمتُك».

لمس بشفتيْه شعرها وأذنها. فكَّر: أريدكِ يا ين. أريدكِ، وإنكِ تعلمين. إنكِ تعلمين ذلك يا ين.

همست: «أعلم».

- ين...

تنهَّدتْ مجددًا.

قالت، ناظرة إليه بعينيْن منفرجتيْن باتساع: «اليوم فقط. فقط هذه الليلة التي ستمرُّ بعد قليل. فلتكنْ هذه ليلتنا، ليلة بيليتين. سنفترق في الصباح. أرجوكَ لا تأمل المزيدَ، لا أستطيع، لن أستطيع... اعذرني. إن كنتُ قد أسأتُ إليكَ، فقبِّلني وغادرْ».

- إن قبَّلتكِ، فلن أغادر.

- كنتُ أعول على ذلك.

أمالتْ رأسها. لمس بفمه شفتيْها المنفتحتيْن قليلًا. بحذر. الشفة العليا أولًا، ثم السفلى. شبك أصابعه في خصلات شعرها الملتوية، لمس أذنها، وقرطها الألماسي، وعنقها. تشبثت ينيفر به وشاركته القبلة، وتمكنتْ أصابعها البارعة من فكِّ مشابك سترتِه بسرعة وثقة. اضطجعتْ على ظهرها على المعطف المفروش على الطحلب الناعم. ضغطْ بشفتيْه نهديها، وأحس بهما يتصلبان ويصبحان واضحيِ المعالم تحت قماش قميصها الرقيق. وكانت تتنفس غير هادئة.

- ين...

- لا تقلْ شيئًا... أرجوكَ...

لمسة جلدها العاري الصقيل البارد الذي يلسع الأصابع وراحة اليد. رعشة تسري خلال العمود الفقري الذي حزَّته أظفارها. صراخ من جهة النيران، وغناء، وتصفير، ووابل بعيد وناءٍ من الشرر في دخان أرجواني اللون. مداعبة ولمْس منها، ومنه، ورعشة، ونفاد صبر. لمسة منزلقة لفخذيْها النحيلتيْن، وأرداف متعانقة، تنغلق كمشبك حزام.

بيليتين!

نَفَسٌ، تتناهبه تنهيدات، وومضات تحت الجفون، ورائحة ليلك وعنب ثعلب. ملكة مايو وملك مايو؟ استهزاء تجديفي؟ نسيان؟

بيليتين! ليلة مايو!

تأوُّه منها؟ منه؟ خصلات سود على العينين، وعلى الشفتين. أصابع متشابكة من أيدٍ مرتجفة. صراخ. منها؟ رموش سود. تأوُّه مبتَلٌّ. تأوُّه. منه؟

سكون. الأبدية كلها في سكون.

بيليتين... نيران على طول الأفق...

- ين؟

- أوه، جيرالت...

- ين... هل تبكين؟

- لا!

- ين...

- لقد وعدتُ نفسي... وعدتُ...

- لا تقلْ شيئًا. لا حاجة إلى ذلك. ألا تشعر بالبرد؟

- نعم، برد.

- والآن؟

- أدفأ.

أشرقتِ السماء بسرعة مخيفة، جعل جدار الغابة الأسود من ملامحه أكثر حدة، وبزغ من بين الظلام، الذي لا شكل له، خطٌّ واضح مسنَّنٌ من رؤوس الأشجار. فاضتْ بشائر الفجر الأزرق، الزاحف من خلفها، على طول الأفق، مطفئة مصابيح النجوم. بَرُدَ الجو أكثر مما كان عليه. ضمَّها بقوة أشد، وغطاها بمعطفه.

- جيرالت؟

- هاه؟

- سيحل الفجر.

- أعلم.

- آذيتكَ؟

- بعض الشيء.

- هل يبدأ مجددًا؟

- لم ينتهِ قطُّ.

- أرجوكَ... أنت تجعلني أشعر...

- لا تقولي شيئًا. كل شيء على ما يرام.

رائحة دخان زاحف وسط الخلنج. رائحة ليلك وعنب ثعلب.

- جيرالت؟

- نعم؟

- هل تذكر لقاءنا في الجبال البوستولية؟ وذاك التنين الذهبي... ماذا كان اسمه؟

- أبو الزيغان الثلاثة. أذكر.

- أخبَرَنا...

- أذكرُ يا ين.

قبَّلَتْه في مكان التقاء عنقه وعظمة الترقوة، ثم دسَّت رأسها هناك، ودغدغته بشعرها.

همست: «خُلِقْنا، أحدنا من أجل الآخر. ربما مقدَّر أحدنا على الآخر؟ ولكنَّ هذا لن يثمر شيئًا. خسارة، لكننا عندما يحل الفجر، سنفترق. لا يمكن أن يكون غير ذلك. يجب أن نفترق كي لا يؤذي أحدنا الآخر. نحن، مقدَّر أحد على الآخر. مخلوقان أحدنا من أجل الآخر. خسارة. ذاك، أو أولئك الذين خلقونا ليكون أحدنا من أجل الآخر، ينبغي لهم أن يعتنوا بشيء ما أكثر. القدَر وحده لا يكفي، هو قليل جدًّا. لا بدَّ من شيء ما أكثر. اغفرْ لي. اضطررتُ إلى أن أقول لك هذا».

- أعلم.

- كنت أعلم أن ممارستنا الحبَّ لن يكون لها معنى.

- لقد كنتِ مخطئة. كان لها معنى. على الرغم من كل شيء.

- اذهبْ إلى سينترا يا جيرالت.

- ماذا؟

- اذهبْ إلى سينترا. اذهبْ إلى هناك، ولا تتخلَّ هذه المرة. لا تفعلْ ما فعلتَه حينذاك... عندما كنتَ هناك...

- من أين علمتِ؟

- أنا أعلم عنكَ كل شيء. هل نسيتَ؟ اذهبْ إلى سينترا، اذهبْ إلى هناك بأسرع ما يمكن. ستحلُّ أوقات عصيبة. عصيبة جدًّا. يجب ألا تتأخر...

- ين...

- لا تقلْ شيئًا، أرجوك.

برد الجو أكثر. يزداد برودة. ويزداد إشراقًا.

- لا تغادرْ بعد. فلننتظرْ حتى الفجر...

- فلننتظرْ.

4

- لا تتحركوا أيها السيد. عليَّ تغيير الضمادة لكم، فجرحكم يتسخ، وساقكم تتورم على نحو مروِّع. أيتها الآلهة، يبدو الأمر فظيعًا... يجب العثور على طبيب في أسرع وقت ممكن...

تأوَّه الويتشر: «فليفحش الطبيب. هاتِ حقيبتي هنا، يورجا. أوه، هذه القنينة. صُبَّ مباشرة في الجرح. يا للجحيم الفاقعة! لا شيء، لا شيء، صب المزيد... أووووه!!! حسنًا. لفَّه بضمادة وغطِّني...».

- الفخذ كلها تتورم أيها السيد. والحمى تنهشكم.

- فلتفحش الحمى. يورجا؟

- نعم، أيها السيد؟

- نسيتُ أن أشكرك...

- ليس أنتم أيها السيد من عليكم أن تشكروني، بل أنا. إنكم أنتم من أنقذتم حياتي، ولحق بكم الأذى دفاعًا عني. وأنا؟ ما الذي فعلته؟

ضمدتُ إنسانًا جريحًا فاقدَ الوعي، وأضجعتُه في العربة، ولم أجعله يقضي؟ هذا أمر عادي يا سيد ويتشر.

- ليس عاديًّا إلى هذا الحد يا يورجا. لقد حدث أن تُرِكْتُ وحدي... في مواقف مماثلة... مثل كلب...

صمت التاجر، خافضًا رأسه.

وأخيرًا، تمتم: «على أي حال، إنه عالَم شنيع يحيط بنا. ولكنَّ هذا ليس سببًا لنكون جميعًا شنيعين. نحن نحتاج إلى الخير. هذا ما علَّمني إياه والدي، وهذا ما أعلِّمه لأبنائي».

التزم الويتشر الصمت، مراقبًا أغصان الشجر المتدلية فوق الطريق، وهي تتحرك على قدر حركة العربة. خفقت فخذه، ولم يحس بألم.

- أين نحن؟

- لقد عَبَرْنا مخاضةَ نهر ترافي، وصرنا في غابات ميخونسكي. ولم نعدْ في تيميريا، بل في سودين. عبرتم الحدودَ في حين كان جُباة المكوس يُفتِّشون العربة. وأقول لكم إنهم استغربوا أمركم جدًّا. لكنَّ كبيرهم قد عرفكم وأمرَهم بالسماح لنا بالمرور دون إبطاء.

- قد عرَفني؟

- أجل، بالتأكيد. لقد سمَّاكم جيرالت. نعم. هكذا قال: جيرالت من ريفيا. أهو اسمكم؟

- اسمي...

- وعد جابي المكوس هذا بإرسال أحد الأشخاص ليخبر أن ثمة حاجة إلى طبيب. ووضع أيضًا شيئًا في يده، كي لا ينسى.

- شكرًا لك يا يورجا.

- لا يا سيد ويتشر. كما أسلفتُ وقلتُ لكم، فأنا من أشكركم. وليس هذا فحسب. ولا أزال مدينًا لكم بشيء. لقد وصلنا إلى اتفاق... ما بكم أيها السيد؟ هل تشعر بضعف؟

- يورجا... القنينة ذات الختم الأخضر...

- أيها السيد... مجددًا سوف... لقد صرختُم حينئذٍ خلال نومكم صراخًا مخيفًا بشدة.

- لا بدَّ من ذلك يا يورجا...

- كما تشاؤون. انتظروا، حتى أصب منها في الطاسة... بحق الآلهة، لا بدَّ من الطبيب في أسرع وقت، وإلا...

أدار الويتشر رأسه. سمع صراخ أطفال يلهون في الخندق الداخلي الجاف المحيط بحدائق القلعة. كانوا ما يقارب العشرةَ. أحدث الصغارُ جلبةً تصمُّ الآذان، وهم يتصايحون بأصوات رقيقة مهيَّجة تتكسر بحدة عالية الطبقة. كانوا يجرون ذهابًا وإيابًا في قاع الخندق، أشبه ما يكونون بسرب من سُميكات سريعة، تغيِّر اتجاهها بلمح البصر وعلى نحو غير متوقع، لكنها دائمًا تبقى معًا دون أن تفترق. وكما يحدث عادةً، راح صبي صغير يركض لاهثًا، غير قادر على اللحاق بأي طريقة كانت بالأولاد الأكبر سنًّا، المشاغبين النحيفين كفزاعات العصافير.

لاحظ الويتشر: «إنهم كثر».

ابتسم جُوال الفأر بامتعاض، شادًّا لحيته، وهز كتفيه.

- نعم، كثر.

- ومن منهم... مَن يكون مِن هؤلاء الصِّبية المفاجأة الشهيرة؟

أدار الكاهن الدرويد بصره.

- غير مسموح لي يا جيرالت...

- كالانثي؟

- طبعًا. أظن أنكَ لم تتوهم بأنها ستعطيك الطفل بهذه السهولة؟ إنكَ قد تعرفتَ إليها. إنها امرأة من حديد. سأخبرك بشيء لا ينبغي لي أن أقوله، آملًا أن تفهم. وآمل أيضًا أنك لن تخونني أمامها.

- قلْ.

- عندما وُلِدَتِ الطفلة، قبل ست سنوات، استدعتْني وأمرتْني أن أجدكَ. وأقتلكَ.

- رفضتَ؟

قال جُوال الفأر بجدية، ناظرًا إلى عينيه مباشرة: «لا يمكن رفض ما تطلب كالانثي. كنتُ جاهزًا للانطلاق إلى الطريق، عندما استدعتْني ثانيةً. وألغت الأمر، دون كلمة تعليق. كن حذرًا حينما تتحدث إليها».

- سأكون. جُوال الفأر، قل لي كيف حدث ذلك لدوني وبافيتا؟
- أبحروا من اسكيليج إلى سينترا. فاجأتهم عاصفة، ولم يُعثَر حتى على قطعة خشب واحدة من السفينة. جيرالت... حقيقة أن الطفلة لم تكن معهما حينئذٍ، شيء غاية في الغرابة والعجب. لا يمكن تعليلها. كانا يريدان أخذها معهما إلى السفينة، وفي اللحظة الأخيرة لم يفعلا ذلك. لا أحد يعرف ما السبب، وبافيتا لم تفارقها قطُّ...
- كيف احتملتْ كالانثي ذلك؟
- وماذا تعتقد؟
- فهمتُ.

تسلق الأولاد إلى الأعلى، مهللين مثل عصابة من الغوبليين، واندفعوا مارين من جانبهما. لاحظ جيرالت أن بُنَيَّةً تجري ليس بعيدًا عن مقدمة قطيع صغير ملتمع، وهي نحيفة كذلك ومشاغبة صاخبة كالأولاد، بيد أن لها ضفيرة شقراء تتماوج. انهالتِ المجموعة مصحوبةً بعواء وحشي نازلة إلى الأسفل على منحدر الخندق الشديد الانحدار، نصفها على الأقل، من بين ذلك الصبية الصغيرة، انزلق أفرادها على مؤخراتهم. أصغرهم، وكان لا يزال غير قادر على اللحاق بهم، وقع وتدحرج، وفي الأسفل راح يبكي بصوت عالٍ، ضاغطًا على ركبته المهشمة. أحاط الصِّبيان الآخرون به مستهزئين، ثم اندفعوا راكضين. جثتِ البُنَيَّةُ بجانب الطفل الصغير، ضمَّتْهُ ومسحت دموعَه، ثم أزالتِ الغبارَ والوسخَ عن وجهه المكفهِر.

- لنذهب يا جيرالت. الملكة تنتظر.
- لنذهب يا جوال الفأر.

كانت كالانثي تجلس على مقعد كبير له مسند مُعلَّق بالسلاسل على فرع زيزفونة ضخمة. بدتْ كأنها تغفو، لكنَّ حركة قصيرة من رجلها نفتْ ذلك، ومن وقت إلى آخر، كانت تُحدِث تأرجحًا في الحركة. كانت تصحبها ثلاث نساء شابات. إحداهنَّ اقتعدتِ العشب بجوار الأرجوحة، وثوبها المفرود ابيضَّ على الاخضرار مثل حقل من ثلج. كانت الاثنتان الأخريان تغردان في مكان قريب، تزيحان بحذر الغصون عن شجيرات العليق.

انحنى جُوال الفأر: «سيدتي».

رفعتِ الملكةُ رأسَها، وركع جيرالت.

قالت بجفاف: «الويتشر».

تزيَّنت، كما في الماضي، بأحجار الزمرد التي تلائم ثوبها الأخضر، ولون عينيها. وكما في الماضي، ارتدتْ طوقًا ذهبيًّا رفيعًا على شعرها الرمادي الأشهب. لكنَّ راحتيْها اللتين حفظهما في ذاكرته بأنهما بيضاوان وضئيلتان، كانتا أقل ضآلة. لقد سمنتْ.

- حُيِّيتِ يا كالانثي من سينترا.

- مرحبًا بكَ جيرالت من ريفيا. انهضْ. كنتُ أنتظركَ. يا جُوال الفأر، أيها الصديق، رافقِ الفتيات إلى القصر.

- تحت أمركِ أيتها الملكة.

بقيا وحدهما.

تكلمتْ كالانثي دون أن تبتسم: «ستُّ سنوات. أنت دقيق على نحو مرعب، أيها الويتشر».

لم يعلقْ.

- لقد مرَّت لحظات، ماذا أقول، لقد مرَّت سنوات، عندما كنتُ أتوهَّم أنكَ ستنسى. نسبيًّا إن أسبابًا أخرى لن تسمح لكَ بالحضور. لا، لم أكنْ أتمنى لكَ التعاسة من حيث المبدأ، لكنْ كان عليَّ أصلًا أن آخذ في عين الحسبان الطبيعة غير الآمنة كثيرًا لمهنتك. يقولون إن الموت يتبعك خطوة خطوة يا جيرالت من ريفيا، لكنكَ لا تلتفت خلفكَ أبدًا. وفيما بعد... عندما بافيتا... قد علمتَ؟

أحنى جيرالت رأسَه: «علمتُ. أنا أتعاطف معكِ بقلبي كله...».

قاطعته: «لا. كان ذلك منذ وقت بعيد. ما عدتُ أرتدي ثيابَ الحداد، كما ترى. ارتديتُها مدة طويلة بما يكفي. بافيتا ودوني... كان أحدهما مقدرًا على الآخر. إلى النهاية. وكيف يمكن ألا يؤمن المرء هنا بجبروت القدر؟».

صمت كلاهما. حرَّكت كالانثي ساقها، فدفعت الأرجوحة إلى الحركة.

قالتْ ببطء، وابتسامةٌ غريبةٌ تظهر على شفتيها: «وها هو الويتشر عاد بعد ست سنوات وفقَ الموعد المضروب. عاد وطالب بالوفاء بالقسَم. ما رأيك يا جيرالت، ربما بهذه الطريقة تحديدًا سوف يروي الحكاؤون لقاءنا، حين

تمر مئة سنة؟ أعتقد أن الأمر سيكون هكذا بالضبط. بيد أنهم من المحتمل أن يُزيِّنوا حكاياتهم بإضافات مزركشة، ويضربون على الأوتار الحساسة، ويلعبون على العواطف. أجل. إنهم يُجيدون ذلك. يمكنني تخيُّل ذلك. اسمع من فضلك. وقال الويتشر القاسي: «نفِّذي قسَمك، أيتها الملكة، وإلا ستحلُّ عليك لعنتي». والملكة، وقد غمرتْها الدموعُ، سقطتْ على ركبتيها أمام الويتشر، صارخة: «الرحمة! لا تأخذ مني هذا الطفل! لم يتبقَّ أحد لي سواها!»».

- كالانثي...

قالت بحدة: «لا تقاطعْني. أنا أقصُّ عليك حكاية خيالية، ألم تلاحظْ ذلك؟ اسمعِ التالي. راحَ الويتشر الشرير القاسي يخبط بقدميْه، ثم لوَّح بيديْه وصرخ: «احترسي يا حانثة اليمين، احترسي من انتقام المصير. إن لم تِفِي بيمينك، فلن تفلتي من العقاب». أما الملكة فأجابت: «لا بأس إذن أيها الويتشر. فليكن كما يشاء المصير. أوه، هناك، انظرْ، هناك عشرة أطفال يلهون. ستتعرف مَن المقدَّر عليك مِن بينهم، تأخذه كطفل يخصكَ، وتتركني بقلب منكسر»».

ظل الويتشر صامتًا.

ازدادتِ ابتسامة كالانثي قبحًا: «في الحكاية الخيالية، كانت الملكة، كما أتصوَّر، ستسمح للويتشر بالتخمين ثلاث مرات. لكننا لم نعدِ الآن في الحكاية الخيالية، يا جيرالت. إننا موجودون هنا حقًّا، أنت وأنا ومشكلتنا وقدرنا. هذه ليست حكايةً خرافيةً، إنها الحياة. البائسة الشريرة الثقيلة التي لا تقتصد في الأخطاء والأذى والأسف وخيبات الأمل والمصائب، ولا تبخلْ على أحد بها، ولا حتى على الويتشريين، ولا على الملكات أيضًا. ولذلك فإنك يا جيرالت من ريفيا ستخمن مرة واحدة فقط».

استمرَّ الويتشر في صمته.

كررتْ كالانثي: «مرة واحدة فقط، مرة يتيمة. لكنْ، كما قلتُ، هذه ليست حكاية خرافية، بل الحياة التي علينا، نحن أنفسنا، أن نملأها بلحظات السعادة، فالمصير وابتساماته، كما تعلم، لا يمكن التعويل عليهما. لذلك، وبصرف النظر عن تخمينك، فلن ترحل من هنا خاليَ الوفاض. ستأخذ طفلًا واحدًا. ذلك الذي يقع عليه اختيارك. الطفل الذي ستصنع منه ويتشرًا. في حال تحمَّل هذا الطفل **اختبار الأعشاب**، طبعًا».

رفع جيرالت رأسه فجأة. ابتسمتِ الملكة. عَرَفَ هذه الابتسامة، كريهة وشريرة ومفعمة بالازدراء، إذ إنها لا تُخفي التصنُّع.

صرَّحت: «استغربتَ؟ حسنًا، لقد بحثتُ في الأمر قليلًا. لأن طفلة بافيتا لديها الفرصة لتصبح ويتشرًا، فقد بذلتُ جهدًا. بيد أن مصادري يا جيرالت تصمتُ بشأن كم واحد من عشرة أطفال يصمد أمام **اختبار الأعشاب**. ألا تريد إرضاء فضولي في هذا الصدد؟».

تنحنح جيرالت: «أيتها الملكة. لعلكِ بذلتِ ما يكفي من الجهد البالغ في بحث الأمر، لمعرفة أن القانون والقسَم يمنعانني حتى من النطق بهذا المسمى، فما بالكِ بمناقشة أموره!».

أوقفتْ كالانثي الأرجوحة فجأة، خابطة الأرضَ بعقب حذائها.

قالت، وهي تهز رأسها متظاهرةً بالاستغراق في التفكير: «ثلاثة، على الأكثر أربعة من عشرة. انتخاب حاد، حاد جدًّا، ويمكنني القول، وهذا في كل مرحلة. أولًا **الاختيار**، ثم الاختبارات، ومن ثم **التغيُّرات**. كم صبيًّا سيحصل في نهاية المطاف على الميداليات والسيوف الفضية؟ واحد من عشرة؟ واحد من عشرين؟».

ظل الويتشر صامتًا.

تابعتْ كالانثي، ولم تعدْ تبتسم: «لقد أمعنتُ في التفكير في هذا الأمر طويلًا. وتوصلتُ إلى استنتاج مفاده أن انتخاب الأطفال في مرحلة الاختيار ليس ذا أهمية كبيرة. وفي المحصلة ما الفرق يا جيرالت في من هو الطفل الذي سيموت أم يجنُّ وهو محشو بالمخدرات؟ وما الفرق من سيتمزق دماغه من الهلوسة، من ستنفجر عيناه وتتدفقان، بدلًا من أن تصبحا عينيْ قِطٍّ؟ ما الفرق إن مات الطفل، بدمه وقيئه، وكان محكومًا بالقدَر حقًّا، أو كان طفلًا بطريق المصادفة تمامًا؟ أجبني».

شبك الويتشر يديه على صدره ليكبح ارتجافهما.

سأل: «لأي غرض؟ هل تتوقعين إجابة؟».

عادت الملكة تبتسم من جديد: «الحق. لا أتوقع ذلك. كما أنت دائمًا، استنتاجاتك لا تخيب أبدًا. من يدري، فربما أرغب في التكرُّم بإيلاء بعض الانتباه إلى كلماتكَ الطوعيةِ والصادقةِ، مع أنني لا أتوقع إجابة، من يدري؟ كلماتك التي ربما وددتَ أن تلفظها من داخلك، ومعها ذاك الذي يجثم على

روحك، من يدري؟ وإن لم يكن كذلك، فلا ضير. هيا، لنشرعْ في العمل، علينا تزويد الحكَّائين بمواد السرد. هيا بنا لنختَرْ طفلًا، أيها الويتشر».

قال ناظرًا إلى عينيها: «كالانثي. لا يجدر بنا أن نهتم بالحكائين؛ إن لم تتحْ لهم مادةَ الحكي، فسيختلقون شيئًا ما، على أي حال. وإن صارت في حوزتهم مادة أصلية، فسيشوهونها. وكما لاحظتِ بصواب، فهذه ليست حكاية خرافية، بل حياة بائسة وشريرة. وإذن، تبًا، تبًّا، فلنعشْها على نحو لائق وجيد قدر الإمكان. لنحدَّ من عدد الأضرار التي سُبِّبَتْ للآخرين إلى الحد الأدنى الضروري. أجل، في الحكاية الخيالية على الملكة أن تتوسل إلى الويتشر، والويتشر يطالب بما يخصه ويخبط بقدميه، وفي الحياة يمكن للملكة أن تقول ببساطة: «لا تأخذ الطفل، أرجوك». وسيجيب الويتشر: «ما دمتِ ترجين، فلن آخذه». وسيرحل نحو الشمس الغاربة. إنها الحياة ذاتها. ولكنَّ الحكاء من أجل مثل هذه النهاية للحكاية الخرافية لن يتلقى من المستمعين قرشًا واحدًا، بل على الأكثر ركلة على مؤخرته. لأنه ممل».

توقفتْ كالانثي عن الابتسام، في عينيْها ومض شيء ما كان قد رآه من قبل.

صأت: «يعني ماذا؟».

- دعينا لا نطاردْ بعضنا بعضًا حول شجيرة يا كالانثي. تعلمين ماذا أقصد. وكما جئتُ إلى هنا، كذلك سأرحل. عليَّ أن أختار الطفل؟ ولأي شيء سأحتاج إليه؟ أتعتقدين أنه يهمني إلى هذا الحد؟ وأنني قدمتُ إلى هنا، إلى سينترا، يسوقني هوس أخذِ حفيدكِ منكِ؟ لا يا كالانثي. أردتُ، ربما، أن أنظر إلى هذا الطفل، أنظر إلى عيون القدر... لأني أنا نفسي لا أعلم... لكنْ لا تخافي. لن آخذه، يكفي أن ترجيني...

هبَّت كالانثي من المقعد، وفي عينيها اشتعلتْ نار خضراء.

زعقتْ هائجة: «أرجوكَ؟ أنتَ؟ أخاف؟ أنا عليَّ أن أخافك أيها الساحر الملعون؟ أو تجرؤ على قذف رحمتك المهينة في وجهي؟ تحقرني بعطفك؟ تتهمني بالجبن، وتشكك في إرادتي؟ لقد جعلتكَ تتمادى بالألفة! فحذارِ!».

قرَّر الويتشر ألا يهز كتفيه، وقد توصَّل إلى استنتاج أن الشيء الأكثر أمانًا هو أن يركع ويحني رأسه. ولم يخطئْ.

صأت كالانثي، وهي تقف فوقه. كانت يداها متدليتين، وكفاها مضغوطتين في قبضتين، ومشكوكتين بخواتم: «حسنًا. حسنًا، وأخيرًا. هذه هي الوضعية الصحيحة. من هذه الوضعية تُجاب الملكة، إذا طرحَتْ سؤالًا. وإن لم يكن ذلك سؤالًا، بل أمرًا، فستحني رأسك إلى الأسفل أكثر، وتذهب لتنفيذه دون لحظة تأخير. فهمتَ؟».

- نعم، أيتها الملكة.
- ممتاز. قُم.

انتصبَ واقفًا. نظرتْ إليه وعضَّت على شفتيها.

- هل ضايقكَ هياجي كثيرًا؟ أتكلم عن الشكل، لا عن المضمون.
- ليس كثيرًا.
- لا بأس. سأحاول ألا أهتاج مرة أخرى. ثم، وكما قلتُ، ثمة عشرة أطفال يلهون هناك في الخندق. ستختار واحدًا منهم يبدو لك الأنسب بينهم، ستأخذه، وبمشيئة الآلهة ستجعل منه ويتشرًا، فهكذا يريد القدر. وإن لم يكن القدر يريد ذلك، فاعلم أنني أنا أريد ذلك.

وجَّه نظره إلى عينيها وانحنى انحناءة منخفضة.

تكلم: «أيتها الملكة. قبل ست سنوات أثبتُّ لكِ أن ثمة أشياء أقوى من الإرادة الملكية. وحق الآلهة، إن كان لمثل هؤلاء وجود، فإنني سأثبتُ لكِ ذلك مرة أخرى. لن تجبريني على اتخاذ خيار لا أريد اتخاذه. وأعتذر عن الشكل لا عن المضمون».

- لديَّ زنزانات عميقة تحت القصر. أحذركَ، لحظة أخرى، كلمة أخرى، وسوف تتعفن فيها.

قال ببطء: «لا أحدَ من الأطفال الذين يلعبون في الخندق يصلح ليكون ويتشرًا. وليس بينهم ابن بافيتا».

ضيَّقت كالانثي عينيها، وهو لم يرتعشْ حتى.

وأخيرًا تكلَّمتْ، وهي تستدير على عقبيها: «تعالَ».

تبعها بين صفوف شجيرات مزهرة، وبين أحواض زهور وسياجات نباتية. دخلت الملكة سقيفة مخرمة. كان فيها أربعة كراسي من الخوص

تحيط بمنضدة من الدهنج. على سطحها المسنود بأربعة تماثيل غرفين، وُضِعَ إبريق وكأسان من فضة.

- اجلس، وصُبَّ.

شربتْ متحدثةً إليه بحدة وبقوة وبطريقة رجولية. ردَّ بالمثل دون أن يجلس.

كررتْ: «اجلسْ. أريد التحدث».

- إني أستمع.

- كيف علمتَ أن ابن بافيتا لم يكن بين هؤلاء الأطفال في الخندق؟

قرَّر جيرالت قول الصدق: «لم أكن أعلم. لقد رميتُ رميتي، فإما أن تصيب وإما أن تخيب».

- أها. كان بإمكاني تخمين ذلك. وزعمكَ ألا أحدَ منهم يصلح أن يكون ويتشرًا؟ أهذا صحيح؟ وعلى أي أساس أمكنك القول بذلك. بمساعدة السحر؟

قال بهدوء: «كالانثي. لم يكنْ يلزمني أن أقول بذلك ولا أن أتحقق منه. ما قلتِه سالفًا، لم يكن إلا الحقيقة ذاتها. كل طفل يصلح. والانتخاب يقرر ذلك. لاحقًا».

ضحكتْ: «بحق آلهة البحر، كما يقول زوجي الغائب أبدًا! إذن، هذا كله ليس حقيقة؟ قانون المفاجأة هذا، بأكمله؟ وهذه الأساطير عن الأطفال الذين لم يتوقعهم شخص ما، عن هؤلاء الذين خرجوا إلى اللقاء أولًا؟ هذا ما كنتُ أشك فيه! إنها لعبة! اللهو بالمصادفة، اللهو بالمصير! لكنها لعبة غاية في الخطورة يا جيرالت».

- أعلم ذلك.

- لهوٌ بأذى شخص ما. أجبْني، لماذا يُضطَرُّ الآباء أو الأوصياء إلى أن يحلفوا مثل تلك الأيمان العسيرة والمغلَّظة؟ لماذا يُنتزع الأطفال منهم؟ فكل ناحية من حولنا ملأى بهؤلاء الذين لا حاجة إلى أن يُنتزَعوا من أحد. مجموعات كاملة من المشرَّدين والأيتام تحوم في الطرق. في كل قرية يمكن شراء طفل بثمن رخيص، وكل فلاح قبل موسم الحصاد يبيع بكل سرور، فلا مشكلة أن يتحفز لإنجاب طفل آخر في الحال. إذن، لماذا؟

لماذا أجبرتَ دوني وبافيتا وأجبرتَني على القسم؟ لماذا ظهرتَ هنا بعد ولادة الطفل بست سنوات بالضبط؟ ولماذا بحق الجحيم لا تريده؟ لماذا تقول إنك لا تهتم بشيء؟

ظل صامتًا. هزَّت كالانثي رأسها.

قالت وهي تميل بظهرها إلى مسند الكرسي: «ألا تجيب؟ فلنفكر في سبب صمتك. المنطق هو أمٌّ لأي معرفةٍ كانت. فماذا يلقننا؟ وماذا لدينا هنا؟ ويتشر يبحث عن قدَر مخفي في **قانون المفاجأة** العجيب والمشكوك فيه. يجد الويتشر هذا القدَر. وفجأة يتخلى عنه. لا أريد، كما يزعم، **طفل المفاجأة**. وجهه حجري، وفي صوته يرن جليد ومعدن. يظن أن الملكة -مهما كانت فهي امرأة- يمكن خداعها، وغشها بمظهر الرجولة المتينة. لا يا جيرالت، لن أصفح عنك. أعلم لماذا تتخلى عن اختيار الطفل. أنت تتخلى لأنك لا تؤمن بالقدر. لأنكَ لستَ على يقين... وعندئذٍ تبدأ تخاف. نعم يا جيرالت، إن ما يُسيِّرك هو الخوف. أنت تخاف. فلتنكرْ ذلك».

وضع الكأس على المنضدة ببطء. ببطء، كي لا تفضح قرقعة الفضة على الدهنج ارتجاف يده الذي لم يستطع التحكم به.

- لا تنكرُ ذلك؟

- لا.

انحنتْ بسرعة، وأمسكتْ يده. بقوة.

قالت: «لقد حظيتَ بإعجابي».

وابتسمت. كانت ابتسامة جميلة. ورغمًا عن مشيئته، ربما رغمًا عن مشيئته، أجابها بابتسامة.

- كيف خمنتِ ذلك يا كالانثي؟

لم تتركْ يده: «لم أخمنْ. رميتُ رميتي، فإما أن تصيب وإما أن تخيب».

ضحكا معًا في وقت واحد. ثم جلسا صامتيْن بين الخضرة ورائحة الخوخ البادي، بين دفء النحل وطنينه.

- جيرالت؟

- نعم كالانثي.

- أنت لا تؤمن بالقدر؟

- لا أعلم أكنت أومن بأي شيء. وأما في ما يخص القدر... فأخشى أنه لا يكفي. ثمة حاجة إلى شيء ما أكثر منه.

- يجب أن أسألك عن شيء ما. ماذا حل بك؟ أساسًا أنت نفسك، على ما يبدو، كنت مفاجأة. جُوال الفأر يقول...

- لا يا كالانثي. كان جُوال الفأر يفكر في شيء آخر تمامًا. أظن أنه يعلم. لكنه يستخدم هذه الخرافة المريحة عندما تكون مريحة له. ليس حقيقيًّا أنني، كما يظن، كنت الشخص الذي وُجِدَ في المنزل، مع أن وجوده لم يكن متوقعًا. ليس حقيقيًّا أنني كما يظن، وتحديدًا لهذا السبب، أصبحتُ ويتشرًا. أنا مجرد لقيط عادي يا كالانثي. ابن غير شرعي مرفوض لامرأة لا أتذكرها. لكني أعرف من هي.

نظرتْ إليه الملكة نظرة ثاقبة، لكنَّ الويتشر لم يواصل الكلام.

- وهل كل الحكايات عن **قانون المفاجأة** محض أساطير؟

- كلها. من الصعب تسمية المصادفة قدرًا.

- لكنكم، أنتم معشر الويتشر، لا تتوقفون عن البحث؟

- نحن لا نتوقف. ولكنَّ هذا لا معنى له. لا شيء له معنى.

- تؤمنون بأن **طفل القدر** سوف يجتاز **التجارب** دون مخاطرة؟

- نؤمن أن مثل هذا الطفل لن يتطلب **الاختبارات**.

- سؤال واحد يا جيرالت. شخصي تمامًا. تسمح به؟

أومأ برأسه.

- كما هو معلوم، لا توجد طريقة لنقل الصفات الوراثية أفضل من الطريقة الطبيعية. أنتَ اجتزتَ **الاختبارات** ونجوتَ. إذن، إن كان يهمك طفل يتمتع بسمات ومناعة خاصة... فلمَ لا تجد المرأة التي... أنا تنقصني الكياسة، أليس كذلك؟ لكنْ يتراءى لي أنني حزرتُ؟

ابتسم بحزن: «كالعادة، لا تخطئين في الاستنتاجات يا كالانثي. لقد حزرتِ طبعًا. ما تتحدثين عنه هو بعيد المنال بالنسبة إليَّ».

قالت وقد اختفتِ الابتسامة من وجهها: «اعذرني. حسنًا، هذا أمر بشري».

- إنه ليس بشريًّا.

- آه... إذن، لا أحد من الويتشريين...
- لا أحد. **اختبار الأعشاب** يا كالانثي فظيع. وهذا، وما يحدث للأولاد في أثناء **التغيرات**، أسوأ كثيرًا. ولا رجعة فيه.

تمتمت: «لكنْ لا.. لا تنفعل عاطفيًّا هنا. فهذا لا يناسبك. ليس مهمًّا ما فُعِلَ بك. أرى النتيجة. وقياسًا على ذوقي فهذا مُرضٍ تمامًا. ولو كان بإمكاني الافتراض أن طفل بافيتا سيصبح ذات يوم شبيهًا بك، لما ترددتُ لحظة واحدة».

قال بسرعة: «المخاطرة كبيرة جدًّا. كما قلتِ. عدد من يبقون أحياء أربعة من عشرة، على الأكثر».

- إلى الشيطان، هل اختبار الأعشاب هو فقط الذي يحمل الأخطار؟ وهل الويتشريون المستقبليون هم فقط الذين يخاطرون؟ الحياة ملأى بالأخطار، وفي الحياة أيضًا يستمر الانتخاب يا جيرالت. فهي تجتبي مصادفة سيئة، مرضًا، حربًا. إن مواجهة المصير يمكن أن تكون محفوفة بالأخطار أيضًا، كتسليم المرء نفسه ليد المصير. جيرالت... يمكن أن أعطيك هذا الطفل. لكنني... أنا أيضًا خائفة.
- لا أودُّ أخذ الطفل. لن يكون في وسعي أن آخذ على عاتقي المسؤولية. ولا يمكن أن أوافق على تحميلكِ إياها. لا أودُّ أن يذكركِ هذا الطفل في يوم ما مثلما... أنا...
- هل تكره تلك المرأة يا جيرالت؟
- أمي؟ لا يا كالانثي. أخمن أنها واجهت خيارًا... ربما لم يكن لديها خيار؟ لا، لقد كان لديها، وإنكِ تعلمين، كانت تكفي الأمر تعويذة مناسبة أو جرعة إكسير... خيار. خيار يجب احترامه، فهو حق مقدس لكل امرأة لا يمكن إنكاره. العواطف هنا ليست ذات أهمية. كان لديها حق في اتخاذ القرار، لا يمكن إنكاره، فاتخذتْه. لكني أظن أن مقابلتها، وتعابير الوجه التي كانت ستبديها حينئذٍ... كانت ستمنحني ذلك الشيء الذي يشبه المتعة المنحرفة، إن كنت تعلمين عما أتحدث.

ابتسمتْ: «أعلم تمامًا عمَّا تتحدث. لكنَّ فرصكَ في الحصول على هذه المتعة ضئيلة. لا أستطيع تقدير عمركَ أيها الويتشر، لكنني أفترض أنكَ

أكبر بكثير مما يمكن أن يوحي به مظهرك. والشيء نفسه ينسحب على تلك المرأة...».

قاطعها ببرود: «من المحتمل أن تلك المرأة قد تبدو الآن أصغر مني بكثير».

- ساحرة؟

- نعم.

- هذا مثير للاهتمام. اعتقدتُ أن الساحرات لا يستطعن...

- من المحتمل أنها هي أيضًا، هكذا اعتقدتْ.

- من المحتمل. لكنكَ محق، دعنا لا نتناقش عن حق المرأة في اتخاذ القرار، فهذا الأمر خارج المناقشة. لنعدْ إلى مشكلتنا، ألن تأخذ الطفل؟ هل لا رجعة في ذلك؟

- لا رجعة فيه.

- وماذا إن... إن لم يكن القدر خرافة حصرًا؟ إن كان موجودًا حقًّا، أفلا يخشى من إمكانية الانتقام؟

- أجاب بهدوء: «إن حصل انتقام، فسيقع عليَّ. فأنا من أقف ضده. أنتِ أساسًا وفيتِ بالجزء الخاص بكِ من الالتزام. فلو أن القدر ليس أسطورة بين الأطفال الذين ذكرتِهم، لكنتُ اضطررتُ إلى أن أختار الطفل المناسب. فهل طفل بافيتا أصلًا من بين هؤلاء الأطفال؟».

أومأتْ كالانثي برأسها ببطء: «هو كذلك. هل تريد رؤيته؟ هل تريد أن تنظر إلى عينيِ القدر؟».

- لا. لا أريد. إنني أتخلى عن ذلك، أتبرأ. أتبرأ من هذا الصبي. لا أريد أن أنظر إلى عينيِ القدر، لأنني لا أومن به. لأنني أعلم أن القدر وحده لا يكفي، كي يلتئم شمل فردين من الناس. الأمر يتطلب شيئًا أكثر من القدر. أسخَر من مثل هذا القدر، لن أسير خلفه كضرير يُقاد من يده، غير مدرك وساذج. هذا هو قراري الذي لا رجعة فيه، يا كالانثي من سينترا.

وقفتِ الملكة. ابتسمتْ. لم يتمكن من تخمين ما كان مخفيًّا تحت هذه الابتسامة.

- فليكن الأمر كذلك يا جيرالت من ريفيا. ربما كان قدرك هو تحديدًا أن تتبرأ وتترك الأمر؟ أظن أن هذا ما حدث فعلًا. فاعلم أنك لو اخترت، لو اخترت الاختيار السليم، لقلتَ إن القدر الذي تسخر منه كان سيسخر منك بقسوة.

نظر إلى عينيها الخضراوين السامَّتين. ابتسمتْ. لم يتمكن من فك لغز الابتسامة.

بجوار السقيفة، نَمَتْ شجيرة ورد. ثنى ساقها وقطف زهرة، ثم ركع مقدِّمًا إياها بكلتا يديه لها، وقد أحنى رأسه.

تمتمتْ وهي تأخذ الوردة من يديه: «يا لخسارتي، لأنني لم أتعرَّفك منذ حين أبكر يا ذا الشعر الأبيض. انهض».

نهض.

قالت وهي تقرِّب الوردة من وجهها: «إذا غيرتَ رأيك. إذا قررتَ... فعدْ إلى سينترا. سأنتظركَ. وسيكون قدركَ أيضًا في انتظاركَ. ربما ليس إلى ما لا نهاية، لكنْ بالتأكيد لمدة معينة قادمة».

- وداعًا كالانثي.
- وداعًا أيها الويتشر. اعتنِ بنفسك. ينتابني... انتابني قبل لحظة إحساس... إحساس غريب... أن هذه هي المرة الأخيرة التي أراك فيها.
- وداعًا أيتها الملكة.

5

استيقظَ وأقرَّ مستغربًا أن الألم الذي ينخر فخذه قد اختفى، وبدا أن التورم الخافق، الضاغط على الجلد، توقف عن الإيلام.

أراد أن يمدَّ يده ويلمس، لكنه لم يستطع تحريكها. قبل أن يدرك أن ما يشل حركته لم يكن سوى ثقل الجلود التي غُطِّيَ بها، سرى الرعب البارد

المقزز إلى بطنه وراح ينشب في الأحشاء كمخلب طائر الباشق. شد وأرخى أصابعه مرددًا في ذهنه بانتظام: لا، لا، لست... مشلولًا.

- استيقظتَ.

إنه إثبات، وليس سؤالًا. صوت خفيض ولكنه واضح وناعم. امرأة. شابة، على الأرجح. أدار رأسه، تأوَّه وهو يحاول النهوض.

- لا تتحرك. على الأقل، دون تسرُّع وعنف. هل يؤلمك شيء؟

- كككللا... (انفقعتِ الطبقة اللزجة الملتصقة بالشفتين) كلا. ليس الجرح... بل الظهر...

إقرار خالٍ من العاطفة وبارد، لا يناسب هذا الصوت الناعم من طبقة الألتو: «إنها قَرَح الاستلقاء. سأعالج أمرها. خذْ، اشربْ هذا. ببطء، وبرشفات صغيرة».

هيمنت رائحة العرعر وطعمه على السائل. فكَّر: طريقة قديمة. العرعر أو النعناع، كلاهما إضافات لا أهمية لها، فهي فقط لإخفاء المكونات الحقيقية. وعلى الرغم من هذا، فقد تعرَّف رائحة فطر الكهوف، وربما عشبة الترياق. نعم، إنه بالتأكيد فطر الكهوف، فطر الكهوف يُحَيِّد السموم، وينظِّف الدم الملوث بالغرغرينا أو العدوى.

- اشربْه. حتى آخره. أبطأ، وإلا اختنقت.

بدأت الميدالية تهتز قليلًا حول رقبته. إذن فالسحر كان أيضًا في الشراب. وسَّع حدقتيه بمشقة. الآن وبعد أن رفعتْ رأسه، استطاع أن يتفحصها بنظره على نحو أدق. كان جسدها ضئيلًا. ترتدي ملابس رجال. كان وجهها صغيرًا وشاحبًا في الظلام.

- أين نحن؟

- في رحبة صناع القطران.

هذا صحيح، فرائحة الصمغ الشجري فاحتْ في الهواء. سمع أصواتا تنبعث من جهة النار. شخص ما كان يضيف حطبًا، فانطلق اللهب إلى الأعلى مصحوبًا بفرقعة. نظر مجددًا مستفيدًا من الضوء. كان شعرها مشدودًا بعصابة من جلد الثعبان. شَعَر... بألم خانق في حلقه وفي عظم القص. كفَّاه مضغوطتان بشدة على هيئة قبضتين.

كان شعرها أحمر، أحمر لاهبًا، مضاء بوميض النار، وبدا أحمر كلون الزِّنْجَفْر.

استشفَّت عواطفه، لكنْ على نحو خاطئ: «تتوجع؟ الآن... لحظة...».

أحس بهبَّة دفء مفاجئة تخرج من يدها، تسري خلال ظهره، وتجري إلى ردفيه.

قالت: «سنقلبكَ. لا تحاولْ ذلك وحدكَ. أنت منهك كثيرًا. هيه أنتم، هل يمكن لأحد منكم أن يساعدني؟».

خُطًى من جهة النار، وظلال، وأطياف. انحنى أحدهم. يورجا.

- كيف تشعرون أيها السيد؟ هل أفضل الآن؟

تكلمتِ المرأة: «ساعدوني لنقلبه على بطنه. بحذر، ببطء. أوه، نعم هكذا... جيد. أشكركم».

لم يعد مُضطرًّا إلى أن ينظر إليها. لم يعد مُضطرًّا إلى المخاطرة بنظرة إلى عينيها، وهو مستلقٍ على بطنه. هدأ وأصبح مسيطرًا على ارتجاف يديْه. استطاعتْ أن تستشعرٍ ذلك. سمع كيف ترن مشابك حقيبتها وكيف تقرقع القوارير والدوارق الخزفية. سمع أنفاسها، وشعر بدفء فخذها. وكانت جاثية بجانبه.

نطق ولم يعد قادرًا على تحمل الصمت: «جرحي، هل سبَّب مشكلات كثيرة؟».

- أجل، بعض الشيء. (ثمة برودة في الصوت). هكذا يحدث بعد الإصابة من جراء العض بالأسنان. وهو أقبح أنواع الجروح. ولعل ذلك ليس جديدًا عليك أيها الويتشر.

هي تعلم. إنها تفتش في أفكاري، تقرؤها؟ ربما لا. وأنا أعلم لماذا. هي تخاف.

كررتْ وهي تقرقع بالأواني الزجاجية: «نعم، لعل ذلك ليس جديدًا. رأيتُ على جسدك بضع ندوب... لكنني تدبرتُ الأمر. أنا ساحرة كما ترى. ومعالجة في الوقت ذاته. تخصُّص».

فكَّر: هذا صحيح. ولم ينطقْ ببنت شفة.

تابعتْ بهدوء: «عودةٌ إلى الجرح، وهنا من الضروري معرفة أن ما أنقذكَ كان نبضك الذي هو أبطأ بأربعة أضعاف من معدل ضربات القلب للإنسان

العادي. ولولا ذلك لما بقيت حيًّا، وهذا ما أستطيع التصريح به مع تحمل المسؤولية كاملة. لقد رأيتُ ما كان ملفوفًا على ساقك. كان يُفترَض أن يكون تقليدًا للضمادة، لكنه كان تقليدًا فاشلًا».

ظل صامتًا.

استأنفتْ وهي تمزق قميصه حتى مؤخرة العنق: «لاحقًا، ظهرت العدوى، المألوفة في الجروح الناتجة عن العض. وكُبِحَ جماحها. طبعًا، بفضل إكسير الويتشر. لقد ساعد كثيرًا. لكنني لا أفهم، لماذا تناولتَ المهلوسات في الوقت ذاته؟ لقد سمعتُ هذيانكَ طويلًا يا جيرالت من ريفيا».

يبدو أنها تقرأ (فكَّرَ)، تقرأ. أو ربما هو يورجا من قال لها ما اسمي؟ ربما أنا نفسي بحتُ لها في أثناء نومي تحت تأثير «النورس الأسود»؟ وحده الوباء يعلم... لكنْ لن تفيدها معرفة اسمي شيئًا. فليست لديها أيُّ فكرة عمَّن أكون.

أحسَّ كيف تفرك ظهره بلين، بالمرهم البارد المهدئ الذي فاحت منه رائحة كافور حادة. كانت راحتاها صغيرتين وغاية في النعومة.

قالت: «اعذرني لأنني أفعل ذلك بطريقة تقليدية. كان يمكنني أن أزيل قُرَحَ الاستلقاء بالسحر، ولكنني بذلتُ بعض الجهد من أجل ساقكَ، ولا أشعر بأنني في أفضل حال. لففتُ ضمادةً على رجلكَ وأغلقتُها بما أمكن، ولن يهددكَ شيء بعد الآن. لكنْ لا تقف على قدميْكَ خلال اليومين التاليين. فحتى الأوعية الدموية الموصولة بطريقة سحرية تميل إلى الانفجار، وستنشأ على جلدك بقع دموية قبيحة. وطبعًا ستبقى الندبة. وتكون التالية ضمن مجموعة ندوبك».

ضغط خده على الجلود لتشويه صوته، لإخفاء رنته غير الطبيعية. «شكرًا... هل لي أن أعلم... من الذي أشكره؟».

فكَّر: لن تقول. أو سوف تكذب.

- اسمي فيسِنَّا.

فكَّر: أعلمُ.

قال ببطء، وخده لا يزال على الجلود: «أنا سعيد. سعيد بأن دروبنا قد تقاطعت يا فيسِنَّا».

قالت ببرود، وهي تسحب قميصه على ظهره وتغطيه بسترات جلد الغنم: «لا بأس، الأمر مصادفة. تلقيتُ خبرًا من جباةِ المكوس من منطقة الحدود بأنهم في حاجة إليَّ. وإنني في حال الحاجة إليَّ أمضي مستجيبة. هذه عادة غريبة لديَّ. اسمع، سأترك المرهم عند التاجر، وأطلب منه أن يمسحك به في الصباح والمساء. فكما يقول، إنكَ أنقذتَ حياته، فدعْه يقدِّم الامتنان لكَ».

- وأنا؟ كيف يمكنني أن أشكركِ يا فيسِنَّا؟

- دعنا لا نتحدث عن هذا. أنا لا آخذ أجرًا من الويتشريين. سَمِّ ذلك تضامنًا إن أردت. تضامنًا مهنيًّا وتعاطفًا. وفي إطار هذا التعاطف، نصيحة ودية أو إن شئتَ توصية من معالِجة. توقفْ عن تناول المهلوسات يا جيرالت. فالهلوسات لا تعالج. لا تعالج شيئًا.

- شكرًا لكِ فيسِنَّا. على المساعدة والنصيحة. شكرًا لكِ... على كل شيء.

أخرج يده من تحت الجلود، وتلمَّس ركبتيها.

ارتعشتْ، ثم وضعتْ كفه في كفها، وضغطتْ بخفة. حرَّر أصابعه بحذر وحركها على يدها وساعِدِها.

طبعًا. جلد البنت الشابة صقيل. ارتعشتْ أكثر، لكنها لم تسحبْ يدها. عاد بأصابعه إلى راحتيها. أغلقهما ضاغطًا، واهتزَّت الميدالية حول رقبته وتحركت.

كرَّر، متحكمًا في ارتجاف صوته: «شكرًا لك يا فيسِنَّا. أنا سعيد بأن دروبنا تقاطعت».

قالت، لكنْ لم تكن البرودة في صوتها هذه المرة: «مصادفة...».

سأل، مستغربًا أن الإثارة والتوتر، تولَّيا عنه فجأة دون أثر: «أو ربما القدر؟ هل تؤمنين بالقدر يا فيسِنَّا؟».

لم تجبْ على الفور: «نعم. أومن».

تابع: «بأن الناس المحكومين بالقدر دائمًا ما يجتمعون؟».

- وبهذا أيضًا... ماذا تفعل؟ لا تلتفت...

- أريد أن أنظر إلى وجهكِ... يا فيسِنَّا. أريد أن أنظر إلى عينيكِ. وأنتِ... عليكِ أن تنظري إلى عينيَّ.

تحركتْ كما لو كانت تريد أن تهبَّ واقفة، لكنها بقيت بجانبه. استدار ببطء، معوجًا شفتيه من الألم. كان المكان ساطعًا بضوء أكثر، فقد رمى أحدهم حطبًا في النار من جديد.

لم تتحركْ بعد ذلك. لم تُدِرْ سوى رأسها جانبًا، بطرف من وجهها. لكنه بذلك رأى على نحو أوضح أن شفتيْها كانتا ترتجفان. وضغطتْ أصابعها كفَّه بقوة.

نظر.

لم يكن أي تشابه. كانت ملامح وجهها مختلفة تمامًا. أنفها صغير. وأسفل ذقنها ضيقة. صمتت. ثم فجأة انحنت إلى الأمام، ونظرت إلى عينيه مباشرة. من مسافة قريبة. دون كلمة.

سأل بهدوء: «كيف ترين عينيَّ المصححتين؟ أعجبتاكِ؟ إنهما... غير عاديتيْن. هل تعلمين يا فيسِنًّا ماذا يُفعَل بعيون الويتشريين من أجل تصحيحها؟ هل تعلمين أن هذا الأمر لا ينجح دائمًا؟».

قالت بليونة: «توقف. توقف يا جيرالت».

أحسَّ فجأة بشيء يتمزق بداخله: «جيرالت... هذا الاسم منحني إياه فيسمير. جيرالت من ريفيا! حتى إنني تعلمتُ تقليد اللكنة الريفاوية. ربما بسبب الحاجة الداخلية إلى امتلاك روابط أُسريَّة، حتى لو كانت متخيَّلة. فيسمير... منحني اسمًا. باح فيسمير لي بأشيائكِ. على مضض تمامًا».

- اهدأ يا جيرالت، اهدأ.

- تقولين لي اليوم إنكِ تؤمنين بالقدر. وحينئذٍ... حينئذٍ هل كنتِ تؤمنين؟ آه، نعم، كان لزامًا عليكِ أن تؤمني. كان لزاما عليكِ أن تؤمني أن القدر هو الذي يُملي علينا أن نلتقي. وينبغي أن تُعزَى إلى ذلك حقيقة أنكِ نفسكِ لم تسعي إطلاقًا إلى هذا اللقاء.

ظلَّت صامتة.

- كنتُ أريد دائمًا... فكرتُ في ما سأقول لكِ، عندما نلتقي في نهاية المطاف. فكرتُ في السؤال الذي أضعه أمامك. ظننتُ أن ذلك سيمنحني متعة منحرفة...

ما ومضَ على خدها كان دمعة. لا شك في ذلك. أحسَّ بحلقه ينقبض حتى الألم. أحس بالتعب.. بالنعاس.. بالضعف.

تأوه: «في ضوء النهار... غدًا، في سطوع الشمس، سأنظر إلى عينيْك يا فيسِنًّا... وسأطرح عليكِ سؤالي. أو ربما لن أطرحَه، لأن الوقت قد فات. القدر؟ أوه، نعم، كانت ين محقةً. لا يكفي أن يكون المرء محكومًا بالقدر. توجد حاجة إلى شيء أكثر... ولكنني غدًا سأنظر إلى عينيكِ... في سطوع الشمس...».

قالت بِدَعَةٍ وهدوء ونعومة مخملية، بصوت نفذ ومزَّق طبقات الذاكرة، الذاكرة التي لم تعد موجودة. التي لم تكن قطُّ، ولكنها كانت أصلًا: «لا».

اعترض: «نعم! نعم. أريد ذلك...».

- لا. الآن ستغفو. وعندما تستيقظ، ستكف عن طلب ما تريد. لأي غرض علينا أن ننظر بعضنا إلى بعض في سطوع الشمس؟ ماذا سيغير هذا الأمر؟ لم يعد ممكنًا إرجاع أي شيء إلى ما كان عليه، ولا تغيير أي شيء. ما الفائدة من طرح الأسئلة عليَّ يا جيرالت؟ هل حقيقة أنني لن أتمكن من الإجابة عنها ستمنحكَ حقًّا متعة منحرفة؟ ماذا سيعطينا إيذاء أحدنا الآخرَ؟ كلا، لن ننظر بعضنا إلى بعض في ضوء النهار. نمْ يا جيرالت. وليكنِ الكلام بيننا فقط، لم يكنْ فيسمير من منحك هذا الاسم. ومع أن ذلك أيضًا لن يغيِّرَ شيئًا أو يُرجع شيئًا، فإنني أريدكَ أن تعلم ذلك. كنْ بخير، واعتنِ بنفسك. ولا تحاول البحث عني...

- فيسِنًّا...

- لا يا جيرالت. الآن ستغفو. وأنا... كنتُ حلمكَ. كن بخير.

- لا! فيسِنًّا!

في الصوت المخملي أمر يكسر الإرادة، يمزقها مثل القماش. الدفء يهب فجأة من راحتيها: «نمْ».

- نمْ.

نام.

6

- يورجا، هل صرنا في **ما وراء النهر**؟
- منذ البارحة يا سيد جيرالت. قريبًا سنكون عند نهر ياروجا، وستليه أرض بلادي. انظروا، فحتى الخيول تسير بهمَّة أكبر، وتطاول برؤوسها. إنها تحس أن المنزل صار قريبًا.
- المنزل... هل تعيش في المدينة؟
- في أطراف المدينة.

أجال الويتشر النظر حوله: «هذا مثير للاهتمام. تكاد آثار الحرب لا ترى. وقد قيل إن هذا البلد دُمِّرَ تدميرًا رهيبًا».

قال يورجا: «نعم. أيًّا كان الأمر، ولكنَّ الخراب لم ينقصنا هنا. انظروا بإمعان وانتباه، ففي كل كوخ على وجه التقريب، وفي كل منزل ريفي، كل شيء يبدو جديدًا وناصعًا. أما خلف النهر فستلاحظون أن الأمر كان أسوأ، كل شيء هناك محترق إلى مستوى الأرض... لكنْ ما العمل؟ الحرب هي الحرب، ويجب أن نعيش. لقد نجونا من أعظم اضطراب عندما زحف **السود** خلال أرضنا. الحقيقة، أن الأمر بدا إذن، أنهم سيُحوِّلون كل شيء إلى صحراء هنا. كثير ممن هربوا حينئذٍ، لم يعودوا قطُّ. ولكنَّ آخرين جددًا استقروا مكانهم. يجب أن نعيش».

تمتم جيرالت: «هذه حقيقة. يجب أن نعيش. ليس مهمًّا ما كان. يجب أن نعيش...».

- أنتم على حق. حسنًا، تفضلوا خذوا هذا، ارتدوه. لقد خِطْتُ لكم السروال، ورقَّعته، وسيكون كالجديد. إنه مثل هذه الأرض يا سيد جيرالت. لقد مزَّقتها الحرب وحرثتها كحديد المسحاة، شقَّتْها وأدمتْها. ولكنها الآن ستكون كالجديدة. وستُخصَّب على نحو أفضل. حتى أولئك الذين أفسدوا في الأرض، سيسخرونها نحو الخير، وسيخصِّبون التربة. في الوقت الراهن الحرث صعب، فالعظام والحديد في كل مكان في الحقول، بيد أن الأرض يمكنها التغلب حتى على الحديد.

- ألا تخشون أن النيلفجارديين... و**السود** سيعودون؟ لقد وجدوا طريقًا خلال الجبال...

- نعم، نحن نخافهم. وماذا؟ أنقعد ونبكي ونرتجف؟ يجب أن نعيش. وما سيكون.. سيكون. وذاك الذي قُدِّر علينا، هو أصلًا محتوم، على أي حال.

- هل تؤمن بالقدر؟

- وكيف لي ألا أومن به؟ بعد أن التقينا على الجسر في الغيضة، عندما أنقذتموني من الموت؟ أوه يا سيد ويتشر، سترون، ستسقط زوجتي ذهبية الخدين عند رجليكم...

- دعكَ من هذا. أقول بصراحة، أنا مدين لكَ أكثر مما أنت لي. هناك، على الجسر... هذه مهنتي يا يورجا، هذه حرفتي. أساسًا، أنا أحمي الناس مقابل المال. وليس بسبب طيبة قلبي. اعترفْ يا يورجا، سمعتَ ما يحكي الناس عن معشر الويتشر؟ وعن أنهم لا يعلمون من الأسوأ، هم أم الوحوش التي يقتلونها...

- هذا غير صحيح، أيها السيد، لا أدري لماذا تقولون مثل هذا الكلام. كيف، أليست لي عينان؟ إذن، أنتم مخلوق من الطينة نفسها المخلوقة منها تلك المعالِجة...

- فيسِنَّا...

- لمْ تخاطبنا بالاسم. لكنها هُرِعَتْ خلفنا مسرعة، لأنها كانت تعلم أننا في حاجة إليها، سبقتْنا في المساء، واعتنتْ بكم في الوقت المناسب، ولم تكدْ تنزل من السرج. آه يا سيد، لقد أضنتها العناية برِجلكم، وقد اهتزَّ الهواء من ذلك السحر، أما نحن فمن شدة الخوف هربنا إلى الغابة. وهي بعد ذلك نزفت من أنفها. يبدو أن السحر ليس بالشيء الهيِّن. أوه، من حرصها عليكم كانت تضمدكم، حقًّا، مثل...

صرَّ جيرالت على أسنانه: «مثل أم».

- أجل. أحسنتم القول. وعندما غفوتم...

- نعم، ماذا يا يورجا؟

- كانت تقف على رجليها بمشقة بالغة، وكانت شاحبة كقماشة خام. لكنها جاءت وسألت، أكان أحد منا يحتاج المساعدة. لقد شفَتْ يد صانع القطران التي هشمها جذع شجرة. ولم تأخذ قرشًا واحدًا، بل تركتِ الأدوية للعلاج. لا يا سيد جيرالت، أنا أعلم أنه في العالم تدور أقاويل مختلفة عن معشر الويتشر وعن السحرة. لكنْ ليس عندنا. نحن، أهل سودين الأعلى، وسكان **ما وراء النهر**، نعلم أفضل. نحن مدينون للسحرة بالكثير، فكيف لا نعلم كيف يكونون. ذكراهم عندنا ليست في الثرثرة والقيل والقال، ولكنها محفورة في الحجر. سترون أنتم أنفسكم، لكنْ فلتنتهِ الأيكة أولًا. وفي المحصلة أنتم أنفسكم تعلمون ذلك أفضل. إنها معركة سمع بها العالم بأكمله، لم يكدْ يمضي عام عليها. لا بدَّ أنكم سمعتم بها.

تمتم الويتشر: «لم أكن هنا منذ عام. كنت في الشمال. لكنني سمعتُ بها... المعركة الثانية لأجل سودين...».

- أصبتم. سترون سترون تلًا وصخرة. قديمًا، كنا نسمي هذا المرتفع، ببساطة، جبل كانيا، لكنَّ الجميع حاليًّا يطلقون عليه اسم جبل السحرة أو جبل الأربعة عشر. لأنهم كانوا اثنين وعشرين على هذا المرتفع، اثنان وعشرون ساحرًا هناك ثبتوا في المعركة، وسقط منهم أربعة عشر. كانت معركة فظيعة يا سيد جيرالت. انتفضتِ الأرض وانسكبتِ النيران كأنها مطر من السماء، وضربتِ البروق... وتكاثرتِ الجثث بكثافة. لكنَّ السحرة هزموا **السود**، كسروا **القوة** التي قادتهم. وسقط منهم في هذه المعركة أربعة عشر. أربعة عشر ضحوا بحيواتهم... ماذا أيها السيد؟ ما بكم؟

- لا شيء. استمر في الحديث يا يورجا.

- كانت المعركة رهيبة، ولولا هؤلاء السحرة من المرتفع، فمن يدري، ربما لم نكن لنتحدث هنا اليوم، ونحن عائدون إلى المنزل، فالمنزل أيضًا كان يمكن ألا يكون، وأنا، وربما أنتم أيضًا... نعم، هذا بفضل السحرة. أربعة عشر منهم ماتوا وهم يدافعون عنًّا، نحن أهل سودين و**ما وراء النهر**. أها، ربما أيضًا قاتلَ هناك آخرون، من الجنود والنبلاء ومن الفلاحين، من استطاع أخذ مذراة أو فأسًا، أو على الأقل عصا... وقف الجميع وقفة شجاعة وسقط عدد منهم. لكنَّ السحرة... ليس عملًا

فذًّا أن يموت الجندي، فهذه مهنته أصلًا، والحياة قصيرة جدًّا. ولكنَّ السحرة يمكنهم العيش طويلًا كما يشاؤون. ولكنهم لم يترددوا.

كرَّر الويتشر وهو يحك جبينه: «لم يترددوا، لم يترددوا. وأنا كنت في الشمال...».

- ما بكم أيها السيد؟

- لا شيء.

- نعم... إننا، نحن الجميع من هذه المنطقة، نأتي بالزهور إلى هناك الآن، إلى هذا المرتفع، وفي شهر مايو، تُشعَل النار دائمًا هناك في بيليتين. وسوف تُشعَل إلى أبد الآبدين. وسيبقى هؤلاء الأربعة عشر خالدين في ذاكرة الناس. وإن مثل هذه الحياة في الذاكرة... إنها... شيء أكثر! أكثر يا سيد جيرالت!

- أنت محق يا يورجا.

– كل طفل عندنا يعرف أسماء هؤلاء الأربعة عشر، المنقوشة على الحجر الذي ينتصب على قمة المرتفع. لا تصدقون؟ استمعوا: أكسل الذي يُدعى رابي، تريس ميريجولد، أتلان كيرك، فانيل من بروج، داجوبيرت من فولي...

- توقف يا يورجا.

- ما بكم أيها السيد؟ أنتم شاحب كالموت!

- لا شيء.

7

مشى تحت الجبل ببطء شديد وبحذر، مصغيًا إلى عمل الأوتار والعضلات في الجرح المعالَج بطريقة سحرية. ومع أن الجرح بدا أنه التأم كليًّا، كان لا يزال يحمي ساقه ولم يخاطرْ بإسناد ثقل جسده كله عليها. كان الجو حارًّا، وهزَّت رائحة العشب رأسه فذُهِلَ، لكنَّ ذهوله كان مبهجًا.

لم تكنِ المسلة منتصبة في النقطة المركزية من قمة المرتفع المسطحة، بل كانت متراجعة في العمق، إلى ما وراء دائرة الحجارة الناتئة، ولو أنه جاء إلى هنا قبل غروب الشمس مباشرة، لكان ظِلُّ الشاهد القائم، الساقط على الدائرة، حدَّد قطره الدقيق وأشار إلى الاتجاه الذي كانت فيه وجوه السحرة موجهة في أثناء المعركة. نظر جيرالت عند هذا الاتجاه، نحو الحقول التلية التي لا حدود لها. إذا كانت لا تزال هناك عظام الذين سقطوا قتلى، وبالتأكيد قد كانت هناك، فقد خبَّأها العشب الكثيف. حام باز هناك، دائرًا دورات هادئة بجناحيه الممددين باتساع. هذه هي النقطة المتحركة الوحيدة وسط المنظر الطبيعي الجامد في القيظ اللاهب.

كانت المسلة عريضة عند قاعدتها، وكي يمكن احتضانها، فلا بدَّ من أن يتحد أربعة، أو خمسة أشخاص على الأقل، ممسكين بعضهم كفًّا بكف. وكان من الواضح أن جرَّ المسلة إلى أعلى التل لم يكن ممكنًا دون الاستعانة بالسحر. كان سطح الشاهد القائم الموجه نحو الدائرة الحجرية مشذَّبًا ليصير أملسَ، وظهرت علامات رونية منقوشة عليه: أسماء أولئك الأربعة عشر الذين لقوا مصرعهم.

اقتربا ببطء، وفي الواقع، كان يورجا محقًّا. عند سفح المسلة كانت زهور ملقاة -زهور حقل عادية- خشخاش، ترمس، خبازة، وآذان الفأر.

أسماء الأربعة عشر.

قرأها ببطء، من الأعلى، وظهرت أمام عينيْه وجوه من عرفهم.

تريس ميريجولد: ذات الشعر الكستنائي، المرحة، تقهقه لأي سبب كان، وتبدو كمراهقة. كان يودُّها، وهي تودُّه أيضًا.

لافدبور من موريفيل: الذي كان على وشك الدخول في عراك معه، ذات مرة في فيزيما، عندما أمسك بساحر وهو يتلاعب بالنرد خلال اللعبة مستعينًا بالتحريك الذهني الدقيق.

ليتًّا نيد، وتُدعَى كورال: أُخِذَ هذا اللقب من لون أحمر الشفاه الذي كانت تستخدمه. نمَّت ليتا عليه ذات يوم أمام الملك بيلوهون، إلى حد أنه زُجَّ به في الزنزانة أسبوعًا كاملًا. وعندما أُطلِق سراحه، ذهب إليها ليسألها عن الأسباب. ولم يدرِ متى حطَّ على سريرها، وقضى هناك الأسبوع الثاني.

جورازد المُسنُّ: الذي أراد أن يدفع له مئة مارك مقابل تمكينه من فحص عينيه، وعرض ألفًا مقابل إمكانية إجراء تشريح «ليس بالضرورة اليوم»، كما عبَّر عن ذلك حينئذٍ.

بقيت ثلاثة أسماء.

سمع حفيفًا خفيفًا خلفه، فاستدار.

كانت حافية، تلبس ثوبًا بسيطًا من الكتان. وترتدي إكليلًا مجدولًا من زهور شاش القاضي، على شعرها الأشقر الطويل، المتساقط بانسيابية على كتفيها وظهرها.

قال: «مرحبًا».

رفعتْ نظرها نحوه بعينين باردتين زرقاوين، لكنها لم تُجِبْ.

لاحظ أنها لم تلفحها الشمس بالسمرة. كان الأمر غريبًا الآن، في نهاية الصيف، عندما تكون فتيات القرى عادة قد لفحتهنَّ الشمس باللون البني، وكان لون وجهها وذراعيها المكشوفتين ذهبيًّا قليلًا.

- هل أحضرتِ الزهور؟

ابتسمتْ وهي تسبِّل رموشها. أحسَّ بالبرد. تجاوزتْه دون أن تنبسَّ بكلمة، وركعتْ عند قدمي الشاهد القائم، لامسةً الحجر براحة يدها.

قالت، وهي ترفع رأسها: «أنا لا أُحضِر الزهور. ولكنَّ هذه الملقاة هنا، هي لي».

نظر إليها. كانت راكعة بطريقة تحجب عن ناظريْه الاسم الأخير المنقوش على حجر الشاهد القائم. كانت زاهية لدرجة غير طبيعية، زاهية بإشراق مضيء على خلفية الصخرة القاتمة.

سأل ببطء: «من أنتِ؟».

ابتسمت، فهبَّ منها نسيم بارد.

- ألا تعلم؟

فكَّرَ، ناظرًا إلى زرقة عينيها الباردة: أعلم.. نعم، يُخيَّل إليَّ أنني أعلم.

كان هادئًا. ولم يكنْ بمقدوره أن يكون غير ذلك. لم يعدْ بمقدوره.

- كنت دائمًا متشوقًا لمعرفة كيف تبدين أيتها السيدة.

أجابت بهدوء: «ليس عليكَ أن تخاطبني بهذه الطريقة. إننا نعرف بعضنا بعضًا منذ سنين».

أكد: «نعرف بعضنا بعضًا. يقولون إنك تتبعينني خطوة خطوة».

- أتبعكَ. ولكنكَ لم تكن تنظر خلفكَ قطُّ. إلى هذا اليوم. اليوم، أول مرة تلفَّتَّ فيها خلفكَ.

التزم الصمت. لم يكن لديه ما يقوله. كان متعبًا.

وأخيرًا سأل ببرود ودون شعور: «كيف... كيف سيحدث هذا؟».

قالت وهي تحدق إلى عينيه مباشرة: «سآخذكَ من يدكَ وأقودكَ خلال المرج. في الضباب والبرد والبلل».

- وبعد ذلك؟ وما سَيَلي ذلك بعد الضباب؟

ابتسمت: «لا شيء. أبعد من ذلك لن يكون شيء».

قال: «سرتِ ورائي خطوةً خطوةً. وأمسكتِ بالآخرين، أولئك الذين مررتِ بهم في الطريق. لماذا؟ كان الغرض من ذلك أن أبقى وحدي، أليس كذلك؟ أن أبدأ أخيرًا في الشعور بالخوف؟ سأعترف لكِ بالحقيقة. كنتُ دائمًا أخاف منكِ، دائمًا. لم أنظرْ إلى الوراء بسبب الخوف. الرعب من أن أراكِ تسيرين خلفي تمامًا. كنت خائفًا دائمًا، ومضتْ حياتي في الخوف. كنت فزعًا... ولا أزال حتى يومنا هذا».

- حتى يومنا هذا؟

- نعم. حتى يومنا هذا. ها نحن نقف وجهًا لوجه، ولا أشعر بالجزع. لقد سلبتِ كلَّ شيء مني. سلبتِني أيضًا الخوف.

- لماذا إذن، عيناكَ ملآنتان بالرهبة يا جيرالت من ريفيا؟ يداكَ ترتجفان، وأنت شاحب. لماذا؟ ألهذا الحد تخاف جدًّا الاسم الرابع عشر الأخير، المنقوش على المسلة؟ سأقول لكَ ما يكون هذا الاسم، إن كنتَ ترغب في ذلك.

- لستِ مضطرة إلى ذلك. أنا أعلم ما هذا الاسم. الدائرة تنغلق، والثعبان يغرس أسنانه في ذيله. يجب أن يكون الأمر على هذا النحو. أنتِ وهذا الاسم. والزهور. من أجلها ومن أجلكِ. الاسم الرابع عشر، المنقوش على

الحجر، اسم نطقتُ به في منتصف الليل وفي سطوع الشمس، في الصقيع، والقيظ، والمطر. لا، أنا لا أخاف أن أنطق به الآن.

- انطقْ، إذن.

- ينيفر... ينيفر من فينجربيرج.

- والزهور من أجلي.

قال بمشقة: «فلننتهِ من هذا. خذ... خذيني من يدي».

نهضتْ واقتربتْ منه، فأحسَّ بالبرد المنبعث منها، البرد الحاد والنافذ.

قالت: «ليس اليوم. يومًا ما، نعم. لكنْ ليس اليوم».

- سلبتِني كل شيء...

قاطعتْه: «لا. أنا لا آخذ أي شيء. أنا لا أسلبكَ شيئًا. أنا أقودكَ من يدكَ فحسب. لكيلا يكون أحد حينئذٍ وحيدًا. وحيدًا في الضباب... إلى اللقاء يا جيرالت من ريفيا. يومًا ما».

لم يُجبْ. استدارت ببطء ورحلت. في الضباب الذي حجب فجأة قمة المرتفع، في الضباب الذي اختفى فيه كل شيء، في الضباب الأبيض المبتل، الذي ذابتْ فيه المسلة الملقاة عند قاعدتها الزهور، والمنقوش عليها أربعة عشر اسمًا. لم يكن أي شيء، لم يكن سوى الضباب والعشب المبلل اللامع من جراء القطرات تحت رجليه، وفاحتْ رائحة العشب مذهلة، ثقيلة، حلوة إلى حد ألم الصدغين، حتى النسيان والتعب...

- سيد جيرالت! ما بكم؟ هل غفوتَم؟ قلتُ لكم أنتم لا تزالون ضعيفًا. ما الغاية من صعود قمة المرتفع؟

فركَ وجهه بيده ورمش: «غفوتُ. قد غفوتُ، اللعنة... لا شيء يا يورجا، إنه هذا اللهيب...».

- نعم، الحرارة كالجحيم... علينا أن نذهب يا سيد. هيا، تعالوا، سأساعدكم على النزول من المنحدر.

- أنا لا أشكو من شيء...

- لا شيء، لا شيء. أتساءل إذن، لماذا تترنحون في مِشيتكم. أي شيطان جعلكم تتسلقون التل في مثل هذا اللهيب؟ أردتم قراءة أسمائهم؟ كان بإمكاني أن أُعلِمكم أسماءهم كلها. ما بكم؟

- لا شيء... يا يورجا... هل فعلًا تتذكر الأسماء كلها؟
- بالتأكيد.
- سأتحقق من حالة ذاكرتك... الأخير. الرابع عشر. ما هذا الاسم؟
- يا لكم من شكَّاك. أنتم لا تصدقون شيئًا. تريدون التحقق من أنني لا أكذب؟ لقد قلتُ لكم، كل طفل عندنا يعرف هذه الأسماء. تسألون عن الأخير؟ حسنًا، الأخير هو يول جريثين من كاريراس. لعلكم كنتم تعرفونه؟

مسح جيرالت جفنه بمعصمه، ورنا إلى الشاهد القائم. إلى الأسماء كلها.

قال: «لا. لم أكن أعرفه».

8

- سيد جيرالت؟
- نعم يا يورجا؟

حنى التاجر رأسه وظل صامتًا بعض الوقت، وهو يلفُّ على إصبعه بقايا الرباط الرفيع الذي كان يصلح به سرج الويتشر. وأخيرًا رفع جسده قليلًا، وضرب بقبضته ضربة خفيفة ظهر الغلام الذي يقود العربة.

- امتطِ الحصان الخفيف الحمل يا بوكفيت. أنا سأقود العربة. اجلسوا معي على مقعد الحوذي يا سيد جيرالت. وأنت لِمَ تحوم حول العربة يا بوكفيت؟ قُدُمًا، اقفز إلى الأمام! نحن نريد هنا أن ندردش، لا نحتاج إلى أذنيك هنا!

صهلتْ روش التي كانت تدب خلف العربة، وراحتْ تشد الحبل الغليظ، مُظهِرة غيرتها وهي ترى فرسَ بوكفيت تخبُّ على الطريق العريض.

شأشأ يورجا الفرس وهمزها بالزمام برفق.

قال متململًا: «نعم. هكذا يجب أن يكون الأمر أيها السيد. قد وعدتُكم... حينئذٍ على الجسر... قدمتُ لكم وعدًا...».

قاطعه الويتشر بسرعة: «لا داعي لذلك. لا داعي يا يورجا».

قال التاجر بحدة: «بل ثمة داعٍ. كلمتي ليست دخانًا. ما أجده في المنزل، ولم أتوقعه سيكون لكم».

- دعنا من ذلك. لا أريد شيئًا منكَ. لقد سُوِيَّ الحساب بيننا.

- لا أيها السيد. إذا وجدتُ شيئًا على هذا النحو في المنزل، فهذا يعني أنه قدَر. وإذا سخرنا من القدر، وإذا كذبنا بسبب ذلك، فهو سيعاقبنا عندئذ عقابًا قاسيًا.

فكَّر الويتشر: أعلم، أعلم.

- لكنْ... يا سيد جيرالت...

- ماذا يا يورجا؟

- لن أجدَ شيئا في المنزل لا أتوقع وجوده. لا شيء، وبالتأكيد ليس ذلك الذي كنتم تأملون وجوده. يا سيد ويتشر اسمعوا هذا: ذهبية الخدين، امرأتي، لا يمكنها أن تنجب أطفالًا بعد آخر طفل، ومهما كان الأمر، فلن يكون طفلٌ آخرُ في المنزل. يبدو لي أن الحظ لم يحالفكم.

لم يُجب جيرالت.

التزم يورجا الصمت أيضًا. وشخرتْ روش مجددًا، وهزت رأسها.

قال يورجا فجأة وبسرعة، ناظرًا إلى الطريق العريض أمامه: «لكنْ لي ولدان. اثنان، صحتهما جيدة وقويان، وليسا غبييْن. وإني لا بدَّ من أن أقتادهما إلى حِرفيٍّ ما يُعلِّمهما أصول مهنته. وفكرتُ أن يكون أحدهما معي ليتعلم التجارة. وثانيهما...».

ظلَّ جيرالت صامتًا.

أدار يورجا رأسه ورمقه: «ماذا تقولون؟ طلبتم بوعد ونحن على الجسر. كنتم تقصدون من وراء ذلك إيجاد طفل لحرفتكم الويتشرية، إن مقصدكم لم يكن غير هذا. لماذا يجب أن يكون هذا الطفل غير متوقَّع؟ ألا يمكن أن يكون متوقعًا؟ لديَّ اثنان، فليكن أحدهما إذن تلميذًا ليصير ويتشرًا. الكار هو الكار. لا أفضل، ولا أسوأ».

تكلَّم جيرالت بهدوء: «أنت متأكد أنه ليس أسوأ؟».

ضيِّق يورجا عينيه.

- الدفاع عن الناس وإنقاذ حياتهم، أهذا الأمر في رأيكم سيئ أم جيد؟ هؤلاء الأربعة عشر، على المرتفع؟ أنتم، على ذلك الجسر؟ ماذا فعلتم؟ خيرًا أم شرًّا؟

قال جيرالت بمشقة: «لا أعلم. لا أعلم يا يورجا. أحيانًا، يُخَيَّل إليَّ أنني أعلم. وفي أحيان أخرى تراودني الشكوك. هل تريد أن يكون لدى ابنك مثل هذه الشكوك؟».

قال التاجر بجدية: «فليكن لديه. وماذا لو كان لديه؟! فهذا تحديدًا أمر إنساني وجيد».

- ماذا؟

- الشكوك. فقط الشر وحده يا سيد جيرالت لا تأتيه الشكوك أبدًا. ولن يهرب أحد من قدَره.

لم يجب الويتشر.

انعطف الطريق تحت جدار جرفي عالٍ، تحت أشجار بتولا معوجَّة، متشبثة بطريقة غير مألوفة بمنحدر رأسي. كانت أوراق البتولا صُفْرًا. فكَّر جيرالت: إنه الخريف، الخريف مجددًا. كان النهر متلألئًا في الأسفل، ولاح حاجز المحرس الجديد تمامًا، وأسطح الأكواخ، وأعمدة المرسى المحسنة. انتشر صرير رافعة الملفاف. وصلتِ العبَّارة إلى الشاطئ، مدحرجة الأمواج أمامها، وراشقة الماء بمقدمتها المفلطحة، وجارفة القش وأوراق الشجر العائمة على السطح، الراكدة في طبقة وسخة من الغبار. كانت الحبال التي تشدها الناقلات تُحدِث صريرًا. وعلا صخب الجموع المحتشدة على الشاطئ، كان كل شيء في هذا الضجيج: صراخ النساء، وشتائم الرجال، وعويل الأطفال، وجؤار المواشي، وصهيل الخيول، وثغاء الأغنام. موسيقى خوف جهيرة ورتيبة.

صرخ خيال: «ابتعدوا! ابتعدوا وتراجعوا يا دم الكلاب!».

كان رأسه ملفوفًا بقماشة ملطَّخة بالدم. وكان الحصان مغمورًا حتى بطنه، هائجًا، وقاذفًا قائمتيه الأماميتين عاليًا، وناثرًا الماء. في المرسى صراخ وصياح؛ كان جنود الدروع يدفعون الجموع بعيدًا، بوحشية، ويضربونهم بمقابض الرماح، كيفما اتفق.

زمجر الخيال، ملوِّحًا بسيفه: «ابتعدوا عن العبارة! الجيش فقط! ابتعدوا وإلا سأهشم رؤوسكم!».

شد جيرالت زمام الفرس وكبح جماحها وهي ترقص عند حافة الأخدود تمامًا.

كان جنود مدججون بالسلاح الثقيل يَعْدون خلال الأخدود على متون خيلهم وسط قعقعة السلاح والدروع، مثيرين سحبًا من الغبار، حامين ذوي الدروع الراكضين من الخلف.

- جيراااالت!

نظر إلى الأسفل. في عربة متروكة مزاحة عن الطريق وملأى بأقفاص خشبية، راح رجل نحيل يقفز ويلوِّح بيديه وكان يرتدي معطفًا أحمر كرزيًّا وقبعة عليها ريشة بلشون. وفي الأقفاص كان دجاج وإوز يرفرف ويزعق.

- جيرالت! هذا أنا!

- ياسكير! تعالَ إلى هنا!

زمجر الخيَّال في المرسى، وكان رأسه مضمدًا: «ابتعدوا، ابتعدوا عن العبَّارة! العبَّارة للجيش فقط! إن أردتم الذهاب إلى ذلك الشاطئ يا ذيول الكلاب، فهيا إلى الفؤوس وإلى الغابة، واصنعوا الطوافات! العبارة فقط للجيش!».

شهق الشاعر وهو يتسلق كتف الأخدود. كان معطفه الأحمر الكرزي مغطى بما يشبه الثلج، أو ريش الطيور: «بحق الآلهة يا جيرالت. أترى ما يحدث؟ لا ريب أن هؤلاء الذين من سودين قد خسروا المعركة، وبدأ التراجع. ماذا أقول.. أي تراجع؟! إنه فرار، هو ببساطة فرار مذعور! ولا بدَّ لنا نحن من الهروب أيضًا يا جيرالت. إلى ضفة ياروجا تلك...».

- ماذا تفعل هنا يا ياسكير؟ من أين أتيت؟

صرخ الشاعر المغني: «ماذا أفعل؟ أما زلتَ تسأل؟ أنا أهرب مثل الجميع، طوال النهار، وأنا أحوم مسرعًا في هذه المركبة! في الليل سرق أحد أبناء العاهرات حصاني! جيرالت، أتوسل إليك، أخرجني من هذه الجحيم! أقول لك، إن النيلفجارديين يمكنهم أن يكونوا هنا في أيِّ لحظة! من لا يجعل نهر ياروجا حاجزًا بينه وبينهم، سيقضي تحت السكين. تحت السكين، هل تفهم؟

- لا تهلع يا ياسكير.

في الأسفل، في المرسى، صهيل خيول تُجر بالقوة إلى العبَّارة، وهي تخبط بحوافرها الألواح الخشبية. صراخ. غليان. بقبقة مياه غاصتْ فيها العربة المدفوعة، وخوار ثيران مبرزة خُطُمها فوق السطح. شاهد جيرالت كيف دارت البُقَج والصناديق مع التيار، واصطدمت بجانب العبارة، ثم جرت بعيدًا. صخب، شتائم. في الأخدود سحابة غبار، وكدْف.

جأر الرجل المضمَّد وهو يقتحم حشد الناس بحصانه: «وفق الدوْر! النظام يا أبناء الكلبة! وفق الدوْر!».

تأوه ياسكير وهو يمسك بالرِّكاب: «جيرالت. أترى ما يحدث هناك؟ لن نكون قادرين على أن نبلغ هذه العبَّارة أبدًا. الجنود يستخدمونها لنقل ما يمكنهم نقله، ثم يحرقونها كي لا تخدم النيلفجارديين. هكذا تُسيَّر الأمور عادة، أليس كذلك؟».

هز الويتشر رأسه: «هذا صحيح. هكذا تُسيَّر الأمور عادة. لكنني لا أفهم من أين يأتي هذا الهلع؟ هل هذه الحرب الأولى؟ ألم يكن غيرها؟ كما العادة، فإن فريقيِ المَلِكيْن يتقاتلان، وبعد ذلك يتصالح الملكان ويوقِّعان على معاهدة، ويشربان حتى الثمالة لهذه المناسبة. بالنسبة إلى أولئك الذين يكسرون أضلاعهم في المرسى، في هذه الهنيهة، لن يتغير شيء من حيث المبدأ. فمن أين كل هذه العجلة العنيفة، إذن؟».

نظر إليه ياسكير بإمعان، دون أن يترك الرِّكاب.

قال: «أظن أن لديك معلومات خاطئة يا جيرالت. أو أنكَ لا تستطيع فهم معناها. هذه ليست حربًا عادية من أجل وراثة العرش، أو من أجل قطعة أرض صغيرة. هذه ليست معركة بين إقطاعيَّيْن يراقبها الفلاحون دون أن ينقطعوا عن حش العشب وتجفيفه».

- حسنًا إذن، ما الأمر؟ اغمرْني بما تيسَّر من نور معرفتك، لأنني في الواقع لا أعلم ما المقصود. وليكنِ الكلام بيننا حصرًا، الأمر في المحصلة لا يهمني كثيرًا، ولكنني أرجو أن توضحه.

قال الشاعر بجدية: «لم يُعرف مثيلًا لهذه الحرب قطُّ. فجيوش نيلفجارد لا تترك خلفها سوى الأرض المحروقة والجثث. حقول كاملة من الجثث. هي حرب للإفناء، للإفناء الكامل. نيلفجارد ضد كل شيء. فظائع...».

قاطعه الويتشر: «لم تقمْ حرب، ولن تقوم، دون فظائع. أنت تبالغ يا ياسكير. إنها مثل هذه العبَّارة: هكذا تسير الأمور عادة. ويمكنني القول إن ذلك تقليد عسكري. فمنذ بدء الخليقة، كانت الجيوش التي تزحف قاطعة البلاد تقتل وتنهب وتحرق وتغتصب، وليس بالضرورة وفق هذا الترتيب. منذ بدء الخليقة، والفلاحون خلال الحرب يختبئون في الغابات مع نسائهم وممتلكاتهم اليدوية، وعندما ينتهي كل شيء، تجدهم يعودون...».

- ليس في هذه الحرب يا جيرالت. بعد هذه الحرب، لن ترى أحدًا يعود ولن تجد مكانًا يمكن العودة إليه. لا يترك نيلفجارد خلفه سوى رماد الحرائق، والجيوش تسير في صفوف متراصة، وتكتسح الجميع. المشانق والأوتاد تمتد أميالًا على طول الطرق الريفية، والدخان يتصاعد في السماء طويلًا طول خط الأفق. قلتَ، منذ بدء الخليقة لم يحدث شيء مثل هذا؟ أجل، لقد أصبتَ. منذ بدء الخليقة، خليقتنا. فكما يبدو، فإن النيلفجارديين قد جاؤوا من وراء الجبال لتدمير عالمنا.
- هذا لا معنى له. من يمكنه أن يكون حريصًا على تدمير العالم؟ لا تُشَنُّ الحروب من أجل التدمير. الحروب تُشُنُّ لسببين. أولهما السلطة، وثانيهما المال.
- لا تتفلسفْ يا جيرالت! ما يحدث لن تغيره بالفلسفة! لماذا أنت لا تسمع؟ لماذا لا ترى؟ لماذا لا تريد أن تفهم؟ ثقْ بي، نهر ياروجا لن يُوقف النيلفجارديين. في الشتاء، عندما يتجمد النهر، سيواصلون التوغل قدُمًا. أقول لك، لا بدَّ من الهرب، الهرب إلى الشمال، فربما لن يصلوا إلى هناك. لكنْ حتى لو لم يصلوا إلى هناك، فلن يعود عالمنا كما كان أبدًا. جيرالت، لا تتركني هنا! لن أكون قادرًا على فعل شيء وحدي! لا تتركني!

انحنى الويتشر، وهو على سرج فرسه: «لا بدَّ أنكَ قد جُنِنْتَ يا ياسكير. لا بدَّ أنكَ قد جننت من الخوف، إن سمحت لنفسكَ بالاعتقاد أنني سأتركك. هاتِ يدكَ، ثِبْ إلى الحصان. ليس لديكَ ما تبحث عنه هنا، ولن تتمكن من حشر نفسكَ في العبارة، على أي حال. سآخذكَ إلى أعلى النهر، سنبحث عن قارب أو طوف».

- سوف يحيط بنا النيلفجارديون. لقد أصبحوا على مقربة منا. أرأيتَ هؤلاء الخيَّالة؟ يبدو واضحًا أنهم قادمون مباشرة من المعركة. لنذهب إلى أسفل النهر تجاه مصب نهر إينا.

- كُفَّ عن النعيق. سنفلت، وسترى ذلك. في أسفل النهر أيضًا تهدِج جموع الناس، وعند كل عبَّارة سيكون الأمر كما هو هنا تمامًا، وربما قد استولوا الآن على جميع القوارب أيضًا. نذهب إلى الأعلى، عكس التيار، لا تخفْ، سأجعلك تعبُر ولو على جذع شجرة مقطوع.

- ذلك الشاطئ يكاد لا يُرى!

- لا تتذمر. قلت سأجعلك تعبُر.

- وأنت؟

- اركب الفرس. سنتحدث في الطريق. ها، يا للشيطان، أي شيء إلا أن يكون هذا الكيس معك! هل تريد أن ينكسر ظهر روش؟

- أهذه روش؟ لقد كانت روش بُنيَّة حمراء، وهذه كستنائية.

- أي حصان لي يُسمى روش. أنت تعرف ذلك جيدًا، ولا تشغلْني بالكلام. قلتُ أبعِدْ عني ذلك الكيس. ماذا لديك فيه بحق الجحيم؟ ذهبٌ؟

- مخطوطات! أشعار! وبعض الطعام...

- ألقِ به في النهر. ستكتب أشعارًا جديدة. أما الطعام فسأقاسمك إياه.

أبدى ياسكير على وجهه تعابير مؤسفة، لكنه لم يفكر كثيرًا، وقذف الصرة إلى الماء بقوة. وثب على ظهر الفرس، وثبَت واضعًا نفسه على الخرجين، وتمسَّك بحزام الويتشر.

حثَّه بقلق على الإسراع: «لننطلق، لننطلق. علينا ألا نضيِّع الوقت يا جيرالت، ولنمرَّ بالغابات، قبل أن...».

- توقف يا ياسكير، لأن الهلع الذي أنت فيه سيبدأ بالانتقال إلى روش.

- لا تسخرْ. لو أنكَ رأيتَ ما رأيتُه أنا...

- اخرسْ، تبًّا لك. إنا سائرون، أريد أن أرتب لك أمر العبور قبل حلول الغسق.

- لي؟ وأنت؟

- لديَّ عمل في هذه الجهة من النهر.

- أظن أنكَ فاقد العقل يا جيرالت. قاسية الحياة عليكَ؟ أيُّ أعمال لديك؟

- هذا ليس من شأنكَ. سأذهب إلى سينترا.

- إلى سينترا؟ سينترا لم تعدْ قائمة.

- ماذا تثرثر؟

- سينترا لم تعدْ قائمة. أضحتْ رمادًا وركامًا. النيلفجارديون...

- ياسكير، ترجَّل!

- ماذا؟

- ترجَّل!

استدار الويتشر بعنف. نظر التروبادور إلى وجهه، ثم طار هابطًا من الفرس إلى الأرض، تراجع خطوة، وتعثر.

ترجَّل جيرالت ببطء. ورمى الزمام من فوق رأس الفرس، وقف لحظة مترددًا، ثم مسح وجهه بكفه المندسَّة في القفاز. جلس على حافة قعرة، تحت شجيرة قرانيا ممتدة لها فروع حمر دموية.

قال: «تعالَ هنا يا ياسكير. اجلس وحدثني عما يجري في سينترا؟ كل شيء».

جلس الشاعر.

بدأ كلامه بعد لحظة صمت: «لقد دخل النيلفجارديون خلال الممر الجبلي. كانوا آلافًا. حاصروا جيش سينترا في وادي مارنادال. ووقعتْ معركة استمرَّت طوال اليوم، من الفجر وحتى الغسق. هؤلاء الذين من سينترا واجهوا بشجاعة، لكنهم قُتِلُوا جماعات. سقط الملك، وعندئذ، ملكتهم...

- كالانثي.

- نعم. لم تترك مجالًا للهلع، ولم تسمحْ بأن يتشتتوا هاربين، فجمعت من حولها وحول الراية، كلَّ مَن استطاعت، ثم اخترقوا الطوق وانسحبوا إلى ما وراء النهر باتجاه المدينة. من تمكن من ذلك.

- وكالانثي؟

- دافعتْ، مع حفنة من الفرسان، عن الذين كانوا يعبُرون النهر، وحمتِ المنسحبين. وقيل إنها قاتلت كالرجال، وألقتْ بنفسها وقد جُنَّ جنونها

في قلب المعمعة. طعنتها الرماح عندما هبَّت مهاجمةً مشاة نيلفجارد. نُقِلَتْ إلى المدينة مثخنةً بالجراح. ماذا يوجد في هذه المَزادة يا جيرالت؟

- حُميًّا. هل تريد؟

- على الأرجح نعم.

- تكلم. استمر في الكلام يا ياسكير. قل كل شيء.

- المدينة، في الأساس، لم تدافع عن نفسها، ولم يحدث حصار، فلم يبقَ أحد ليقف على الأسوار. بقية الفرسان مع أُسَرهم والنبلاء والملكة... تحصَّنوا في القصر. استولى النيلفجارديون على القصر فورًا، وحطَّم سحرتهم البوابة وجعلوها وأجزاءً من الأسوار هباءً. ولم يقاوم إلا البرج الحامي الذي بدا واضحا أنه كان مؤمَّنا بقوة السحر، فقد قاوم التعاويذ النيلفجاردية. وعلى الرغم من ذلك، تمكَّن النيلفجارديون من اقتحامه. ولم يجدوا أحدًا حيًّا. لا أحد. النساء قتلن أطفالهنَّ، والرجال قتلوا النساء، وارتموا على السيوف، أو... ما بك، يا جيرالت؟

- احكِ يا ياسكير.

- أو... مثلما فعلتْ كالانثي... هوت ورأسها إلى الأسفل، من الشرفة المفرجة، من أعلى نقطة. يقال إنها طلبت أن... ولا أحد أراد ذلك. فزحفت إلى الشرفة المفرجة... و... رأسها إلى الأسفل. وعلى ما بدا فقد فُعِلَ بجسدها أشياء فظيعة. عن هذا لا أريد أن... ما بك؟

- لا شيء. ياسكير... كانت في سينترا... فتاة صغيرة. حفيدة كالانثي، لها من العمر ما يقارب عشرة أو أحد عشر عامًا. كان اسمها سيري. هل سمعتَ شيئًا عنها؟

- لا. لكن ما حدث في المدينة والقصر كان مذبحة مروِّعة، ولم يخرج منهما أحد حيًّا، إلا ما ندر. أما الذين دافعوا عن البرج الحامي، فلم ينجُ منهم أحد كما قلتُ لكَ. وجُلُّ النساء وأطفال الأُسَر المهمة كانوا تحديدًا هناك.

التزم الويتشر الصمت.

سأل ياسكير: «كالانثي هذه. هل كنت تعرفها؟».

- كنت أعرفها.

- والفتاة الصغيرة، التي سألتَ عنها؟ سيري؟

- كنتُ أعرفها أيضًا.

هبَّتِ الريح من النهر، جعدت الماء، وهزت الأغصان، فتطايرت الأوراق من الأفنان ومعها غبار لامع.

فكَّر الويتشر: الخريف، الخريف مجددًا.

نهض.

- هل تؤمن بالقدر يا ياسكير؟

رفع التروبادور رأسه ونظر إليه بعينيْن مفتوحتيْن باتساع.

- لماذا تسأل؟

- أجب.

- نعم... أومن.

- وهل تعلم أن القدر وحده لا يكفي؟ وتوجد حاجة إلى شيء ما أكثر؟

- لا أفهم.

- لست وحدك فقط. لكنَّ الأمر هو هكذا بالضبط. توجد حاجة إلى شيء ما أكثر. المشكلة تتلخص بأنني... لن يكون متاحًا لي بعد الآن معرفة ما هو.

- ما بك يا جيرالت؟

- لا شيء يا ياسكير. هيا، اركب. سنسير، حرام ضياع اليوم منا. من يدري، كم من الوقت سيستغرق بحثنا عن قارب، وسنحتاج إلى واحد أكبر. فإنني لن أترك روش.

أبدى الشاعر ابتهاجه: «أسنعبر معًا؟».

- نعم. ليس لديَّ ما أبحث عنه على هذا الجانب من النهر.

9

- يورجا!

- ذهبية الخدين!

ركضتْ من البوابة، مرفرفةً بشعرها المنفلت من تحت المنديل، متعثرة وصائحة. ألقى يورجا العنان نحو الغلام، ثم قفز من العربة إلى الأرض، وركض للقائها، أمسكها من خصرها بقوة، ورفعها من الأرض، وجعلها تلف وتدور.

- أنا هنا يا ذهبية الخدين! لقد عدتُ!

- يورجا!

- لقد عدتُ! هيا افتحي البوابة! لقد عاد رب المنزل! أوه يا ذهبية الخدين!

كانت مبللة وتفوح منها رائحة الصابون. فقد كانت تغسل كما بدا واضحًا. أنزلها إلى الأرض، ولكنها عندئذٍ لم تتركه، وكانت متشبثة ومرتجفة ودافئة.

- قوديني إلى المنزل يا ذهبية الخدين.

- أيتها الآلهة، لقد عدتَ... لم أنمِ الليالي... يورجا... لم أنمِ الليالي...

- عدتُ. آه، لقد عدتُ! ورجعتُ غنيًّا يا ذهبية الخدين. هل ترين العربة؟ هيه، أسرع، ادخل من خلال البوابة! أترين العربة يا ذهبية الخدين؟ أجيء بخيرٍ كثير، كي...

- يورجا.. لا تهمُّني الخيرات، ولا تهمُّني العربة... لقد عدتَ... بصحة جيدة... سالمًا كاملًا...

- لقد عدتُ غنيًّا، أقول. سترين حالًا...

- يورجا؟ ومن هو؟ ذلك ذو اللباس الأسود؟ أيتها الآلهة، ومعه سيف...

تلفَّت التاجر، فترجَّل الويتشر عن فرسه، وتظاهر بتعديل حزام السرج والخُرج، وقد أدار وجهه جانبًا. لم ينظر إليهما، ولم يقترب منهما.

- سأخبركِ لاحقًا. أوه، يا ذهبية الخدين، لولاه... وأين الأولاد؟ بصحة جيدة؟

- بصحة جيدة يا يورجا، بصحة جيدة. ذهبوا إلى الحقل ليصطادوا الغربان، لكنَّ الجيران سيعلمونهم أنكَ في المنزل. وسيُهرَعون قادمين في الحال، ثلاثتهم...

- ثلاثتهم؟ ماذا يا ذهبية الخدين؟ يمكنكِ...

- لا... لكنْ يجب أن أقول لكَ شيئًا... لن تغضب؟

- أنا؟ منكِ؟

- لقد تبنيتُ فتاةً صغيرةً يا يورجا. أخذتُها من كهنة الدرويد، يعني من أولئك الذين كانوا ينقذون الأطفال بعد الحرب... لقد جمعوا المشردين والمفقودين في الغابات... الذين كانوا على وشك الموت... يورجا؟ هل غضبتَ؟

وضع يورجا كفه على جبهته، وتلفَّت حوله. مشى الويتشر ببطء خلف العربة، يقود فرسه. لم ينظرْ إليهما، وقد ظلَّ رأسه موجَّهًا إلى الخلف.

- يورجا؟

تأوَّه التاجر: «يا أيتها الآلهة، يا آلهة! يا ذهبية الخدين... هذا شيء لم أتوقعه! في بيتي!».

- لا تغضبْ، يورجا... ستحبها، سوف ترى. البنية ذكية ولطيفة ومجتهدة... وغريبة بعض الشيء. لا تريد أن تقول من أين هي، وتبكي في الحال. لذا، فأنا لا أسألها. يورجا، أنت تعلم، كيف أردتُ دائمًا أن تكون لي ابنة... ما بك؟

قال بصوت خافت: «لا شيء. لا شيء. القدر. كان يتحدث في نومه طوال الطريق، يهذي من الحمى، ولا شيء آخر سوى القدر والقدر... بحق الآلهة... هذا يفوق أفهامنا يا ذهبية الخديْن. ليس في وسعنا إدراك ما يفكر فيه من هم مثله. وما يرون في أحلامهم؟ هذا يفوق أفهامنا...».

- أبي!!!

- نادبور! سوليك! لقد كبرتما كثوريْن! حسنًا، هيا وحدكما، إليَّ! بحيوية...

توقف إذ رأى المخلوقة الصغيرة النحيفة ذات الشعر الرمادي الأشهب، كانت تمشي خلف الولدين ببطء. نظرتِ البنية إليه، فرأى عينيْن كبيرتيْن،

خضراويْن كالعشب في الربيع، تلتمعان مثل نُجيْمتين. ثم لمح كيف تهب الفتاة الصغيرة فجأة، وتجري مثل... سمعها تصيح صياحًا رقيقًا وخارقًا.

- جيرالت!

أدار الويتشر رأسه عن الفرس بحركة رشيقة وسريعة كالبرق. وهُرِعَ لملاقاتها. نظر يورجا مفتونًا. لم يكن يظن قطُّ أن الإنسان يمكن أن يتحرك بمثل هذه السرعة.

تلاقيا في منتصف الفناء. الصبية ذات الشعر الرمادي الأشهب ترتدي ثوبًا رماديًّا. والويتشر ذو الشعرِ الأبيض وسيفه على ظهره، يلبس جلدًا أسود على كامل جسده، لامعًا بالفضة. الويتشر يقفز قفزة ناعمة، والبنية تهرول هرولة، ثم جثا الويتشر على ركبتيه، ويدا البنية الرقيقتان تُطوِّقان عنقه، وشعرها الرمادي الأشهب، كفروة الفأر، على ذراعيْه. صرختْ ذهبية الخدين بصوت أجوف. احتضنها يورجا، وشدها إليه دون أن ينبس بكلمة، وبيده الأخرى جمع الولدين وضمهما.

كررتِ الفتاة، ملتصقةً بصدر الويتشر: «جيرالت! لقد وجدتَني! كنتُ أعلم! كنتُ أعلم دائمًا! كنت أعلم أنك ستجدني!».

قال الويتشر: «سيري».

لم يرَ يورجا وجهه الذي كان مغطى بالشعر الرمادي الأشهبَ. شاهد يديْن في قفازيْن سوداويْن تضغطان على ظهر الفتاة وكتفيها.

- لقد وجدتَني! أوه، جيرالت! كنت أنتظر طول الوقت! الوقت الطويل جدًّا بفظاعته... سنكون معًا منذ الآن، أليس كذلك؟ الآن سنكون معًا، نعم؟ أخبرني، جيرالت! إلى الأبد! قل!

- إلى الأبد يا سيري.

- تمامًا كما قالوا! جيرالت! تمامًا كما قالوا... أنا قدرك؟ قل! أنا قدرك؟

رمق يورجا عينيِ الويتشر، فتفاجأ جدًّا. سمع نشيج ذهبية الخدين الخفيض، وأحسَّ بارتِعاش ذراعيها. نظر إلى الويتشر، وانتظرَ إجابته، وهو في كامل توتره. كان يعلم أنه لن يفهم هذه الإجابة، لكنه انتظرها. ولم يطل انتظاره.

- أنت شيء ما أكثر يا سيري. شيء ما أكثر.





تُرجِمَت بدعم من برنامج الترجمة البولندي